الاستقامة

لابن تيمية

أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم

تحقيق

الدكتور محمد رشاد سالم



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه توفيق

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

قاعدة فى وجوب الاستقامة والاعتدال ، ومتابعة الكتاب والسنة ، فى باب أسماء الله ، وصفاته ، وتوحيده ، بالقول والاعتقاد ، وبيان اشتمال الكتاب والسنة على جميع الهدى ، وأن التفرق والضلال إنما حصل بترك بعضه ، والتنبيه على جميع البدع المقابلة فى ذلك بالزيادة فى النفى والإثبات ، ومبدأ حدوثها وماوقع فى ذلك من الأسماء المجملة ، والاختلاف والافتراق ، الذى أوجب تكفير بعض هؤلاء المختلفين بعضهم لبعض ، وذلك بسبب ترك بعض الحق ، وأخذ بعض الباطل وكتمان الحق ، ولَبْس الحق بالباطل .

(فصل)

الرأى المحدَث فى الأصول ، وهو الكلام المحدَث ، وفى الفروع ، وهو الرأى المحدَث فى الفقه، والتعبد المحدَث ، كالتصوف المحدَث ، والسياسة المحدَثه .

يظن طوائف من الناس أن الدين محتاج إلى ذلك ، لاسيما كل طائفة

في طريقها ، وليس الأمر كذلك ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾[سورة المائدة :٣] إلى غير ذلك من النصوص التي دلت على أن الرسول عرَّف الأمة جميع ما يحتاجون إليه من دينهم .

وقال تعالى : ﴿ وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [سورة التوبة : ١١٥] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها ، لايزيغ بعدى إلا هالك »[1] . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم / بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، تمسكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ »[2] .

ص ٢

فلولا أن سنته وسنة الخلفاء الراشدين تسع المؤمن وتكفيه عند الاختلاف الكثير لم يجز الأمر بذلك .

---

(١) جاء هذا الحديث عن العرباض بن سارية رضى الله عنه فى : المسند (ط . الحلبى) ٤/ ١٢٦ ولفظه : قد تركتكم .. وورد فى موضعين من سنن ابن ماجة : الأول ٤/١ (المقدمة ، باب اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم) عن أبى الدرداء رضى الله عنه . والثانى ١٦/١ (المقدمة ، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين) عن العرباض بن سارية رضى الله عنه .

(٢) الحديث عن العرباض بن سارية رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٢٨٠/٤ - ٢٨١ (كتاب السنة ، باب فى لزوم السنة) ؛ سنن الترمذى (ط . المدينة المنورة) ١٤٩/٤ - ١٥٠ (كتاب العلم ، باب الأخذ بالسنة) ؛ سنن ابن ماجة ١٥/١ - ١٦ (المقدمة باب فى اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين) ؛ سنن الدارمى٤٤/١-٤٥ (المقدمة ، باب اتباع السنة) ؛ المسند (ط . الحلبى)١٢٦/٤-١٢٧

وكان يقول فى خطبته : « شر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة »[(١)] .

وكان ابن مسعود يخطب بنحو ذلك كل خميس ، ويقول : « إنكم سَتُحْدِثون ويُحْدَث لكم » .

وقد قررنا فى القواعد[(٢)] فى قاعدة السنة والبدعة : أن البدعة هى الدين الذى لم يأمر الله به ورسوله ، فمن دان ديناً لم يأمر الله ورسوله به فهو مبتدع بذلك ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [سورة الشورى : ٢١][(٣)] .

ولا ريب أن هذا يُشكل على كثير من الناس لعدم علمهم بالنصوص ودلالتها على المقاصد ، ولعدم علمهم بما أُحدث من الرأى والعمل ، وكيف يُردُّ ذلك إلى السنة ، كما قال عمر بن الخطاب : رَدُّوا الجهالات إلى السنة .

---

(١) أقرب الروايات إلى الألفاظ الواردة هنا حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى : مسلم ٥٩٢/٢ (كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة) ؛ سنن ابن ماجة ١٧/١ (المقدمة ، باب اجتناب البدع والجدل) ؛ المسند (ط .الحلبى) ٣١٠/٣ ؛ سنن النسائى (بشرح السيوطى) ١٥٣/٣–١٥٤ (كتاب صلاة العيدين ، باب كيف الخطبة)

وورد الحديث بألفاظ مقاربة عن عبد الله بن مسعود فى : البخارى ٩٢/٩ (كتاب الاعتصام ، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، وانظر فتح البارى (ط . السلفية) ٢٥٢/١٣–٢٥٣ . وجاءت بعض الألفاظ المتقدمة فى الحديث السابق .

(٢) يوجد فى الأصل خرم ولم يظهر من الكلمة إلا (القـ) ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) لابن تيمية قواعد كثيرة فى السنة والبدعة ، ولكنى لم أتمكن من العثور على هذه العبارات فيها . وانظر مجموع فتاوى الرياض ، الجزء الثالث .

وقد تكلم الناسُ على أصـــناف ذلك ، كما بيّن طـوائف استغناء[١] الدين عن الكلام المحدَث ، وأن الله قد بيَّن فى كتابه بالأمثال المضروبة من الدلائل ما هو أعظم منفعة مما يحدثه هؤلاء ، وأن ما يذكرونه من الأدلة فهى مندرجةٌ فيما ذكره الله تعالى .

حتى أن الأشعرى نفسه وأمثاله قد بيَّنوا طريقة السلف فى أصول الدين ، واستغنائها عن الطريقة الكلامية ، كطريقة الأعراض ونحوها ، وأن القرآن نبّه على الأدلة ، ليس دلالته كما يظنه بعض أهل الكلام من جهة الخبر فقط .

مقالة المنكرين لدلالة نصوص الكتاب والسنة

وأين هذا من أهل الكلام الذين يقولون : إن الكتاب والسنة لا يدلان على أصول الدين بحال ، وأن أصول الدين تستفاد بقياس العقل المعلوم من غيرهما ، وكذلك الأمور العملية التى يتكلم فيها الفقهاء ، فإن من الناس من يقول : إن القياس يُحتاج إليه فى معظم/ الشريعة لقلة النصوص الدالّة على الأحكام الشرعية ، كما يقول ذلك أبو المعالى[٢] وأمثاله من الفقهاء ، مع انتسابهم إلى مذهب الشافعى ونحوه من فقهاء الحديث ، فكيف بمن كان من أهل رأى الكوفة ونحوهم ؟

ظ ٢

(١) فى الأصل : استعمال ، وضرب عليها ، والتصويب من الهامش .

(٢) وهو إمام الحرمين ، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى ، ولد بنيسابور سنة ٤١٩ ، وتوفى بها سنة ٤٧٨ . من أعظم أئمة الأشاعرة ، تتلمذ عليه الغزالى . انظر ترجمته فى : تبيين كذب المفترى ، ص ٢٧٨-٢٨٥ ؛ طبقات الشافعية ٢٤٩/٤-٢٨٢ ؛ شذرات الذهب ٣٥٨/٣-٣٦٢ ؛ وفيات الأعيان ٣٤١/٢-٣٤٣ ؛ الأعلام ٣٠٦/٤ .

فإنه عندهم لا يَثْبُت من الفقه بالنصوص إلا أقلُّ من ذلك ، وإنما العمدة على الرأى والقياس ، حتى أن الخراسانيين منْ أصحاب الشافعى ، بسبب مخالطتهم [لهم] [١] ، غلب عليهم استعمال الرأى وقلة المعرفة بالنصوص .

وبإزاء هؤلاء [٢] أهل الظاهر كابن حزم [٣] ونحوه ، ممن يدَّعى أن النصوص تستوعب جميع الحوادث بالأسماء اللغوية التى لاتحتاج إلى استنباطٍ واستخراج أكثر من جمع [٤] النصوص ، حتى تنفى دلالة فحوى الخطاب وتثبته فى معنى الأصل ، ونحو ذلك من المواضع التى يدل فيها اللفظ الخاص على المعنى العام .

والتوسط فى ذلك طريقة فقهاء الحديث ، وهى إثبات النصوص والآثار الصحابية على جمهور الحوادث ، وماخرج عن ذلك كان فى معنى الأصل ، فيستعملون قياس العلة ، والقياس فى معنى الأصل وفحوى الخطاب ؛ إذ ذلك من جملة دلالات اللفظ . وأيضا فالرأى كثيرا مايكون فى تحقيق المناط الذى لاخلاف بين الناس فى استعمال الرأى

---

(١) لهم : مكانها خرم فى الأصل وزدتها ليستقيم الكلام .

(٢) وبإزاء هولاء : فى الأصل يوجد خرم فى هذا المكان ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته .

(٣) أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى ، الإمام الظاهرى ، عالم الأندلس فى عصره ، ولد سنة ٣٨٤ وتوفى سنة ٤٥٦ . انظر ترجمته فى : نفح الطيب ٢/٢٨٣-٢٨٩ ؛ وفيات الأعيان ٣/١٣-١٧ ؛ العبر للذهبى ٣/٣٢٩ ؛ لسان الميزان ٤/١٩٨-٢٠٢ ؛ الأعلام ٥/٥٩.

(٤) فى الأصل : جميع .

والقياس فيه ، فإن الله أمر بالعدل فى الحكم ، والعدل قد يُعرف بالرأى ؛ وقد يعرف بالنص .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر »[1] ؛ إذ الحاكم مقصوده الحكم بالعدل بحسب الإمكان ، فحيث تعذّر العدل الحقيق ، – للتعذر أو التعسر فى علمه أو عمله – كان الواجب ما كان به أشبه وأمثل ، وهو العدل المقدور .

وهذا باب واسع فى الحكم فى الدماء والأموال ، وغير ذلك من أنواع القضاء ، وفيها يجتهد القضاة .

ص ٣ ونعلم أن عليا – رضى الله عنه – /كان أقضى من غيره بما أُفهم من ذلك ، مع أن سماع النصوص مشترك بينه وبين غيره .

وإنما ظن كثير من الناس الحاجة إلى الرأى المحدث ؛ لأنهم يجدون مسائل كثيرة وفروعاً[2] عظيمة لا يمكنهم إدخالها تحت النصوص ، كما يوجد

(١) الحديث عن عمرو بن العاص رضى الله عنه فى : البخارى ١٠٨/٩ (كتاب الاعتصام ، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ) ؛ مسلم ١٣١/٥–١٣٢ (كتاب الأقضية ، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ) ولفظ الحديث فيهما : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » . وجاء الحديث بلفظ آخر عن عبد الله بن عمرو عن أبيه رضى الله عنهما فى المسند (ط .المعارف) ٣٩/١١–٤٠ (رقم ٦٧٥٥) وفى مسند عمرو (ط . الحلبى) ١٩٨/٤–٢٠٥ . وقال الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه ٤١/١١ : ورواه الدارقطنى (ص : ٥١٠) والحاكم (٤ :٨٨) .

(٢) فى الأصل : وفروع ، وهو خطأ .

فى فروع من ولّد الفروع ، من فقهاء الكوفة ومن أخذ عنهم .

الرد على مقالتهم من وجوه

وجواب هذا[١] من وجوه :-

الوجه الأول

أحدها : أن كثيرا من تلك الفروع المولَّدة المقدَّرة لايقع أصلا[٢] ، وما كان كذلك لم يجب أن تدل عليه النصوص . ومن تدبر مافرّعه المولِّدون من الفروع فى باب الوصايا والطلاق والأَيْمان وغير ذلك - عَلِم صحة هذا .

الوجه الثانى

الوجه الثانى : أن تكون تلك الفروع والمسائل مبنية على أصول فاسدة ، فمن عرف السنة بيَّن حكم ذلك الأصل ، فسقطت تلك الفروع المولَّدة كلُّها .

وهذا كما فرَّعه صاحب « الجامع الكبير»[٣] ، فإن غالب فروعه كما بَلَغَنَا عن الإمام أبى محمد المقدسى[٤] أنه كان يقول : مَثَلُهُ مَثَلُ من بَنَى

---

(١) أى جواب من يقول : إن القياس يحتاج إليه فى معظم الشريعة لقلة النصوص الدالة على الأحكام الشرعية ، وجواب أهل رأى الكوفة ونحوهم الذى جاء قبل قليل ..

(٢) فى الأصل :.. المقدرة التى لاتقع أصلا . وحذف «التى» هنا يستقيم معه الكلام .

(٣) لعله كتاب « الجامع الكبير » للإمام محمد بن الحسن بن فرقد الشيبانى ، صاحب أبى حنيفة ، وقد نعته الخطيب بإمام أهل الرأى . ولد محمد بن الحسن سنة ١٣١ وتوفى سنة ١٨٩ . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ٣/٣٢٤-٣٢٥ ؛ الجواهر المضية ٢/٤٢-٤٤ ؛ تاريخ بغداد ٢/١٧٢-١٨٢ ؛ الفهرست لابن النديم (ط .فلوجل) ص ٢٠٣-٢٠٤ ؛ معجم المؤلفين ٥/ ٢٠٧-٢٠٨ ؛ الأعلام ٦/٣٠٩ .

(٤) أبو محمد تقى الدين عبد الغنى بن الواحد بن على بن سرور المقدسى الجماعيلى الدمشقى الحنبلى ، العلامة المحدث ، ولد سنة ٥٤١ وتوفى سنة ٦٠٠ . انظر ترجمته فى : الذيل لابن رجب ٢/٥ -٣٤ ، شذرات الذهب ٤/٣٤٥-٣٤٦ ؛ العبر ٤/٣١٣ ، معجم المؤلفين ٥/٢٧٥-٢٧٦ ؛ الأعلام ٤/١٦٠ .

داراً حسنة على أساس مغصوب ، فلما جاء صاحب الأساس ، ونازعه فى الأساس وقلعه – انهدمت تلك الدار .

وذلك كالفروع العظيمة المذكورة فى كتاب الأَيْمَان ، وبناها على ماكان المفرِّع يعتقده من مذهب أهل النحو الكوفيين ؛ فإن أصل باب الأيمان الرجوع إلى نية الحالف وقصده . ثم إلى القرائن الحالية الدالة على قصده ، كسبب اليمين وماهيَّجها . ثم إلى العرف الذى من عادته التكلم به ، سواء كان موافقا للغة العربية ، أو مخالفا لها ؛ فإنالأَيْمَان – وغيرها من كلام الناس بعضهم لبعض فى المعاملات ، والمراسلات ، والمصنفات ، وغيرها – تجمعها كلها دلالة اللفظ على قصد المتكلم ومراده[١] ، وذلك متنوع بتنوع اللغات والعادات .

ظ ٣ وتختلف الدلالة بالقرائن الحالية/ والمقالية . ثم إنما يستدل على مقصود الرجل إذا لم يُعرف ، فإذا أمكن [العلم] بمقصوده[٢] يقيناً[٣] لم يكن بنا حاجة إلى الشك . لكن من الأمور مالا تُقبل من قائله إرادة تخالف الظاهر ، كما إذا تعلَّق به حقوق العباد ، كما فى الأقارير[٤] ونحوها ، وهذا مقرر فى موضعه ، وليس الغرض هنا إلا التمثيل .

وإذا كان هذا أصل الأَيْـمَان ، فيقال لذلك المفرِّع : إذا كان هذا أصل قصده ، الذى هو فى أكثر المواضع يخالف مقتضى ماذكرتَه من

---

(١) فى الأصل : ومراد .

(٢) فى الأصل : فإذا أمكن بمقصوده . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٣) فى الأصل : ويقينا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) الأقارير : كذا فى الأصل . وظاهر الكلام أنه جمع : إقرار .

الجواب ، وينظر إلى القرائن الحاليّة . ومعها لا تستقيم عامة الأجوبة .

وإذا عُدم ذلك وله عرف وعادة يُتكلم بها ، وغالب عادات الناس لا ينبني على المقاييس التي وضعتها أنت ، فإذاً جواب الحالفين بمثل ما أجبتهم به ليس هو من الشريعة في غالب المواضع .

ولا يحتاج باب الأَيْـمَان إلى تفريع ؛ إذ هذه الأصول الثلاثة تضبطه ضبطاً حسناً ، لكن لابد أن يكون المفتي ممن يُحس أن يضع الحوادث على القواعد وينزِّلها عليها .

وكذلك ما فرّعوه في باب الحكم والسياسة وغيرها ، عامة ذلك مبني على أصول فاسدة مخالفة للشريعة . وهذا - والله أعلم - من معنى قول ابن مسعود : « إنكم ستحدِثون ويُحدَث لكم » . ولهذا تكثر هذه الفروع وتنتشر حتى لا تضبطها قاعدة ، لأنها ليست موافقة للشريعة . فأما الشريعة فإنها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « بُعثت بجوامع الكلم »[1] . والكلمة الجامعة هي القضيَّة[2] الكلية ، والقاعدة العامة

(١) جاء الحديث بهذه الألفاظ في عدة مواضع منها : البخاري ٩/٩١-٩٢ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : بعثت بجوامع الكلم) ونصه .. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بعثت بجوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وبينا أنا نائم رأيتني .. الحديث . وهو أيضا في : البخاري ٤/٥٤ (كتاب الجهاد ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : نصرت بالرعب مسيرة شهر) ، ٩/٣٦-٣٧ (كتاب التعبير ، باب المفاتيح في اليد) ؛ مسلم ١/٣٧١-٣٧٢ (كتاب المساجد ، باب المساجد ومواضع الصلاة) ؛سنن النسائي (بشرح السيوطي) ٦/٣ - ٤ (كتاب الجهاد ، باب وجوب الجهاد) . وجاء الحديث بلفظ : أوتيت جوامع الكلم ، في المسند (ط . المعارف) ١٣/١٣٤ ، المسند (ط . الحلبي) ٢/٥٠١ - ٥٠٢ ، وأوله : نصرت بالرعب ... الحديث .

(٢) في الأصل : الضقية ، وهو تحريف .

التى بُعث بها نبينا صلى الله عليه وسلم ، فمن فهم كَلِمَهُ الجوامع ، علم اشتمالها لعامة الفروع وانضباطها بها ، والله أعلم .

الوجه الثالث ص ٤

الوجه الثالث : أن النصوص دالة على عامة الفروع/ الواقعة ، كما يعرفه من يتحرى ذلك ويقصد الإفتاء بموجب الكتاب والسنة ودلالتها ، وهذا يعرفه من يتأمل ، كمن يفتى فى اليوم بمائة فُتيا أو مائتين أو ثلاثمائة وأكثر أو أقل ، وأنا قد جربت ذلك . ومن تدبّر ذلك رأى أهل النصوص دائماً أقدر على الإفتاء وأنفع للمسلمين فى ذلك من أهل الرأى المحدث ، فإن الذى رأيناه[1] دائما أن أهل رأى الكوفة من أقل الناس علماً بالفُتيا وأقلهم منفعة للمسلمين ، مع كثرة عددهم ، وما لهم من سلطان وكثرة بما يتناولونه من الأموال الوقفية والسلطانية وغير ذلك ، ثم إنهم فى الفتوى من أقل الناس منفعة ، قلّ أن يجيبوا فيها ، وإن أجابوا فقَلّ أن يجيبوا بجواب شافٍ ، وأما كونهم يجيبون بحجة فهم من أبعد الناس عن ذلك .

وسبب هذا أن الأعمال الواقعة يحتاج[2] المسلمون [فيها][3] إلى معرفة بالنصوص . ثم إن لهم أصولاً كثيرة تخالف النصوص ، والذى عندهم من الفروع التى لاتوجد عند غيرهم ، فهى مع ما فيها من المخالفة للنصوص التى لم يخالفها أحد من الفقهاء أكثر منهم ، عامتها : إما فروع مقدّرة غير واقعة ، وإما فروع متقررة على أصول فاسدة ، فإذا أرادوا أن

(١) فى الأصل : ريناه .

(٢) فى الأصل : التى يحتاج .... الخ . وحذف «التى» يقتضيه سياق الكلام .

(٣) فيها : ساقطة من الأصل ، وبإثباتها يستقيم الكلام .

يجيبوا بمقتضاها رأَوْا ما فى ذلك من الفساد وإنكار قلوب المؤمنين عليهم فأمسكوا .

لكن أعظم المهم فى هذا الباب وغيره تمييز السنة من البدعة ، إذ السنة ما أَمَرَ به الشارع ، والبدعة ما لم يشرعه من الدين ، فإن هذا الباب كثر فيه اضطراب الناس فى الأصول والفروع ، حيث يزعم كل فريق أن طريقه هو السنه ، وطريق مخالفه هو البدعة ، ثم إنه يحكم على مخالفه بحكم المبتدع ، فيقوم من ذلك من الشر ما لا يحصيه إلاّ الله .

/وأول من ضل فى ذلك هم الخوارج المارقون ، حيث حكموا لنفوسهم بأنهم المتمسكون بكتاب الله وسنته ، وأن علياً ومعاوية والعسكَرَيْن هم أهل المعصية والبدعة . فاستحلُّوا ما استحلُّوه من المسلمين . ظ ٤

وليس المقصود هنا ذكر البدع الظاهرة التى تظهر للعامة أنها بدعة ، كبدعة الخوارج والروافض ونحو ذلك ، لكن المقصود التنبيه على ماوقع من ذلك فى أخصّ الطوائف بالسنة وأعظمهم انتحالاً لها ، كالمنتسبين إلى الحديث ، مثل مالك والشافعى وأحمد ، فإنه لاريب أن هؤلاء أعظم اتّباعاً للسّنة وذمًّا للبدعة من غيرهم . والأئمة ، كمالك وأحمد وابن المبارك وحمَّاد بن زيد والأَوْزاعى وغيرهم ، يذكرون من ذم المبتدعة وهجرانهم وعقوبتهم ما شاء الله تعالى .

وهذه الأقوال سمعها طوائف ممن[1] اتّبعهم وقلّدهم ، ثم إنهم

---

(١) فى الأصل : طوائف من ممن . وهو تحريف .

[يخلطون][1] فى مواضع كثيرة السنة والبدعة ، حتى قد يبدّلون الأمر ، فيجعلون البدعة التى ذمها أولئك هى السنة ، والسنة التى حمدها أولئك هى البدعة ، ويحكمون بموجب ذلك ، حتى يقعوا فى البدع والمعاداة[2] لطريق أئمتهم السنيّة ، وفى الحب والموالاة[3] لطريق المبتدعة التى أمر أئمتهم بعقوبتهم ، ويلزِمهم تكفير أئمتهم ولعنهم والبراءة منهم ، وقد يلعنون المبتدعة وتكون اللعنة واقعة عليهم أنفسهم ضد ما يقع على المؤمن ، كما قال النبى صلَّى الله عليه وسلم : « ألا تَرَوْن كيف يصرف الله عنى سبَّ قريش يسبُّون مذمَّمًا[4] وأنا محمد »[5] .

وهؤلاء بالعكس يسبّون المبتدعة : يعنون غيرهم ، ويكونون هم المبتدعة ، كالذى يلعن الظالمين ويكون هو الظالم/ أو أحد الظالمين ، وهذا كله من باب قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ [سورة فاطر : ٨] .

ص ٥

واعتبر ذلك بأمور :

أحدها : أن كلام مالك فى ذم المبتدعة وهجرهم وعقوبتهم كثير ،

---

(١) يوجد فى الأصل بياض بعد عبارة «ثم إنهم» ، ولعل ما أثبته يفى بالمقصود .

(٢) فى الأصل : والمعداة ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : والمولاة : وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : ممذما ، وهو تحريف .

(٥) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٤/١٨٥–١٨٦ (كتاب المناقب ، باب ماجاء فى أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، وأوله : ألا تعجبون كيف يصرف الله عنى شتم قريش .. الحديث . وهو فى : النسائى (بشرح السيوطى) ٦/١٢٩–١٣٠ (كتاب الطلاق ، باب الإبانة والإفصاح بالكلمة الملفوظ بها ...) ؛ المسند (ط.المعارف) ١٣/٥٠ ، المسند (ط.الحلبى) ٢/٣٤٠ ، ٣٦٩ .

ومن أعظمهم عنده الجهمية ، الذين يقولون : إن الله ليس فوق العرش ، وإن الله لم يتكلم بالقرآن كله ، وإنه لا يُرى ، كما وردت به السنة ، وينفون نحو ذلك من الصفات .

ثم إنه كثير فى المتأخرين من أصحابه من ينكر هذه الأمور،كما ينكرها فروع الجهمية ، ويجعل ذلك هو السنة ، ويجعل القول الذى يخالفها ، وهو قول مالك وسائر أئمة السنة ، هو البدعة . ثم إنه مع ذلك يعتقد فى أهل البدعة ما قاله مالك ، فبدَّل[1] هؤلاء الدين ، فصاروا يطعنون[2] فى أهل السنة .

الثانى : أن الشافعى من أعظم الناس ذمًّا لأهل الكلام ولأهل التغيير ، ونهياً عن ذلك ، وجعلاً له من البدعة الخارجة عن السنة . ثم إن كثيراً من أصحابه عكسوا الأمر حتى جعلوا الكلام الذى ذمَّه الشافعى هو السنةَ وأصولَ الدين الذى يجب اعتقاده وموالاة أهله ، وجعلوا موجب الكتاب والسنة ، الذى مدحه الشافعى ، هو البدعة التى يعاقب أهلها .

الثالث : أن الإمام أحمد فى أمره باتِّباع السنة ، ومعرفته بها ، ولزومه لها ، ونهية عن البدع ، وذمّه لها ولأهلها ، وعقوبته لأهلها — بالحال التى لا تخفى . ثم إن كثيرا ممّا نصّ هو على أنه من البدع التى يُذم أهلُها ، صار بعض أتباعه يعتقد أن ذلك من السنة ، وأن الذى يُذم من خالف ذلك ، مثل كلامه فى مسألة القرآن فى مواضع : منها تبديعه لمن

(١) فى الأصل : فبدل ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : فصاروا يعملون ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

قال : لفظى بالقرآن غير مخلوق ، وتجهيمه لمن قال : مخلوق . ثم إن من أصحابه من جعل ما بدَّعه الإمام أحمد هو السنة ، فتراهم يحكمون على ما هو من صفات العبد - كألفاظهم وأصواتهم وغير ذلك - بأنه غير[1] مخلوق ، بل يقولون : هو قديم . ثم إنهم يبدِّعون من لا يقول بذلك ، / ويحكمون فى هؤلاء بما قاله أحمد فى المبتدعة ، وهو فيهم . ظ ٥

وكذلك ما أثبته أحمد من الصفات التى جاءت بها الآثار واتفق عليها السلف ، كالصفات الفعلية من الاستواء والنزول والمجئ والتكلم إذا شاء وغير ذلك ، فينكرون ذلك بزعم أن الحوادث لاتحل به ، ويجعلون ذلك بدعة ، ويحكمون على أصحابه بما حكم به أحمد فى أهل البدع ، وهم من أهل البدعة الذين ذمهم أحمد ، لا أولئك ؛ ونظائر هذا كثيرة .

بل قد يُحكى عن واحد من أئمتهم إجماع المسلمين على أن الحوادث لاتحل بذاته ، لينفى بذلك ما نص أحمد وسائر الأئمة عليه من أنه يتكلم إذا شاء ، ومِنْ هذه الأفعال المتعلقة بمشيئته .

ومعلوم أن نقل الإجماع على خلاف نصوصه ونصوص الأئمة من أبلغ ما يكون ، وهذا كنقل غير واحد من المصنفين فى العلم إجماع المسلمين على خلاف نصوص الرسول ، وهذه المواضع من ذلك أيضا ، فإن نصوص أحمد والأئمة مطابقة لنصوص الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

(١) فى الأصل : عن ، وهو تحريف .

(فصل)

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[سورة غافر : ٣٥] ، بعد قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾[سورة غافر : ٣٠] . إلى قوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾[سورة غافر : ٣٤] الآية : يُخَوِّفهم بمثل عقوبات الله فى الدنيا للأمم الكافرة قبلهم ، وخَوَّفَهُمْ بما يكون يوم القيامة .

وهذا فيه بيان إخباره بيوم القيامة ، وهو ممن آمن بموسى ،كما قد قررناه فى غير هذا الموضع : أن جميع الرسل أخبرت بيوم القيامة . خلاف ماتزعم طَوائف من الفلاسفة وأهل الكلام : أن المعاد الجسمانى لم يخبر به إلا محمدٌ وعيسى ، ونحو ذلك .

ثم قال المؤمن : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾[سورة غافر : ٣٤] لأن الريب عدم العلم ، وهذه حال أهل الضلال .

وقال هناك : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [سورة غافر : ٣٥] . لأنه أخبر بجدالهم فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، وهذه حال المتكلمين بغير علم ، لطلب العلو والفساد .

كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [سورة غافر : ٥٦] .

ولهذا قال فى هؤلاء المجادلين : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[سورة غافر : ٣٥] ، أى كَبُر مقتُهم ، أو كبر هذا المقت – أو كبر هذا الجدال ، أو هذا الفعل – مقتاً أى ممقوقاً . كما قال تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾[سورة الكهف : ٥] ، وكما قال تعالى : ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾[سورة الكهف : ٥٠] .

فإن المخصوص بالمدح والذم فى هذا الباب كثيراً مايكون مضمراً إذا تقدم ما يعود الضمير إليه والمدح يراد به الرجل : كما تقول : نعم رجلاً زيدٌ . ونعم رجلا ، وزيدٌ نعم رجلاً[١] .

والمقت يراد به نفس المقت ، ويراد به الممقوت ، كما فى الخلق ونظائره . ومثله قوله : ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾[سورة الصف : ٢، ٣][٢] ، أى كَبُر ممقوتاً ، أى كَبُرَ مقتُهُ مقتاَ .

والمقتُ البغضُ الشديد ، وهو من جنس الغضب المناسب لحال

(١) فى الأصل العبارات مضطربة فى هذه الأسطر كما يلى : « إذا تقدم ما يعود الضمير إليه . كما تقول : نعم رجلا زيد : والمقت يراد به الرجل ،ونعم رجلا ، وزيدٌ » نعم رجلا . كما تقول : نعم رجلا زيد » . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٢) يوجد اضطراب فى النسخة فى هذا السطر إذ كتب :.. كما فى الخلق ونظائره ، وكانوا يسمون .. ثم سقط حرف (لا) الناهية من الآية الكريمة ، ولعل الصواب ما أثبته .

هؤلاء . كما قال فى اليهود : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾[سورة النساء : ١٥٥] .

وقد وصفهم بنحوٍ مما وصف عدوَّهم فرعون ، فقوله : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً ﴾[سورة الإسراء : ٤] فوصفهم بالفساد فى الأرض والعـلو . كما أن ﴿ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[سورة القصص : ٤](١) . وختم السورة بقوله : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُون عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[سورة القصص : ٨٣] .

وهذا مما يبين أن قوله : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾[سورة غافر : ٣٥] مبتدأً ، ليس بدلاً من قوله : ﴿ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ [سورة غافر : ٣٤] ، فإنه سبحانه وصف هؤلاء بغير ما وصف هؤلاء . ويؤيد هذا أنه ابتداءً قد قال فى الأخرى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ . وقال قبل هذه الآية : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[سورة غافر : ٤] . ص ٦

وقد يقال : يُمكن(٢) اجتماع الوصفين : الريب ، والجدل بغير علم . كما هو الواقع فى طوائف كثيرة ، كما يجتمع الغضب والضلال .

---

(١) أخطأ الناسخ كتابة كلمة « يستضعف » فكتبها يستضع .

(٢) فى الأصل : تمكين ، وهو تحريف .

وقد يقال : الآية تحتمل الوقف وتحتمل الابتداء ، وقد يكون هذا قراءتين ، فتسوغ كل منهما ، ويكون له وصف صحيح ، كما فى نظائره .

وفى الحديث الذى رواه الترمذى عن الحارث عن على عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ورواه أبو نُعَيْم الأصفهانى وغيره من طرقٍ عديدة عن عَلِىّ عنَ النبِى صلى الله عليه وسلم : فى القرآن ، الحديث المعروف . « قال : قلتُ يارسولَ الله : ستكونُ فِتَنٌ ، فما المخرجُ منها ؟ قال : كتابُ الله ، فيه نبأ ماَ قَبْلَكم ، وَخَبرُ ما بَعْدَكُم ، وحُكْمُ ما بَيْنكم ، هو الفَصْلُ ليس بالهَزْل ، من تَركَهُ من جبَّارٍ قَصَمَهُ الله ، ومن ابْتَغَى الهُدَى فى غيره أَضَلَّه [الله][1] ، وهو حَبْلُ الله المتين ، وهو الذِكْرُ الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لاتزيغ[2] به الأهواءُ ، ولاتختلفُ به الآراءُ ، ولا تلتبسُ به الألسن ، ولايَخْلَق عن كثرة الرد ، ولاتنقضى عجائبه ، ولا يشبعُ منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أُجِر . ومن دعا إليه هُدِىَ إلى صراط مستقيم » .[3]

---

(١) لفظ الجلالة ليس فى الأصل ، وزدته لأنه جزء من الحديث .

(٢) فى الأصل تقرأ الكلمة : ترفع ، والصواب ما أثبته .

(٣) الحديث بألفاظ متقاربة فى الترمذى (شرح ابن العربى) ١١/٣٠-٣١ (كتاب ثواب القرآن ، باب ماجاء فى فضل القرآن) وقال الترمذى : هذا لانعرفه إلاّ من هذا الوجه ، واسناده مجهول ؛ وفى الحارث مقال ؛ وأورد ابن كثير فى (كتاب فضائل القرآن) فى آخر جـ٩ من تفسير ابن كثير والبغوى (طبعة المنار ١٣٤٧) ص ٦-٨ عدة روايات للحديث ، وعقب على كلام الترمذى بأنه روى من وجه آخر .وقال عن الحارث الأعور روايةعن على رضى الله عنه: وقد تكلموا فيه ، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده،أما أنه قد كذب فى الحديث فلا،والله أعلم ، وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، وقد وهم بعضهم فى رفعه ، وهو كلام حسن صحيح ، على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم» . وقد جاء الحديث=

فقوله : « من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضلّه الله » يناسب قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾[سورة غافر : ٣٤] وكذلك قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[سورة غافر : ٣٥] . فذكر ضلال الأوّل وذكر تجبّر الثانى ، وذلك[1] لأن الأول مرتاب ؛ ففاته العلم ، حيث ابتغى الهدى فى غيره ./والثانى جبّار عمل بخلاف مافيه فقصمه الله . وهذان الوصفان يجمعان[2] العلم والعمل . ص ٧

وفى ذلك بيان أن كل علم دينٍ لا يُطلب من القرآن فهو ضلال ، كفاسد كلام الفلاسفة والمتكلمة والمتصوفة والمتفقهة . وكل عاقل يترك كتاب الله مريداً للعلو فى الأرض والفساد فإن الله يقْصمه . فالضالُّ لم يحصُل له المطلوب بل يُعذَّب بالعمل الذى لافائدة فيه . والجبَّار حصَّل لذةً فقصمه الله عليها ، فهذا عُذِّب[3] بإزاء لذَّاته التى طلبها بالباطل ، وذلك يُعذَّب بسعيه الباطل الذى لم يُفِدْه .

والمقصود هنا أنه سبحانه فى هاتين الآيتين بيَّن من يجادل فى آيات الله بغير سلطان أتاهم . وقد بُيِّن فى غير موضع أن السلطان هو الحُجَّة ، وهو الكتاب المُنزَّل ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ

=عن على رضى الله عنه بألفاظ مختلفة فى المسند (ط .المعارف) ٢/٨٨-٨٩ رقم ٧٠٤ ، وانظر تعليق المحقق .

(١) فى الأصل : وكذلك .

(٢) فى الأصل : وهذا ان الوصفان يجمع ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : عذاب .

يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾[سورة الروم : ٣٥][١] . وقيل .
إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ
النجم : ٢٣][٢] فى غير موضع .

وقال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ ..
قوله ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِ
[سورة الصافات : ١٥١-١٥٧] .

وقال : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَان
[سورة الطور : ٣٨][٣] وقال : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِين
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾[سورة القلم
٣٥-٣٧]

وإذا كان كذلك ، فى هذا بيان أنه لايجوز لأحدٍ أن يعارض كتاب الله بغير كتاب ، فمن عارض كتاب الله وجادل فيه بما يسميه معقولات وبراهين وأقيسة ، أو ما يسميه مكاشفات ومواجيد وأذواق ، من غير أن يأتى على مايقوله بكتاب منزَّل – فقد جادل فى آيات الله بغير سلطان . هذه حال الكفَّار الذين قال فيهم : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[سورة غافر : ٤] فهذه حال من يجادل فى آيات الله/ مطلقا . ظ ٧

ومن المعلوم أن الذى يجادل فى جميع آيات الله لايجادل بسلطان ،

(١) فى الأصل أخطأ الناسخ وكتب : بما كانوا به مشركين .
(٢) فى الأصل أخطأ الناسخ وكتب : ما أنزل بها من سلطان .
(٣) انظر ماذكره ابن تيمية فى تفسير معنى كلمة «سلطان» فى كتاب «درء تعارض العقل والنقل» جـ١ ، ص٥٧ ؛ جـ٥ ، ص٢٠٧ (وانظر ت ١).

فإن السلطان من آيات الله ، وإنما الذى يجادل فى آيات الله بسلطان ، يكون قد جادل فى بعض آيات الله ببعض آيات الله .

وهذه الحال يُحمد منها أن تكون إحدى الآيتين ناسخة لها ، أو مفسِّرة لها بما يخالف ظاهرها ، وإن كان السلف يسمون الجميع نسخاً . ولهذا لم يكن السلف من الصحابة والتابعين يتركون دلالة آيةٍ من كتاب الله إلا بما يسمّونه نسخاً ، ولم يكن فى عهدهم كُتُبٌ فى ذلك إلا كتب الناسخ والمنسوخ ؛ لأن ذلك غايته أن نجادل[1] فى آيات الله بسلطان ، كجِدَالنا مع أهل التوراة والإنجيل – وهما من آيات الله – بالقرآن ، الذى أنزله الله مُصَدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومُهَيْمِناً[2] عليه .

فأما مُعارضة[3] القرآن بمعقولٍ أو قياس فهذا لم يكن يستحلّه أحد من السلف ، وإنما ابتُدِع ذلك لما ظهرت الجهمية والمعتزلة ونحوهم ، ممن بَنَوْا أصول دينهم على ماسَمَّوْه معقولاً وَردُّوا القرآن إليه ، وقالوا : إذا تعارض العقل والشرع إما أن يُفَوَّض أو يُتأَوَّل ، فهؤلاء من أعظم المجادلين فى آيات الله بغير سلطانٍ أتاهم .

وأما تسمية المتأخرين تخصيصا وتقييدا ونحو ذلك مما فيه صرف الظواهر ، فهو داخل فى مسمى النسخ عند المتقدمين . وعلى هذا الاصطلاح فيدخل النسخ فى الإخبار كما يدخل فى الأوامر . وإنما النسخ الخاص الذى هو رفع الحكم . فلا بد فى الخبر عن أمر مستقر .

---

(١) فى الأصل : أن جادل ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ومهينا ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل: يعارضه ، ولعل الصواب ما أثبته.

وأما مايدخل فى الخبر عن إنشاء أمر ، فيكون لدخوله فى الإنشاء :
إنشاء الأمر والنهى ، وإنشاء الوعيد ، عند من يُجوِّز النسخ فيه ، كآخر البقرة ، على ما رُوى عن جمهور السلف .

وهو مبنى على أن الوعيد : هل هو خبر محض ؟ أو هو مع ذلك إنشاء ؟ - كالعقود التى تقبل الفسخ - لكونه إخباراً عن إرادة[1] المتوعد وعزمه ، وكالخبر[2]/عن الأمر والنهى ، المتضمن خبره عن طلبه ، المتضمن إرادته الشرعية ، وهذا ممَّا يبين[3] ما قررناه فى غير هذا الموضع : أن الله سبحانه بيَّن بكتابه سبيل الهدى ، وأنه لا يصلح أن يخاطب بما ظاهر معناه باطل أو فاسد ، بل ولا يضلل المخاطبين بأن يحيلهم على الأدلة التى يستسيغونها برأيهم[4] ، بل يجب أن يكون الكتاب بيانا وهدى وشفاءً لما فى الصدور ، وأن مدلوله ومفهومه حق . وهذا أصل عظيم جدا .

ص ٨

(فصل)

حكم الاختلاف والفرقة والتقاتل وغير ذلك

فيما اختلف فيه المؤمنون من الأقوال والأفعال فى الأصول والفروع ، فإن هذا من أعظم أصول الإسلام ، الذى هو معرفة الجماعة ، وحكم الفرقة والتقاتل[5] والتكفير والتلاعن والتباغض وغير ذلك .

---

(١) فى الأصل : أراد .

(٢) فى الأصل : . . وعزمه كالخبر ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : بيّن .

(٤) العبارات الموجودة فى الأصل فى هذا الموضع غير واضحة وتقرأ هكذا : ولايبن ذلك المتخاطبين بل يجبرهم على الأدلة التى يستسيغونها برأيهم ، ولعل ما أثبته يستقيم به المعنى .

(٥) والتقاتل : الكلمة فى الأصل غير واضحة ، وكذا استظهرتها .

فنقول : هذا الباب أصله المحرّم [١] فيه من البغى ، فإن الإنسان ظلوم جهول . قال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٣] [٢] ، فى غير موضع [٣] .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَتسْلُكُنَّ سَنَنَ من قبْلكم حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخلْتموه . قالوا يارسولَ الله : اليهودَ والنصارى ؟ قال فَمَنْ ؟» [٤] .

وقد قال تعالى : ﴿ وَلَاتَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٥] [٥] .

---

(١) فى الأصل تقرأ الكلمة «المحروم» . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم .

(٣) قوله : «فى غير موضع» يجعلنى أرجح وجود سقط فى هذا الموضع ، ولعل ابن تيمية ذكر آيات أخرى تتحدث عن الاختلاف غير آية سورة البقرة منها قوله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ [سورة آل عمران : ١٩] ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾ [سورة يونس : ١٩] .

(٤) جاء الحديث بلفظ «لتتبعن سنن ..» عن أبى سعيد الخدرى فى : البخارى ٤/١٦٩ (كتاب الأنبياء ، باب ما ذكر عن بنى إسرائيل) . والحديث بمعناه عنه رضى الله عنه فى : البخارى ٩/١٠٣ (كتاب الاعتصام ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : لتتبعن سنن من كان قبلكم) ؛ مسلم ٤/٢٠٥٤ (كتاب العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى) ؛ سنن ابن ماجة ٢/١٣٢٢ (كتاب الفتن ، باب افتراق الأمم) ؛ المسند (ط.الحلبى) ٣/٨٤ ، ٨٩ ، ٩٤ . والحديث بمعناه عن أبى هريرة فى : المسند (ط .الحلبى) ٢/٣٢٧ ، ٤٥٠ ، ٥١١ ، ٥٢٧ .

(٥) فى الأصل : من بعد ماجاءتهم .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ . [سورة الأنعام : ١٥٩] .

ومن هذا الباب ما هو [من][1] باب التأويل والاجتهاد الذى يكون الإنسان مستفرغاً فيه وُسْعَه علماً وعملاً .

ثم الإنسان قد يبلغ ذلك ولايعرف الحق فى المسائل الخبرية الاعتقادية ، وفى المسائل العملية الاقتصادية . والله سبحانه قد تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان بقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لاَتُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٦] . ظ ٨

وقد ثبت فى صحيح مسلم من حديث ابن عباس ومن حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله استجاب لهم هذا الدعاء وقال : قد فعلت[2] ، وأنهم لم يقرأوا بحرف منها إلا أُعطوه[3] . وهذا مع قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ [سورة البقرة : ٨٢] .

---

(١) من : ساقطة من الأصل ، وأثبتها ليستقيم الكلام .

(٢) حديث مع اختلاف الروايات عن ابن عباس رضى الله عنهما فى : مسلم ١١٦/١ (كتاب الإيمان ، باب أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ماطاق) ؛ المسند (ط .المعارف) ٣٤١/٣-٣٤٢ (رقم ٢٠٧٠) ، ٣٠/٥-٣١ (رقم ٣٠٧١) ؛ سنن الترمذى ١١٢/١١-١١٣ (كتاب التفسير ، سورة البقرة) . وانظر الحديث برواياته المتعددة فى تفسير الطبرى (ط . المعارف) ١٤٢/٦-١٤٥ . وانظر أيضا ١٠٤/٦-١٠٥

(٣) الحديث فى : مسلم ٥٥٤/١ (كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة) عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وفيه : أن ملكا نزل من السماء فقال للنبى صلى الله عليه وسلم : ابشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته .

وقوله دليل على أن الله لايُكلِّف نفساً إلا وُسْعها ، لها ما كَسَبتْ وعليها ما اكتَسَبتْ ، وغير ذلك دليل على أن الله تعالى لايكلف نفسا إلا وُسْعَها .

والوُسْعُ : هو ما تَسعُه النفسُ ، فلا تَضيقُ عنه ولا تَعْجزُ عنه ، فالْوُسْعُ فُعْلٌ بمعنى مفعول ، كالجُهْد .

وهذا أيضا كقوله تعالى : ﴿ مَاجَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [سورة الحج : ٧٨] .

وقوله : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَايُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[سورة البقرة : ١٨٥] .

وقوله : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّن حَرَجٍ ﴾ ، [سورة المائدة : ٦] والحَرَج : الضيق . فهو نَفَى أن يكون عليهم ضيق ، أى مايضيق عنهم ، كما أخبر أنه لايكلِّفُ النفسَ إلا ما تَسَعُهُ . فلابد أن يكون الإيجاب والتحريم مما تَسعُه النفس ، حتى يَقْدِرَ الإنسانُ على فعله ، ولابد أن يكون المباحُ مما يسعُ الإنسانَ ، ولايضيقُ عنه ، حتى يكون للإنسان ما يسع الإنسان ، ويحمل الإنسانُ ، ولايضيقُ عنه من المباح .

ولُيتدبَّر الفرق بين مايسعه الإنسان وهو الوُسْع ، الذى قيل فيه : ﴿لَايُكلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾[سورة البقرة : ٢٨٦] ، وبين ما يسع الإنسان فلايكونُ حرجاً عليه ؛ وهو مما لابد للإنسان منه من المباحات ؛ وهذا يكون فى صفةِ فعلِ المأمور به كما فى الوضوء والصلاة ، فلابد أن يكون المجزىء له من ذلك ما يسع الإنسان ، والواجب عليه مايسعه

الإنسان ، ويكون فى باب الحلال والحرام ، فلا يحرم عليه ما لايسع هو تركه ، بحيث يبقى المباح له ضيقا منه لايسعه .

وإذا كان كذلك فينبغى أن يُعلم أن للقلوب[1] قدرةً فى باب العلم والاعتقاد/ العلمى ، وفى باب الإرادة والقصد ، وفى الحركة البدنية أيضا . ص ٩

فالخطأُ والنسيانُ هو من باب العلم يكون : إما مع تَعذُّر العلمِ عليه ، أو تعسره عليه . والله قد قال : ﴿ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [سورة الحج : ٧٨] . وقال . ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَايُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٥] .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه لمعاذ وأبى موسى لما أرسلهما إلى اليمن : « يسِّرا ولاتُعسِّرا ، وبَشِّرا ولاتنفِّرا، وطاوعا ولا تختلفا »[2] .

وإذا كان كذلك فما عَجز الإنسانُ عن عمله واعتقاده[3] حتى يعتقد ويقول ضده خطأً أو نسياناً ، فذلك مغفورٌ له . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا اجْتَهَدَ الحاكم فأصابَ فَلَهُ أجْران وإذا اجتهد فأَخْطأ

---

(١) فى الأصل : القلوب .

(٢) الحديث عن أبى سعيد بن أبى بردة عن أبيه عن جده وعن معاذ بن جبل رضى الله عنهم فى : البخارى ٣٠/٨ (كتاب الأدب ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم . يسروا ولاتعسروا) ، ٧٠/٩ (كتاب الأحكام ، باب أمر الولى إذا وجّه أميرين إلى موضع أن يتطاوعا ولا يتعاصيا) ؛ مسلم ١٣٥٩/٣ (كتاب الجهاد والسير ، باب فى الأمر بالتيسير وترك التنفير) ، ١٥٨٧/٣ (كتاب الأشربة ، باب بيان أن كل مسكر خمر) .

(٣) فى الأصل : واعتقاد .

فله أجر »[١] . وهذا يكون فيما هو من باب القياس والنظر بعقله ورأيه ، ويكون فيما هو من باب النقل والخبر الذى يناله بسمعه وفهمه وعقله ، ويكون فيما هو من باب الإحساس والبصر الذى يجده ويناله بنفسه .

فهذه المدارك الثلاثة قد يَحْصُل للشخص[٢] بها علمٌ يَقْطع به ، ويكون ضرورياً فى حقه ، مثل مايجده فى نفسه من العلوم الضرورية ، ومثل ماسمعه من النبى صلى الله عليه وسلم ، أو من المُخْبِرين له الصادقين خبرا يفيده العلم ، كالخبر المتواتر الذى يفيده العلم تارةً بكثرة عدد المخبرين ، وتارةً بصفاتهم ، وتارةً بهما ، وغير ذلك مما يفيد العلم .

وقد يكون مما علمه[٣] بآثاره الدالة عليه ، أو بحكم نظره المساوى له من كل وجه ، أو الذى يدل على الآخر بطريق الأَوْلى والتنبيه ونحو ذلك . ومع هذا فتكون هذه العلوم عند غيره متيقَّنة مع اجتهاده لدقة العلوم أو خفائها ، أو لوجود مايعتقِدُ المعتقِد أنه يعارِض ولا يكون معارضاً/فى الحقيقة ، فيشتبه بالمعارض ، لاشتباه المعارض ، لاشتباه المعانى ، أو لاشتراك الألفاظ . ظ ٩

فهذا من أعظم أسباب اختلاف بنى آدم من المؤمنين وغيرهم ، ولهذا نجد فى المختلفين كل طائفة تدّعى العلم الضرورى . فما يقوله إما مِنْ جهة القياس والنظر ، وإما من جهة السماع والخبر ، وإما من جهة الإحساس والبصر . ولاتكون واحدة من الطائفتين كاذبة بل صادقة ،

(١) سبق الكلام على هذا الحديث قبل صفحات ، ص ٨ ت ١.

(٢) فى الأصل : الشخص ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : عمله ، وهو تحريف .

لكن يكون قد أدخل مع الحق ما ليس منه فى النفى والإثبات لاشتباه المعانى واشتراك الألفاظ ، فيكون حينئذٍ ماينفيه هذا يثبته الآخر . ولو زال الاشتباه والاشتراك زال الخلاف التضادى ، وكان اختلاف الناس[1] فى مسائل الجبر والقدر ، ومسائل نفى الجسم وإثباته ، ونفى موجب الأخبار ، وإثبات ذلك – هو من هذا الباب .

وهذا كله موجود فى كتب أهل الكلام وأهل الحديث والفقه وغير ذلك .

وقول القائل : إن الضروريات يجب اشتراك العقلاء فيها ، خطأٌ . بل الضروريات كالنظريات ، تارة يشتركون فيها ، وتارة يختص بها من جُعِل له قوةٌ على إدراكها .

وكذلك قول القائلين : إن الطائفة التى تبلغ عدد التواتر لايتفقون على جحد الضروريات ، ليس بصواب ، بل يتفقون على ذلك إذا تواطأوا عليها . وخبر التواتر متى كان عن تواطؤ لم يفد العلم ، وإنما يفيد العلم لانتفاء التواطؤ فيه . وإذا كان كذلك فقد يكون المختلفون قد اجتهد أحدهم فأصاب ، ويكون الآخر اجتهد فأخطأ ؛ فيكون للأول أجران وللثانى أجر ؛ مع أن خطأه مغفورٌ له . وقد يكون كلاهما اجتهد فأخطأ فيغفر لهما جميعا مع وجود الأجر .

ويكون الصواب فى قولنا :[2] ثالثا :[3] أما تفصيل ما أطلقوه ،

(١) فى الأصل : وكان سعى (كذا غير منقوطة) اختلاف الناس ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : فى قولك ، ولعل الصواب ما أثبته ، وهو الذى يستقيم به الكلام .

(٣) فى الأصل : ثالث ، وهو خطأ . ويكون المقصود : أن هذا هو القول الثالث بعد القولين السابقين وهما قول القائل : إن الضروريات يجب اشتراك العقلاء فيها ، وقول القائلين : إن الطائفة التى تبلغ عدد التواتر لايتفقون على جحد الضروريات ، وهما القولان اللذان بين ابن تيمية وجه الخطأ فيهما .

مثل أن ينفى هذا نفيا عاما ، ويثبت الآخر مانفاه الأول ، فيفصِّل المفصَّل ويثبت/البعض دون البعض ، وكذلك فى المعنى المشتبه واللفظ المشترك : يفصّل بين المعنى وما يشبهه إذا كان مخالفاً له ، وبين معنى لفظٍ ومعنى لفظ .

ص ١٠

ثم إنه من مسائل الخلاف مايتضمَّن أن اعتقاد أحدهما يوجب عليه بُغض الآخر ولعنه أو تفسيقه أو تكفيره أو قتاله فإذا فعل ذلك مجتهدا مخطئاً كان خطؤه مغفوراً له ، وكان ذلك فى حق الآخر محنة فى حقه وفتنة وبلاء ابتلاه به .

وهذه حال البغاة المتأوِّلين مع أهل العدل ، سواء كان ذلك بين أهل اليد والقتال من الأمراء ونحوهم ، أو بين أهل اللسان والعمل من العلماء والعُبّاد ونحوهم ، وبين من يجمع الأمرين .

ولكن الاجتهاد السائغ لايبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغى ، لا لمجرد الاجتهاد .

كما قال تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٩] [(١)] وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٩] وقال : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٥] .

فلا يكون فتنة وفرقة مع وجود الاجتهاد السائغ ، بل مع نوع بغى .

(١) فى الأصل : وما تفرق ..، وهو خطأ .

ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن القتال فى الفتنة،وكان ذلك من أصول السنَّة . وهذا مذهب أهل السنة والحديث ، وأئمة أهل المدينة من فقهائهم وغيرهم .

ومن الفقهاء من ذهب إلى أن ذلك يكون مع وجود العلم التام من أحدهما والبغى من الآخر ، فيجب القتال مع العادل حينئذ ، وعلى هذا الفتنة الكبرى بين أهل الشام والعراق : هل كان الأصوب حال القاعدين أو حال المقاتلين من أهل العراق ؟ والنصوص دلَّت على الأول ، وقالوا : كان ترك قتال أهل العراق أصوب ، وإن كانوا أقرب إلى الحق وأولى به من أهـــل الشام إذ ذاك . كما بسطنا الكلام فى هذا فى غير هذا الموضع ، وتكلمنا على الآيات والأحاديث فى ذلك .

ومن أصول هذا الموضع أن مجرد وجود البغى من إمام أو طائفة لايوجب[1] قتالهم/ ، بل لايبيحه ، بل من الأصول التى دلت عليها النصوص أن الإمام الجائر الظالم يُؤمر الناس بالصبر على جوره وظلمه وبغيه ولا يقاتلونه ، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فى غير حديث ، فلم يأذن فى دفع البغى مطلقاً بالقتال ، بل إذا كانت فيه فتنة نَهَى عن دفع البغى به وأمر بالصبر .

ظ ١٠

وأما قوله سبحانه : ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى﴾ [سورة الحجرات : ٩] فهو سبحانه قد بيّن مراده ، ولكن من

---

(١) فى الأصل : لا يجب .

الناس من يضع الآية على غير موضعها ، فإنه سبحانه قال : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[سورة الحجرات : ٩] . فهو لم يأذن ابتداءً فى قتالٍ بين المؤمنين ، بل إذا اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، والاقتتال[١] هو فتنة ، وقد تكون إحداهما أقرب إلى الحق ، فأمرِ سبحانه فى ذلك بالإصلاح .

وكذلك فعل النبي صلى الله عليه وسلم لما اقتتل بَنُو عَمْرو بن عوْف ، فخرج ليصلح بينهم ، وقال لبلال : « إنْ حَضَرتْ الصلاة فقدِّم أبا بكر »[٢] .

ثم قال سبحانه : ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [سورة الحجرات :٩] ، فهو بعد اقتتالهم ، إذا أُصْلِح بينهم بالقسط ، فلم تقبل إحداهما القِسْط بل بغت ، فإنها تُقاتَل ، لأن قتالها هنا يُدفع به القتال الذى هو أعظم منه ، فإنها إذا لم تُقاتَلْ حتى تَفىءَ إلى أمر الله ، بل تُرِكتْ حتى تَقْتَتِل هى والأخرى ، كان الفساد فى ذلك أعظم .

والشريعة مبناها على دفع الفسادين بالتزام[٣] أدناهما ، وفى مثل هذا يُقاتلون حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدينُ كلُّه لله ، لأنه إذا أُمروا

(١) فى الأصل الكلمة غير واضحة ، وكذا استظهرتها .

(٢) الحديث عن سهل بن سعد فى:البخارى ٧٤/٩ (كتاب الأحكام ، باب الإمام يأتى قوما فيصلح بينهم) وأوله : كان قتال بين بنى عمرو فبلغ ذلك النبي ....؛ النسائى ٦٤/٢ (كتاب الإمامة ، باب استخلاف الإمام إذا غاب) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٣٣١/٥ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ .

(٣) فى الأصل : التزام ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

بالصلاح والكف عن الفتنة فبغت إحداهما قُوتِلَتْ حتى لاتكونَ فِتْنةٌ والمأمور بالقتال هو غير المبغى عليه ، أُمِرَ بأن يقاتل الباغيةَ حتّى ترجع إلى الدين ، فقاتلها من باب الجهاد وإعانة المظلوم المَبْغِيِّ[1] عليه .

أما إذا وقع بَغْيٌ ابتداءً بغير قتال ؛ مثل أخذ مالٍ ، أو مثل رئاسة بظلم – فلم يأذن اللهُ فى/ اقتتال طائفتين من المؤمنين على مجرد ذلك ، لأن الفساد فى الاقتتال فى مجرد رئاسة أو أخذ مال ، فيه نوع ظلم .

ص ١١

فلهذا نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قتال الأئمة إذا كان فيهم ظلم ، لأن قتالَهم فيه فساد أعظم من فساد ظلمهم .

وعلى هذا فما ورد فى صحيح البخارى من حديث أم سلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذلك ، ليس هو مخالفاً لما تواتر عنه من أنه أمر بالإمساك عن القتال فى الفتنة ، وأنه جعل القاعد فيها خيراً من القائم ، والقائم خيراً من الماشى ، والماشى خيراً من الساعى .

وقال : « يُوشك أن يكون خير مالِ المسلم غَنَمٌ يتبعُ بها شَعَفَ[2] الجبال ومواقع القَطْر يفر بدينه من الفتن[3] » وأمر فيها بأن يلحق الإنسان

(١) فى الأصل : البغى ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) فى لسان العرب : «شعفة كل شئ أعلاه وشعفة الجبل بالتحريك رأسه ، والجمع شَعَفٌ وشِعاف وشُعُوف وهى رؤوس الجبال . وفى الحديث : من خير الناس رجل فى شعفة من الشعاف فى غنيمة له حتى يأتيه الموت وهو معتزل الناس» . وانظر «النهاية فى غريب الحديث» لابن الأثير مادة «شعف» .

(٣) الحديث عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه فى : البخارى ٩/١ (كتاب الإيمان ، باب من الدين الفرار من الفتن) ، ١٢٧/٤ (كتاب بدء الخلق ، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال) ؛ سنن النسائى (بشرح السيوطى) ١٠٧/٨–١٠٨ (كتاب الإيمان وشرائعه ، باب الفرار بالدين من =

بإبله وبقره وغنمه ، لأن وصفه تلك الطائفة بالبغى هو كما وَصَفَ به من وَصَفَ من الولاة بالأَثَرة والظلم .

كقوله : ستلقَوْن بعدى أَثَرَة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض[1] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ستكون بعدى أثرة وأمور تنكرونها . قالوا : فما تأمرنا يارسول الله ؟ قال : أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم »[2] وأمثال ذلك من الأحاديث الصحاح .

فأمر مع ذكره لظلمهم بالصبر وإعطاء حقوقهم وطلب المظلوم حقه من الله ، ولم يأذن للمظلوم المبغى عليه بقتال الباغى فى مثل هذه الصور التى يكون القتال فيها فتنة ، كما أُذِن فى دفع الصائل بالقتال ، حيث

= الفتن) ؛ سنن ابن ماجة ١٣١٧/٢ (كتاب الفتن ، باب العزلة) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٦/٣، ٤٣، ٥٧ ؛ الموطأ ٩٧٠/٢ (كتاب الاستئذان ، باب ماجاء فى أمر الغنم).

(١) جاءت العبارات التى أوردها ابن تيمية فى ثلاثة مواضع عن أسيد بن حضير ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن زيد رضى الله عنهم فى: البخارى ٣٣/٤ (كتاب مناقب الأنصار ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم ، اصبروا حتى تلقونى على الحوض) ؛ مسلم ٧٣٨/٢-٧٣٩ (كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم ....) . وجاء الحديث عن عدة رواة مع اختلاف فى الألفاظ التى أوردها ابن تيمية فى جزء من أحاديث أخرى فى : البخارى ١١٤/٣ (كتاب المساقاة ، باب القطائع ، وباب كتابة القطائع) ، ٩٤/٤ (كتاب فرض الخمس ، باب ما كان النبى صلى الله عليه وسلم يعطى المؤلفة قلوبهم ...) ، ٩٨/٤ (كتاب الجزية والموادعة مع أهل الحرب ، باب ما أقطع النبى صلى الله عليه وسلم من البحرين) ؛ مسلم ٧٣٣/٢-٧٣٤ (كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الاسلام ...) ؛ سنن الترمذى ٣٢٦/٣ (كتاب الفتن ، باب ماجاء فى الأثرة) . وجاء الحديث فى مواضع كثيرة فى المسند .

(٢) الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : البخارى ٤٧/٩ (كتاب الفتن ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : سترون بعدى أموراً تنكرونها) ؛ مسلم ١٤٧٢/٣ (كتاب الإمارة ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول) ؛ سنن الترمذى (ط. المدينة المنورة) ٣٢٧/٣ (كتاب الفتن ، باب ما جاء فى الأثرة) ؛ المسند (ط. المعارف) ٢٣١/٥-٢٣٢ ، ٢٤٢ ، ٦٤/٦ .

قال : « من قُتِل دون ماله فهو شهيد ، ومن قُتِل دون دينه فهو شهيد »[١] فإن قتال اللصوص ليس قتال فتنة ، إذ الناس كلهم أعوان على ذلك ، فليس فيه ضرر عامٌّ على غير الظالم ، بخلاف قتال ولاة الأمور ، فإن فيه فتنةً وشرّاً عاما أعظم من ظلمهم ، فالمشروع[٢] فيه الصبر .

وإذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم طائفةً بأنها باغية ، سواء كان ذلك/ بتأويل أو بغير تأويل ، لم يكن مجرد ذلك موجباً لقتالها ، ولا مبيحاً لذلك ، إذا كان قتال فتنة . ظ ١١

فتدبر هذا ، فإنه موضع عظيم يظهر فيه الجمع بين النصوص ، ولأنه[٣] الموضع الذي اختلف فيه اجتهاد علماء المؤمنين[٤] قديماً وحديثاً ، حيث رأى قوم قتال هؤلاء مع من هو أولى بالحق منهم ، ورأى آخرون ترك القتال إذا كان القتال فيه من الشر أعظم من ترك القتال كما كان

---

(١) الحديث عن سعيد بن زيد رضى الله عنه فى · سنن أبى داود ٣٣٩/٤ (كتاب السنة ، باب فى قتال اللصوص) ؛ سنن الترمذى (بشرح ابن العربى) ٤٣٥/٢ ، ٤٣٦ (كتاب الديات ، باب ما جاء من قتل دون ماله فهو شهيد) ؛ سنن النسائى ١٠٥/٧-١٠٧ (كتاب تحريم الدم ، باب من قاتل دون أهله ، وباب من قاتل دون دينه) ؛ سنن ابن ماجه ٨٦١/٢ (كتاب الحدود ، باب من قتل دون ماله فهو شهيد) وجاء الجزء الأول فقط من الحديث عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما فى : البخارى ١٣٦/٣ (كتاب المظالم ، باب من قاتل دون ماله) ؛ مسلم ١٢٤/١ ، ١٢٥ (كتاب الإيمان ، باب عن أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم فى حقه ...) ؛ المسند (ط المعارف) ١١٩/٣ ، ٤٣/١٠ ، ١٥٣/١١ ، ١٥٤ .

(٢) فى الأصل : فالشروع .

(٣) فى الأصل : ولأن .

(٤) فى الأصل العبارة مضطربة هكذا : اختلف فيه اشهار المؤمنين وعلمائهم ... الخ . ولعل الصواب ما أثبته .

الواقع ، فإن أولئك كانوا لايبدأون البغاة بقتالٍ حتى يجعلوهم صائلين عليهم[١] ، وإنما [يكون] ذنبهم ترك واجب مثل [الامتناع] من طاعة معين والدخول فى الجماعة[٢] . فهذه الفرقة إذا كانت باغية[٣] وفى قتالهم من الشر – كما وقع – أعظم من مجرد الاقتصار على ذلك[٤] ، كان القتال فتنة ، وكان تركه هو المشروع ، وإن كان المقاتل[٥] أولى بالحق وهو مجتهد .

وعامة ماتنازعت فيه فرقة المؤمنين من مسائل الأصول وغيرها ، فى باب الصفات والقدر والإمامة وغير ذلك ، هو من هذا الباب ، فيه المجتهد المصيب ، وفيه المجتهد المخطئ ، ويكون المخطئ باغياً ، وفيه الباغى من غير اجتهاد ، وفيه المقصِّر فيما أُمر به من الصبر .

وكل ما أوجب فتنة وفُرقة فليس من الدين ، سواء كان قولا أو فعلا ، ولكن المصيب العادل عليه أن يصبر عن الفتنة ، ويصبر على جهل الجهول وظلمه إن كان غير متأوِّل . وأما إن كان ذاك أيضا متأوِّلا فخطؤه مغفور له ، وهو فيما يصيب به من أذًى بقوله أو فعله له أجر على اجتهاده ، وخطؤه مغفور له ، وذلك محنةٌ وابتلاء فى حق ذلك المظلوم ،

---

(١) فإن أولئك كانوا لايبدأون البغاة بقتال حتى يجعلوهم صائلين عليهم : كذا رجحت أن يكون سياق الكلام . والعبارة فى الأصل مضطربة اضطرابا شديدا وتقرأ هكذا : فإن أولئك إذا كانوا لم يبدأوا العرفين بقتال حتى يجعل صائلين عليهم .

(٢) وإنما .. الجماعة : العبارة فى الأصل ناقصة وأضفت كلمتى «يكون» ، «الامتناع» ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : بغيا ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) أى أعظم من ترك قتالهم .

(٥) فى الأصل : القاتل .

فإذا صبر على ذلك واتَّقى الله كانت العاقبةُ له ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٦] .

ص ١٢ فأمر سبحانه بالصبر على أذى/ المشركين وأهل الكتاب مع التقوى . وذلك تنبيه على الصبر على أذى المؤمنين بعضهم لبعض ؛ متأوِّلين كانوا أو غير متأولين .

وقد قال سبحانه: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [سورة المائدة : ٨] ، فَنَهَى أن يحمل المؤمنين بُغْضُهم للكفار على ألاَّ يعدلوا عليهم ، فكيف إذا كان البغض لفاسق أو مبتدع متأول من أهل الإيمان ؟ فهو أَوْلى أن يجب عليه ألاَّ يحمله ذلك على ألاَّ يعدل على مؤمن ، وإن كان ظالماً له .

فهذا موضعٌ عظيمُ المنفعةِ فى الدين والدنيا ؛ فإن الشيطان موكَّل ببنى آدم ، وهو يعرض للجميع ، ولايَسْلم أحدٌ من مثل هذه الأمور – دع ماسواها – من نوع تقصير فى مأمورٍ أو فعل محظور ، باجتهاد أو غير اجتهاد ، وإن كان هو الحق .

وقال سبحانه لنبيّه : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [سورة غافر : ٥٥] فأمره بالصبر ، وأخبره أنَّ وَعْدِ الله حق ، وأمره أن يستغفر لذنبه .

ولا تقع فتنة إلا من ترك ما أمر الله به ، فإنه سبحانه أمر بالحق وأمر بالصبر . فالفتنة إما مِنْ تَرْك الحق ، وإما من ترك الصبر .

فالمظلوم المحق الذى لا يقصِّر فى علمه يُؤمَر بالصبر ، فإذا لم يصبر فقد ترك المأمور .

وإن كان مجتهدا فى معرفة الحق ولم يصبر ، فليس [هذا][1] بوجه الحق مطلقا ، لكن [هذا][1] وجه نوع حق فيما أصابه ، فينبغى أن يصبر عليه .

وإن[2] كان مقصِّراً فى معرفة الحق ، فصارت ثلاثة ذنوب : أنه لم يجتهد فى معرفة الحق ، وأنه لم يصبه ، وأنه لم يصبر .

وقد يكون مصيبا فيما عرفه من الحق فيما يتعلق بنفسه ، ولم يكن مصيبا فى معرفة حكم الله فى غيره ؛ وذلك بأن يكون قد علم الحق فى أصل يُختلف فيه بسماع وخبر ، أو بقياس ونظر ، أو بمعرفة وبصر ، ويُظن مع ذلك أن ذلك الغير التارك للإقرار[3] بذلك الحق عاصٍ أو فاسقٌ أو كافرٌ . ولا يكون/ الأمر كذلك ؛ لأن ذلك الغير يكون مجتهدا ، ظ ١٢ قد استفرغ وُسْعَهُ ولايقدر على معرفة الأول ؛ لعدم المقتضى ، ووجود المانع .

وأمور القلوب لها أسباب كثيرة ، ولايعرف كلُّ أحد حالَ غيره من إيذاءٍ له بقول أو فعل . قد يحسب المُؤْذَى – إذا كان مظلوما لاريب

(١) أضفت كلمة « هذا» فى الموضعين ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : فإن .

(٣) فى الأصل : لإقرار .

فيه – أن ذلك المؤذِى محض باغٍ عليه ، ويحسب أنه يدفع ظلمه بكل ممكن . ويكون مخطئا فى هذين الأصلين ، إذ قد يكون المؤذى متأولا مخطئا[١] . وإن كان ظالما لا تأويلَ له فلا يَحِلُّ دفع ظلمه بما فيه فتنة بين الأمة ، وبما فيه شر أعظم من ظلمه . بل يُؤمر المظلوم ها هنا بالصبر ، فإن ذلك فى حقه محنة وفتنة .

وإنما يقع المظلوم فى هذا لجَزَعه وضَعْفِ صَبْرِه ، أو لِقِلَّة علمه وضعْفِ رأيه . فإنه قد يحجب أن القتال ونحوَه من الفِتَن يدفع الظلم عنه ، ولا يعلم أنه يضاعفُ الشر كما هو الواقع ، وقد يكون جزعُه يمنعه من الصبر .

والله سبحانه وصف الأئمة بالصبر واليقين ، فقال : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [سورة السجدة : ٢٤] . وقال ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [سورة العصر : ٣] .

وذلك أن المظلوم ، وإن كان مأذوناً له فى دفع الظلم عنه بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّنْ سَبِيلٍ ﴾ [سورة الشورى : ٤١] ، فذلك مشروط بشرطين :

أحدهما : القدرة على ذلك .

والثانى : ألا يَعْتدِى .

فإذا كان عاجزا ، أو كان الانتصار يُفضى إلى عدوان زائد ، لم

---

(١) فى الأصل : متأول مخطىء ، وهو خطأ .

يَجزْ . وهذا هو أصل النهى عن الفتنة ؛ فكان إذا كان المنتصر عاجزا ، وانتصاره فيه عدوان ، فهذا هذا .

ومع ذلك فيجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بحسب إظهار السُّنَّة والشريعة ، والنهى عن البدعة والضلالة بحسب الإمكان . كما دَلَّ على وجوب ذلك الكتابُ والسنةُ وإجماع الأمة .

وكثيرٌ من الناسِ قد يرى تعارض الشريعة فى ذلك فيرى أن الأمر والنهى لايقوم إلا بفتنة ، فإما أن يؤمر بهما جميعا ، أو يُنهى عنهما جميعا . وليس كذلك ، بل يؤمر وينهى ويصبر عن الفتنة ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ واصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ ص ١٣ [سورة لقمان : ١٧] ،

وقال عبادة : « بايعنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى عُسْرنا ويُسْرنا ومَنْشطِنا ومكرهنا وأَثَرة علينا ، وألاَّ ننازع الأمر أهلَه ، وأن نقوم أو نقول بالحق حيث ما كُنَّا ، لانخافُ فى الله لَوْمَة لائِمٍ »[1] ، فأمرهم بالطاعة ونهاهم عن منازعة الأمر أهلَه ، وأمرهم بالقيام بالحق .

(١) الحديث عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه فى : البخارى ٤٧/٩ (كتاب الفتن ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : ستروِن بعدى أمورا تنكرونها) ؛ مسلم ١٤٧٠/٣-١٤٧١ (كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية وتحريمها فى المعصية) ؛ سنن النسائى (بشرح السيوطى) ١٢٤/٧-١٢٦ (كتاب البيعة ، باب البيعة على السمع والطاعة ، وباب البيعة على أن لاننازع الأمر أهله ، وباب البيعة على القول بالحق ، وباب البيعة على القول بالعدل ، وباب البيعة على الأثرة) ؛ سنن ابن ماجة ٩٥٧/٢ (كتاب الجهاد ؛ باب البيعة) ، الموطأ ٤٤٥/٢-٤٤٦ (كتاب الجهاد ، باب الترغيب فى الجهاد) ؛ المسند (ط.الحلبى) ٤٤١/٣ ، ٣١٤/٥ ، ٣١٦ . وجاء الحديث فى مواضع أخرى فى المسند .

ولأجل مايُظن من تعارض هذين تعرض الحيرة فى ذلك لطوائف[١] من الناس . والحائر الذى لايدرى – لعدم ظهور الحق ، وتميز المفعول من المتروك – ما يفعل ؛ إما لخفاء الحق عليه ، أو لخفاء ما يناسب هواه عليه .

والبدعة مقرونة بالفُرقة ، كما أن السنة مقرونة بالجماعة ؛ فيقال : أهلُ السنة والجماعة ، كما يُقالُ : أهلُ البدعة والفُرقة . وقد بسطنا هذا كله فى غير هذا الموضع .

وإنما المقصود هنا التنبيه على وجه تلازمهما :[٢] موالاة[٣] المفترقَيْن ، وإن كان كلاهما فيه بدعة وفرقة ، أو[٤] كانوا مؤمنين فيوالَوْن بإيمانهم ، ويُترك ما ليس من الإيمان من بدعة وفرقة . فإن البدعة ما لم يشرعه الله من الدين . فكل من دَانَ بشئٍ لم يشرعه الله فذاك بدعة وإن كان متأولا فيه .

وهذا موجود من جميع أهل التأويل المفترقين من الأوَّلين والآخرين ؛ فإنهم إذا رأَوْا ما فعلوا مأموراً به ولم يكن كذلك ، فليس ما فعلوه سنة ، بل هو بدعةٌ متأوَّلةٌ مجتَهدٌ فيها من المنافقين ، سواء كانت فى الدنيا أو فى الدين .

كما قال تعالى : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا

---

(١) فى الأصل : الطوائف .
(٢) فى الأصل : لازمها .
(٣) فى الأصل :مولاة .
(٤) فى الأصل : وأو .

خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ [سورة التوبة :٤٧][١] ، وقال : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [سورة آل عمران :٧] .

وتجد أئمة أهل العلم من أهل البدعة والفرقة من أهل الإيمان والنفاق يُصنِّفون لأهل السيف والمال من الملوك والوزراء فى ذلك ؛ ويتقربون إليهم بالتصنيف فيما يوافقهم ، كما صَنَّف كتاب « تحليل النبيذ » لبعض الأمراء وهو الكرخى[٢] ، وقد صنَّف الجاحظ[٣] قبله كتاباً لكن أظنه/ مطلقاً[٤] ، وكما صنف ابن فُورَك[٥] كتابا فى مذهب ابن كُلَّاب[٦] ظ ١٣

(١) سقط من كلمات الآية الكريمة فى الأصل : « يبغونكم الفتنة»

(٢) لعله أبو الحسن عبيد الله بن الحسين الكرخى ، فقيه انتهت إليه رياسة الحنفية بالعراق . ولد سنة ٢٦٠ وتوفى ببغداد سنة ٣٤٠ . أثنى عليه الذهبى فى «العبر» ٢٥٥/٢ فقال عنه : «كان قانعا متعففا عابدا صوّاما قوّاما كبير القدر» . وانظر ترجمته فى : الجواهر المضية ، ص ٣٣٧ ؛ الأعلام ٣٤٦/٤ . ولكن قال عنه ابن حجر فى لسان الميزان ٩٨/٤-٩٩ : «رماه أبو الحسن بن الفرات بالاعتزال» .

(٣) أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى الليثى الشهير بالجاحظ ، ولد سنة ١٦٣ وتوفى سنة ٢٥٥ (وقيل سنة ٢٥٠) من أئمة المعتزلة ورأس فرقة الجاحظية المنسوبة إليه ، ومن أئمة الأدباء ، مولده ووفاته فى البصرة . انظر عنه وعن مذهبه : وفيات الأعيان ١٤٠/٣ - ١٤٤ شذرات الذهب ١٢١/٢ - ١٢٢ معجم الأدباء لياقوت الحموى ؛ (ط . القاهرة) ٧٤/١٦ - ١١٤ لسان الميزان ٣٣٥/٤ - ٣٥٧ ؛ الأعلام ٢٣٩/٥ - ٢٤٠ ؛ فضل الاعتزال ، ص ٧٣ ، ٢٧٥ - ٢٧٧ ؛ الملل والنحل ٧١/١ - ٧٢ ؛ الفرق بين الفرق ص ١٠٥ - ١٠٦ ؛ المعتزلة لجار الله ، ص ١٤٥ - ١٤٨ .

(٤) مطلقا : كذا بالأصل ، وأخشى أن تكون العبارة ناقصة أو محرفة

(٥) أبو بكر محمد بن الحسن بن فُورَك الأنصارى الأصبهانى ، فقيه شافعى ومتكلم أشعرى ، توفى سنة ٤٠٦ . انظر ترجمته فى : طبقات الشافعية ١٢٧/٤-١٣٥ ؛ تبيين كذب المفترى ، ص٢٣٢-٢٣٣ ؛ وفيات الأعيان ٤٠٢/٣ ؛ النجوم الزاهرة ٢٤٠/٤ ؛ الأعلام ٣١٣/٦. وانظر مقدمة كتاب « مشكل الحديث وبيانه » لابن فورك ، تحقيق الأستاذ موسى محمد على ، ص ١٤-٢٦ .

(٦) أبو محمد عبد الله بن سعيد بن محمد بن كُلَّاب (بضم الكاف وتشديد اللام) القطّان المتوفى بعد =

الرئيسى[١] ، وكما صنف أبو المعالى « النظامية » و« الغياثى »[٢] لنظام الملك[٣] ، وكما صنف الرازى[٤] كتاب « الملخّص فى الفلسفة »[٥]

= سنة ٢٤٠ بقليل . قال عنه ابن حزم إنه شيخ قديم للأشعرية .انظر عنه وعن مذهبه : لسان الميزان ٢٩٠/٣–٢٩١ ؛ طبقات الشافعية ٥١/٢ ؛ الفهرست لابن النديم ، ص ٢٥٥–٢٥٦ ؛ مقالات الأشعرى ٢٩٨/١–٢٩٩ ، ٥٢/٢ ، ٥٤ ، ١١٨ ، ٢٠٢–٢٠٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٤٥ ؛ الخطط للمقريزى ٣٥٨/٢ ، ٣٥٩ ؛ نهاية الإقدام ، ص ١٨١ ، ٢٠٣ ؛ الملل والنحل ١٤٨/١ ؛ أصول الدين ص٨٩ ، ٩٠ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٢٣ ، ١٣٢ ، ٢٢٢ ، ٢٥٤ ؛ الفصل لابن حزم ١٢٣/٢ ، ٢٠٨/٤ .

(١) فى الأصل : مذهب ابن كلاب الرئيسى العصمى : والعبارة محرفة كما هو ظاهر ، وأثبت كلمة «الرئيسى» وقد تكون وصفا لمذهب ابن كلاب ، وإن كنت أرجح أن الكلمتين محرفتان .

(٢) فى الأصل : «النظامية» والعابى (بدون نقط) . أما الكلمة الأولى فتشير إلى « العقيدة النظامية فى الأركان الإسلامية » التى حققها ونشرها الشيخ محمد زاهد الكوثرى فى مطبعة الأنوار بمصر ١٣٦٧/١٩٤٨ ، وحققها ونشرها بعد ذلك الدكتور أحمد حجازى السقا ، بمكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ١٣٩٨/١٩٧٨ . وانظر مقدمة الدكتور السقا للعقيدة النظامية ، ص ٤–٩ وانظر أيضا كتاب «الجوينى إمام الحرمين» للدكتوره فوقية حسين محمود ، ص٥٩–١١٩ ، ضمن سلسلة أعلام العرب ، القاهرة ، ١٣٨٤/١٩٦٤ . وأما الكلمة الثانية فهى كما أثبتها فى الأصل تشير إلى كتاب «الغياثى» للجوينى ، وهو الذى رجح الدكتور عبد العظيم الديب فى كتابه « إمام الحرمين » (ص ٦٢ – ٦٣ ، ط . دار القلم ، الكويت ، ١٤٠١/ ١٩٨١) أنه هو كتاب «غياث الأمم فى التياث الظلم » أو « غياث الأمم فى الإمامة » وخالف بذلك بروكلمان والشيخ الكوثرى .

(٣) أبو على نظام الملك الحسن بن على بن إسحاق الطوسى ، الملقب بقوام الدين ، ولد سنة ٤٠٨ واغتيل سنة ٤٨٥ . كان وزيرا للسلطان إلب أرسلان وبقى فى خدمته عشر سنين ثم خلفه ولده ملك شاه فصار الأمر كله لنظام الملك وأقام على هذا عشر سنين . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ٣٩٥/١–٣٩٨ ؛ الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٧٠/١٠–٧٢ ؛ الأعلام ٢١٩/٢ .

(٤) أبو عبد الله ، فخر الدين ، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين ، التيمى البكرى الرازى ، ويعرف بابن الخطيب ، وبابن خطيب الرى ، ولد سنة ٥٤٤ وتوفى سنة ٦٠٦ . من أئمة الأشاعرة الذين مزجوا المذهب الأشعرى بالفلسفة والاعتزال . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ٣٨١/٣–٣٨٥ ؛ شذرات الذهب ٢١/٥ ؛ طبقات الشافعية ٣٣/٥–٤٠ ؛ لسان الميزان ٢٤٦/٤–٢٤٩ ؛ الأعلام ٢٠٣/٧ .

(٥) فى الأصل : المخلص فى الفلسفة ، وهو تحريف والأرجح أن الكتاب هو كتاب «الملخص فى =

لوزير وقته[1] زهير ، وكتابا فى أحكام النجوم لملك وقته علاء الدين[2] وكتابا فى السحر وعبادة الأوثان لأم الملك[3] .

وكما صنّف السهروردى الحلبي المقتول[4] « الألواح العمادية » فى المبدأ والمعاد لعماد الدين قره أرسلان بن داود[5] ، وقال فيه : « لما

= الحكمة والمنطق» ذكره الأستاذ محمد صالح الزركان رحمه الله فى كتابه «فخر الدين الرازى وآراؤه الكلامية والفلسفية » ص ٩٠ (ط. دار الفكر ، بيروت ، بدون تاريخ) ، وذكر أن منه نسخا خطية فى استانبول وغيرها . وذكره ابن تيمية فى «درء تعارض العقل والنقل» ٥/١٢٥-١٢٦ وسماه «ملخصه» ونقل منه كلاما استغرق عشرة أسطر .

(١) فى الأصل : الوزير وقته ، وهو تحريف .

(٢) يقول الأستاذ الزركان (المرجع السابق ، ص ٢٠-٢١) : «واتجه (الرازى) إلى خراسان حيث اتصل بالسلطان علاء الدين تكش المعروف بخوارزم شاه ، وعمل عنده مربيا لولده محمد فحظى عنده» ثم يتكلم (فى ص ١٠٨ من نفس المرجع) عن كتاب «الأحكام العلائية فى الأعلام السماوية» ويذكر أنه : «ألفه للسلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه ، ولذلك اشتهر بالاختيارات العلائية ثم عربه بعضهم» وذكر أن من الكتاب نسخا خطية كثيرة نص على أماكنها وأرقامها .

(٣) وهو كتاب «السر المكتوم (فى مخاطبة الشمس والقمر والنجوم)» . انظر ماذكره عنه الاستاذ الزركان فى المرجع السابق (ص ١٠٩-١١١) وقد صحح نسبته إلى الرازى وتكلم عن نسخ خطية كثيرة منه اطلع على واحدة منها ، وذكر أن الكتاب قد طبع فى بومباى بالهند وأشار إليه بروكلمان ٦٦٩/١ .

(٤) شهاب الدين أبو الفتوح يحيى بن الحسن بن أميرك السهروردى ، المولود بسهرورد سنة ٥٤٩ ، وقتل بحلب سنة ٥٧٨ ، وعرف بفلسفته الإشراقية . انظر عنه وعن آرائه : وفيات الأعيان ٣١٢/٥-٣١٨ ؛ لسان الميزان ١٥٦/٣-١٥٨ ؛ النجوم الزاهرة ١١٤/٦-١١٥ ؛ الأعلام ١٦٩/٩-١٧٠ . وانظر كتاب «أصول الفلسفة الإشراقية» تأليف الدكتور محمد على أبى ريان ، ط. الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٤٥ ؛ الكتاب التذكارى للسهروردى فى الذكرى المئوية الثامنة لوفاته ، أشرف عليه الدكتور إبراهيم مدكور ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٣٩٤/١٩٧٤ .

(٥) فى الأصل : لمعاد الدين قر أرسلان بن داود ، وهو تحريف . وسبق أن « رجحت فى جامع الرسائل ، ص ٥٢ » أن يكون للسهروردى كتاب بعنوان «الألواح العمادية» وآخر بعنوان «المبدأ والمعاد» ، واعتمدت فى ذلك على ماذكره أستاذى الدكتور محمد مصطفى حلمى رحمه الله فى مقاله : آثار السهروردى المقتول ، ص ١٥٨-١٥٩ ، مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول (القاهرة) ، مايو سنة ١٩٥١ ، ثم ماذكره فى تعليقه على مقال فان دن برغ «السهروردى» فى دائرة المعارف الإسلامية حيث =

تواترت لدى مكاتبات الملك فلان ، وقد أمرنى بتحرير عجالة شديدة الإيجاز ، بيِّنة الإعجاز ، تتضمن ما لابد من معرفته فى المبدأ والمعاد ، على مايراه من متألهة وأساطين الفضلاء ، فبادَرْتُ إلى امتثال مرسومه ، وتحصيل مطلوبه ، وكنت قد صادفت مختصرات صنَّفها بعض المتأخرين لأمراء زمانهم ، وملوك أزمانهم (١) وسمعت أنها ما انتفعوا بها ، لأنهم عدلوا عن مصلحة التعليم ، وطريق التفهيم ، وما غيَّروا شيئا من الاصطلاحات الغامضة المأخذ ، ففوَّتوا الرعايه لفائِدة جزئية [لا] لمصلحة كلية (٢) » .

= أورد الدكتور حلمى ثبتا بمؤلفات السهروردى ذكر منها «رقم ٥-الألواح العمادية : وهو كتاب فى العلوم الحكمية ومصطلحاتها ، رقم ٩-المبدأ والمعاد : وهو بالفارسية ولم يذكره أحد غير الشهرزورى» . ثم إنى وجدت أن ابن تيمية قد ذكر فى كتابه «الرد على المنطقيين» (ص ٣٩٠) عبارة جاء فيها : «فى كتابه المبدأ والميعاد الذى سمّاه الألواح العمادية» وعلى ذلك فعنوان الكتاب هو «الألواح العمادية» فقط وموضوعه هو معرفة المبدأ والمعاد كما جاء فى عبارته هنا حيث قال : « ..تتضمن ما لابد من معرفته فى المبدأ والمعاد » وعلى ذلك يجب تصحيح العبارة التى أثبتها فى جامع الرسائل (ص ٥٢) بحيث توافق ما أثبته هنا . ولا يمنع هذا من وجود كتاب آخر غير «الألواح العمادية» بعنوان «المبدأ والمعاد» ، إلا أن يكون هو نفس كتاب «الألواح العمادية» ويكون الخطأ من الشهرزورى فى كتابه «نزهة الأرواح وروضة الأفراح» (ومنه نسخة مصورة بمكتبة جامعة للقاهرة رقم ٢٤٠٣٧ تاريخ وفلسفة) وانظر ماذكره الدكتور محمد على أبو ريان فى كتابه «أصول الفلسفة الإشراقية » فقد ذكر فى ص ٤٦ منه مايلى : «الألواح العمادية– مهداة إلى عماد الدين قره أرسلان داود بن أرتق ، ومنها نسخة فارسية » وعلق على ذلك بقوله : إنه سيعد الكتاب للنشر إن شاء الله ، ثم تكلم الدكتور أبو ريان عن الكتاب بالتفصيل (ص ١٠٦–١٠٨) وذكر أن عماد الدين قرة أرسلان من أمراء دولة السلاجقة فى بلاد الأناضول ، وأن المطلب الهام الذى يريد أن يصل إليه السهروردى من هذا الكتاب «هو معرفة المبدأ وما يتعلق به من الصفات والأفعال ، ومعرفة معاد الإنسان بعد فناء البدن والزوال» .

(١) فى الأصل : وملوك إيمانهم ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل تقرأ العبارة هكذا : «فعولوا لرعاية فايدة حزيه مصلحه كليه» والعبارة محرفة ، ولعل ما أثبته أقرب شئ إلى سياق الكلام .

وكما صنَّف صاحب دعوة « البلاغ الأكبر » والناموس الأعظم[١] .

« فصل »

فساد قول المتكلمين : إن الفقه من باب الظنون ، وبيان أنه أحق باسم العلم من الكلام

مهم ، عظيم القدر فى هذا الباب

وذلك أن طوائف كبيرة من أهل الكلام من المعتزلة ، وهو أصل هذا الباب ؛ كأبى على[٢] وأبى هاشم[٣] ، وعبد الجبار[٤] وأبى

(١) لم يذكر ابن تيمية اسم صاحب «البلاغ الأكبر» . وذكر ابن النديم فى كتابه «الفهرست» (ص ٢٦٨ ط. التجارية) الكتاب وأسماه «كتاب البلاغ السابع» ولم يذكر اسم المؤلف . أما محمد بن الحسن الديلمى فذكر فى كتابه «بيان مذهب الباطنية وبطلانه» (تحقيق شتروطمان ، استانبول ، ١٩٣٨) اسم الكتاب مرات عديدة (انظر فهرست الكتاب : كتاب البلاغ الأكبر) ونقل منه نصوصا أو لخصها ونص (فى ص ٤٢-٤٣) على أن مؤلفه هو أبو القاسم القيروانى .

(٢) أبو على محمد بن عبد الوهاب الجبائى البصرى ، من أئمة المعتزلة بالبصرة ، وإليه تنسب فرقة الجبَّائية ، ونسبته إلى «جبى» من قرى البصرة . ولد سنة ٢٣٥ وتوفى سنة ٣٠٣. انظر ترجمته ومذهبه فى : ابن المرتضى : المنية والأمل ، ص ٤٥-٤٨ ؛ شذرات الذهب ٢٤١/٢ ؛ الخطط للمقريزى ٣٤٨/٢ ؛ لسان الميزان ٢٧١/٥ ؛ وفيات الأعيان ٣٩٨/٣-٣٩٩ ؛ طبقات الشافعية ٢٥٠/٢ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١١٠-١١١ ؛ الملل والنحل ١١٨/١-١٢٩ ؛ اللباب ٢٠٨/١ ؛ الأعلام ١٣٦/٧ ؛ Brok: GAL,SI, 342.

(٣) أبو هاشم عبد السلام بن أبى على محمد الجبائى ، كان- مثل أبيه - من كبار معتزلة البصرة ، والفرقة التى تنسب إليه هى فرقة «البهشمية» وقد توفى سنة ٣٢١ . انظر عنه وعن مذهبه : ميزان الاعتدال ٦١٨/٣ ؛ تاريخ بغداد ٥٥/١١-٥٦ ؛ وفيات الأعيان ٣٥٥/٢ ؛ الخطط للمقريزى ٣٤٨/٢ ؛ الملل والنحل ١١٨/١-١٢٩ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١١١-١١٩ ؛ التبصير فى للدين ، ص ٥٣-٥٤ ؛ الأعلام ١٣٠/٤-١٣١ .

(٤) هو القاضى عماد الدين أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد الهمدانى الأسدابآدى ، شيخ المعتزلة فى عصره ، وهم يلقبونه قاضى القضاة ، توفى سنة ٤١٥ ، وله مؤلفات كثيرة أهمها «المغنى فى العدل والتوحيد» و«شرح الأصول الخمسة» و«تثبيت دلائل النبوة» و«تنزيه القرآن عن المطاعن» . انظر ترجمته ومذهبه فى : شرح العيون للجشمى (ضمن كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، تحقيق الاستاذ =

الحسين[١] وغيرهم ، ومن اتبعهم [من][٢] الأشعرية ، كالقاضي أبي بكر[٣] وأبي المعالي وأبي حامد[٤] والرازي ، ومن إتبعهم من الفقهاء يعظّمون أمر الكلام الذي يسمّونه أصول الدين ، حتى يجعلون مسائله

= فؤاد سيد ، الدار التونسية للنشر ، ١٣٩٣/١٩٧٤) ص ٣٦٥-٣٧١ ؛ طبقات الشافعية ٩٧/٥-٩٨ ؛ لسان الميزان ٣٨٦/٣-٣٨٧ ؛ تاريخ بغداد ١١٣/١١-١١٥ ؛ شذرات الذهب ٢٠٢/٣-٢٠٣ ؛ الأعلام ٤٧/٤ .

(١) أبو الحسين محمد بن على الطيب البصري ، من متأخري المعتزلة ومن أئمتهم ، توفي سنة ٤٣٦ . انظر ترجمته ومذهبه في : وفيات الأعيان ٤٠١/٣-٤٠٢ ؛ شذرات الذهب ٢٥٩/٣ ؛ تاريخ بغداد ١٠٠/٣ ؛ لسان الميزان ٥٩٨/٥ ؛ الملل والنحل ١٣٠/١-١٣١ ؛ نهاية الإقدام ، ص ١٥١ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ٢٢١ ، ٢٥٧ ؛ منهاج السنة (ط. دار العروبة) ٢٧٩/١-٢٨٠ ، ٩١/٢ ، ٢١٣ .

(٢) من : ساقطة من الأصل .

(٣) محمد بن الطيب بن محمد ، أبو بكر ، القاضي المعروف بابن الباقلاني أو الباقلاني . ولد في الربع الأخير من القرن الرابع ، وعاش في بغداد ، وتوفي سنة ٤٠٣ . وهو يعد أعظم الأشاعرة بعد الأشعري ، وقد ألف كتبا كثيرة نقد فيها الفلسفة والمنطق والملل المختلفة ، ومن أهمها كتاب «الدقائق» وهو مفقود . انظر ترجمته في : شذرات الذهب ١٦٠/٣-١٧٠ ؛ تبيين كذب المفترى ، ص ٢١٧-٢٢٦ ؛ وفيات الأعيان ٤٠٠/٤-٤٠١ ؛ تاريخ بغداد ٣٧٩/٥-٣٨٣ ؛ الأعلام ٤٦/٧ .

(٤) وهو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، الملقب بحجة الإسلام ، من أئمة الصوفية ، كان أشعري الاعتقاد ، مع تأثر واضح بالفلسفة ، على الرغم من أنه رد على الفلاسفة في كتابه المشهور «تهافت الفلاسفة» ، وقد انتهى بعد الخوض في علم الكلام والفلسفة إلى طريق الصوفية ، إلا أنه خلط التصوف بالفلسفة ، ومهد بآرائه في التصوف لمن جاء بعده من القائلين بالاتحاد ووحدة الوجود ، ولد سنة ٤٥٠ وتوفي سنة ٥٠٥ .انظر عنه وعن مذهبه : وفيات الأعيان ٣٥٣/٣-٣٥٥ ؛ طبقات الشافعية ١٩١/٦-٣٨٩ ؛ شذرات الذهب ١٠/٤-١٣ ؛ تبيين كذب المفترى ، ص ٢٩١-٣٠٦ ؛ الأعلام ٢٤٧/٧-٢٤٨ . وانظر أيضا · الكتاب الخاص بمهرجان الغزالي في دمشق في شوال ١٣٨٠-مارس ١٩٦١ ، نشر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة ١٩٦١ ؛ الدكتور عبد الرحمن بدوي : مؤلفات الغزالي ، نشر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ؛ الحقيقة في نظر الغزالي للدكتور سليمان دنيا ، ط . عيسى الحلبي ، القاهرة ، ١٣٦٧/١٩٤٧ ؛ مقارنة بين للغزالي وابن تيمية للدكتور محمد رشاد سالم ، ط. دار القلم ، الكويت .

قطعية [1] ، ويوهنون [من] [2] أمر الفقه الذى هو معرفة أحكام الأفعال ؛ حتى يجعلوه من باب الظنون لا العلوم .

وقد رتّبوا على ذلك أصولا انتشرت فى الناس حتى دخل فيها طوائف من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث ، لا يعلمون أصلها ولاما تؤول إليه من الفساد ، مع أن هذه الأصول التى ادّعَوْها فى ذلك باطلة واهية ، كما سنبيّنه فى [غير هذا الموضع] [3] . ذلك أنهم لم يجعلوا لله فى الأحكام حكما معيّنا ، حتى ينقسم/ المجتهد إلى مصيب ومخطئ ، بل الحكم فى حق كل شخص ما أدّى إليه اجتهاده . ص ١٤

وقد بيّنا فى غير هذا الموضع ، ما فى هذا من السفسطة والزندقة ، فلم يجعلوا لله حكما فى موارد الاجتهاد أصلا ، ولاجعلوا له على ذلك دليلا أصلا . بل ابن الباقلانى – وغيره – يقول : « وما ثمَّ أمارة فى الباطن ، بحيث يكون ظنٌّ أصحَّ من ظن ، وإنما هو أمور اتفاقية » . فليست الظنون عنده مستندةً إلى أدلة وأمارات تقتضيها ، كالمعلوم فى استنادها إلى الأدلة .

ثم إنه وطائفة – مع هذا – قد أبطلوا أصول الفقه ومنعوا دلالتها،

---

(١) فى الأصل : وقطعية .

(٢) فى الأصل كأنها : ويرهون (بدون نقط). ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : كما سنبينه فى فروع ، والكلام لامعنى له ، وفيه تحريف أونقص ، ولعل ما أثبته هو أقرب شئ إلى سياق الكلام .

حتى سُمُّوا واقفة .والكلام[١] نوعان : أمرٌ وخبر ، فمنعوا دلالة صيغ الأمر عليه ، ومنعوا دلالة صيغ الخبر العام عليه .

ومن فروع ذلك أنهم يزعمون أن ما تكلموا فيه من مسائل الكلام هى مسائل قطعية يقينية ، وليس فى طوائف العلماء من المسلمين أكثرُ تفرّقاً واختلافاً منهم[٢] ، ودعوى كل فريق فى دعوى خصمه ، الذى يقول : إنه قطعى ، بل الشخص الواحد منهم يناقض[نفسه][٣] ، حتى أن الشخصين والطائفتين ، بل الشخص الواحد والطائفة الواحدة ، يدّعون العلم الضرورى بالشئ ونقيضه . ثم مع هذا الاضطراب الغالب عليهم يكفّر بعضهم بعضا ، كما هو أصول الخوارج والروافض والمعتزلة وكثير من الأشعرية .

ويقولون فى آخر أصول الفقه : المصيب فى أصول الدين واحد ، وأما الفروع ففيها كل مجتهد مصيب .

ثم إنهم صنَّفوا فى أصول الفقه ، وهو علم مشترك بين الفقهاء والمتكلمين ، فبنَوْه على أصولهم الفاسدة ، حتى أن أول مسألة منه ، وهى الكلام فى حد الفقه ، لما حدُّوه : بأنه العلم بأحكام أفعال المكلفين

---

(١) فى الأصل : الكلام .
(٢) فى الأصل : عنهم .
(٣) نفسه : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

الشرعية ، أورد هؤلاء كالقاضي أبي بكر والرازي والآمدي[١] ، ومن وافقهم من فقهاء الطوائف كأبي الخطاب[٢] وغيره : السؤال المشهور هنا ، وهو أن الفقه من باب الظنون ؛ لأنه مبني على الحكم بخبر الواحد والقياس/ والعموم والظواهر ، وهي إنما تفيد الظن ؛ فكيف جعلتموه من العلم حيث قلتم : العلم ؟ ظ ١٤

وأجابوا عن ذلك بأن الفقيه قد علم أنه إذا حصل له هذا الظن وجب عليه العمل به ، كما قال الرازي :

« فإن قلت : الفقه من باب الظنون فكيف جعلته علما ؟

قلت : المجتهد إذا غلب على ظنه مشاركة صورة لصورة في مناط الحكم قطع بوجوب العلم بما أدى إليه ظنه ، فالعلم حاصل قطعا ، والظن واقع في طريقه » .

وقد ظن طائفة من الفقهاء الناظرين في أصول الفقه أن هذا الجواب ضعيف ؛ لقوله : العلم حاصل قطعا ، والظن واقع في طريقه .

---

(١) أبو الحسن علي بن محمد بن سالم الثعلبي ، سيف الدين ، الآمدي ، الحنبلي ثم الشافعي المتوفى سنة ٦٣١ . من أئمة الأشاعرة ، وصاحب المصنفات الكثيرة في مذهبهم مثل «أبكار الأفكار» ، «دقائق الحقائق» . انظر ترجمته في : وفيات الأعيان ٢/٤٥٥-٤٥٦ ؛ طبقات الشافعية ٥/١٢٩-١٣٠ ؛ شذرات الذهب ٣/٣٢٣-٣٢٤ .

(٢) هو محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوذاني ، إمام الحنابلة في عصره ، ولد ببغداد سنة ٤٣٢ وتوفي بها سنة ٥١٠ . من كتبه «التمهيد» في أصول الفقه ، ذكر الزركلي في الأعلام – نقلا عن بروكلمان – أن منه نسخة خطية . انظر ترجمته في : طبقات الحنابلة ٢/٢٥٨ ؛ الذيل لابن رجب ١/١١٦-١٢٧ ؛ شذرات الذهب ٤/٢٧-٢٨ ؛ الأعلام ٦/١٧٨ .

قالوا : والحكم بالنتيجة يتبع أضعف المقدمات وأحسن المقدمات ، فالموقوف على الظن أَوْلى أن يكون ظنا .

وليس الأمر كما توهموا ، بل لم يفهموا كلام هؤلاء . فإن هذا الظن ليس هو عندهم دليل العلم بوجوب العلم به ، ولامقدمة من مقدمات دليله ، ولكنهم يقولون : قامت الأدلة القطعية من النصوص والإجماع مثلا على وجوب العلم بالظن الحاصل عن خبر الواحد والقياس ، وذلك العلم حصل بأدلته المفيدة له ، لم يحصل بهذا الظن ولا مقدماته .

لكن التقدير : إذا حصل لك أيها المجتهد ظن فعليك أن تعمل به . وحصول الظن فى النفس وجدىٌّ ؛ يجده المرء فى نفسه ويحسه ، كما يجد علمه ويحسه ، فمعرفته بحصول الظن يقينى ، ومعرفته بوجوب العمل به يقينى . فهاتان مقدمتان علميتان : إحداهما سمعية ، والأخرى وجديه .

وصار هذا كما لو قيل له : إذا حصل لك مرض فى الصوم أنه يجوز لك الفِطْر ، وإذا حصل لك مرض يمنعك القيام فى الصلاة فاعلم أن عليك أن تصلِّيَ قاعداً . فإذا وجد المرض فى نفسه ، علم حينئذ حكم الله بإباحة الفطر وبالصلاة قاعدا ، فهكذا وجود الظن عندهم فى نفس المجتهد .

وإذا عُلم أن هذا حقيقة قولهم ، تبين حينئذٍ فساد ماذكروه من غير تلك الجهة : وهو أن هذا يقتضى ألاَّ يكون الفقه/ إلا العلم بوجوب ص ١٥

العمل بهذه الظنون والاعتقادات الحاصلة عن أمارات[1] الفقه على اصطلاحهم .

ومعلوم أن هذا العلم هو من أصول الفقه ، وهو لايخصّ مسألة دون مسألة ، ولافيه كلام فى شئ من أحكام الأفعال ، كالصلاة والجهاد والحدود وغير ذلك . وهو أمر عام كُلِّيٌّ ، ليس هو الفقه باتفاق الناس كلهم ؛ إذ الفقه يتضمن الأمر بهذه الأفعال ، والنهى عنها : إما علما وإما ظنا .

فعلى قولهم : الفقه هو ظن وجوب هذه الأعمال ، وظن التحريم وظن الإباحة ، وتلك الظنون هى التى دَلَّت عليها هذه الأدلة التى يسمونها الأمارات ، كخبر الواحد والقياس ، فإذا حصلت هذه الظنون حصل الفقه عندهم .

وأما وجوب العلم بهذا الظن ، فهذاك شئ آخر . وهذا الذى ذكروه إنما يصلح أن يُذكر فى جواب من يقول : كيف يسوغ لكم العمل بالظن ؟ فهذا يُورَدُ فى أصول الفقه فى تقرير هذه الطرق ، إذا قيل : إنها إنما تفيد الظن . قيل : وكيف يسوغ اتّباع الظن مع دلالة الأدلة الشرعية على خلاف ذلك ؟

فيقولون فى الجواب : المتبع إنما هو الأدلة القطعية الموجبة للعمل

---

(١) فى الأصل : أمرات ، وهو تحريف .

بهذا الظن ، والعامل بتلك الأدلة متبع للعلم[١] لا للظن ، أما أن يجعل نفس الفقه الذى هو[علم]ظنا[٢]، فهذا تبديل ظاهر . وأتباعهم الأذكياء تفطَّنوا لفساد[٣] هذا الجواب .

وقد تجيب طائفة أخرى – كأبى الخطاب وغيره – عن هذا السؤال ، بأن العلم يتناول[٤] اليقين والاعتقاد الراجح ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ [سورة الممتحنة : ١٠] ، وأن تخصيص لفظ العلم بالقطعيات اصطلاح المتكلمين ، والتعبير هو باللغة لا بالاصطلاح الخاص .

والمقصود هنا ذكر أصلين ، هما : بيان فساد قولهم : « الفقه من باب الظنون » ، وبيان أنه أحقُّ باسم العلم من الكلام الذى يدَّعون أنه علم ؛ وأن طرق الفقه أحق بأن تسمى أدلة من طرق الكلام .

والأصل الثانى : بيان أن غالب مايتكلمون فيه من الأصول ليس بعلم ولاظن صحيح ، بل ظن/ فاسد ، وجهل مركب . ظ ١٥

ويترتب على هذين الأصلين منع التكفير باختلافهم فى مسائلهم ، وأن التكفير فى الأمور العملية الفقهية قد يكون أَوْلى منه فى مسائلهم .

---

(١) فى الأصل : بالعمل . وهو تحريف .

(٢) بعد عبارة «الذى هو» يوجد بياض بمقدار كلمة واحدة ، ولعل ما أثبته هو الصواب .

(٣) فى الأصل : الفساد ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : بأن العلم فى يتناول ، ولعل الصواب ما أثبته .

فنقول : الفقه هو معرفة أحكام أفعال العباد ؛ سواء كانت تلك المعرفة علما أو ظنا أو نحو ذلك .

ومن المعلوم لمن تدبر الشريعة أن أحكام عامة أفعال العباد معلومة لا مظنونة، وأن الظن فيها إنما [هو][1] قليل جدا فى بعض الحوادث لبعض المجتهدين ، فأما غالب الأفعال – مفادها[2] وأحداثها – فغالب أحكامها معلومة ، ولله الحمد . وأعنى بكونها معلومة أن العلم بها ممكن ، وهو حاصل لمن اجتهد واستدل بالأدلة الشرعية عليها ، لا أعنى أن العلم بها حاصل لكل أحد ، بل ولا لغالب المتفقهة المقلّدين لأئمتهم ، بل هؤلاء غالب ماعندهم ظن أو تقليد .

إذ[3] الرجل قد يكون يرى مذهب بعض الأئمة ، وصار ينقل أقواله فى تلك المسائل ، وربما قرَّبها بدليل ضعيف من قياس أو ظاهر ، هذا إن كان فاضلا ، وإلا كفاه مجرد نقل المذهب عن قائله ، إن كان حَسَنَ التصور فَهِماً صادقاً ، وإلا لم يكن عنده إلا حفظ حروفه ، إن كان حافظا ، وإلا كان كاذباً أو مدَّعيا أو مخطئا .

ولاريب أن الحاصل عند هؤلاء ليس بعلم ، كما أن العامة المقلِّدين للعلماء فيما يفتونهم [فإن الحاصل عندهم][4] ليس علما بذلك عن

(١) هو : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .
(٢) فى الأصل : مقادها .
(٣) فى الأصل : إذا .
(٤) عبارة « فإن الحاصل عندهم » : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

دليل يفيدهم القطع ، وإن كان العالم عنده دليل يفيد القطع .

وهذا الأصل الذى ذكرته أصل عظيم ، فلا يصد المؤمنَ العليم عنه صادٌّ ، فإنه لكثرة التقليد والجهل والظنون فى المنتسبين إلى الفقه والفتوى والقضاء ، استطال عليهم أولئك المتكلمون ، حتى أخرجوا الفقه – الذى نجد فيه كل العلوم – من أصل العلم ، لما رأوه من تقليد أصحابه وظنهم .

ومما يوضح هذا الأصل أنه من العلوم أن الظنون غالبا إنما تكون فى مسائل الاجتهاد والنزاع . /فأما مسائل الإيمان والإجماع فالعلم فيها أكثر قطعاً .

ص ١٦

وإذا كان كذلك ، فمن المعلوم أن من أشهر ما تنازعتْ فيه الصحابة – ومَنْ بعدهم – مسائل الفرائض ، كما تنازعوا فى الجد وفروعه ، وفى الكلالة ، وفى حجب الأم بأخوين ، وفى العمريتين : زوج وأبوان ، وزوجة وأبوان[1] ، وفى الجد[2] : هل يقوم مقام الأب فى ذلك ؟ وفى الأخوات مع البنات : هل هى عصبة أم لا ؟ وفيما إذا

(١) فى المغنى لابن قدامة ، بتصحيح الدكتور محمد خليل هراس ٢٣٧/٦ ، ط. مطبعة الإمام ، القاهرة ، بدون تاريخ : «مسألة : قال : وإذا كان زوج وأبوان : أعطى الزوج النصف ، والأم ثلث مابقى ، ومابقى فللأب.وإذا كانت زوجة وأبوان ، أعطيت الزوجة الربع ، والأم ثلث مابقى ، ومابقى فللأب . هاتان المسألتان يسميان العمريتين ، لأن عمر رضى الله عنه قضى فيها بهذا القضاء ، فاتَّبعه على ذلك عثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود» .

(٢) فى الأصل : المجد ، وهو تحريف .

استكمل البنات الثلثين وهناك وَلَدُ ابنٍ ؟ ونحو ذلك من المسائل التى يُحفظ النزاع فيها عن عمر وعثمان وعلىّ وابن مسعود وزيد وابن عباس وغيرهم من الصحابة .

لكن أئمة هذا الباب خمسة : عمر وعلىّ وابن مسعود وزيد وابن عباس . وإذا كانوا تنازعوا فى الفرائض أكثر من غيرها ، فمن المعلوم أن عامة أحكام الفرائض معلومة بل منصوصة(١) بالقرآن . فإن الذى يفتى الناس فى الفرائض قد يقسِّم ألف فريضةٍ منصوصةً فى القرآن مجمعاً(٢) عليها ، حتى تنزل به واحدة مختلف فيها ، بل قد تمضى عليه أحوال لا تجب فى مسألة نزاع .

وأما المسائل المنصوصة المجمع عليها ، فالجوابُ فيها دائمٌ بدوام الموتى . فكل من مات لابد لميراثه من حكم . ولهذا لم يكن شئ من مسائل النزاع على عهد النبى صلى الله عليه وسلم مع وجود الموت والفرائض دائما . ومع أن كل من كان يموت على عهد النبى صلى الله عليه وسلم [فإنه ما وُضِع](٣) قط مال ميت فى بيت مالٍ ، ولا قُسِّم بين المسلمين ، كما كان يقسَّم بينهم الفئ ومال المصالح .

ولكن لما فتحت البلاد ، وكثر أهل الإسلام فى إمارة عمر ، صار

---

(١) فى الأصل : منصوبة ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته ، وسترد هذه الكلمة بعد كلمات قليلة كما أثبتها هنا .

(٢) فى الأصل : مجمع .

(٣) عبارة «فإنه ماوضع» : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

حينئذ يحدث اجتماع الجد والإخوة ، فتكلموا فى ذلك . وكذلك حدثت العمريتان فتكلموا فيها .

هذا مع أن علم الفرائض من علم الخاصة ، حتى أن كثيرا من الفقهاء لايعرفه ، /فهو عند العلماء به من علم الفقه اليقينى المقطوع به ، وليس عند أكثر المتتسبين إلى العلم – فضلا عن العامة – به علم ولاظن ، وذلك كالقضايا التجريبية[1] فى الطب ، هى – عند المجرِّبين لها والعالمين بها من المجرِّبين – معلومة . وأكثر الخائضين فى علوم أُخر – فضلا عن العامة – ليس عندهم علم ولاظن .

ظ ١٦

بل باب الحيض ، الذى هو من أشكل الفقه فى كتاب الطهارة ، وفيه من الفروع والنزاع ماهو معلوم ، ومع هذا أكثر الأحكام الشرعية المتعلقة بأفعال النساء فى الحيض معـلومة . ومن انتصب ليفتى الناس ، يفتيهم بأحكام معلومة متفق عليها مائة مرة ، حتى يفتيهم بالظن مرة واحدة . وإن أكثر الناس لايعلمون أحكام الحيض وما تنازع الفقهاء فيه من أقلّه وأكثره ، وأكثر سنين الحيض وأقله ، ومسائل المتحيرة ، فهذا من أندر الموجود ، ومتى توجد امرأة لاتحيضُ إلا يوماً ؟ وإنما فى ذلك حكايات قليلة جدا[2] ، مع العلم بأن عامةَ بنات آدم يَحضْنَ . كما قال

---

(١) فى الأصل :- التجربية.

(٢) فى الأصل : جد.

النبي صلى الله عليه وسلم : « إن هذا شئ كتبه الله على بنات آدم »[١] .

وكذلك متى توجد فى العالم امرأة تحيض خمسة عشر يوماً أو تسعة عشر ، أو امرأة مستحاضة دائما ، لايُعرف لها عادة ، ولايتميز الدم فى ألوانه ؟ بل الاستحاضة إذا وقعت فغالب النسوة يكون تميزها وعادتها واحدة . والحكم فى ذلك ثابت بالنصوص المتواترة[٢] عن النبي صلى الله عليه وسلم وباتفاق الفقهاء .

ونحن ذكرنا فى الموت الذى هو أمر لازم لكل أحد ، وقَلَّ مَنْ يموت إلا وله شئ ، وفى الحيض الذى هو أمر معتاد للنساء ، وكذلك سائر الأجناس المعتادة ، مثل النكاح وتوابعه ، والبيوع[٣] وتوابعها ، والعبادات والجنايات .

فإن قال قائل : مسائل الاجتهاد والخلاف فى الفقه كثيرة جدا فى/ هذه الأبواب .

ص ١٧

قيل له : مسائل القطع والنص والإجماع بقدر تلك أضعافاً

---

(١) الحديث عن عائشة رضى الله عنها فى : البخارى ٦٢/١-٦٣ (كتاب الحيض ، باب كيف كان بدء الحيض ...) وأوله : خرجنا لا نرى إلا الحج ...؛ مسلم ٨٧٣/٢-٨٧٤ (كتاب الحج ، باب بيان وجوه الإحرام ..) ؛ سنن النسائى ١٤٧/١ (كتاب الحيض ، باب بدء الحيض ..) ؛ سنن ابن ماجة (وفيه عن أم سلمة رضى الله عنها) ٢٠٩/١ (كتاب الطهارة ، باب ما للرجل من إمرأته إذا كانت حائضا).

(٢) فى الأصل : المتواتر.

(٣) فى الأصل : البيوع .

مضاعفة ، وإنما كثرت لكثرة أعمال العباد وكثرة أنواعها ، فإنها أكثر مايعلمه الناس مفصّلا ، ومتى كثر الشئ إلى هذا الحد ، كان كل جزء منه كثيراً ، من ينظرها مكتوبة ، فلا يرتسم فى نفسه إلا ذلك ، كما يطالع تواريخ الناس والفتن ، وهى متصلة فى الخبر ، فيرتسم فى نفسه أن العالم ما زال ذلك فيه متواصلا ، والمكتوب شئ والواقع أشياء كثيرة . فكذلك أعمال العباد وأحكامها ، ولكن أكثر الناس لايعلمون ذلك .

أما غير الخائض فى الفقه فى فنون أخرى فظاهر . وأما الخائض فيه فغالبهم إنما يعرف أحدهم مذهب إمامه ، وقد يعلمه جملة ، لايميز بين المسائل القطعية المنصوصة والمجمع عليها ، وبين مفاريده ، أو ما شاع فيه الاجتهاد . فنجده يفتى بمسائل النصوص والإجماع من جنس فتياه بمسائل الاجتهاد والنزاع ، بمنزلة حمار حمل سِفْراً ينقل نقلا مجردا ، حتى أنه يحكى لأحدهم أن مذهب فلان بخلاف ذلك فيسوِّغ ذلك ، ويكون الخلاف فى ذلك من الممتنعات بين الملل ، فضلا عن أن يختلف فيه المسلمون .

وقد بلغنى من ذلك عن أقوام مشهورين بالفتيا والقضاء ، حتى حَكوْا للملك بلدهم أن [من](١) مذهب الشافعى أن المطلقة ثلاثا تباح بالعقد الخالى عن الوطء ، وصبيان الشافعية يعلمون أن هذا مما لم يختلف فيه مذهبه ، وحتى يحكوا عن مالك أن المتعة عنده جائزة ، وليس فى

(١) من : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

المتبوعين أشد تحريما لها منه ومن أصحابه ، حتى أنه إذا وُقِّت الطلاق عنده ينجز لئلا يصير النكاح مؤقتا كنكاح المتعة .

وأبلغ من ذلك : يحكون فى بلادهم عن مالك حلّ اللواط ، ويُذكر/ذلك لمن هو من أعيان [مذهبه][1] ، فيقول : القرآن دل على تحريمه ، ولا يمكنهم أن يكذِّبوا الناقل ويقولوا[2] : هذا حرام بالإجماع ، مع أن العالَم يعلم أن هذا حرام بإجماع المسلمين واليهود والنصارى والمجوس والصابئين وأكثر المشركين ، لم يستحلّه إلا قوم لوط وبعض الزنادقة من بقية الطوائف ، فلجهل هؤلاء وأمثالهم بالتمييز بين مسائل العلم والقطع ومسائل الاجتهاد ، التبس الأمر عليهم ، فلم يمكنهم أن يحكموا فى أكثر مايُفتى به أنه قطعى ، وهو قطعى معلوم من الدين للعلماء بالدين .

ظ ١٧

لكن هؤلاء ليسوا فى الحقيقة فقهاء فى الدين ، بل هم نَقَلَة لكلام بعض العلماء ومذهبه . والفقه لايكون إلا بفهم الأدلة الشرعية بأدلتها السمعية الثبوتية من الكتاب والسنة والإجماع نصًّا واستنباطاً .

ولكن أولئك المتكلمون كان علم الفقه عندهم هو[3] مسائل

---

(١) مكان كلمة «مذهبه» : بياض بمقدار كلمة واحدة . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ولايمكن أن يكذب الناقل ويقول ، وهو تحريف واضح ، ولعل ما أثبته يوافق سياق الكلام .

(٣) فى الأصل : هى .

الحل[١] والحرام ، وشفعة الجوار ، والجهر بالبسملة ، وتثنية الإقامة وإفرادها ، والجمع بين الصلاتين ، وإزالة النجاسة ، والقود بالمثل[٢] وخيار المجلس والعِوَض بالعقد الفاسد ، والإجارة ، ونحو ذلك من المسائل التى شاع فيها النزاع . لاسيما وقد جرد بعد المائة الثالثة[٣] مسائل الخلاف ، جردها أبو بكر الصيرفى[٤] فيما يغلب على ظنى ، واتّبعه على ذلك الناس ، حتى صنَّفوا كتبا كثيرة فى مسائل الخلاف فقط .

واقتصر أكثر هؤلاء على ما اختلف فيه أبو حنيفة والشافعى .

وأمهات المسائل التى جرَّدوا القول فيها نحو أربعمائة مسألة ، التى توجد فى أمهات التعاليق ، وكتب الخلاف التى صنَّفها الخراسانيون والعراقيون من الطوائف . وإن كانت مسائل الخلاف لمن استوعبها منهم ، كالقاضى أبى يعلى[٥] ، تنتهى إلى ألوف مؤلفة : إما أربعة آلاف[٦] أو أقل/أو أكثر . ولمن اقتصر على كبار كبارها تكون نحو مائة ص ١٨

(١) فى الأصل : الحد .

(٢) فى الأصل : بالمنقل .

(٣) فى الأصل : المثالثة ، وهو تحريف

(٤) أبو بكر محمد بن عبد الله الصيرفى من فقهاء الشافعية ومن علماء الأصول ، كان أعلم الناس بالأصول بعد الشافعى . توفى سنة ٣٣٠ . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ٣/٣٣٧-٣٣٨ ؛ طبقات الشافعية ٣/١٨٦-١٨٧ ؛ طبقات الفقهاء لأبى اسحاق الشيرازى ، ص ١١١ ؛ الأعلام ٧/٩٦ .

(٥) أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء من كبار الحنابلة وعالم عصره فى الأصول والفروع . ولد سنة ٣٨٠ وتوفى سنة ٤٥٨ . انظر ترجمته فى : طبقات الحنابلة (لابنه أبى الحسين محمد بن محمد) ٢/١٩٣-٢٣٠ ؛ تاريخ بغداد ٢/٢٥٦ ؛ شذرات الذهب ٤/٣٠٦-٣٠٧ ؛ الوافى بالوفيات ٣/١٧؛ الأعلام ٦/٣٣١ ؛ بروكلمان GAL الملحق ٣/٥٠٣ .

(٦) فى الأصل : ألف .

مسألة ، كما فعل أبو محمد إسماعيل بن [1] فى تعليقه .

وأما ذلك المقدار فهو الذى يصفه أبو المعالى وأبو إسحاق[2] فى خلافهما، والشريف أبو جعفر[3] ، وأسعد [الميهَنِيّ][4]

---

(١) فى الأصل : أبو محمد إسماعيل بن ، وبعدها بياض بمقدار كلمة . ولم أعرف من هو ، ولكن يتكلم ابن تيمية فى الجزء الرابع من مجموع فتاوى الرياض فى ثلاثة مواضع عن الفقيه أبى محمد (فى ص ١٥ حيث يذكر : فى فتاوى الفقيه أبى محمد ، وفى ص ١٧ حيث يقول : فالفقيه أبو محمد ، وفى ص ٦٥ حيث يقول : ... حتى كان الفقيه أبو محمد بن عبد السلام – فيما علقه عنه – ... ينكر ... الخ) . وعلى ذلك فقد يكون الاسم : أبو محمد إسماعيل بن عبد السلام . ولكننى بحثت فى كتب التراجم عنه فلم أجده .

(٢) المقصود هو : أبو إسحاق إبراهيم بن على بن يوسف الشيرازى ، وهو فقيه شافعى أشعرى الاعتقاد ، وهو صاحب «طبقات الفقهاء» ولد سنة ٣٩٣ وتوفى سنة ٤٧٦ . وذكر الاستاذ إحسان عباس فى مقدمته لكتاب «طبقات الفقهاء» (ط. مطبعة الرائد) بيروت ، لبنان ، ١٩٧٠ ص ٢١ أن السبكى أورد مناظرتين بينه وبين أبى المعالى الجوينى وذكر موضعها فى «طبقات الشافعية» . انظر ترجمته فى : مقدمة طبقات الفقهاء ، ص ٥–٢٢ ؛ وفيات الأعيان ١/٩–١٢ ؛ طبقات الشافعية ٤/٢١٥–٢٥٦ ، الأعلام ١/٤٤–٤٥ .

(٣) فى الأصل : الشريف الرضى ، وهو أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى العلوى الحسينى الاديب والشاعر الشيعى المشهور المتوفى سنة ٤٠٦ ، ولم يعرف عنه التبحر فى علم الفقه ولا الخلاف . ولذلك رجحت أن يكون الصواب ما أثبته ، وقد جاء ذكر الشريف أبى جعفر فى فتنة أبى نصير القشيرى ببغداد سنة ٤٦٩ وكان الشريف أبو جعفر وقتها إمام الحنابلة ببغداد.والشريف أبو جعفر عبد الخالق بن أبى موسى عيسى بن أحمد الهاشمى ، إمام الحنابلة ببغداد فى عصره ، كان شديدا على أهل البدع فحبس ، فضج الناس فأطلق . ولد سنة ٤١١ وتوفى سنة ٤٧٠ . انظر ترجمته فى : الذيل لابن رجب ١/١٥–٢٦ ؛ المنتظم لابن الجوزى ٨/٣١٥–٣١٧ ؛ الأعلام ٤/٦٣ .

(٤) فى الأصل : أسعد ، وبعدها بياض بمقدار كلمة . ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته . وهو أسعد بن محمد بن أبى نصر ، أبو الفتح الميهَنِيّ . قال السبكى فى ترجمته : «نسبة إلى مِيهَنَةَ ، قرية بين سرخس وأبِيَوْرد . هو الإمام الكبير النظّار ، صاحب الطريقة ، المتفق على أنه الفَرْد فى علم الخلاف» . توفى سنة ٥٢٧ على الأرجح . انظر ترجمته فى : طبقات الشافعية ٧/٤٢–٤٣ ؛ شذرات الذهب ٤/٨٠ (وسمّاه : الميهنى) ؛ العبر ٤/٧١ .

والسمعانى[١] ونحوهم ، ويصفه أبو الخطاب فى «انتصاره»[٢] ، وابن عقيل فى «نظرياته»[٣] ، وكذلك ابن يساره والعالمى[٤] ونحوهم من أصحاب أبى حنيفة ، وإن كان فى «عمد الأدلة»[٥] تبع شيخه القاضى فى استيعاب مافى تعليق القاضى[٦] [من][٧] هذه المسائل والنزاع فيها ، وشهد أنها مسائل اجتهاد ظنية .

واشتهار أصحابها بعلم الفقه هو من الشبهة التى أوجبت[٨]

---

(١) فى الأصل : السمعلى . ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته . وأرجح أن يكون المقصود هو : أبا المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعانى التميمى الحنفى ثم الشافعى ، المولود سنة ٤٢٦ ، والمتوفى سنة ٤٨٩ .كان مفتى خراسان ، قدّمه نظام الملك على أقرانه فى مرو ، وله كتاب «القواطع» فى أصول الفقه ، وكتاب «الانتصار لأصحاب الحديث». انظر ترجمته فى : طبقات الشافعية ٣٣٥/٥-٣٤٦ ؛ شذرات الذهب ٣٩٣/٣-٣٩٤ ؛ العبر ٣٢٦/٣ ؛ الأعلام٢٤٣/٨-٢٤٤ .

(٢) سبقت ترجمة أبى الخطاب الكلوذانى ، والكتاب الذى يشير إليه ابن تيمية هنا هو على الأرجح كتاب «الانتصار فى المسائل الكبار» له ، وذكر الزركلى فى الأعلام ١٧٨/٦ أن منه نسخة (أو نسخا) خطية ، وأشار إلى ماذكره عنه بروكلمان فى GAL (٣٩٩) ٥٠٢ والملحق ٦٨٧/١ .

(٣) فى الأصل : نظرفانه (بدون نقط ماعدا نقطة الفاء) ورجحت أن يكون الصواب ما ذكرته ، فإن ابن رجب يذكر فى الذيل ١٥٦/١ من كتب ابن عقيل كتاب «المجالس النظريات» فلعله المقصود هنا .

(٤) ابن يساره والعالمى : كذا بالأصل ولم أعرف من هما ، والأرجح أن الاسمين محرفان .

(٥) كتاب «عمد الأدلة» من كتب ابن عقيل . وذكر ابن تيمية فى مجموع فتاوى الرياض ٢٢٧/٢٠ رداً على سؤال وجه إليه مايلى : «أما هذه الكتب التى يذكر فيها روايتان أو وجهان ولايذكر فيها الصحيح ، فطالب العلم يمكنه معرفة ذلك من كتب أخرى مثل كتاب «التعليق» للقاضى أبى يعلى و«الانتصار» لأبى الخطاب و«عمد الأدلة» لابن عقيل ... وغير ذلك من الكتب الكبار التى يذكر فيها مسائل الخلاف» . وسماه ابن رجب فى الذيل ١٥٦/١ : عمدة الأدلة» .

(٦) الأرجح أن المقصود هنا هو القاضى أبو يعلى .

(٧) مكان حرف «من» بياض بالأصل ، ولعل إثباته يوافق سياق الكلام .

(٨) فى الأصل : أوجب .

للمتكلمين ، ولهؤلاء الفقهاء المختلفين ، ولكثير من المفتين[١] وغيرهم ، أن يجعلوا الفقه من باب الظنون والاجتهاد .

ولهذا كان ظهور هذا القول مع ظهور مسائل الخلاف هذه ، وذلك مع ظهور بدع كثيرة وتغير أمور الإسلام ، وضعف الخلافة حتى استولى عليها الديالم ، وظهر حينئذ من مذهب القرامطة[٢] والباطنية[٣] والرافضة والمعتزلة ما عمّ أكثر الأرض ، وأُخذ من المسلمين كثيرٌ من ثغورهم الشامية وغيرها ، وانتشرت[٤] حينئذ بدعُ متكلِّمة الصفاتية وغيرهم ، وصار هذا الفقه من باب اتّباع الظن وماتهوى الأنفس .

---

(١) فى الأصل : لكثير من المفتيين ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) القرامطة من الباطنية وهم الذين ينتسبون إلى حمدان بن الأشعث الذى كان يلقب بقرمط لقرمطة فى خطّه أو خطوه ، وإليه تنسب القرامطة (القرمطة كما فى القاموس المحيط : دقة الكتابة ومقاربة الخطو) وقال ابن الجوزى فى المنتظم : إنه كان يسمى كرمتيه لحمرة عينيه وهو بالنبطية حار العين (لعلها : حمار العين) انظر عن القرامطة : الفرق بين الفرق لابن طاهر ص ٢٨١-٢٩٣ (بتحقيق الاستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط صبيح ، بدون تاريخ) ؛ مقالات الأشعرى ٩٨/١ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، مقالة حمدان قرمط لهيوار ؛ الحضارة الاسلامية لآدم ميتز ٤٥/٢-٤٩ ؛ المنتظم لابن الجوزى ١١٠/٥-١١٩ .

(٣) هم الذين جعلوا لكل ظاهر من الكتاب باطنا ، ولكل تنزيل تأويلا ، ويذكر الشهرستانى فى الملل والنحل ٤٢٧/١ أن الباطنية القديمة كانت تخلط كلامها ببعض كلام الفلاسفة ، أما الباطنية فى زمانه فيجعلهم هم والإسماعيلية الغلاة فرقة واحدة ، وذكر أنهم يسمون فى العراق الباطنية والقرامطة والمزدكية ، وفى خراسان بالتعليمية والملحدة ، وذكر البغدادى فى : الفرق بين الفرق (ص ١٩٦) أن الذين أسسوا دعوة الباطنية جماعة منهم ميمون بن ديصان المعروف بالقداح ، ومحمد بن حسين الملقب بدندان . وانظر عنهم : الملل والنحل ٤٢٦/١-٤٤٧ ؛ الفرق بين الفرق ص ١٦٩-١٨٨ ؛ كشاف اصطلاحات الفنون ١٥٢/١ ؛ دائرة المعارف الإسلامية مادة «الباطنية» .

(٤) فى الأصل : وانتشر .

وكذلك مال كثير من طلاب العلم إلى مايظنونه علما غير الفقه : إما الكلام وإما الفلسفة ، فإن النفس تطلب ما هو علم ، وتنفر ممّا هو شك وظن ، وهذا محمود منها .

وكان من سبب هذا أنهم تفقهوا لغير الدين وذلك مما ذُمُّوا عليه .

كما جاء ذلك فى حديث رواه [أبو هريرة وعلىّ رضى الله عنهما][1] يقول فيه [النبى صلى الله عليه وسلم][2] : « إذا اتُّخِذ المالُ دولا ، والأمانةُ مغنماً ، والزكاة/ مغرما ، وتفقه لغير الدين وأطاع الرجلُ امرأته ، وعقّ أمَّه ، وأدْنَى صديقَه ، وأقْصَى أباه ، ورُفِعت الأصواتُ فى المساجد ، وأُكرِمَ الرجلُ مخافة شره ، وسادَ القبيلةَ فاسقُها ، وكان زعيم[3] القومِ أرذلُهم - فلينتظروا عند ذلك ريحاً حمراء[4] ، وفتنا تتابَعُ[5] كنظامٍ بالٍ قُطِعَ سلكه فتتابع »[6] .

ظ ١٨

(١) بعد كلمة «رواه» بياض بمقدار كلمتين ، والحديث رواه أبو هريرة وعلىّ رضى الله عنهما .

(٢) زدت عبارة : «النبى صلى الله عليه وسلم» ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : زعمتم ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : «حمراً» بتنوين النصب ، والمثبت هو الذى فى روايتى الحديث .

(٥) فى رواية أبى هريرة :«ريحا حمراء وخسفا ومسخا وقذفا وآيات تتابع ...

(٦) الحديث بهذا اللفظ قريب من رواية أبى هريرة التى جاءت فى : سنن الترمذى (ط . المدينة المنورة) ٣٣٥/٣ - ٣٣٦ وأوله : إذا اتُّخِذ الفئ دولا ، والأمانة مغنما . . . وقال الترمذى فى آخره : «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه» . وجاء الحديث بلفظ مقارب عن علىّ رضى الله عنه فى نفس الموضع ٣٣٤/٣ - ٣٣٥ (كتاب الفتن ، باب ما جاء فى أشراط الساعة (باب منه) وأوله : إذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء . قيل : وما هى يا رسول الله ؟ قال : إذا كان المغنم دولا . . . وقال الترمذى : «هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث على إلا من هذا الوجه . ولا نعلم أحداً روى هذا الحديث عن يحيى بن سعيد الأنصارى غير الفرج ابن فضالة . وقد تكلم فيه بعض أهل الحديث ، وضعّفه من قبل حفظه ، وقد روى عنه وكيع وغير واحد من الأئمة .

وكان هذا[١] ما هو من أشراط الساعة الوسطى من ظهور الجهل ورفع العلم ، وكثرة الزنا .

فإنه قد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قد يريد بالساعة انخرام القرن ، ووقوع شرور وبلاء يُعذَّب به الناس[٢]، وإن كانت[٣] الساعة العامة هى قيام الناس من قبورهم ، لكن الأول جاء فى مثل قوله : إن يَستنفِدْ هذا الغلامُ عمره لم يدركْه الهَرَم حتى تقوم الساعة ، يريد به انخرام ذلك القرن ، كما إنه قد أراد[٤] بلفظ «القيامة» موت الإنسان . كما فى قول المغيرة بن شعبة : «أيها الناس إنكم تقولون : القيامة القيامة ، وإنه مَنْ مات فقد قامت قيامتُه» .

وترجم البغوى[٥] على ذلك فى كتاب «المصابيح» : «باب : من

---

(١) بعد نهاية الحديث وقبل عبارة «وكان هذا» يوجد فى الأصل بياض بمقدار نصف سطر.

(٢) بعد كلمة «الناس» يوجد بياض بمقدار كلمة واحدة . وورد حديث فى البخارى ١/١١٩ – ١٢٠ (كتاب المواقيت ، باب السَّمَرَ فى الفقه والخيْر بعد العشاء) ونصه ... أن عبد الله بن عمر قال : صلّى النبى صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء فى آخر حياته ، فلما سلّم قام النبى صلى الله عليه وسلم : فقال : أرأيتكم ليلتكم هذه فإن رأس مائة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد . فوهل الناس فى مقالة رسول الله عليه السلام إلى ما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة ، وإنما قال النبى صلى الله عليه وسلم : لايبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض ، يريد بذلك أنها تخرم ذلك القرن .

(٣) فى الأصل : وإن كان .

(٤) فى الأصل : راد .

(٥) أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد المعروف بالفراء البغوى الفقيه الشافعى المحدث المفسر توفى سنة ٥١٠ . انظر ترجمته فى : الوفيات ١/٤٠٢ ؛ طبقات الشافعية ٤/٢١٤–٢١٧ ؛ تذكرة الحفاظ ٤/١٢٥٧ ؛ الأعلام ٢/٢٨٤ .

مات فقد قامت قيامته »[١] .

لكن من الزنادقة الصابئة المتفلسفة ، كالسهروردى الحلبى المقتول وغيره ، من يظن ذلك هو القيامة التى وصفها الله فى القرآن ، ويجعل هذا اللفظ من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس الأمر كذلك .

وإذا كان بسبب تقليد كثير من الفقهاء لأئمتهم ، واتّباعهم الظن، اشتبه ما يمكن علمه وما هو معلوم لفقهاء الدين وعلماء الشريعة بغيره[٢] ، فكذلك نفس الأئمة المجتهدين : لا ريب أنه قد يكون عند أحدهم ، ما هو مظنون بل مجهول ، وهو معلوم للآخر : إما موافقاً له وإما مخالفاً فيها أكثر المسائل الفقهية التى لايعرف حكمها كثير من الأئمة ، ص ١٩ أو يتكلم/ فيها بنوع من الظن : مصيبا أو مخطئا ، وتكون معلومة لغيره بأدلة قطعية عنده وعند من عَلِمَ كَعلمه :

تارةً بنص اختص بسماعه من الرسول أو من غيره ، وحصل له بذلك العلمُ لأسباب كثيرة فى النقل . وهذا كثيراً [ما][٣] يكون لعلماء الحديث ، فإنهم يعلمون من النصوص ويقطعون منها بأشياء كثيرة جدا ،

(١) جاء هذا الباب فى كتاب الفتن وذكره التبريزى فى كتابه «مشكاة المصابيح» ٣/٤٨ – ٤٩ (بتحقيق الأستاذ الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ، ط . المكتب الإسلامى ، دمشق ، ١٣٨٢/١٩٦٢) . وعنوان الباب « باب قرب الساعة وأن من مات فقد قامت قيامته » .

(٢) فى الأصل : بغير .

(٣) ما : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليتضح الكلام .

وغيرهم قد يكذِّب بها أو يجزم بكذبها ، دع من يجهلها أو يشك فيها .

وتارةً بفهم النصوص ومعرفة دلالتها ، فما أكثر من يجهل معنى النص أو يشك فيه ، أو يفهم منه نقيضه ، أو يذهل عنه ، أو يعجز ذهنه عن دركه[١] ، ويكون الآخر قد فهم من ذلك النص ، وعلم منه مايقطع به .

وتارةً بإجماعٍ عَلِمَهُ من إجماعات الصحابة وغيرها[٢] .

ثم بعد ذلك تارة بقياس قطعى .

فإن القياس نوعان : قطعى وظنى ، كما فى القياس الذى هو فى معنى الأصل قطعا ، بحيث لايكون بينهما فرق تأتى به الشريعة ، أو يكون أَوْلى بالحكم منه قطعا .

وتارة بتحقيق المناط ، وهذا يعود إلى عَوْد فهم معنى النص ، بأن يعرف ثبوت المناط الذى لاشك فيه فى المعيّن ، وغيره يشك فى ذلك ، كما يقطع الرجل فى القصاص ، وإبدال المتلفات بأن هذا أقرب إلى المِثْل والعدل من كذا ، وغيره يشك فيه أو يعتقد خلافه ، وأمثال ذلك .

---

(١) فى الأصل تقرأ الكلمة : دركه ، ولكن حُرفت إلى مايشبه كلمه «نيله» ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : وغيره .

« فصل »

ظ ١٩

الكلام على لفظ « الحركة »

وكذلك لفظ « الحركة » أثبته طوائف من أهل السنة والحديث ، وهو الذى ذكره حرب بن إسماعيل الكرمانى[١] فى السُنَّة التى حكاها عن الشيوخ الذين أدركهم : كالحُمَيْدى[٢] ، وأحمد بن حنبل ، وسعيد ابن منصور[٣] ، وإسحاق بن إبراهيم[٤] . وكذلك هو الذى ذكره عثمان ابن سعيد الدارمى[٥] فى نقضه على بشر المريسى[٦] ، وذكر أن ذلك

(١) حرب بن إسماعيل بن خلف الحنظلى الكرمانى ، صاحب الإمام أحمد ومن أئمة الحنابلة توفى سنة ٢٨٠ . انظر ترجمته فى شذرات الذهب ١٧٦/٢ ؛ طبقات الحنابلة ١٤٥/١ – ١٤٦ .

(٢) أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي المتوفى سنة ٢١٩ شيخ البخارى . انظر ترجمته فى : تهذيب التهذيب ٢١٥/٥ – ٢١٦ ، الأعلام ٢٩١/٤ .

(٣) أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة المروزى ويقال الطالقانى ثم البلخى صاحب السنن . توفى بمكة ٢٢٧ . انظر ترجمته فى : تذكرة الحفاظ ٤١٦/٢ ، الجرح والتعديل جـ ٢ ق ١ ، ص ٦٨ ؛ طبقات ابن سعد ٥٠٢/٥ ؛ سزكين ٢٨٦/١ – ٢٨٧ .

(٤) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلى التيمى المروزى (أبو يعقوب بن راهويه) . من سكان مرو . ولد سنة ١٦١ وتوفى ٢٣٨ . قال الذهبى : نزيل نيسابور وعالمها ، بل شيخ أهل المشرق . روى عنه البخارى ومسلم وأحمد وابن معين والترمذى والنسائى وغيرهم . انظر ترجمته فى : تذكرة الحفاظ ٤٣٣/٢ – ٤٣٥ ؛ وفيات الأعيان ١٧٩/١ – ١٨٠ ؛ الجرح والتعديل جـ ١ ، ق ١ ، ص ٢٠٩ – ٢١٠ ؛ طبقات الحنابلة ١٠٩/١ ، ميزان الاعتدال ١٨٢/١ – ١٨٣ ؛ الأعلام ٢٨٤/١ .

(٥) أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمى السجزى الحافظ صاحب المسند والتصانيف من أئمة الحنابلة . توفى سنة ٢٨٠ ، انظر ترجمته فى شذرات الذهب ١٧٦/٢ ؛ تذكرة الحفاظ ٦٢١/٣ – ٦٢٢ ؛ الأعلام ٣٦٦/٤ .

(٦) أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبى كريمة عبد الرحمن المريسى ، العدوى بالولاء ، كان =

مذهب أهل السنة ، وهو قول كثير من أهل الكلام والفلسفة ، من الشيعة والكرّامية والفلاسفة الأوائل والمتأخرين ، كأبي البركات صاحب «المعتبر»[(١)] وغيرهم .

ونفاه طوائف منهم : أبو الحسن التميمى[(٢)] ، وأبو سليمان

= جده مولى لزيد بن الخطاب رضي الله عنه ، وقيل إن أباه كان يهوديا قصارا صباغا بالكوفة . قال ابن حجر : «تفقه على أبي يوسف فبرع ، واتقن علم الكلام ثم جرّد القول بخلق القرآن وناظر عليه ، ولم يدرك الجهم بن صفوان إنما أخذ مقالته واحتج لها ، ودعا إليها» .

وهو رأس طائفة المريسية من المرجئة وكانت تقول : إن الإيمان هو التصديق ، وإن التصديق يكون بالقلب واللسان جميعا . وقال الشهرستانى إن مذهب المريسى كان قريبا من مذهب النجّار وبرغوث ، وأنهم أثبتوا كونه تعالى مريداً لم يزل لكل ماعلم أنه سيحدث من خير وشر وإيمان وكفر وطاعة ومعصية . وقد توفى بشر سنة ٢١٨ وقيل سنة ٢١٩ ، واختلف فى نسبته فقيل إنه ينتسب إلى قرية مريس بصعيد مصر ، وقيل غير ذلك .

انظر ترجمته ومذهبه فى : لسان الميزان ٢٩/٢-٣١ ؛ وفيات الأعيان ٢٥١/١-٢٥٢ ؛ تاريخ بغداد ٥٦/٧-٦٧ ؛ الأعلام ٢٧/٢-٢٨ ؛ مقالات الإسلاميين ١٤٠/١-١٤١ ، ١٤٣ ؛ الملل والنحل ١٤١/١، ٢٦٩، ٢٧١ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٢٤ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٦١ ؛ الخطط للمقريزى ٣٥٠/٢ ؛ الفصل لابن حزم ٤٥/٤ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، مقالة كارادى فو عن «بشر بن غياث» . وانظر كتاب «الرد على بشر المريسى» للدارمى .

(١) هو أبو البركات هبة الله بن ملكا ، صاحب كتاب «المعتبر فى الحكمة» . اختلف فى اسمه فسمّاه بعض المؤرخين : هبة الله بن علي . وقال بعضهم : ابن ملكان . وقال آخرون : ابن ملكا ، كما اختلفوا فى سنة وفاته ، فجعلها بعضهم ٥٤٧ وقال آخرون إنها ٥٦٠ أو ٥٧٠ . وهو طبيب وفيلسوف كان يهوديا وأسلم ، يعرف بأوحد الزمان وبفيلسوف العراقين . طبع كتابه «المعتبر» فى حيدر آباد سنة ١٣٥٧ . انظر ترجمته والكلام عن كتابه فى : آخر الجزء الثالث من كتابه «المعتبر» ص ٢٣٠-٢٥٢ ؛ طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (ط. بيروت) ٢٩٦/٢-٣٠٠ ؛ أخبار الحكماء لابن القفطى ، ص ٣٤٣-٣٤٦ ؛ تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقى ، ص ٢٥٢-٢٥٤ ؛ نكت الهميان للصفدى ، ص ٣٠٤ ؛ وفيات الأعيان ١٢٤/٥-١٢٥ ؛ الأعلام ٦٣/٩ .

(٢) أبو الحسن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث التميمى ، أحد التميميين من أصحاب =

الخطَّابى[١] ، وكل من أثبت حدوث العالم بحدوث الأعراض ، كأبى الحسن الأشعرى والقاضى أبى بكر بن الباقلانى ، وأبى الوفاء بن عقيل ، وغيرهم ممن سلك فى إثبات حدوث العالم هذه الطريقة التى أنشأها قبلهم المعتزلة ، وهو أيضا قول كثير من الفلاسفة الأوائل والمتأخرين ، كابن سينا وغيره .

والمنصوص عن الإمام أحمد إنكار نفى ذلك ، ولم يثبت عنه إثبات لفظ «الحركة» ، وإن أثبت أنواعا قد يدرجها المثبت فى جنس الحركة . فإنه لما سمع شخصا يروى حديث النزول[٢] ، ويقول : ينزل بغير حركة

= أحمد (انظر منهاج السنة ٢/٢٤٦-٢٤٧ ، ت ٧ ، ط. دار العروبة ، ١٣٨٤/١٩٦٤) . وهو فقيه حنبلى له اطلاع على مسائل الخلاف . ولد سنة ٣١٧ وتوفى سنة ٣٧١. انظر ترجمته فى : طبقات الحنابلة ٢/١٣٩ ؛ المنتظم ٧/١١٠ ؛ تاريخ بغداد ١٠/٤٦١-٤٦٢ ؛ الأعلام ٤/١٣٩ .

(١) أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب ، الخطّابى ، البُستى ، فقيه أديب محدث ، ولد سنة ٣١٩ وتوفى سنة ٣٨٨ . له «معالم السنن» فى شرح سنن أبى داود ، وله رسالة «الغنية عن الكلام وأهله» (مطبوعة باختصار ضمن صون المنطق والكلام عن فنى المنطق والكلام للسيوطى ١/١٣٧-١٤٧) وانظر ما نقله ابن تيمية عنها فى درء تعارض العقل والنقل فى جـ٧، ٨. انظر ترجمة الخطابى فى : وفيات الأعيان ١/٤٥٣-٤٥٥ ؛ تذكرة الحفاظ ٣/١٠١٨-١٠٢٠ ؛ شذرات الذهب ٣/١٢٧-١٢٨ ؛ الأعلام ٢/٣٠٤ .

(٢) روى حديث النزول عن أبى هريرة وغيره من الصحابة رضى‌الله عنهم- من وجوه عدة . ونص الحديث فى إحدى رواياته فى : البخارى ٢/٥٢-٥٣ (كتاب التهجد ، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل) : «عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير يقول : من يدعونى فاستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له» وهو موجود أيضا فى : البخارى ٨/٧١ (كتاب الدعوات ، باب الدعاء نصف الليل) ، ٩/١٤٣ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : يريدون أن يبدلوا كلام =

ولا انتقال ولا بغير حال ، أنكر أحمد ذلك ، وقال : قل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو كان أَغْيَر على ربه منك .

وقد نُقل فى رسالة عنه إثبات لفظ الحركة مثل ما فى « العقيدة » التى كتبها حرب بن إسماعيل .

وليست هذه العقيدة ثابتة عن الإمام أحمد بألفاظها . فإنى تأملت لها ثلاثة أسانيد مظلمة برجال مجاهيل ، والألفاظ هى ألفاظ حرب بن إسماعيل ، لا ألفاظ الإمام أحمد ولم يذكرها المعنيُّون بجمع كلام الإمام أحمد ، كأبى بكر الخلال فى كتاب «السنة» ، [1] ، وغيره من العراقيين العالمين بكتاب أحمد ، ولا رواها المعروفون بنقل كلام الإمام ،/ لاسيما مثل هذه الرسالة الكبيرة ، وإن كانت راجت على كثير من المتأخرين .

ص ٢٠

= الله) ؛ مسلم ٣/١٧٥–١٧٦ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الترغيب فى الدعاء والذكر فى آخر الليل والإجابة فيه) ، سنن أبى داود ٢/٤٧ (كتاب الصلاة ، باب أى الليل أفضل) ، ٤/٣١٤ (كتاب السنة ، باب الرد على الجهمية) ؛ المسند (ط . المعارف) الأرقام ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٣٦٧٣ ، ٣٨٢١ ، ٧٥٠٠ ، ٧٥٨٢ ، ٧٦١١ ، ٧٧٧٩ . وهو أيضا فى مواضع أخرى كثيرة فى المسند ؛ وروى كذلك فى سنن الترمذى ، وسنن ابن ماجة وسنن الدارمى ومسند الطيالسى (وانظر : مفتاح كنوز السنة ، مادة : الدعاء) وأفرد ابن خزيمة فصلا لأحاديث النزول فى كتابه «التوحيد» ، ص ٨٣ – ٩٠ .

(١) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون ، المعروف بالخلّال ، من أئمة الحنابلة ، له التصانيف الدائرة والكتب السائرة مثل «الجامع» و«العلل» و«السنة» توفى سنة ٣١١ . انظر ترجمته فى : طبقات الحنابلة ٢/١٢–١٥ ؛ تذكرة الحفاظ ٣/٧ ؛ بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ٣/٣١٣–٣١٤ ؛ الأعلام ١/١٩٦ . ولم يتكلم بروكلمان عن نسخ خطية من كتاب «السنة».

وقد نقل حنبل عن أحمد فى كتاب « المحنة » أنه تأول قوله تعالى ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٠] . فإن الجهمية الذين ناظروه احتجوا على خلق القرآن بقول النبى صلى الله عليه وسلم : بأن البقرة وآل عمران تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فِرْقان من طير صواف ، تحاجّان عن صاحبهما[1] ، وما يجئ إلا مخلوق . فقال الإمام أحمد: فقد قال الله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ ﴾ فهل يجئ اللَّهُ ؟ إنما يجئ أمرُه . كذلك هنا إنما يجئ ثواب القرآن[2] .

فاختلف أصحابنا فى هذه الرواية على خمس طرق :

---

(١) الحديث عن أبى أمامة الباهلى وغيره من الصحابة رضوان عليهم فى : مسلم ٥٥٣/١، ٥٥٤ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة) ، وأوله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اقرأوا القرآن ، فإنه يؤتى القيامة ... وفيه : البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أوكأنهما غيايتان ، أوكأنهما فِرقان من طير صواف . وفى ٥٥٤/١ فى رواية أخرى : ... أو ظلتان سوداوان بينهما شَرْق (أى ضياء ونور) . والحديث أيضا فى : سنن الترمذى (ط. المدينة المنورة) ٢٣٥/٤ (كتاب فضائل القرآن ، باب ماجاء فى آل عمران) وقال عنه الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، ومعنى هذا الحديث عند أهل العلم أنه يجئ ثواب قراءته . وهو أيضا فى «المسند (ط. الحلبى) ١٨٣/٤ ، ٢٤٩/٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ؛ سنن الدارمى ٤٥٠/٢-٤٥١ (كتاب فضائل القرآن ، باب فى فضل سورة البقرة وآل عمران) . وفى «القاموس المحيط» : « الغياية : ضوء شعاع الشمس وكل ما أظل الإنسان من فوق رأسه كالسحابة ونحوها » .

(٢) نشر كتاب «ذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل ، جمع أبى عبد الله حنبل بن إسحاق بن حنبل» تحقيق الدكتور محمد نغش ، ط. دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٣٩٧/١٩٧٧ . وقد راجعت صفحاته ولكنى لم أجد فيه ما أشار إليه ابن تيمية هنا . على أن الأستاذ المحقق ذكر فى مقدمته (ص٥) أنه لم يجد غير الجزء الثانى من الكتاب ، فلعل ما أورده ابن تيمية هنا موجود فى الجزء المفقود من الكتاب .

وقال قوم : غلط حنبل فى نقل هذه الرواية ، وحنبل له مفاريد ينفرد بها من الروايات فى الفقه ، والجماهير يروون خلافه .

وقد اختلف الأصحاب فى مفاريد حنبل التى خالفه فيها الجمهور ، هل تثبت روايته ؟ على طريقين : فالخلال وصاحبه قد ينكرانها ، ويثبتها غيرهما كابن حامد[١] .

وقال قوم منهم : إنما قال ذلك إلزاماً للمنازعين له ، فإنهم يتأولون مجئ الرب بمجئ أمره . قال[٢] : فكذلك قولوا : يجئ كلامه مجئ ثوابه ، وهذا قريب .

وقال قوم منهم : بل هذه الرواية ثابتة فى تأويل ماجاء من جنس الحركة والإتيان والنزول ، فيتأول على هذه الرواية بالقصد والعمد لذلك . وهذه طريقة ابن الزاغونى[٣] وغيره .

وقال قوم : بل يُتأول بمجئ ثوابه ، وهؤلاء جعلوا الرواية فى جنس الحركة دون بقية الصفات .

(١) هو أبو عبد الله الحسن بن حامد بن على بن مروان البغدادى ، إمام الحنابلة فى زمانه له «الجامع» فى مذهب الحنابلة ، وله «شرح الخرقى» توفى سنة ٤٠٣ انظر ترجمته فى : طبقات الحنابلة ١٧١/٢-١٧٧ ؛ تذكرة الحفاظ ١٠٧٨/٣ .

(٢) أى قال الإمام أحمد بن حنبل .

(٣) هو على بن عبيد الله بن نصر بن السرى ، أبو الحسن بن الزاغونى ، وقد اختلف فى اسمه . ولد سنة ٤٥٥ وتوفى سنة ٥٢٧ ، من علماء الحنابلة . انظر ترجمته فى : الذيل على طبقات الحنابلة ١٨٠/١-١٨٤ ؛ شذرات الذهب ٨٠/٤-٨١ ؛ المنتظم لابن الجوزى ٣٢/١٠ ؛ اللباب لابن الأثير ٤٨٩/١ ؛ الأعلام ١٢٤/٥-١٢٥ .

وقال قوم ، منهم ابن عقيل وابن الجوزى [١] : بل يتعدى الحكم من هذه الصفة إلى سائر الصفات التى تخالف ظاهرها ، للدليل الموجب لمخالفة الظاهر .

وبكل حال ، فالمشهور عند أصحاب الإمام أحمد أنهم لا يتأولون الصفات التى من جنس الحركة : كالمجئ والإتيان والنزول والهبوط والدنو والتدلِّى ، كما لايتأولون غيرها متابعة للسلف الصالح . وكلام السلف فى هذا الباب يدل على إثبات المعنى المتنازع فيه .

قال الأوزاعى [٢] لما سُئل عن حديث النزول : يفعل اللهُ مايشاء . وقال حمَّاد بن زيد [٣] : يدنو من خلقه كيف شاء ، وهو الذى حكاه

---

(١) عبد الرحمن بن على بن الجوزى ، أبو الفرج الإمام العلامة المتوفى سنة ٥٩٧ ومن كتبه «زاد المسير فى علم التفسير» (طبع فى دمشق) وتيسير البيان فى علم القرآن ؛ قال ابن رجبٍ : مجلد ، وكتاب المغنى فى التفسير ، قال ابن رجب : أحد وثمانون جزءاً . انظر ترجمته ومصنّفاته فى : وفيات الأعيان ٣٢١/٢-٣٢٢ ؛ تاريخ ابن الوردى ١٨٨/٢ ؛ الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ٣٩٩/١-٤٣٣ ؛ الكامل لابن الأثير (ط. الحلبى) ٢٢٨/١٠ ، ٦٧/١٢ ؛ الأعلام ٨٩/٤-٩٠ .

(٢) هو أبو عمرو عبد الرحمن بن يحمد الأوزاعى ، نسبة إلى قبيلة الأوزع ، وإمام الشام فى الفقه والحديث ، ولد ببعلبك سنة ٨٨ وتوفى فى بيروت سنة ١٥٧ . عرض عليه القضاء فامتنع . من كتبه «السنن» فى الفقه و«المسائل». انظر ترجمته فى تذكرة الحفاظ ١٧٨/١-١٨٣ ؛ وفيات الأعيان ٣١٠/١-٣١١ ؛ تهذيب التهذيب ٢٣٨/٦-٢٣٩ ؛ تهذيب الأسماء واللغات ، ق ١ ، جـ١ ، ص٢٩٨-٣٠٠ ؛ الجرح والتعديل ، جـ١ ، ق٢ ، ص٢٦٦-٢٦٧ ، الأعلام ٩٤/٤ .

(٣) حماد بن زيد بن درهم الأزدى الجهضمى أبو إسماعيل ، شيخ العراق فى عصره ، ولد بالبصرة سنة ٩٨ وتوفى بها سنة ١٧٩ . ترجمته فى : تهذيب التهذيب ٩/٣-١١ ، تذكرة الحفاظ ٢١٢/١ ؛ تهذيب الأسماء واللغات ١٦٧/١-١٦٨ ؛ الأعلام ٣٠١/٢ .

الأشعرى عن أهل السنة والحديث[١] .

وقال الفضيل بن عياض[٢] : إذا قال لك الجهمى أنا أكْفُر برب يزول عن مكانه ، فقل : أنا أُؤمِنُ/ برب يفعل مايشاء . ظ ٢٠

وقال أبو عبد الله أحمد بن سعيد الرباطى : حضرت مجلس الأمير عبد الله بن طاهر[٣] ، وحضر إسحاق بن راهويه ، فسُئل عن حديث النزول : صحيح هو؟ قال : نعم . فقال له بعضُ قُوّاد عبد الله : يا أبا

(١) يقول الأشعرى فى كتابه «مقالات الإسلاميين» ٣٢٣/١ (تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد) وهو يحكى جملة قول أصحاب الحديث وأهل السنة : «ويصّدقون بالأحاديث التى جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،أن الله – سبحانه– ينزل إلى السماء الدنيا فيقول : هل من مستغفر؟ كما جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأخذون بالكتاب والسنة كما قال الله عز وجلّ (٤ : ٥٩) : (فإن تنازعتم فى شئ فَرُدُّوه إلى الله والرسول) ويرون اتباع من سلف من أئمة الدين ، وألا يبتدعوا فى دينهم ما لم يأذن به الله . ويقرون أن الله – سبحانه– يجئ يوم القيامة كما قال (٨٩ : ٢٢) : (وجاء ربُّكَ والملك صفا صفا) ، وأن الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال (٥٠ : ١٦) : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) » .

وقال الأشعرى فى «الإبانة عن أصول الديانة» (تحقيق الدكتورة فوقية حسين محمود)ص ٣٠ : «ونقول إن الله عز وجل يجئ يوم القيامة ، كما قال سبحانه : «وجاء ربك والملكُ صفا صفا»(٨٩/٢٢). وأن الله يقرب من عباده كيف شاء ، بلا كيف ، كما قال تعالى : «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» (من الآية ٥٠/١٦) ، وكما قال سبحانه : «ثم دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى» (٥٣/٩،٨) » .

(٢) أبو على الفضيل بن عياض بن مسعود التميمى اليربوعى ، ولد سنة ١٠٥ وتوفى سنة ١٨٧ . من العباد الصالحين ومن الثقات فى الحديث . انظر ترجمته فى : تذكرة الحفاظ ٢٤٥/١–٢٤٦ ؛ تهذيب التهذيب ٢٩٤/٨–٢٩٧ ؛ وفيات الأعيان ٢١٥/٣–٢١٧ ؛ الأعلام ٣٦٠/٥ .

(٣) عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق الخزاعى ، أمير خراسان . كان من أعظم الأمراء وأكثرهم بذلا للمال مع علم ومعرفة ، توفى سنة ٢٣٠ . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ٢٧١/٢–٢٧٥ ؛ تاريخ بغداد ٤٨٣/٩–٤٨٩ ؛ شذرات الذهب ٦٨/٢ ؛ الأعلام ٢٢٦/٤–٢٢٧ .

يعقوب ، أتزعم أن الله ينزل كل ليلة ؟ قال : نعم . قال : كيف ينزل ؟ . قال له إسحاق : أَثْبِتْهُ حتى أصف لك النزول . فقال له الرجل : أَثْبَتُّهُ . قال له إسحاق : قال الله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفاً﴾ [سورة الفجر : ٢٢] . فقال الأمير عبد الله بن طاهر : يا أبا يعقوب ، هذا يوم القيامة . فقال إسحاق : أعز الله الأمير ، وَمَنْ يجئُ يوم القيامة من يمنعه اليوم ؟[1] .

وقال حرب بن إسماعيل : سمعت إسحاق بن إبراهيم يقول : ليس فى النزول وصف . قال : وقال إسحاق : لايجوز الخوض فى أمر الله كما يجوز الخوض فى أمر المخلوقين ، لقول الله تعالى : ﴿لاَيُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٣] . ولايجوز أن يُتوهم على الله بصفاته وفِعَاله بفهم ما يجوز التفكر والنظر فيه [من] أمر المخلوقين[2] ، وذلك أنه يمكن أن يكون الله موصوفا بالنزول كل ليلة – إذا مضى ثلثها – إلى السماء الدنيا ، كما شاء ، ولايُسْأَلُ : كيف نُزولُه ؟ ، لأن الخالق يصنع ما شاء كما شاء .

---

(١) أورد ابن تيمية هذه الواقعة فى كتاب «درء تعارض العقل والنقل» ٢/٢٦-٢٧ نقلا عن أبى عثمان الصابونى فى «رسالته المشهورة عنه فى السنة» إلا أن فيها : .. فقال له إسحاق : أثبِتْهُ فوق حتى أصف لك النزول . فقال الرجل : أثبتُّه فوق .. الخ .

(٢) فى الأصل : والنظر فى أمر المخلوقين . ولعل الصواب ما أثبته .

« فصل »

وقد اعترف أكثر أئمة أهل الكلام والفلسفة من الأولين والآخرين [بأن][1] أكثر الطرائق التى سلكوها فى أمور الربوبية بالأقيسة التى ضربوها – لا تفضى بهم إلى العلم واليقين ، وفى الأمور الإلهية ، مثل تكلمهم بالجِنْس والعَرَضَ فى دلائلهم ومسائلهم .

فأما الأول فقد ذكرنا فى غير هذا الموضع مقالة أساطين الفلسفة من الأوائل ، أنهم قالوا : العلم الإلـٰهى لا سبيل فيه إلى اليقين . وإنما يُتكلم فيه بالأَوْلى والأَحْرَى والأَخْلق . ولهذا اتفق كلٌّ من خَبَرَ مقالة هؤلاء المتفلسفة فى العلم الإلٰهى أن غالبه ظنونٌ كاذبة ، وأقْيسة فاسدة ، وأن الذى فيه من العلم الحق قليل .

وأما اعتراف المتكلمة من الإسلاميين فكثير ، قد جمع العلماء فيه شيئا ، وذكروا رجوع أكابرهم عمَّا كانوا يقولونه ، وتوبتهم : إما عند الموت ، وإما قبل الموت . وهذا من أسباب الرحمة إن شاء الله تعالى فى هذه الأمة ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات . وهذا أصح القولين فى قبول توبة الداعى ، لكن بقاء كلامهم وكتبهم

---

(١) بأن : ساقطة من الأصل ، وأثبتها ليستقيم الكلام .

ص ٢١ وآثارهم محنةٌ عظيمة فى الأمة ، وفتنةٌ عظيمة لمن نظر فيها ، /ولاحول ولا قوة إلا بالله .

وقد قال أبو حامد **الغزالى** فى الكتاب الذى سماه «إحياء علوم الدين» ، وهو من أجل كتبه ، **قال**[١] : «فإنْ قلت : تعلم[٢] الجدل والكلام مذموم كتعلم[٣] النجوم،أو هو مباح كتعلم الطب[٤]،أو مندوب إليه ؟ فاعْلَمْ أن للناس فى [هذا][٥] غلواً وإسرافاً فى أطراف .

فَمِنْ قائل[٦] : إنَّه بدعةٌ وحرام ، وإن العبد أن يَلْقَى اللهَ بكل ذنب ما خلا الشرك[٧] خيرٌ له مِنْ أن يلقاه بالكلام .

ومن قائل[٨] : إنه واجب وفرض[٩] ، إمَّا على الكفاية ، وإما على[١٠] الأعيان ، وإنه أفضل الأعمال وأعلى القربات ، فإنه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله[١١]» .

---

(١) فى ١٦٣/١ (ط. لجنة نشر الثقافة الإسلامية ، مع تخريج العراق لأحاديثه).

(٢) فى الأصل : نعم ، وهو تحريف . والمثبت من «الإحياء».

(٣) فى الأصل : لعلم (وقد تقرأ : كعلم). والمثبت من «الإحياء» .

(٤) فى الأصل : لعلم الطب ، وهذه العبارة ساقطة من «الإحياء».

(٥) هذا : ساقطة من الأصل ، وأثبتها من «الإحياء» .

(٦) فى الأصل : فَمَنْ قالَ . والمثبت هو الذى فى «الإحياء» .

(٧) الإحياء : وإن العبد إن لقى الله عز وجل بكل ذنب سوى الشرك .

(٨) فى الأصل : ومن قال . والمثبت من «الإحياء».

(٩) فى الأصل : واجب فرض . والمثبت من «الإحياء».

(١٠) الإحياء : أو على.

(١١) الإحياء : الله تعالى

قال[١] : «وإلى التحريم ذهب الشافعيُّ ومالك وأبو حنيفة[٢] وأحمد بن حنبل وسفيان الثورى ، وجميع أئمةِ السلف[٣] ».

وساق ألفاظاً عن هؤلاء[٤] .

قال[٥] : «واتفق[٦] أهل الحديث من السلف على هذا ، ولاينحصر ما نُقل عنهم من التشديدات فيه ، وقالوا : ما سكت عنه الصحابة– مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم– إلا لعلمهم بما يُتولَّد منه من الشر».

« فصل »

كلام القشيرى فى «رسالته» عن اعتقاد مشايخ الصوفية

فيما ذكره الشيخ أبو القاسم القشيرى[٧] فى رسالته المشهورة من اعتقاد مشايخ الصوفية . فإنه ذكر من متفرقات كلامهم ما يُستدل به على

(١) بعد الكلام السابق مباشرة .

(٢) وأبو حنيفة : ساقطة من «الإحياء».

(٣) الإحياء : وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف .

(٤) انظر «الإحياء» ١/١٦٣–١٦٤ .

(٥) بعد آخر كلام منقول من «الإحياء» بصفحة كاملة ، فى ١/١٦٤ .

(٦) الإحياء : وقد اتفق .

(٧) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابورى القشيرى ، ولد سنة ٣٧٦ ، وكانت إقامته بنيسابور وتوفى فيها سنة ٤٦٥ من تصانيفه «التيسير فى التفسير» ، «لطائف الإشارات» ، «الرسالة القشيرية». انظر عنه : طبقات الشافعية ٣/٢٤٣–٢٤٨ ؛ وفيات الأعيان ٢/٣٧٥–٣٧٨ ؛ تاريخ بغداد ١١/٨٣ ؛ شذرات الذهب ٣/٣١٩ – ٣٢٢ تبيين كذب المفترى ، ص ٢٧١ ؛ العبر ٣/٢٥٩ ؛ الأعلام ٤/١٨٠ Brock: I,556, s. I. 770.

أنهم كانوا يوافقون اعتقاد كثير من المتكلمين الأشعرية ، وذلك هو اعتقاد أبى القاسم الذى تلقاه عن أبى بكر بن فورك ، وأبى إسحاق الإسفرايينى[١]

وهذا الاعتقاد غالبه موافق لأصول السلف وأهل السنة والجماعة ، لكنه مقصر عن ذلك ، ومتضمن ترك بعض ماكانوا عليه ، وزيادة تخالف ماكانوا عليه .

والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق [ماكان] عليه السلف[٢] ، وهذا هو الذى كان يجب أن يذكر.

فإن فى الصحيح الصريح المحفوظ عن أكابر المشايخ مثل الفضيل ابن عياض ، وأبى سليمان الدارانى ، ويوسف بن أسباط ، وحذيفة المرعشى ، ومعروف الكرخى ، إلى الجُنَيْد بن محمد ، وسهل بن عبد الله التُّسترى ، وأمثال هؤلاء ما يبين حقيقة مقالات المشايخ .

وقد جمع كلام المشايخ إما بلفظه أو بما فهمه هو غير واحد ، فصنف[٣] أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذى كتاب «التعرف لمذاهب

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفرايينى الملقب بركن الدين ، فقيه شافعى ومتكلم أصولى . توفى بنيسابور سنه ٤١٨ . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان : ١/٨-٩ ؛ شذرات الذهب ٣/٢٠٩-٢١٠ ؛ طبقات الشافعية ٣/١١١-١١٤ ؛ العبر للذهبي ٣/١٢٨ ؛ معجم البلدان ١/٢٤٧ ؛ تبيين كذب المفترى ، ص ٢٤٣-٢٤٤ ؛ الأعلام ١/٥٩ .

(٢) فى الأصل : يوافق عليه السلف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : يصنف

التصوف»[١] وهو[٢] أجود مما ذكره أبو القاسم ، وأصوب وأقرب إلى مذهب سلف الأمة وأئمتها وأكابر مشايخها . وكذلك مُعَمَّر بن زياد الأصفهانى شيخ الصوفية[٣] ، وأبو عبد الرحمن محمد بن الحسين/ السُّلَمِى جامع كلام الصوفية[٤] هما فى ذلك أعلى درجة وأبعد عن البدعة والهوى من أبى القاسم . ط٢١

وأبو عبد الرحمن– وإن كان أدنى الرجلَيْن– فقد كان ينكر مذهب الكُلاَّبية ويبدِّعهم ، وهو المذهب الذى ينصره أبو القاسم . وله فى ذم الكلام مصنَّف يخالف ماينصره أبو القاسم . وأبو عبد الرحمن أجلّ من

---

(١) وهو أبو بكر محمد بن إسحاق ويقال ابن إبراهيم البخارى الكلاباذى المتوفى سنة ٣٨٠. صاحب كتاب «التعرف لمذهب أهل التصوف» ، وقد نشره الأستاذ آرثر جون آربرى ، ثم نشر بتحقيق د. عبد الحليم محمود والأستاذ طه سرور ، ط. عيسى الحلبى ، ١٩٦٠/١٣٨٠ . وانظر عنه : الأعلام ١٨٤/٦ ؛ معجم المؤلفين لكحالة ٢٢٢/٨ ؛ سزكين ٤٩٢/٢–٤٩٤ .

(٢) وهو : غير واضحة بالأصل ، وكذا استظهرتها .

(٣) أبو منصور مُعَمَّر بن أحمد بن محمد بن زياد الأصفهانى ، كان كبير الصوفية فى أصفهان ، روى عن الطبرانى المحدث ، وتوفى سنة ٤١٨ . انظر ترجمته فى : شذرات الذهب ٢١١/٣ ؛ العبر ١٢٩/٣ ؛ سزكين ٥٠٥/٢–٥٠٦ .

(٤) أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدى السلمى النيسابورى ، ولد سنه ٣٢٥ وتوفى سنة ٤١٢ . قال الذهبى : «شيخ الصوفية وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم . قيل : كان يضع الأحاديث للصوفية» . انظر ترجمته فى : مقدمة الأستاذ نور الدين شريبة لكتاب «طبقات الصوفية» للسلمى (ط. المنياوى ، القاهرة ، ١٩٥٣/١٣٧٢) ؛ ميزان الاعتدال ٤٦/٣–٤٧ ؛ تاريخ بغداد ٢٤٨/٢–٢٤٩ ؛ لسان الميزان ١٤٠/٥–١٤١ ؛ اللباب لابن الأثير ٥٥٤/١ ؛ الأعلام ٣٣٠/٦ ؛ سزكين ٤٩٧/٢–٥٠٣ .

أخذ عنه أبو القاسم كلام المشايخ ، وعليه يعتمد فى أكثر ما يحكيه ، فإن له مصنفات متعددة .

وكذلك عامة المشايخ الذين سمَّاهم أبو القاسم فى «رسالته» لا يُعرَف عن شيخ منهم أنه كان ينصر طريقة الكُلَّابية والأشعرية ؛ التى نصرها أبو القاسم ، بل المحفوظ عنهم خلافها . ومَنْ صَّرح منهم فإنما يصرح بخلافها ، حتى شيوخ عصره الذين سمَّاهم حيث قال[(١)] :

« فأما المشايخ الذين عاصرناهم ، والذين أدركناهم[(٢)] – وإن لم يتفق لنا لقياهم – مثل الأستاذ الشهيد لسان وقته وواحد عصره أبى على الدقَّاق[(٣)] ، والشيخ – شيخ وقته[(٤)] – أبى عبد الرحمن السُّلَمى ، وأبى الحسن على بن جَهضم مجاور الحرم[(٥)] ، والشيخ أبى العباس

---

(١) فى الرسالة القشيرية ١٨٦/١ (تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشريف ، نشر دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٣٨٥/١٩٦٦) وسأرجع عند وجود اختلاف إلى (ط. صبيح) القاهرة ، ١٣٦٧/١٩٤٨) بإذن الله .

(٢) الرسالة القشيرية · الذين أدركناهم والذين عاصرناهم .

(٣) القشيرية : أبى على الحسن بن على الدقاق وهو أبو على الحسن بن على الدقاق النيسابورى ، شيخ الصوفية ، برع فى الأصول وفى الفقه وفى العربية ، توفى سنة ٤٠٦ . انظر ترجمته فى : شذرات الذهب ١٨٠/٣–١٨١ ؛ العبر ٩٣/٣ .

(٤) القشيرية : والشيخ نسيج وحده فى وقته .

(٥) أبو الحسن على بن عبد الله بن جهضم ، عاش فى مكة وكان يعد كبير الصوفية بها ، وتوفى سنة ٤١٤ . انظر ترجمته فى : شذرات الذهب ٢٠٠/٣–٢٠١ ؛ سزكين ٥٠٥/٢ .

القصَّاب[١] بطبرستان ، وأحمد الأسود الدَّيْنورى[٢] ، وأبى القاسم الصَيْرفى بنيسابور ؛ وأبى سهل الخشَّاب الكبير بها ، ومنصور بن خلف المغربى ، وأبى سعيد المالينى[٣] ، وأبى طاهر الجحدرى[٤] - قدَّس الله أرواحهم - وغيرهم » .

فإن هؤلاء المشايخ ، مثل أبى العباس القصَّاب له من التصانيف المشهورة فى السنة ، ومخالفة طريقة الكُلاَّبيَّة الأشعرية ، ما ليس هذا موضعه .

وكذلك سائر شيوخ المسلمين من المتقدمين والمتأخرين ، الذين لهم لسان صدق فى الأمة ، كما ذكر الشيخ يحيى بن يوسف الصرصرى ، ونظمه فى قصائده عن الشيخ على بن إدريس شيخه ، أنه سأل قطب العارفين أبا محمد عبد القادر بن عبد الله الجيلى[٥] ، فقال : ياسيدى

(١) الرسالة القشيرية (ط. صبيح ، ص ٣١) : القَصَّار ، والظاهر أنه تحريف ، ولم أعرف من هو .

(٢) القشيرية : الأسود بالدينور . ولم أعرف من هو . ووجدت فى الطبقات الكبرى للشعرانى : أبا العباس أحمد بن محمد الدينورى ولكن توفى -كما قال الشعرانى- بعد الأربعين وثلاثمائة ، ونحن نعلم أن القشيرى ولد سنة ٣٧٦ ، ولذلك فاحتمال أن يكون هو المقصود هنا احتمال ضعيف .

(٣) أبى سعيد : كذا فى الأصل وفى الرسالة القشيرية . وفى شذرات الذهب ١٩٥/٣ ؛ العبر ١٠٧/٣ ،سزكين ٥٠٣/٢ جاء فى ترجمته : أبو سعد أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله الهروى المالينى -نسبة إلى مالين قرية مجتمعة من أعمال هراة- الصوفى الحافظ الثقة المتقن ، توفى سنة ٤١٢ .

(٤) القشيرية : الخوزندى . ولم أعرف من هو .

(٥) أبو محمد محيى الدين عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكى دوست الحسنى ، الجيلانى أو الكيلانى أو الجيلى ، شيخ الطريقة القادرية ، من كبار الزهاد والصوفية ، ولد فى جيلان (وراء =

هل كان لله وليٌّ على غير اعتقاد أحمد بن حنبل ؟ فقال : ماكان ، ولايكون .

وكذلك نقل الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردى[(١)] ، وحدثنيه عنه الشيخ عز الدين عبد الله بن أحمد بن عمر الفاروثى أنه سمع هذه الحكاية منه[(٢)] ، ووجدتها معلقة بخط الشيخ

= طبرستان) سنة ٤٧١ وعاش فى بغداد وتصدر للتدريس والإفتاء بها ، وتوفى بها سنة ٥٦١ . له كتب منها «الغنية لطالب طريق الحق» ، «فتوح الغيب» وهى مطبوعة ، ولابن تيمية رسالة «فى شرح كلمات لعبد القادر فى كتاب فتوح الغيب» نشرت فى مجموع فتاوى الرياض ٤٥٥/١٠-٥٤٨.انظر ترجمة الجيلى فى : شذرات الذهب ١٩٨/٤-٢٠٢ (وفيه مثلما ورد هنا : عبد القادر بن عبد الله) وذكر ابن العماد الحنبلى ٢٠٠/٤ أن ابن السمعانى قال عنه : «هو إمام الحنابلة وشيخهم فى عصره» ؛ الذيل لابن رجب ٢٩٠/١-٣٠١ (وأورد ابن رجب ٢٩٦/٢ الخبر الذى ذكره ابن تيمية هنا عن على بن إدريس(ونقله عنه الصرصرى) (بنفس الألفاظ الواردة هنا) ؛ الطبقات الكبرى للشعرانى ١٠٨/١-١٤٤ ؛ فوات الوفيات لابن شاكر ٤/٢-٦ ؛ الأعلام ١٧١/٤-١٧٢ .

(١) شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن عمويه ، وهو غير شهاب الدين السهروردى المقتول . من شيوخ الصوفية ومن فقهاء الشافعية . ومن أشهر كتبه «عوارف المعارف» ولد سنة ٥٣٩ وتوفى سنة ٦٣٢ . انظر ترجمته فى : طبقات الشافعية ١٤٣/٥-١٤٤ ؛ وفيات الأعيان ١١٩/٣-١٢٠ ؛ شذرات الذهب ١٥٣/٥-١٥٥ ؛ مرآة الجنان لليافعى ٧٩/٤-٨٢ ؛ تاريخ ابن الوردى ١٦١/٢ ؛ البداية والنهاية ١٤٣/١٣ ، ١٨٣ ؛ النجوم الزاهرة ٢٨٣/٦-٢٨٤ ؛ معجم البلدان : سهرورد ؛ الأعلام ٢٢٣/٥ .

(٢) فى الأصل : الفاروقى . وهو أبو العباس عز الدين أحمد بن إبراهيم بن عمر بن الفرج بن أحمد بن سابور الواسطى الفاروثى . ولد بواسط سنة ٦١٤ ، قال السبكى : «سمع ببغداد من الشيخ شهاب الدين السهروردى ، ومنه لبس خرقة الصوفية... وحدّث بالحرمين والعراق ودمشق ، وكان فقيها مقرئا عابدا زاهدا صاحب أوراد ، قدم دمشق من الحجاز بعد مجاورة مدة ، سنة تسعين ، تولى مشيخة الحديث بالظاهرية ، وإعادة الناصرية ، وتدريس النجيبية ، ثم وَلِى خطابة الجامع ، ثم عزل =

موفق الدين أبي محمد بن قدامة المقدسي[١] . قال السهروردي : «كنت قد عزمت على أن أقرأ شيئاً من علم الكلام وأنا متردد ، هل أقرأ «الإرشاد» لإمام الحرمين ، أو «نهاية الإقدام» للشهرستاني ، أو كتاب شيخه ؟. فذهبت مع خالي أبي النجيب[٢] ، وكان يصلِّي بجنب الشيخ عبد القادر . قال : فالتفت الشيخ عبد القادر وقال لي : ياعمر ، ما هو من زاد القبر ، ما هو مِن زادِ القبر ، فرجعت عن ذلك» فأخبر/ أن الشيخ كاشَفَه بما كان في قلبه ، ونهاه عن الكلام الذي كان ينسب إليه القشيري ونحوه . ص ٢٢

وكذلك حدثني الشيخ أبو الحسن بن غانم ، أنه سمع خاله الشيخ إبراهيم بن عبد الله الأرموي ، أنه كان له معلِّم يقرئه ، وأنه أقرأه اعتقاد

= منها ، فسافر إلى واسط ، وبها توفي ، وكانت وفاته سنة ٦٩٤ . انظر ترجمته في : طبقات الشافعية ٦/٨–١٥ ؛ شذرات الذهب ٤٢٥/٥ ؛ تذكرة الحفاظ ١٤٧٥/٤ ؛ العبر ٣٨١/٥ .

وعلى ذلك يكون ابن تيمية قد سمع من الفاروثي أثناء إقامته وتدريسه بدمشق بعد سنة ٦٩٠ وقبل عزله منها ، ونحن نعلم أن ابن تيمية ولد سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٧٢٨ ، ونعلم أن شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ ، كما ذكر ذلك ابن عبد الهادي في «العقود الدرية» ص ٣ .

(١) موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي ، من أئمة فقهاء الحنابلة ، صاحب كتاب «المغني» شرح به مختصر الخرقي في الفقه ، و«المقنع» ، و«ذم التأويل» ، و«لمعة الاعتقاد» وكلها كتب مطبوعة . ولد موفق الدين سنة ٥٤١ وتوفي سنة ٦٢٠ . انظر ترجمته في الذيل لابن رجب ١٣٣/٢–١٤٩ ؛ شذرات الذهب ٨٨/٥–٩٢ ؛ البداية والنهاية ٩٩/١٣–١٠١ ؛ فوات الوفيات ٤٣٣/١–٤٣٤ ؛ الأعلام ١٩١/٤–١٩٢ .

(٢) أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد البكري الصديق ، فقيه شافعي . ومن أئمة الصوفية . ولد بسهرورد سنة ٤٩٠ وتوفي ببغداد سنة ٥٦٣ . انظر ترجمته في : وفيات الأعيان ٣٧٣/٢–٣٧٤ ؛ طبقات الشافعية ١٧٣/٧–١٧٥ ؛ الطبقات الكبرى للشعراني ١٢٠/١–١٢١ (وفيه : عبد القادر وهو تحريف) ؛ الأعلام ١٧٤/٤ .

الأشعرية المتأخرين . قال : فكنت أكرر عليه ، فسمع والذى والشيخ عبد الله الأرمينى قال : فقال : ماهذا ياإبراهيم ؟ فقلت : هذا علَّمنيه الأستاذ . فقال : ياإبراهيم اترك هذا ، فقد طفت الأرض ، واجتمعت بكذا وكذا ولىٍّ لله ، فلم أجد أحداً منهم على هذا الاعتقاد ، وإنما وجدته على اعتقاد هؤلاء ، وأشار إلى جيرانه أهل الحديث والسنة ، من المقادسة الصالحين إذ ذاك .

وحدثنى أيضا الشيخ محمد بن أبى بكر بن قوام ، أنه سمع جده الشيخ أبا بكر بن قوام[1] يقول : إذا بلغك عن أهل المكان الفلانى ، سمَّاه لى الشيخ محمد ، إذا بلغك أن فيهم رجلا مؤمنا—أو رجلا صالحا—فَصدِّقْ ، وإذا بلغك أن فيهم وليًّا لله فلا تصدق . فقلت : ولم ياسيدى ؟ قال : لأنهم أشعرية . وهذا باب واسع .

ومن نظر فى عقائد المشايخ المشهورين ، مثل الشيخ عبد القادر ، والشيخ عدى بن مسافر[2] ، والشيخ أبى البيان الدمشقى[3] وغيرهم ،

(١) فى الأصل : الشيخ الحسن بن أحمد وعليها شطب ثم كتب محمد بن أبى بكر بن قوام أنه سمع جده أبا بكر بن قوام ، وأبو بكر والده وليس جده ، ولم أعرف من هما الرجلان .

(٢) شرف الدين أبو الفضائل ، عدى بن مسافر بن إسماعيل الهكارى ، من شيوخ الصوفية ، تنسب إليه الطائفة العدوية ، وغالى أتباعه العدوية فى اعتقادهم فيه وكذلك اليزيدية الذين قالوا إن زيارة قبره أفضل من الحج وزيارة القدس . ولد عدى سنة ٤٦٧ وتوفى سنة ٥٥٧ . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ٤١٧/٢–٤١٨ ؛ شذرات الذهب ١٧٩/٤–١٨٠ ؛ الأعلام ١١/٥ . ولابن تيمية رسالة تسمى « الوصية الكبرى » نشرت فى مجموع فتاوى الرياض ٣٦٣/٣–٤٣٠ وجهها إلى جماعة الشيخ عدى بن مسافر ناصحاً لهم .

(٣) أبو البيان نبا بن محمد بن محفوظ القرشى المعروف بابن الحورانى وبأبى البيان ، شيخ الطائفة =

وجد من ذلك كثيرا . ووجد أنه مَنْ ذهب إلى مذهب شئ من أهل الكلام– وإن كان متأوّلا –ففيه نقص وانحطاط عن درجة أولياء الله الكاملين ، ووجد أنه من كان ناقصا فى معرفة اعتقاد أهل السنة واتّباعه ومحبته ، وبعض ما يخالف ذلك وذمه ، بحيث يكون خاليا عن اعتقاد كمال السنة واعتقاد البدعة– تجِدْه ناقصا عن درجة أولياء الله الراسخين فى معرفة اعتقاد أهل السنة واتباع ذلك ، وقد جعل الله لكل شى قدرا .

وماذكره أبو القاسم فى رسالته من اعتقادهم وأخلاقهم وطريقتهم ، فيه من الخير والحق والدين أشياء كثيرة ، ولكن فيه نقص عن طريقة أكثر أولياء الله الكاملين ، وهم نقاوة القرون الثلاثة وَمَنْ سَلَك سبيلهم . ولم يذكر فى كتابه أئمة المشايخ من القرون الثلاثة ، ومع ما فى كتابه من الفوائد فى المقولات والمنقولات ففيه أحاديث وأحاديث ضعيفة بل باطلة ، وفيه كلمات مجملة تحتمل الحق والباطل رواية ورأيا ، وفيه كلمات باطلة فى الرأى والرواية ، وقد جعل الله لكل شئ قدرا .

ظ ٢٢ وقال تعالى ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِياً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾[سورة النساء : ١٣٥] .

= البيانية من المتصوفة بدمشق . قال ابن قاضى شهبة : كان عالما كاملا ، إماما فى اللغة ، شافعى المذهب : سلفى العقيدة ، له تآليف ومجاميع وشعر كثير. انظر ترجمته فى : طبقات الشافعية ٣١٨/٧–٣٢٠ ؛ الأعلام ٣٢٠/٨ .

فكتبت من تمييز ذلك ما يسَّره الله ، واجتهدت[١] فى اتّباع سبيل الأمة الوسط ، الذين هم شهداء على الناس ، دون سبيل مَنْ قد يرفعه فوق قدره ، فى اعتقاده وتصوفه ، على الطريقة التى هى أكمل وأصح مما ذكره علما وحالا ، وقولا[٢] وعملا واعتقاداً واقتصاداً ، أو يحطّه دون قدره فيهما ممن يسرف فى ذم أهل الكلام ، أو يذم طريقة التصوف مطلقاَ ، والله أعلم .

والذى ذكره أبو القاسم فيه الحسن الجميل ، الذى يجب اعتقاده واعتماده ، وفيه المجمل الذى يأخذ المحق والمبطل ، وهذان قريبان ، وفيه منقولات ضعيفة ، ونقُولٌ عمن لا يُقْتَدى بهم فى ذلك ، فهذان مردودان . وفيه كلام حَمَلَهُ على معنى ، وصاحبه لم يقصد نفس ما أراده هو ، ثم إنه لم يذكر عنهم إلا كلمات قليلة لا تشفى فى[٣] هذا الباب . وعنهم فى هذا الباب من الصحيح الصريح الكبير ، ما هو شفاء للمقتَدَى بهم ، الطالب لمعرفة أصولهم ، وقد كتبت هنا نكتا يُعرف بها الحال .

قال القشيرى رحمه الله[٤] : « اعلموا أن شيوخ هذه الطائفة بَنَوْا

---

(١) فى الأصل : واجتهد .

(٢) فى الأصل : قولا .

(٣) فى الأصل : عن .

(٤) فى : القشيرية ١/٢٣-٢٤ .

قواعد أمرهم على أصول صحيحة فى التوحيد ، صانوا بها[(١)] عقائدهم عن البدع ، ودانوا بما وجدوا عليه السلف[(٢)] وأهل السنة من توحيد ، ليس فيه تمثيل ولاتعطيل » .

قلت : هذا كلام صحيح . فإن كلام أئمة المشايخ الذين [لهم][(٣)] فى الأمة لسان صدق ، كانوا على ما كان عليه السلف وأهل السنة ، من توحيد ليس فيه تمثيل ولاتعطيل . وهذه الجملة يتفق على إطلاقها عامة الطوائف المنتسبين إلى السنة ، وإن تنازعوا فى مواضع ، هل هى تمثيل أو تعطيل[(٤)] ؟.

قال أبو القاسم[(٥)] : « عرفوا[(٦)] ما هو حق القِدم ، وتحققوا بما هو نعت الموجود[(٧)] عن العدم ، وكذلك[(٨)] قال سيد هذه الطائفة[(٩)]

(١) بها : ساقطة من الأصل ، وزدتها من «القشيرية» ٢٣/١ .

(٢) فى الأصل : ودانوا على ما وجدوا السلف . والمثبت هو الصواب ، وهو الذى فى القشيرية ٢٤/١ .

(٣) لهم : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : وتعطيل .

(٥) ف : القشيرية ٢٤/١-٢٥ بعد الكلام السابق مباشرة .

(٦) القشيرية ٢٤/١ : وعرفوا .

(٧) فى الأصل : الوجود . والمثبت من القشيرية .

(٨) القشيرية : ولذلك .

(٩) القشيرية : هذه الطريقة .

الجنيد رضى الله عنه[(١)] : التوحيد إفراد القدم من الحدث » .

قلت : هذا الكلام فيه إجمال ، والمحقّ يحمله محملا حسنا[(٢)] ، وغير المحقّ يدخل فيه أشياء .

والقشيرى مقصوده ما يذكره أهل الكلام من تنزيه القديم عن خصائص المحدَثات ، وهذا متفق عليه بين المسلمين . لكن التنازع بينهم فى كثير من الصفات ، هل هى [من][(٣)] خصائص المحدثات التى يجب تنزيه القديم عنها ؟ أو هى من لوازم الوجود التى يكون نفيها تعطيلا ؟ .

ص ٢٣ وأما الجنيد/ فمقصوده التوحيد الذى يُشير إليه المشايخُ ، وهو التوحيد فى القصد والإرادة ، وما يَدْخل فى ذلك من الإخلاص والتوكل والمحبة ، وهو أن يُفْرِدَ الحقُّ سبحانه– وهو القديم– بهذا كله ، فلا يشركه فى ذلك محدَث . وتمييز الرب من المربوب[(٤)] فى اعتقادك وعبادتك ، وهذا حق صحيح ، وهو داخل فى التوحيد الذى بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه . ومما يدخل فى [كلام] الجُنَيْد[(٥)] تمييز القديم عن المحدَث ، وإثبات مباينته له ، بحيث يعلمه ويشهد أن الخالق مُباينٌ

(١) القشيرية : الجنيد رحمه الله .

(٢) فى الأصل : محمل حسن ، وهو خطأ .

(٣) من : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : الربوب ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : فى الجنيد ، ولعل ما أثبته هو الصواب .

للخلق ، خلافا لما دخل فيه الاتحادية من المتصوفة[١] وغيرهم ، من الذين يقولون بالاتحاد معيَّناً أو مطلقا .

ولهذا أنكر هؤلاء على الجنيد قوله هذا ، كما أنكره عليه ابنُ العربى الطائى[٢] كبير الاتحادية .

قال أبو القاسم[٣] : «وأَحْكَموا أصول العقائد بواضح الدلائل ، ولائح الشواهد ، كما قال أبو محمد الجريرى : من لم يقف على علم التوحيد بشاهد من شواهده زَلَّتْ به قَدَمُ الغرور إلى مهواة التلف[٤]» . قال أبو القاسم[٥] : «يريد بذلك : أن[٦] من ركن إلى التقليد ، ولم يتأمل دلائل التوحيد ، سقط عن متن[٧] النجاة ، ووقع فى أسر الهلاك».

---

(١) فى الأصل : المتصدقة ، وهو تحريف .

(٢) هو أبو بكر محيي الدين محمد بن على بن محمد الحاتمى الطائى الأندلسى ، المعروف بابن عربى ، والملقب عند الصوفية بالشيخ الأكبر والكبريت الأحمر وغير ذلك . انظر ترجمته فى : نفح الطيب ٣٦١/٢–٣٨٤ ؛ شذرات الذهب ١٩٠/٥–٢٠٢ ؛ طبقات الشعرانى ١٦٣/١ ؛ ميزان الاعتدال ٦٥٩/٣–٦٦٠ ، لسان الميزان ٣١١/٥–٣١٥ ؛ فوات الوفيات ٤٧٨/٣–٤٨٢ ؛ الأعلام ١٧٠/٧–١٧١ . وانظر كتاب «ابن عربى» لآسين بلاثيوس ، ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ، ط. الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٦٥ ؛ مناقب ابن عربى لإبراهيم بن عبد الله القارىء ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، بيروت ، ١٩٥٩ ؛ تنبيه الغبى إلى تكفير ابن عربى للبقاعى =مصرع التصوف ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، ط . السنة المحمدية القاهرة ، ١٣٧٢/١٩٥٣ .

(٣) بعد الكلام السابق مباشرة فى : القشيرية ٢٥/١ . (٤) القشيرية : فى مهواة من التلف .

(٥) عبارة «قال أبو القاسم» زيادة من ابن تيمية وليست فى «القشيرية» .

(٦) أن : ساقطة من الأصل ، وزدتها من «القشيرية» .

(٧) القشيرية : سنن .

قلت : المشايخ لا يشيرون إلى الطريق التى سلكها المتكلمون : من الاستدلال بالأجسام والأعراض وما يدخل فى ذلك ، بل هم منكرون لذلك ، كما ذكره أبو عبد الرحمن السلمى ، وشيخ الإسلام الأنصارى وغيرهما عنهم .

وأبو القاسم يرى صحة هذه الطريق ، وهذا من المواضع التى خالف فيها مشايخ القوم .

وقد ذكر أبو القاسم فى ترجمة الشيخ أبى على بن الكاتب[١] ، وقد صحب أبا على الروذبارى وغيره ، وتأخر بعد الأربعين وثلاثمائة . **قال**[٢] : « المعتزلة نزَّهوا الله من حيث العقل فأخطأوا ، والصوفية نزَّهوه من حيث العلم فأصابوا ».

قلت : العلم فى لسان الصوفية ووصاياهم كثيراً ما يريدون به الشريعة ، كقول أبى يعقوب النهرجورى[٣] : « أفضل الأحوال ما قارن

---

(١) أبو على الحسن بن أحمد بن الكاتب ، من كبار مشايخ الصوفية المصريين ، حدد ابن الجوزى سنة وفاته بأنها سنة ٣٤٣ انظر ترجمته وأقواله فى : طبقات الصوفية ، ص ٣٨٦-٣٨٨ ؛ المنتظم لابن الجوزى ، ٦/٣٧٥-٣٧٦ (وسمّاه الحسن بن على) ؛ الطبقات الكبرى للشعرانى ٩٦/١ ، صفة الصفوة لابن الجوزى (ط. حيدر آباد) ٢٩٤/٤-٢٩٥ (وسمّاه هنا : الحسن بن أحمد) .

(٢) فى : القشيرية ١٥٨/١ . (وترجمة ابن الكاتب وأقواله فى نفس الصفحة) .

(٣) هو أبو يعقوب ، إسحاق بن محمد النهرجورى من علماء مشايخ الصوفية مات بمكة سنة ٣٣٠ . انظر ترجمته وأقواله فى : طبقات الصوفية : ٣٧٨-٣٨١ ؛ الطبقات الكبرى للشعرانى : ٩٥/١ ؛ شذرات الذهب ٣٢٥/٢-٣٢٦ . والنص التالى من كلام النهرجورى فى : القشيرية ١٥٧/١ .(وترجمة النهرجورى فى «القشيرية» ١٥٦/١-١٥٧) .

العلم ». وكقول أبي يزيد[١] : «عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت أشد[٢] علىّ من العلم ومتابعته ، ولولا اختلاف العلماء لبقيت ، واختلاف العلماء رحمة إلا فى تجريد التوحيد ».

وهذا كقول سهل بن عبد الله التسترى[٣] : كل فعل تفعله بغير اقتداءٍ طاعةً أو معصيةً[٤] فهو عيش النفس ، وكل فعل تفعله بالاقتداء فهو عذاب على النفس » .

وقال أبو سليمان/ الدارانى[٥] : « ربما يقعُ فى [قلبى] النُّكْتَةُ مِنْ ظ ٢٣

(١) فى الأصل : أبى زيد ، وهو تحريف . وهو أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى ويقال : بايزيد ، صوفى شهير له شطحات كثيرة . يقول الزركلى : «وفى المستشرقين من يرى أنه كان يقول بوحدة الوجود ، وأنه كان أول قائل بمذهب الفناء Nirvana ويعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية » . ولد سنة ١٨٨ وتوفى سنة ٢٦١. انظر ترجمته ومذهبه فى : طبقات الصوفية ، ص ٦٧-٧٤ ؛ الطبقات الكبرى ١/٦٥-٦٦ ؛ صفة الصفوة ٤/٨٩-٩٤ ؛ شذرات الذهب ٢/١٤٣-١٤٤ ؛ ميزان الاعتدال ٢/٣٤٦-٣٤٧ ؛ الأعلام ٣/٣٣٩ ؛ الرسالة القشيرية ١/٨٠-٨٢ . وقد ألف الدكتور عبد الرحمن بدوى الجزء الأول من كتابه «شطحات الصوفية» (ط النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٩) وفيه نصوص مطولة من شطحات البسطامى . والنص التالى من كلامه فى : القشيرية ١/٨٠ .

(٢) القشيرية : شيئا أشد .

(٣) أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التسترى ، من كبار الصوفية ، ولد سنة ٢٠٠ وتوفى سنة ٢٨٣ . انظر ترجمته وأقواله فى : طبقات الصوفية ، ص ٢٠٦-٢١١ ؛ الطبقات الكبرى ١/٦٦-٦٨ ؛ صفة الصفوة ٤/٤٦-٤٨ ؛ شذرات الذهب ٢/١٨٢-١٨٤ ؛ الأعلام ٣/٢١٠ والنص التالى فى : القشيرية ، ١/٨٥ . (وترجمة التسترى فى : القشيرية ١/٨٣ - ٨٥)

(٤) القشيرية : كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء ، طاعة كان أو معصية .

(٥) أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الدارانى العنسى ، من أئمة الصوفية ، من قرية داريا من قرى دمشق ، توفى سنة ٢١٥ . واسمه فى كثير من كتب التراجم : عبد الرحمن بن عطية . انظر ترجمته وأقواله فى : طبقات الصوفية ، ص ٧٥-٨٢ ؛ الطبقات الكبرى ١/٦٨ ؛ تاريخ بغداد =

نُكَت(١) القوم أياماً فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة » .

وقال صاحبه أحمد بن أبى الحوارى(٢) : من عمل بلا اتّباع سُنَّة فباطلٌ عملهُ »(٣) .

وقال أبو حفص النيسابورى(٤) : « من لم يزن أفعالَه وأقوالَه كلَّ وقت(٥) بالكتاب والسنة ، ولم يتهم خواطره ، فلا تعدُّه فى ديوان الرجال » .

= ١٠/٢٤٨–٢٥٠ ؛ وفيات الأعيان ٢/٣١٣ (وجعل سنة وفاته ٢٠٥) ؛ الأعلام ٤/٦٥ (وذكر الخلاف فى سنة وفاته هل هى : ٢٠٤ أم ٢٠٥ أم ٢١٥ أم ٢٣٥) . والنص التالى فى القشيرية ١/٨٦ . (وترجمة الدارانى فى «القشيرية ١/٨٦–٨٨) .

(١) فى الأصل : فى النكثة من نكث . والتصويب من القشيرية . وفى «المصباح المنير» : «النكتة فى الشئ كالنقطة والجمع نُكت ونِكات مثل بُرْمة وبُرَم وبِرَام» . وفى «لسان العرب» : «النُّكت : أن تنكت بقضيب فى الأرض .. والنُّكتة أيضا : شبه وسخ فى المرآة ونقطة سوداء فى شئ صافٍ» .

(٢) أبو الحسن أحمد بن أبى الحوارى ميمون صحب أبا سليمان الدارانى ، وكان من شيوخ الصوفية وتوفى سنة ٢٣٠ . انظر ترجمته وأقواله فى : طبقات الصوفية ، ص ٩٨–١٠٢ ؛ الطبقات الكبرى ١/٧٠ ؛ صفة الصفوة ٤/٢١٢–٢١٣ ؛ شذرات الذهب ٢/١١٠–١١١ (وجعل سنة وفاته ٢٤٦) ؛ تهذيب التهذيب ١/٤٩ (وسمّاه : أحمد بن عبد الله بن ميمون بن العباس بن الحارث التغلبى أبو الحسن ابن أبى الحوارى ، وجعل سنة وفاته ٢٤٦) . والنص التالى فى القشيرية ١/٩٥ . (وترجمة الحوارى فى «القشيرية» ١/٩٥) .

(٣) القشيرية : من عمل عملا بلا اتّباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فباطل عمله .

(٤) أبوحفص عمرو بن سَلَمة الحداد النيسابورى ، من شيوخ الصوفية ، توفى سنة ٢٧٠ وقيل سنة ٢٦٧ . انظر ترجمته وأقواله فى : طبقات الصوفية ، ص ١١٥–١٢٢ ؛ الطبقات الكبرى ١/٧٠ (وسماه : عمر بن سالم الحداد النيسابورى) ؛ صفة الصفوة ٤/٩٨–٩٩ (وذكر الخلاف فى سنة وفاته) ؛ شذرات الذهب ٢/١٥٠ (وسماه : عمرو بن مسلم وجعل سنة وفاته ٢٦٥) . والنص التالى فى : القشيرية ١/٩٦ . وسماه القشيرى : عمرو بن مسلمة الحداد . (وترجمة عمرو فى «القشيرية» ١/١٠٦) .

(٥) القشيرية : من لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت ..

وقال الجنيد بن محمد[١] : « الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقْتَفَى أثَرَ الرسول صلى الله عليه وسلم[٢] . وقال أيضا : « من لم يحفظ القرآن ويكتب[٣] الحديث لايقتدى به فى هذا الأمر ، لأن عِلْمنا هذا مُقيَّد بالكتاب والسنة » .

وقال أبو عثمان[٤] : « مَنْ أمَّر السنَّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة . قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ . [سورة النور : ٥٤] . وقال أبو حمزة البغدادى[٥] : « من عَلِمَ الطريق إلى الله[٦] سَهُلَ عليه سلوكُه ، ولا

(١) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى الخزاز ، أصل أبيه من نهاوند ، وكان يبيع الزجاج ولذلك يقال له القواريرى . والجنيد إمام الصوفية ، ويقال له : سيد الطائفة ، لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة توفى ببغداد سنة ٢٧٩ وقيل ٢٩٨ . انظر ترجمته وأقواله فى : طبقات الصوفية ، ص ١٥٥-١٦٣ ؛ الطبقات الكبرى ٧٢/١-٧٤ ؛ صفة الصفوة ٢٣٥/٢-٢٤٠ ؛ وفيات الأعيان ٣٢٣/١-٣٢٥ ؛ شذرات الذهب ٢٢٨/٢-٢٣٠ ؛ طبقات الشافعية ٢٦٠/٢-٢٧٥ ؛ الأعلام ١٣٧/٢-١٣٨ .

والنص التالى فى القشيرية ١٠٦/١ (وترجمة الجنيد وأقواله فى القشيرية ١٠٥/١-١٠٨) .

(٢) القشيرية : إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام .

(٣) القشيرية ١٠٧/١ : ولم يكتب .

(٤) هو أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور الحيرى النيسابورى ، وأصله من الرى . شيخ الصوفية بنيسابور وبها توفى سنة ٢٩٨ . انظر ترجمته وأقواله فى : طبقات الصوفية ، ص ١٧٠-١٧٥ ؛ صفة الصفوة ٨٥/٤-٨٨ ؛ الطبقات الكبرى ٧٤/١-٧٥ ؛ وفيات الأعيان ١١١/٢-١١٢ ؛ تاريخ بغداد ٩٩/٩-١٠٢ ؛ المنتظم ١٠٦/٦-١٠٨ ؛ الرسالة القشيرية ١٠٩/١-١١١ . وهذا النص فى «الرسالة القشيرية» ص ١١١ .

(٥) هو أبو حمزة محمد بن إبراهيم البغدادى البزاز ، مات قبل الجنيد وكان من أقرانه وكان عالما بالقراءات فقيها ، توفى سنة ٢٨٩ . انظر ترجمته وأقواله فى : القشيرية ١٣٩/١ ؛ طبقات الصوفية ، ص ٢٩٥-٢٩٨ ؛ الطبقات الكبرى ٨٥/١ ؛ تاريخ بغداد ٣٩٠/١-٣٩٤ . والنص التالى فى «القشيرية» ١٣٩/١ .

(٦) القشيرية : إلى الحق تعالى .

دليل على الطريق إلى الله[١] إلا متابعة الرسول فى أحواله وأقواله وأفعاله[٢] ».

ومن لفظ «العلم» فى كلامهم قول أبى عثمان النيسابورى: « الصحبة مع الله بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة ، والصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم[٤] باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم[٥] ، والصحبة مع أولياء الله تعالى بالاحترام والخدمة ، والصحبة مع الأهل بحسن الخلق ، والصحبة مع الإخوان بدوام البشر ما لم يكن إثما ، والصحبة مع الجُهَّال بالدعاء لهم والرحمة عليهم ».

ومنه قول أبى الحسين النورى[٦] : « مَنْ رأيتَه يَدَّعِى مع الله حالة تُخرجه عن حَدِّ العلم الشرعى فلا تقتربن منه[٧] » . وقال : [٨] « أعزُ

(١) القشيرية : إلى الله تعالى .

(٢) القشيرية : الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحواله وأفعاله وأقواله .

(٣) النص التالى فى «القشيرية» ١/١١٠ .

(٤) صلى : ساقطة من الأصل . وفى «القشيرية» : والصحبة مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

(٥) بعد كلمة «العلم» جاءت فى الأصل عبارة «والصحبة مع الإخوان بدوام البشر مالم يكن إثما» وستتكرر العبارة بعد قليل فى موضعها الصحيح إن شاء الله ، ولذلك حذفتها من هذا الموضع .

(٦) أبو الحسين أحمد بن محمد النورى . وقيل : محمد بن محمد ، وأحمد أصح . بغدادى المنشأ والمولد ، خراسانى الأصل ، ويعرف بابن البغوى . توفى سنة ٢٩٥ . انظر ترجمته وأقواله فى : القشيرية ١/١١٢-١١٣ ؛ طبقات الصوفية ، ص ١٦٤-١٦٩ ؛ صفة الصفوة ٢/٢٤٧-٢٤٨ ؛ تاريخ بغداد ٥/١٣٠-١٣٦ ؛ الطبقات الكبرى ١/٧٤-٧٥ . والنص التالى فى «القشيرية» ١/١١٢ .

(٧) القشيرية : فلا تقربن .

(٨) فى «القشيرية» ١/١١٢ .

الأشياء فى زماننا [شيئان][1] : عالمٌ يعمل بعلمه ، وعارف ينطق عن حقيقته[2] ».

وقال [أبو][3] عبد الرحمن السلمى : سمعت جدى أبا عمرو بن نجيد[4] يقول : كل حال لايكون عن نتيجة علم ، فإن ضرره أكثر على صاحبه من نفعه[5] . وسئل عن التصوف فقال : الصبر تحت الأمر والنهى[6] .

وسبب تعبيرهم عن الشريعة بالعلم أن القوم أصحاب إرادة وقصد وعمل وحال ، هذا خاصتهم ، لكن قد يعمل أحدهم تارة بغير العلم الشرعى ، بل بما يدركه ، ويجد إرادته فى قلبه ، وإن لم يكن ذلك مشروعا مأمورا به . وهذا كثيراً مايُبتلَى به كثير منهم مِنْ [تقديم][7] علمهم بالذوق والوجد على موجب العلم المشروع ، ومِن العمل بذوق/ ليس معه فيه علم مشروع .

ص ٢٤

---

(١) شيئان : ساقطة من الأصل ، وأضفتها من «القشيرية».

(٢) القشيرية : عن حقيقة .

(٣) أبو : ساقطة من الأصل .

(٤) فى الأصل : بن جنيد ، وهو خطأ . وهو أبو عمرو إسماعيل بن نجيد بن أحمد بن يوسف ، السلمى . قال أبو عبد الرحمن السلمى فى طبقات الصوفية ، ص ٤٥٤ : «جدى لأمى» . لقى الجنيد وكان من أكبر مشايخ وقته . توفى سنة ٣٦٦ . انظر ترجمته وأقواله فى : القشيرية ١٧١/١ ؛ طبقات الصوفية ، ص ٤٥٤-٤٥٧ ؛ الطبقات الكبرى ١٠٣/١ ؛ طبقات الشافعية ٢٢٢/٣-٢٢٤ ؛ المنتظم ٨٤/٧-٨٥ ؛ شذرات الذهب ٥٠/٣ . والنص التالى فى «القشيرية»١٧١/١ .

(٥) فى الأصل : من فعل ، وهو تحريف . وفى «القشيرية» فإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه .

(٦) العبارات التى تبدأ بقوله : وسئل عن .. الخ فى «القشيرية» بعد الكلام السابق بسطرين .

(٧) فى الأصل:منهم من علمهم . وبإضافة كلمة «تقديم» إلى العبارة يستقيم الكلام .

ولا ريب أن هذا من اتّباع الهوى بغير هدى من الله ، وهو ممّا ذم الله به النصارى ، الذين يضارعهم فى كثيرٍ من أمورهم المنحرفون من الصوفية والعُبّاد ، ولهذا جعله سهلٌ من حظ النفس .

ولهذا استضعف أبو يزيد متابعة العلم ، فإن مجاهدة هوى[1] النفس يفعلها غالب النفوس ، مثل عبادات المشركين وأهل الكتاب من الرهبان وعُبَّاد الأنداد ونحوهم ، وكل ذلك من هذا الباب ، ولهم من الزهد والمجاهدة فى العبادة ما لا يفعله المسلمون ، لكنه باطل ليس بمشروع ، ولهذا لاينتج له من النتائج إلا ما يليق به .

والمسلم الصادق إذا عَبَدَ الله بما شُرِعَ فتح الله عليه أنوار الهداية فى مدة قريبة . فالمهتدون من مشايخ العبَّاد والزهَّاد يوصون باتباع العلم المشروع ، كما أن أهل الاستقامة من العلم يوصون بعلمهم الذى يسلكه أهل الاستقامة من العبّاد والزهّاد . وأما المنحرفون من الطائفتين فيُعْرِضون عن المشروع : إمَّا من العلم وإما من العمل ، وهما طريق المغضوب عليهم ، والضالين .

قال سفيان بن عيينة : «كانوا يقولون : من فَسَدَ من العلماء ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من العُبَّاد ففيه شبه من النصارى».

ولهذا قصد أبو القاسم فى «الرسالة» الرد على هؤلاء ، ولما ذكر المشايخ الذين ذكرهم قال[2] : « هذا ذكر[3] جماعة من شيوخ هذه

(١) فى الأصل : بهوى . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى «القشيرية» ١٨٦/١ .

(٣) القشيرية : هذا هو ذكر.

الطائفة ، كان[١] الغرض من ذكرهم فى هذا الموضع التنبيه على أنهم كانوا مجمعين[٢] على تعظيم الشريعة ، متصفين بسلوك طريق[٣] الرياضة ، متفقين[٤] على متابعة السنة ، غير مخلِّين[٥] بشيء من آداب الديانة متفقين على أن من خلا عن[٦] المعاملات والمجاهدات ، ولم يَبْن أمْرَهُ على أساس الورع والتقوى كان مُفْترياً على الله سبحانه[٧] فيما يدَّعيه ، مفتوناً ، هلك فى نفسه ، وأهلك من اغترَّ به ممن ركن إلى أباطيله ».

وإذا عُرِف معنى لفظ «العلم» فى اصطلاحهم ، فقول أبى على بن الكاتب : «الصوفية نزَّهوه[٨] من حيث العلم» أى من جهة الشرع[٩] ، وهو الكتاب والسنة ، فنزَّهوه عما نزَّه عنه نفسه «فأصابوا» . وأما المعتزلة فنزَّهوه بقياس عقلهم وأهوائهم ؛ أرادوا أن ينفوا عنه كل صفة موجودة ، لظنهم أن ذلك تشبيه ، ولم يهتدوا إلى أن الخالق يُوصف بما

---

(١) القشيرية : وكان .

(٢) القشيرية : على أنهم مجمعون .

(٣) فى الأصل : بطريق ، وهو تحريف . وفى «القشيرية» : متصفون بسلوك طرق ..

(٤) القشيرية : مقيمون .

(٥) فى الأصل : غير محلقين ، وهو تحريف . والتصويب من «القشيرية» .

(٦) القشيرية : متفقون على أن من خلا من ..

(٧) القشيرية : سبحانه وتعالى .

(٨) فى الأصل : نزوه ، وهو تحريف . وسبقت العبارة قبل صفحات قليلة ص ٩٤ كما أثبتها هنا .

(٩) فى الأصل : السرى ، وهو تحريف .

ظ ٢٤ يليق به ، والمخلوق يُوصف بما يليق به ، وأن الاسم/ وإن كان متفقا ، فالإضافة إلى الله تخصصه وتقيّده بما ينفى عنه مماثلة الخلق .

وهذا الذى ذكره الشيخ أبو على[١] من أن الصوفية يخالفون المعتزلة فأمر متفق عليه ، فإن أصول الصوفية لا تلائم نفى الصفات ، بل هم أبعد الناس عن الاعتزال فى الصفات والقدر .

ومن المعلوم أن طريقة الكلام فى الجواهر والأعراض ، فى أدلة أصول الدين ومسائله ، هى الطريقة التى سلكها المعتزلة ، وأخذها عنهم[٢] متكلمة الصفاتية من الأشعرية ونحوهم ، وهى الطريقة التى أشار إليها أبو القاسم .

فعُلم أن القوم مخالفون لهذه الطريقة الكلامية التى أشار أبو القاسم إلى بعضها . وكذلك قد ذكر أبو القاسم فى ترجمة الشيخ أبى الحسن بن الصايغ ، وزمنه زمن ابن الكاتب ، سنة ثلاثين وثلاثمائة[٣] . **قال**[٤] : « وكان من كبار المشايخ» . **وقال**[٥] : «قال أبو عثمان المغربى : ما رأيت

(١) فى الأصل : أبى على ، وهو خطأ .

(٢) فى الأصل : عنه ، وهو تحريف .

(٣) وهو أبو الحسن على بن محمد بن سهل الدِّيْنَوَرى ، ويعرف بابن الصائغ ، توفى بمصر سنة ٣٣٠ . انظُر ترجمته وأقواله فى : القشيرية ١٤٢/١ ؛ طبقات الصوفية ، ص ٣١٢-٣١٥ ؛ صفة الصفوة ٦٠/٤-٦١ ؛ الطبقات الكبرى ٨٧/١ ؛ المنتظم ٣٢٨/٦ .

(٤) فى «القشيرية» ١٤٢/١ .

(٥) بعد الكلام السابق مباشرة .

من المشايخ أنْوَر من أبى يعقوب النهرجورى ، ولا أكثر هيبةً من أبى الحسن بن الصايغ» .

قال القشيرى [١] : «سئل ابن الصايغ عن الاستدلال بالشاهد على الغائب ، فقال : كيف يُستدل بصفات من له مِثْل [ونظير] [٢] على صفات [٣] من لا مِثْل له ولا نظير؟ » .

والاستدلال بالشاهد على الغائب فى إثبات الصفات ، هى طريقة شيوخ أبى القاسم [من] المتكلمين [الذين] يجمعون [٤] بين الشاهد والغائب ، فى الحد والدليل ، والشرط والعلم ، لإثبات الحياة والعلم وسائر الصفات . فقد رد الشيخ أبو الحسن [٥] هذه الطريقة .

ومما يبيّن هذا أن أعظم المشايخ الذين أخذ عنهم أبو القاسم جمعاً لكلام مشايخ الصوفية ، وتأليفاً له ، ورواية له ، هو الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى . فإن القشيرى لم يدرك شيخاً أجمع لكلام القوم ، وأحرص على ذلك ، وأرغب فيه مِنه ، ولهذا صنّف فى ذلك ما لم يصنّفه نظراؤه .

---

(١) الكلام التالى فى «القشيرية» بعد عبارة واحدة ، هى : «مات سنة ثلاثين وثلاثمائة» .

(٢) ونظير : ساقطة من الأصل ، وأثبتها من «القشيرية» .

(٣) صفات : ساقطة من «القشيرية» .

(٤) فى الأصل : ... شيوخ أبى القاسم المتكلمين يجمعون . ولعل الصواب ما أثبته

(٥) فى الأصل : أبى الحسن ، وهو خطأ .

كما أن[١] الذين أدركوا عصر أبي القاسم من مشايخ القوم ، لم يكن فيهم أَقْوَم بهذا الباب من شيخ الإسلام أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى الهروى[٢] ، لاسيما فى المعرفة بأخبار القوم وكلامهم وطريقهم ، فإنه فى ذلك ونحوه من أعلم الناس ، وكان إماما فى الحديث والتفسير وغير ذلك .

ص ٢٥ ومع هذا ، فالشيخ/ أبو عبد الرحمن وشيخ الإسلام كلاهما[٣] له مصنَّف مشهور فى ذم طريقة الكلام ، التى يدخل فيها كثير ممّا ذكره أبو القاسم من الدلائل والمسائل .

حتى ذكر شيخ الإسلام فى كتابه قال[٤] : «سمعت أحمد بن أبى نصر يقول : رأينا محمد بن الحسين السلمى يلعن الكُلاَّبية» .

ومحمد بن الحسين السلمى هو الشيخ [أبو][٥] عبد الرحمن ،

---

(١) فى الأصل : ومع هذا ومع كما أن ، وشطب الناسخ على «ومع» الثانية ، والصواب حذف الكلمات الثلاثة قبل قوله : كما أن .. الخ

(٢) هو أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن على الهروى الأنصارى ، كان يدعى شيخ الإسلام ، وكان إمام أهل السنة بهراة ويسمى خطيب العجم لتبحر علمه وفصاحته ونبله ، توفى سنة ٤٨١ . انظر ترجمته فى : طبقات الحنابلة ٢/٢٤٧-٢٤٨ ؛ الذيل لابن رجب ١/٥٠-٦٨ ؛ الأعلام ٤/٢٦٧ .

(٣) فى الأصل : كلامها ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) بحثت عن النص التالى فى الكلام الذى أورده السيوطى فى كتابه «صون المنطق والكلام عن فنّى المنطق والكلام» ملخصا به كتاب «ذم الكلام» للهروى ، ١/٦٨-١٢٦ (تحقيق د. على النشار ، د. سعاد على عبد الرازق . ط. مجمع البحوث الإسلامية ، ١٣٨٩/١٩٧٠) ولكنى لم أجده ، والظاهر أنه مما اختصره السيوطى .

(٥) أبو : ساقطة من الأصل .

أعرف مشايخ أبى القاسم القشيرى بطريقة الصوفية وكلامهم . ومعلوم أن القوم من أبعد الناس عن اللعن ونحوه لحظوظ أنفسهم . ولولا أن أبا عبد الرحمن كان الذى عنده أن الكلابية مباينون لمذهب الصوفية ، المباينة العظيمة التى توجب مثل هذا ، لما لعنهم أبو عبد الرحمن هذا .

والكُلاَّبية هم مشايخ الأشعرية ، فإن أبا الحسن الأشعرى إنما اقتدى بطريقة أبى محمد بن كُلاَّب ، وابن كلاب كان أقرب إلى السلف زمناً وطريقةً . وقد جمع أبو بكر(١) بن فورك شيخ القشيرى كلام ابن كُلاَّب والأشعرى(٢) وبيَّن اتفاقهما فى الأصول . ولكن لم يكن [كلام أبى] عبد الرحمن السلمى [قد انتشر بعد](٣) ؛ فإنه انتشر فى أثناء المائة الرابعة لما ظهرت كتب القاضى أبى بكر بن الباقلانى ونحوه .

وقد ذكر ذلك الحافظ أبو القاسم بن عساكر ، المنتصر لأبى الحسن الأشعرى ، فى كتابه الذى سمّاه «تبيين كذب المفترى فيما ينسب إلى الشيخ أبى الحسن الأشعرى» موافقا للشيخ أبى على الأهوازى ، المصنِّف فى مثالب الأشعرى ، مع كون [ابن](٤) عساكر ردَّ على الأهوازى ذمَّه

---

(١) فى الأصل : أبورك ، وهو تحريف .
(٢) فى الأصل . ابن الكلاب الأشعرى .
(٣) فى الأصل : ولكن لم يكن عبد الرحمن السلمى ، ولعل ما أثبته يتم به الكلام ويستقيم .
(٤) ابن : ساقطة من الأصل .

وثَلْبَهُ له ، لكن وافقه فى ذلك . فذكر أبو على الأهوازى أنه مذ قَوِىَ[(١)] مذهبه أقل من ثلاثين سنة ، والأهوازى توفى سنة خمس وأربعين وأربعمائه[(٢)]

قال ابن عساكر[(٣)] : «وقوله : إن مذ قوى ذلك أقل من ثلاثين سنة ، فلعمرى إنه إنما اشتهرت[(٤)] هذه النسبة من الأزمنة[(٥)] فى عصر القاضى أبى بكر بن الباقلانى ذى التصانيف المستحسنة المنتشرة فى بغداد وغيرها[(٦)] من البلدان والأمكنة».

والمقصود هنا أن المشايخ المعروفين الذين جمع الشيخ أبو عبد الرحمن أسماءهم فى كتاب «طبقات الصوفية» وجمع أخبارهم وأقوالهم ، دع مَنْ قبلهم مِنْ أئمة الزهّاد من الصحابة والتابعين /الذين جمع[أبو][(٧)] عبد الرحمن وغيره كلامهم فى كتب معروفة ، وهم الذين

ظ ٢٥

(١) فى الأصل : مد وقى . والصواب ما أثبته ، وهو الذى سيرد بعد قليل بإذن الله .

(٢) أبو على الحسن بن على بن إبراهيم بن يزداد الأهوازى ، ولد سنة ٣٦٢ وتوفى سنة ٤٤٦ ، مقرىء الشام فى عصره ، وكان من المشتغلين بالحديث . قال الذهبى فى «ميزان الاعتدال» : «قرأ على جماعة لا يُعرفون إلا من جهته ، وروى الكثير ، وصنَّف كتابا فى الصفات لو لم يجمعه لكان خيرًا له ، فإنه أتى فيه بموضوعات وفضائح ، وكان يحطّ على الأشعرى ، وجمع تأليفا فى ثلبه».انظر ترجمته فى : ميزان الاعتدال ٥١٢/١ – ٥١٣ ؛ لسان الميزان ٢٣٧/٢ – ٢٤٠ ؛ الأعلام ٢١٨/٢ .

(٣) فى «تبيين كذب المفترى» ص ٤١٠ .

(٤) فى الأصل : إنما انتشر . والمثبت من «تبيين» . ولعل الصواب فى الأصل : إنما انتشرت .

(٥) فى الأصل : من الأمنة ، وهو تحريف . والتصويب من «تبيين» .

(٦) تبيين : . . . المستحسنة وانتشرت ببغداد وغيرها . . .

(٧) أبو : ساقطة من الأصل .

يتضمن أخبارهم كتاب «الزهد» للإمام أحمد وغيره [١] ، لم يكونوا على مذهب الكُلاَّبية الأشعرية ، إذ لو كانت كذلك لما كان أبو عبد الرحمن يلعن الكُلاَّبية .

وقال شيخ الإسلام الأنصارى [٢] : «سمعت أحمد بن حمزة وأبا على الحداد يقولان : وجدنا أبا العباس أحمد بن محمد النهاوندى على الإنكار على أهل الكلام [٣] وتكفير الأشعرية ، وذكرا عِظَمَ شأنه فى الإنكار على أبى الفوارس القرمسينى [٤] وهجر ابنه إياه لحرف واحد [٣] » . قال شيخ الإسلام : «سمعت أحمد بن حمزة يقول [٥] : [لما] اشتد الهجران [بين] النهاوندى [٦] وأبى الفوارس سألوا أبا عبد الله الدَيْنَورى فقال : لقيت ألف شيخ على ما عليه النهاوندى» .

---

(١) طبع بمكة سنة ١٣٥٧ . ومنه نسخ خطية ناقصة ومختارات . وانظر ما ذكره عنه سزكين ٢/٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٢) فى كتابه « ذم الكلام » والنص التالى ورد مختصرا فى « صون المنطق » ١/١٢٠ .

(٣ - ٣) : هذه العبارات لخصها السيوطى واختصرها فى عبارة قصيرة هى : « وهجر أبا الفوارس القرمسيى » .

(٤) فى الأصل : القرماسينى ، وجاءت هكذا فى أصل نسخة « صون المنطق » ولكن محققا الكتاب أثبتا الكلمة « القرمسينى » وعلقا بقولها : والصحيح : القرمسينى ، نسبة إلى قرمسين مدينة بالعراق » . وفى « الطبقات الكبرى » ورد علمان بهذه النسبة : أحدهما : مضفر القرميسينى ١/٩٧ . والآخر : أبو إسحاق إبراهيم بن شيبان القرميسينى ١/٩٧ . وجاءت ترجمة وأقوال : مظفر القرمسينى فى « القشيرية » ١/١٥٩ ، وفى « طبقات الصوفية » ص ٣٩٦ - ٣٩٨ . والأرجح أن يكون أبو الفوارس القرمسينى هو : المظفر القرمسينى ، وهو من أشياخ جبل قاسيون بدمشق،صحب عبد الله الخراز وغيره .

(٥) ذم الكلام (صون المنطق ١/١٢٠) : قال أحمد بن حمزة .

(٦) فى الأصل : اشتد الهجران النهاوندى . والتصويب من « ذم الكلام » .

وقد ذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى فى كتابه فى ذم الكلام[(١)] ما ذكر أيضا شيخ الإسلام أبو اسماعيل الأنصارى **فقال**[(٢)] :

«[(٣)] أخبرنى ابن أحمد حدثنا محمد بن الحسين فقال : رأيت بخط أبى عمرو بن مطر يقول[٣] : سُئل ابن خزيمة عن الكلام فى الأسماء والصفات فقال : بدعة ابتدعوها ، ولم يكن أئمة المسلمين وأرباب المذاهب وأئمة الدين ، مثل : مالك ، وسفيان ، والأوزاعى ، والشافعى ، وأحمد ، وإسحاق ، ويحيى بن يحيى ، وابن المبارك [ومحمد بن يحيى][(٤)] ، وأبى حنيفة ، ومحمد بن الحسن ، وأبى يوسف : يتكلمون فى ذلك ، ويَنْهَوْن عن الخوض فيه ، ويَدُلُّون أصحابهم على الكتاب والسنة ، فإياك والخوض فيه والنظر فى كتبهم بحال » .

وقال محمد بن الحسين ، وهو أبو عبد الرحمن السلمى : «سمعت أحمـــد بن ســـعيد المَـــعْدَانى بمرو[(٥)] ، سمعت أبا بكر بن

(١) ذكر سزكين ٥٠٣/٢ أن للسلمى كتابا بعنوان : « الرد على أهل الكلام » وأن له مختصرا فى الظاهرية .

(٢) فى ذم الكلام ١١٨/١ - ١١٩ .

(٣ - ٣) : هذه العبارات اختصرها السيوطى هكذا : وأخرج عن أبى عمرو بن مطر قال : . . .

(٤) ومحمد بن يحيى : سقطت هذه العبارة من الأصل ، وأثبتها من « ذم الكلام » .

(٥) فى الأصل : المعرانى . والتصويب من « طبقات الصوفية » ، ص ١٣٠ . وترجم له الأستاذ نور الدين شريبه فى تعليقه بقوله : « أبو العباس أحمد بن سعيد بن محمد بن حمدان ، الفقيه المَعْدانى الأزدى . كان فقيها فاضلا حافظاً مكثرا من الحديث ، رحل إلى العراق والحجاز ، واشتغل بالجمع والتصنيف ، غير أن تصانيفه جمع فيها الغث والسمين ، ممن روى عنه أبو عبد الرحمن السلمى . ولد سنة إحدى وتسعين ومائتين وتوفى فى الثامن من شهر رمضان ، سنة أربع وسبعين وثلاثمائة » .

بسطام[1] : سألت أبا بكر بن سيَّار عن الخوض فى الكلام ، فنهانى عنه أشد النهى ،وقال : عليك بالكتاب والسنة ، وما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين ، فإنى رأيت المسلمين فى أقطار الأرض ينهَوْن عن ذلك وينكرونه ، ويأمُرون بالكتاب والسنة ».

قال شيخ الإسلام أبو اسماعيل الأنصارى[2] : « أخبرنا أحمد بن محمد بن العباس بن إسماعيل المقرى ، أخبرنا محمد بن عبد الله[بن] البيع ، وهو الحافظ الحاكم[3] : سمعت أبا سعيد عبد الرحمن بن محمد المقرى ، /سمعت أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة[4] يقول : من نظر فى كتبى المصنفة فى العلم ظهر له وبان بأن الكُلاَّبية -لعنهم الله- كذبةٌ فيما يحكون عنى ممّا هو خلاف أصلى وديانتى ، قد عرف أهل الشرق ص ٢٦

(١) جاء النص التالى فى « ذم الكلام » للهروى (صون المنطق ١١٩/١) وقد اختصر أوله هكذا : وأخرج عن أبى بكر بن بسطام قال . . . .

(٢) لم أجد النص التالى فى « صون المنطق ».

(٣) فى الأصل سقطت « بن ». وهو : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبّى النيسابورى ، الشهير بالحاكم ويعرف بابن البيع . من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه . توفى سنة ٤٠٥ . انظر ترجمته فى : تذكرة الحفاظ ١٠٣٩/٣ - ١٠٤٥ ، طبقات الشافعية ١٥٥/٤ - ١٧١ ؛ تاريخ بغداد ٤٧٣/٥ - ٤٧٤ ؛ سزكين ٥٤٢/١ - ٥٤٦ ؛ الأعلام ١٠١/٧ .

(٤) هو أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمى النيسابورى إمام نيسابور فى عصره . لقبه السبكى بإمام الأئمة . حدث عنه الشيخان خارج صحيحيهما . ولد سنة ٢٢٣ وتوفى ٣١١ . انظر ترجمته فى : تذكرة الحفاظ ٧٢٠/٢ - ٧٣١ ؛ طبقات الشافعية ١٣٠/٢ - ١٣٥ ؛ الأعلام ٢٥٣/٦ . وطبع له كتاب « التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل » بالمطبعة المنيرية ، القاهرة ١٣٥٢ .

والغرب أنه لم يصنِّف أحدٌ فى التوحيد وفى أصول العلم مثل تصنيفى ، فالحاكى عنى خلاف ما فى كتبى المصنَّفة- التى حُملت إلى الآفاق شرقا وغربا- كَذَبَةٌ فَسقَةٌ» .

وقال شيخ الإسلام(١) : «وأخبرنى(٢) أحمد بن حمزة ، حدثنا محمد بن الحسين - وهو أبو عبد الرحمن السلمى - يقول: بلغنى أن بعض أصحاب أبى على الجوزجانى سأله(٢) : كيف الطريق إلى الله ؟ قال : أصح الطرق وأعمرها [وأبعدها](٣) من الشُّبَهِ : اتّباع الكتاب والسنة : قولاً وفعلاً ، وعقداً ونيَّةً ، لأن الله يقول(٤) : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [سورة النور : ٥٤] ، فسأله : كيف طريق اتّباع السنة(٥) ؟ قال : بمجانبة(٦) البدع ، واتباع ما اجتمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام وأهله ، والتباعد عن مجالس الكلام وأهله ، ولزوم طريقة الاقتداء والاتباع . بذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى(٧) : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ [سورة النحل : ١٢٣] ».

(١) وهو أبو إسماعيل الأنصارى . والنص التالى فى « صون المنطق » ١١٧/١ .

(٢ - ٢) : اختصر السيوطى هذه العبارات إلى : واخرج عن أبى على الجوزجانى أنه سُئل . . .

(٣) وأبعدها : ساقطة من الأصل . وأثبتها من « صون المنطق » .

(٤) صون المنطق : . . . وفعلا وعزما وعقدا ونية ، لأن الله تعالى قال : . . .

(٥) صون المنطق : كيف الطريق إلى اتباع السنة ؟

(٦) صون المنطق : مجانبة .

(٧) تعالى : ليست فى « صون المنطق » .

قال شيخ الإسلام[١] : « أخبرنى طب بن أحمد ، حدثنا محمد بن الحسين ، وهو أبو عبد الرحمن : سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله بن شاذان الرازى[٢] ، سمعت أبا جعفر الفرغانى ، سمعت الجنيد بن محمد يقول : أقل ما فى الكلام سقوط هيبة الرب من القلب[٣] ، والقلب إذا عَرِىَ من الهيبة من الله عَرِىَ من الإيمان» .

إيراد القشيرى فى «رسالته» لجمل من كلام الصوفية فى أصول الدين

قال أبو القاسم[٤] : «ونحن نذكر فى هذا الفصل جُمَلاً من متفرقات كلامهم فيما يتعلق بمسائل الأصول ، ثم نحرر على الترتيب بعدها ما يشتمل على ما يُحتاج إليه فى الاعتقاد على وجه الإيجاز[٥] . سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول[٦] : سمعت عبد الله بن موسى السَّلامى يقول : سمعت الشبلى[٧] يقول : جلَّ[٨] الواحد المعروف قبل

(١) لم أجد النص التالى فى « صون المنطق » ولكنى وجدت نصا مختصرا سأشير إليه فيما يلى إن شاء الله .

(٢) فى الأصل : بن ساذان . وجاء ذكره فى مواضع متفرقة من « القشيرية » بهذا الاسم . انظر مثلا ١/٥٥ .

(٣) جاء فى « صون المنطق » ١٢١/١ : . . سمعت سهل بن محمد الصعلوكى يقول : أقل ما فى الكلام من الخسار سقوط هيبة الله من القلب » .

(٤) النص التالى فى « القشيرية » ٢٥/١ - ٢٦ .

(٥) القشيرية : . . . الإيجاز والاختصار إن شاء الله تعالى .

(٦) القشيرية : أبا عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمى رحمه الله يقول .

(٧) القشيرية : أبا بكر الشبلى . وهو أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى ، من أئمة الصوفية ، ولد سنة ٢٤٧ وتوفى سنة ٣٣٤ ببغداد ، تفقه على مذهب الإمام مالك ، وصحب الجنيد . انظر ترجمته وأقواله فى : القشيرية ١٤٨/١ - ١٤٩ ؛ صفة الصفوة ٢٥٨/٢ - ٢٦١ (وذكر الخلاف فى اسمه واسم أبيه) ؛ تاريخ بغداد ٣٨٩/١٤ - ٣٩٧ ؛ المنتظم ٣٤٧/٦ - ٣٤٩ ؛ الأعلام ٢٠/٣ - ٢١ .

(٨) سقطت كلمة « جل » من « القشيرية » ٢٦/١ .

الحدود وقبل الحروف . قال[١] : وهذا صريح من الشبلى رضى الله عنه[٢] أن القديم[٣] لا حد لذاته ، ولا حروف لكلامه» .

تعليق ابن تيمية من وجوه

قلت : هذا الكلام فيه استدراك من وجوه .

ظ ٢٦

أحدها[٤] : أن الذى قال : إنه تعالى/معروف قبل الحدود وقبل الحروف ، لم يُرِد أن الخلق عرفوه قبل ذلك ، فإنه قبل الخلق لم يكن خلق يعرفونه، وإنما أراد أنه عُرِف أنه كان قبل الحدود وقبل الحروف . فالظرف وهو «قبل» متعلق بالضمير فى معروف لا بنفس المعرفة ، اللهم إلا أن يريد أنه يعرف نفسه قبل الحدود وقبل الحروف ، فيكون هو العارف وهو المعروف ، وهذا معنى صحيح يحتمله الكلام ، والمقصود أنه كان قبل ذلك .

ومعلوم أن اللام للتعريف ، فإذا كان قبل الحدود وقبل الحروف ، فإنما أراد الحدود المعروفة لنا ، والحروف المعروفة لنا وهى ما كان هو قبلها ، وتلك ما للمخلوق من الحدود والحروف . ولا ريب أن الله كان قبل حدود المخلوقات ، وقبل أصوات العباد ومدادهم . فأما أن يكون هذا يقتضى أن الله لم يتكلم بحرف أو ليس له حقيقة فى ذاته يتميز بها عن مخلوقاته ، فليس هذا الكلام صريحا فيه ، إذْ لو أراد ذلك لقال : المنزَّه عن الحدود والحروف ، ولم يقل : قبل الحدود والحروف . فإن ما كان

(١) قال : ساقطة من « القشيرية » .

(٢) رضى الله عنه : سقطت من « القشيرية » .

(٣) القشيرية : القديم سبحانه .

(٤) فى الأصل : أحدهما ، وهو تحريف .

الرب قبله فهو صفة المخلوق ، وأما ما يُنَزَّهُ الرب عنه فهو ممتنع ليس هو صفة له ، ولا هو أيضا بعينه صفة للمخلوق ، وإن كان المخلوق قد يوصف بنظيره .

الوجه الثانى

الوجه الثانى : أن الكلام المجمل[١] من كلامهم يُحمل على ما يناسب سائر كلامهم ، وهؤلاء[٢] أكثر ما يُبتلون[٣] بالاتحادية والحلولية ؛ الذين يجعلون الرب حالاًّ فى المخلوقات ، محدوداً بحدودها ، متكلما بحروفها ، حتى يجعلونه هو المتكلم على ألسنتهم ، كما ذكر ذلك **أبو القاسم** فى أول «**الرسالة**» لمَّا ذكر ما أحدثه فاسدو الصوفية حيث **قال**[٤] : «زال الورع وطُوِىَ بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطُه ، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، وعدُّوا[٥] قلَّة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا[٦] بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام[٧] ، واستخفُّوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا إلى[٨] ميدان الغَفَلات ؛ وركنوا إلى اتِّباع

---

(١) فى الأصل : المحل . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : وهو . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : مما سللون (بدون نقط) ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى « القشيرية » ١/٢٠ –٢١.

(٥) القشيرية : فعدوا .

(٦) فى الأصل : وأدانوا . والتصويب من « القشيرية » .

(٧) فى الأصل ٢١/١ : الأحشام . والتصويب من « القشيرية » .

(٨) القشيرية : فى .

ص ٢٧ الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطى/ المحظورات ، والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان ، وأصحاب السلطان ، ثم لم يرضَوْا بما تعاطَوْه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، فادَّعَوْا أنهم تحرروا عن رقِّ الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق ، تجرى عليهم أحكامه ، وهم محوٌ[1] ، ليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عَتْب ولا لَوْم ، وأنهم كُوشِفُوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا[2] عنهم بالكلية[3] ، وزالت عنهم أحكامه[4] البشرية ، وبقوا بعد فنائهم عنهم[5] بأنوار الصمديّة ، والقائل[6] عنهم غيرُهم [إذا نطقوا ، والنائب عنهم سواهم][7] فيما تصرَّفوا ، بل صُرِّفوا ».

وهؤلاء كثيرون فى المنتسبين[8] إلى الصوفية ، وعلى مثل ذلك قُتل الحلاج .

(١) فى الأصل : وهو محو . وهو خطأ ، والتصويب من « القشيرية » .وقال ابن عربى فى رسالة « اصطلاحات الصوفية » ، ص ٢٣٧ (طبعت مع التعريفات للجرجانى): « رفع أوصاف العادة ، وقيل : إزالة العلة » . وقال الجرجانى فى « التعريفات » ، ص ١٨١ (ط . مصطفى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٣٨/١٣٥٧) : « المحو : رفع أوصاف العادة بحيث يغيب العبد عندها عن عقله ، ويحصل منه أفعال وأقوال لا مدخل لعقله فيها كالسكر من الخمر » .

(٢) واختطفوا : الكلمة غير واضحة فى الأصل . وكذا جاءت فى «القشيرية» .

(٣) قال محققا «القشيرية» فى شرحهم لهذه العبارة : «أى جُذبت قلوبهم وأرواحهم للحق جذبا سريعا حتى لم يبق فيهم سعة لغيره تعالى » .

(٤) القشيرية : أحكام .

(٥) أى عن أنفسهم .

(٦) فى الأصل : القائل . والتصويب من «القشيرية» .

(٧) مابين المعقوفتين ساقط من الأصل ، وأثبته من «القشيرية» .

(٨) فى الأصل : فى المنتسبون ، وهو خطأ .

فالشبلى وأمثاله يريدون أن يميِّزوا بين المخلوق والخالق لنفى مذهب الاتحاد والحلول ، كما نقل عن الجنيد «إفرادُ القِدَم عن الحَدَث[1]» وكما قال أبو طالب المكى صاحب «قوت القلوب»[2] : «ليس فى مخلوقاته شئ من ذاته ، ولا فى ذاته شئ من مخلوقاته[3]». فذكر أنه معروف قبل الحدود والحروف ؛ وهى ما عرف من حدود المخلوقين وحروفهم . وإذا كان معروفاً قبل ذلك لم يكن محدوداً بحدودهم ولا متكلما بكلامهم .

الوجه الثالث

الوجه الثالث : أن أصول اعتقاد أئمة الطريق إلى الله لا يؤخذ مما يحكى عن مثل الشبلى ، ولو كانت الحكاية صادقة ، لِمَا عُرف من حال الشبلى ، وأنه كان يغلب عليه الوجد ، حتى يزول عقله ، وتُحلق لحيته ، ويذهبوا به إلى المارستان ، ويسقط عنه التمييز بين الحق والباطل .

ومن كان بهذه الحالة لم يَجُز أن يُجعل كلامه وحده أصلا يُفرَّق به بين أئمة الهدى والضلال ، والسنة والبدعة ، والحق والباطل . لكن يُقبل

---

(١) أورد القشيرى هذه العبارة من كلام الجنيد فى «القشيرية» ٢٤/١-٢٥ وجاء فيها : .. القدم من الحدث .

(٢) أبو طالب محمد بن على بن عطية الحارثى المكى ، صوفى نشأ واشتهر بمكة ، صاحب كتاب «قوت القلوب» فى التصوف (وهو مطبوع) ، قال عنه الخطيب البغدادى : «ذكر فيه أشياء مستشنعة فى الصفات» ، توفى سنة ٣٨٦ . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ٤٣٠/١ ؛ ميزان الاعتدال ٦٥٥/٣ ؛ لسان الميزان ٣٠٠/٥ ؛ تاريخ بغداد ٨٩/٣ ؛ الأعلام ١٥٩/٧-١٦٠ ؛ سزكين ٤٨٨/٢-٤٩٠ .

(٣) يقول أبو طالب المكى فى «قوت القلوب» ١٢٢/٣ (ط. المكتبة الحسينية ، الأزهر ، القاهرة ، ١٣٥١): «ليس فى ذاته سواه ، ولا فى سواه من ذاته شئ ، ليس فى الخلق إلا الخلق ، ولا فى الذات إلا الخالق».

من كلامه ما وافق فيه أئمة المشايخ ، وهو مادل عليه الكتاب والسنة .

وأقبح من ذلك أن يُعتمد فى اعتقاد أولياء الله فى أصول الدين على كلام لم يُنقل مثله إلا عن الحلاج ، وقد قُتل على الزندقة[1] ، وأحسن مايقولُهُ الناصرُ له : إنه كان رجلا صالحا ، صحيح السلوك ، لكن غلب عليه الوجد والحال حتى عَثَرَ فى المقال ، ولم يدر ما قال .

وكلام السكران يُطَوى ولايُرْوَى ، فالمقتول شهيد ، والقاتل مجاهد فى سبيل الله . دَعْ مايقوله مَنْ ينسبه إلى المخاريق ، وخَلْط /الحق بالباطل . ظ ٢٧

وليس أحد من مشايخ الطريق–لا أولهم ولا آخرهم–يُصَوِّب الحلاج فى جميع مقاله . بل اتفقت الأمة على أنه إمّا مخطئ ، وإما عاصٍ ، وإمّا فاسق ، وإما كافر . ومن قال : إنه مصيب فى جميع هذه

(١) هو أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج ، كان جده مجوسيا من أهل بيضاء فارس ، وقد نشأ بواسط وقيل بتستر ، وقدم بغداد وخالط الصوفية ، وظهر أمره سنة ٢٩٩ ، وكان يظهر مذهب الشيعة لخلفاء العباسيين ومذهب الصوفية للعامة ، ويقول بمذهب الحلول أى حلول الله سبحانه فيه ، أمر الخليفة العباسى المقتدر بسجنه ثم بصلبه وقتله ، وذلك سنة ٣٠٩ . انظر فى ترجمته : تاريخ بغداد ١١٢–١٤١ ؛ البداية والنهاية ١٣٢/١١–١٤٤ ؛ المنتظم لابن الجوزى ١٦٠/٦–١٦٤ ؛ وفيات الأعيان ٤٠٥/١–٤٠٨ ؛ شذرات الذهب ٢٥٣/٢–٢٥٧ ؛ الكامل لابن الأثير ١٢٦/٨–١٢٩ (ط. بيروت ١٩٦٦) ؛ لسان الميزان لابن حجر ٣١٤/٢ ؛ العبر للذهبى ١٤٠/٢ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٥٧ – ١٥٩ ؛ البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات . . . الخ الباقلانى ، ص ٧٦ (ط . بيروت ١٩٥٨) ؛ التصوف الثورة الروحية لعفيفى ، ص ٢٣٢ – ٢٣٥ ؛ الأعلام ٢٨٥/٢ – ٢٨٦ ؛ سزكين ٤٦٠/٢ – ٤٦٤ .

الأقوال المأثورة عنه ، فهو ضال ، بل كافر بإجماع المسلمين . وإذا كان كذلك ، كيف يجوز أن يُجعل عمدةً لأهل طريق الله كلامٌ لم يُؤثَر إلا عنه ، ولايُذكر فى اعتقاد مشايخ طريق الله كلام أبسط منه وأكثر ؟

الكلام المنسوب إلى الحلاج فى «القشيرية»

وهو ما قال فيه[١] : «أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى[٢] ، قال : سمعت محمد بن محمد بن غالب ، قال : سمعت أبا نصر أحمد بن سعيد الأسفنجانى يقول : قال الحسين بن منصور[٣] : ألزم الكلَّ الحَدَثَ لأن القدم له ، فالذى بالجسم ظهورُهُ فالعرضُ يلزمه ، والذى بالأداة اجتماعه فقواها تمسكه[٤] ، والذى يؤلِّفه وقتٌ يفرِّقه وقتٌ ، والذى يقيمه غيره فالضرورة تمسُّهُ ، والذى الوهم يظفر به فالتصوير يرتقى إليه ، ومن آواه محل أدركه أَيْنٌ ، ومن كان له جنس طالبه بِكَيْف[٥] .

إنه سبحانه لا يُظِلُّه فوق ، ولا يُقِلُّهُ[٦] تحت ، ولا يقابله حد ، ولا يزاحمه عند ، ولا يأخذه خَلْفٌ ، ولا يَحُدُّهُ أَمَام ، ولم[٧] يظهره قبل ، ولم يُفْنِهِ بعد ، ولم يجمعه كل ، ولم يوجده كان ، ولم يفقده ليس .

---

(١) فى «القشيرية» ١/٢٨-٣١ .

(٢) القشيرية : الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى رحمه الله تعالى .

(٣) وهو الحلاج .

(٤) القشيرية : يمسكه . والكلمة فى الأصل غير منقوطة .

(٥) القشيرية ١/٢٩ : مكيِّف .

(٦) فى الأصل : يقطعه . والمثبت من «القشيرية» .

(٧) فى الأصل : ولا . والمثبت من «القشيرية» .

وَصْفُهُ : لاصِفَة له ، وفِعْلُه : لاعلة له ، وكونه : لا أمَدَ له ، تنزَّه عن أحوال خلقه،[ليس له من خلقه][١] مزاج ، ولا [فى][٢] فعله علاج ، باينهم بقدمه ، كما باينوه[٣] بحدوثهم .

إن قلت : متى ، فقد سبق الوقتَ ذاتُهُ[٤] ، وإن قلت : هو ، فالهاء والواو خلفهُ[٥] ، وإن قلت : أين،فقد تقدَّم المكانَ وجودُه .

فالحروف آياته ؛ ووجوده إثباته ، ومعرفته توحيده ، وتوحيده تمييزه من خلقه .

ما تُصُوِّر فى الأوهام فهو بخلافه ، كيف يحلُّ به ما منه بدأ[٦] ؟ أو يعود إليه ما هو أنشأ؟[٧] ، لا تماثله[٨] العيون ، ولا تقابله الظنون ، قُرْبُه كرامته ، وبعده إهانته ، علُّوه من غير توقُّل[٩] ، ومجيئه من غير تنقُّل .

هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، والقريب[١٠] البعيد ، ليس كمثله شئ وهو السميع البصير» .

---

(١) مابين المعقوفتين ساقط من الأصل . وأثبته من «القشيرية» ١/٣٠.

(٢) فى : ساقطة من الأصل . وأثبتها من «القشيرية» .

(٣) فى الأصل : باينوهم . وهو خطأ . والمثبت من «القشيرية».

(٤) القشيرية : كونه.

(٥) القشيرية : خلقه .

(٦) القشيرية : ما منه بداه .

(٧) القشيرية : انشأه .

(٨) القشيرية : لا تماقله .

(٩) فى «لسان العرب» : «وَقَلَ فى الجبل بالفتح ، يَقِلُ وَقْلاً ووقولا ،: صعَّد فيه ... وكل صاعد فى شئ متوقل».

(١٠) القشيرية ٣١/١ : القريب .

تعليق ابن تيمية عليه

قلت : هذا الكلام –والله أعلم– هل هو صحيح عن الحلاج أم لا ؟ فإن فى الإسناد من لا أعرف حاله ، وقد رأيت أشياء كثيرة منسوبة إلى الحلاج من مصنَّفات وكلمات ورسائل ، وهى كذب عليه لا شك فى ذلك ، وإن كان فى كثير من كلامه/ الثابت عنه فساد واضطراب ، لكن حمَّلوه أكثر مما حَمَله ، وصار كل من يريد أن يأتى بنوع من الشطح والطَّامَات يَعْزوه إلىَ الحلاج ، لكون محله أَقْبَلَ لذلك[1] من غيره ، ولكون قوم ممن يعظِّم المجهولات الهائلة يعظِّم مثل ذلك . فإن كان هذا الكلام صحيحاً ، فمعناه الصحيح هو نفى مذهب الاتحاد والحلول ، الذى وقع فيه طائفة من المتصوفة ، ونسِبَ ذلك إلى الحلاج . فيكون هذا الكلام من الحلاج ردًّا على أهل الاتحاد والحلول ، وهذا حسن مقبول ، وأما تفسيره بما يوافق رأى أبى القاسم فى الصفات فلا يناسب هذا الكلام .

ص ٢٨

وقد يقال : إن هذا الكلام فيه من الشطح ما فيه . ومازال أهل المعرفة يعيبون الشطح الذى دخل فيه طائفة من الصوفية . حتى ذكر ذلك أبو حامد فى «إحيائه» وغيره ، وهو قسمان : شَطْحٌ : هو ظلم وعدوان ، وإن كان من ظلم الكفار . وَشَطْحٌ : هو جهل وهذيان ، والإنسان ظَلُوم جهول .

كلام الغزالى فى «الإحياء» عن الشطح عند الصوفية

قال أبو حامد[2] : « وأما الشطح فنعنى به صنفين[3] من الكلام

(١) فى الأصل : كذلك ، وهو تحريف .

(٢) فى «إحياء علوم الدين» ١/٦٠ .

(٣) فى الأصل : صفتين . والتصويب من «الإحياء» .

أحدثه بعض المتصوفة[١] .

أحدهما : الدعاوى الطويلة [العريضة][٢] فى العشق مع الله[٣] ، والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة ، حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد ، وارتفاع الحجاب ، والمشاهدة بالرؤية ، والمشافهة بالخطاب . فيقولون : قيل لنا كذا وقلنا : [كذا][٤] ، ويتشبهون فيه بالحسين [بن منصور] الحلاج[٥] ، الذى صُلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ».

قال[٦] : « والصنف الثانى من الشطح : [كلمات][٧] غير مفهومة لها ظواهر رائعة[٨] ، وفيها عبارات هائلة ، وليس وراءها طائل ، وهى إما[٩] أن تكون[١٠] غير مفهومة عند قائلها ، بل يُصدرها عن خبط فى عقله ، وتشوش[١١] فى خياله ، لقلة إحاطته[١٢] بمعنى كلام قَرَعَ[١٣]

(١) إحياء : الصوفية .
(٢) العريضة : ساقطة من الأصل . وأثبتها من «الإحياء»
(٣) إحياء : الله تعالى .
(٤) كذا : ساقطة من «الإحياء» .
(٥) فى الأصل : بالحسين الحلاج . والمثبت من «إحياء» .
(٦) بعد الكلام السابق بنصف صفحة فى «الإحياء» ٦١/١ .
(٧) كلمات:ساقطة من الأصل ، وأثبتها من «الإحياء».
(٨) إحياء : رائقة .
(٩) إحياء : وذلك إما ..
(١٠) فى الأصل : يكون.والمثبت من «إحياء».
(١١) إحياء : وتشويش.
(١٢) فى الأصل : إحطاطه ، وهو تحريف . والمثبت من «إحياء».
(١٣) فى الأصل : قرعه . والمثبت من «إحياء».

سمعه ، وهذا هو الأكثر. وإما أن تكون مفهومة [له] [١] ولكنه لايقدر على تفهيمها وإيرادها [٢] بعبارة تدل على ضميره» .

قال [٣] : «ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام [٤] إلا أنه يشوِّش القلوب [٥] ويدهش العقول ، ويحيّر الأذهان».

تعليق ابن تيمية

قلت : وهذا الكلام المحكيّ عن الحلاج فيه ما هو باطل ، وفيه ما هو مجمل محتمل ، وفيه ما لا يتحصل له معنى صحيح بل هو مضطرب ، وفيه ما ليس فى معناه فائدة ، وفيه ما هو حق ، لكن اتباع ذلك الحق من غير طريق الحلاج أحسن وأشد وأنفع .

عود إلى التعليق على كلام الحلاج

فقوله : «ألزم الكل الحدث » ، لأن القدم له يتضمن حقاً ، وهو أنه سبحانه القديم وما سواه محدث ، ولكن ليس تعليله/ مستقيماً ولا العبارة سديدة ، فإن قوله : «ألزم الكل الحدَث» ظاهره أنه جعل الحدوث لازمًا لهم ، كما تُجعل الصفات لازمة لموصوفها ، مثل الأكوان والألوان وغير ذلك .

ظ ٢٨

وليس كذلك ، بل الحدوث لهم هو من لوازم حقيقتهم ، فلا يمكن المخلوق أن يكون غير محدث حتى يُلزم بذلك ، بل هذا مثل قول القائل : ألزم المخلوق أن يكون مخلوقاً ، وألزم المصنوع أن يكون مصنوعاً .

---

(١) له : ساقطة من الأصل . وأثبتها من «إحياء».

(٢) فى الأصل : تفهيمه وإيراده . والمثبت من «إحياء».

(٣) بعد الكلام السابق بسطر واحد .

(٤) فى الأصل : من كلام. والمثبت من «إحياء».

(٥) فى الأصل : القلب . والمثبت من «إحياء».

وأما تعليل ذلك بقوله : لأن القدم له ، فليس كون القدم له هو الموجب لحدوثهم ، إذ[١] كونه موصوفا بصفة لا يمنع أن يوصف المخلوق بما يليق به من تلك الصفة ، كما أن العلم له والحياة والكلام والسمع والبصر ، وللمخلوق أيضا علم وحياة وكلام وسمع وبصر . فقد قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . [سورة المنافقون : ٨] .

فتعليلُ إلزام الحدوث لهم بأن القدم له كلامٌ ساقط ، بل المخلوق مُحدَث لنفس ذاته وعين[٢] حقيقته ، مثل كونه مربوباً ومصنوعا وفقيراً ومحتاجاً . فإن هذه الصفات الناقصة المتضمنة احتياجه إلى الله ، وربوبية الله ثبتت له ، لنفس حقيقته .

وإلزامه إياه الحدَث يقتضى نفى القدم عنه ، ونفى أنه على كل شئ قدير ، وأنه بكل شئ عليم ، وأنه مستغنٍ بنفسه عمَّا سواه . فانتفاء هذه الصفات عنه هو ، ليس لأمر وجودى ، ولا لأجل أن الله متصف بها . بل هذه الصفات يمتنع ثبوتها له ، ولكن قد تُفسَّر بتأويل حسن ، كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وقوله[٣] : « فالذى بالجسم ظهوره ، فالعَرَض يلزمه» . هذا الكلام يتضمن ثبوت الجسمِ ، وشيءٍ ظهر بالجسم ، وعرضٍ يلزمه . وعند الذين نصر أبو القاسم طريقتهم ، وسائر أهل الكلام ، ليس فى المخلوق

---

(١) فى الأصل : إذا . وأرجح أن الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : وعبر . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) أى قول الحلاج ، وهو الكلام الذى رواه القشيرى عنه وورد قبل صفحات (ص ١١٧)

إلا جسم أو عرض ، إذ[١] الجوهر الفرد جزء من الجسم . فهذا الكلام لايوافقه ، ثم إنه فى نفسه قد يُقال : هو من جنس الشطح لا حقيقة .

فما الذى بالجسم ظهوره ، أهو الجسم أم غيره ؟ إن كان هو الجسم لم يصح أن يُقال : الذى ظهوره هو الجسم ، وإن كان غيره وسُلِّم ذلك له ، فما الموجب لتخصيص ذلك بالكلام فيه دون الجسم ؟ والعَرَض يلزم الجسم أَبْيَن من لزومه ما ليس بجسم .

ثم إذا قيل : إن العرض يلزمه ، هو طريقة بعض أهل الكلام المحدَث فى الاستدلال على حدوث/ الأجسام بلزوم الأعراض لها . وفى هذه الطريقة من الاضطراب ما قد ذكرناه فى موضعه ، وليست هذه طريقة المشايخ والعارفين .

ص ٢٩

ومن أحسن ما يُحمل عليه هذا الكلام : أنَّ قائله إنْ أراد به إبطال مذهب الحلول والاتحاد وظهور اللاهوت فى الناسوت ، وأن الربَّ سبحانه ليس حالاً فى شئ من المخلوقات ، ولا يظهر فى شئ من الأجسام المصنوعات-كما يقوله مَنْ يقول : إنه ظهر فى المسيح وفى علىّ وفى الحلاج ونحو ذلك ، كما يقوله أهل التعيين منهم ، وكما يقوله من يقول بذلك فى جميع المصنوعات ، على مذهب ابن العربى وابن سبعين ونحوهم- فقوله : ألزم الكل الحدَث ، أى جعله لازما لهم لا يفارقهم ، فلا يصير المحدَث قديما .

وقوله : الذى بالجسم ظهوره ، يعنى أى شئ ظهر بهذه الأجسام مما

---

(١) فى الأصل : إذا . والأرجح أن الصواب ما أثبته .

يُظن أنه الحق ، وأنه ظاهر فى الأجسام ، فالعرض يلزم ذلك الظاهر فى الجسم ، كما يلزم ذلك الجسم . وحينئذ فيكون الظاهر فى الجسم بمنزلة نفس الجسم ، ليس بأن يُجعل أحدهما ربًّا خالقاً والآخر مخلوقاً بأَوْلى من العكس

وكذلك **قوله**[١] : «الذى بالأداة اجتماعه فقواها تمسكه» هذا ردّ على من يقول بقدم الروح ، أو بحلول الخالق فى المخلوق ، فإن أدوات الإنسان ، وهى جوارحه وأعضاؤه ، بها يكون اجتماع ذلك ، وقوى الأدوات تمسك ذلك ، فيكون مفتقراً إليها محتاجاً ، والمحتاج إلى غيره لا يكون حقًّا غنياً بنفسه ، فلا يكون هو الله ، وليس فى هذا تعرض لصفات الحق فى نفسه نفياً وإثباتاً ، بقبول مذهب ورد مذهب . إذْ لم يقل أحد من الخلق : إن الحق يجتمع بالأدوات ، حتى أن من وصفه بالجوارح والأعضاء من ضُلاَّل المجسِّمة لايقولون : إن اجتماعه بها .

وإن أريد باجتماعه بها أنه لابد له منها ، فقوله : فقواها تمسكه ، هو مثل قوله : إنه لابد له منها ، لايكون أحدهما إبطالاً للآخر ، بل لزوم ذلك عندهم كلزوم صفاته له ، وليس فى ذلك فقر منه إلى غيره ، كما أنه قائم بنفسه غنىّ بنفسه ، ولا يقال : إنه مفتقر إلى غيره ، إذْ ما هو من لوازم ذاته ، هو داخل فى اسمه ، فلا يكون مفتقرا إلى غيره .

وكذلك **قوله**[٢] : «الذى يؤلِّفه وقت يفرِّقه وقت» . هذا منطبق على إفساد مذهب/ الاتحادية ، فإن الآدمى يكون تأليفه وتركيبه فى **ظ ٢٩**

---

(١) أى كلام الحلاج الذى أورده القشيرى من قبل .

(٢) أى قول الحلاج الذى سبق أن أورده القشيرى.

بعض الأوقات ، كما يكون تفريقه فى بعض الأوقات ، فلا يكون التأليف ولا التفريق لازماً له ، بل هو محتاج فيهما إلى غيره . وكذلك ما يُقال إنه يتحد فيه – أو يتحد به – من اللاهوت ، هو مفارق له فى وقت آخر .

وأما **قوله** : «الذى يقيمه غيره ، فالضرورة تمسّه» . فهذا كلام حسن ، وهو حق . وكل ما سوى الله فإنما يقيمه غيره ، والله هو الحى القيّوم ، الذى لا تأخذه سنة ولانوم ، الذى يقوم بنفسه ويقيم كل شئ . وكل مايقيمه غيره فهو مضطر إلى ذلك الغير ، فلا يكون رباً . وهذا فيه دلالة على أنه ليس فى شئ من الإلهية والربوبيّه ، إذْ الضرورة لازمة لهم كلهم .

وأما **قوله** : «الذى الوهم يظفر به ، فالتصوير يرتقى إليه» . فقد يُقال فيه شيئان :

أحدهما : أن مايتوهمه العبد لايكون إلا ضرورة مصوَّرة ، لكن هذا لا يدل على فساد ما يتوهم ولا على فساد الصورة .

والثانى : يكون المراد بالتصوير : تصوير الإنسان فى نفسه له ، فيكون تصويره مثل ظفر الوهم به ، فيعود الأمر إلى أن يُقال : مايتوهمه العبد فقد تصوره ، وهذا لافائدة فيه . وذلك أن التصوير إمّا أن يراد به أنه فى ذاته مصوَّر ، أو يُراد أن العبد تصوَّره فى نفسه ، إذْ ليست الصورة إلا عينية خارجة موجودة فى الخارج ، أو ذهنية فى نفس الإنسان مثلا ، ونحوه مما يتصور فيه . والكلام إذا كان تكريرا بلا فائدة كان من الشطح ، وإن كان بلا حجة كان دعوى .

وقوله : «من آواه محلّ أدركه أيْن» . استدلال[١] منه على انتفاء إيواء المحل بانتفاء الأَيْن ، وهذه حجة ساقطة . فإن العلم به[٢] أظهر من العلم بانتفاء الأَيْن عنه ، فإن عامة أهل السنة وسلف الأمة وأئمتها لاينفون عنه الأَيْن مطلقا ، لثبوت النصوص الصحيحة الصريحة عن النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، سؤالاً وجواباً .

فقد ثبت فى الصحيح عنه أنه قال للجارية : أين الله ؟ قالت : فى السماء[٣] . وكذلك قال ذلك لغيرها .

وقال له أبو رزين العقيلى : أين كان ربنا قبل أن يخلق السمٰوات والأرض ؟ [قال : فى عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء ، ثم خلق عرشه على الماء][٤] .

ومن نفى الأين عنه ، يحتاج إلى أن يستدل على انتفاء ذلك بدليل .

---

(١) فى الأصل : استدال ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : له ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) هذا جزء من حديث طويل عن معاوية بن الحكم السلمى رضى الله عنه، أوله (وهذه رواية مسلم) : «بينا أنا أصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عطس رجل من القوم ....»الحديث . والحديث فى : مسلم ١/٣٨١-٣٨٢ (كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب تحريم الكلام فى الصلاة) ؛ سنن أبى داود ١/٣٣٦-٣٣٧ (كتاب الصلاة ، باب تشميت العاطس فى الصلاة) ، ٣/١٣-١٤ (كتاب السهو ، باب الكلام فى الصلاة) . وروى أحمد حديثا آخر بهذا المعنى عن أبى هريرة فى المسند (ط. المعارف) ١٥/٣١-٣٢ (حديث رقم ٧٨٩٣) وانظر تعليق الشيخ أحمد شاكر . والحديث بنفس المعنى فى الموطأ ٢/٧٧٦-٧٧٧ عن عمر بن الحكم (حديث رقم٨) وعن رجل من الأنصار (حديث رقم ٩) ؛ وفى سنن الدارمى عن أبى سلمة عن الشريد ٢/١٨٧ (كتاب النذور والأيمان ، باب إذا كان على الرجل رقبة مؤمنة).

(٤) فى الأصل : بياض بمقدار كلمتين بعد كلمة «والأرض» وما أثبته هو تتمة للحديث . وورد هذا الحديث فى موضعين فى : المسند (ط.الحلبى) مع اختلاف فى بعض الألفاظ ٤/١١،١٢ ؛ سنن ابن ماجه ١/٦٤-٦٥ (المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية) .

أما أن يجعل انتفاء الأَيْن عنه دليلا ، فهذا لايقوله عاقل[١] . ومن نفى الأَيْن/ قال : لأن الأَيْن سؤال عن المكان ، يقول : والله ليس فى المكان ، لأن المكان لايكون إلا للجسم ، والله ليس بجسم ، لأن الجسم لايكون إلا محدَثا ممكنا . فلابد له من هذه المقدمات أو ما يناسبها . ص ٣٠

ثم المثبت لِمَا جاءت به السنة يَرُدُّ عليه بمنع بعض هذه المقدمات ، والتفصيل فيها أو بعضها ، وبيان الحق فى ذلك من الباطل . مثل أن يُقال : المكان يراد به ما يحيط بالشئ ، والله لايحيط به مخلوق . أو يُراد به مايفتقر إليه الممكَّن ، والله لايفتقر إلى شئ . وقد يُراد بالمكان ما يكون الشئ فوقه ، والله فوق عرشه ، فوق سماواته ، فلا يسلم نفى المكان عنه بهذا التفسير .

ونقول : قد وردت الآثار الثابتة بإثبات لفظ المكان ، فلا يصح نفيه مطلقا ، وكذلك نقول فى سائر المقدمات . فظهر أن هذا الكلام لاتصح دلالته ، إلا أنْ يُراد به نفى الاتحاد والحلول ، فيكون المعنى : لو آواه بطن مريم ، أو جسد واحد من البشر– كما قد يقول بعضَ ذلك بعضُ الحلولية– لكان الأَيْن يلزمه كما يلزم محله ، ففرَّق[٢] بين أحدهما والآخر ، فى جعل هذا خالقا وهذا مخلوقا .

وأما نفس المعنى المقصود بنفى إيواء المحل عنه فإنه صحيح ، إذا قصد به أنه لا فوقه شئ من المخلوقات فتحيط به ، أو يكون الرب مفتقرا إليه .

(١) فى الأصل : حاصل ، وهو . تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : نفرق . ولعل الصواب ما أثبته .

وأما إن قصد أنه ليس فوق العرش فهذا باطل . ولكن لفظ إيواء[١] المحل بالمعنى الأول أشبه .

وأما قوله[٢] : «من كان له جنس طالبه بكيف» . فهو نمط الذى قبله ، فإنه يتضمن نفى المجانسة عنه بانتفاء طلب الكَيْف ، والعلم بأن الله ليس له مِثل ، ولا سِمِىٌّ ، ولا كُفُوٌ ، أَبْيَن من العلم بأنه لا يقال له كيف . فإن كثيرا من الناس دخلت عليهم الشبهة ، فطلبوا التكييف ، حتى بُيِّن لهم أن الكيف غير[٣] معلوم لنا .

فالذى ثبت نفيه بالشرع والعقل واتفاق السلف إنما هو علم العباد بالكيفية ، وسؤالهم عن الكيفية التى لا يمكن معرفتها ، بخلاف المجانسة فإنها منتفية عنه فى نفس الأمر ، فكيف نجعل هذا دليلا على الآخر ؟

ولو قلب العبارة وقال : «فالذى يُطلب له كَيْفٌ له جنس» لكان قد سلك سبيل الاستدلال ، لكن قد لا يُسَلَّم له ذلك ، ويقال له : من أين تعلم أن كل ما يقال له كيف يجب أن يكون [له][٤] مِثْلٌ يجانسه ؟

ظ ٣٠ وحينئذ يمكن الاستدلال على ذلك بما ليس/ هذا موضعه ، ولعل المتكلم بهذا الكلام قصد هذا المعنى ، مع أنه فى نفى السؤال بكيف كلام قد ذكرناه فى غير هذا الموضع .

---

(١) فى الأصل : أبو . ولعل الصواب ما أثبته.
(٢) أى كلام الحلاج الذى أورده القشيرى ، وذكرناه قبل صفحات .
(٣) فى الأصل : عن ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .
(٤) له : ساقطة من الأصل ، وأثبتها ليستقيم الكلام .

وأما **قوله**[(١)] : «لايظله فوق ، ولا يقلُّه[(٢)] تحت ، ولا يقابله حد ، ولا يزاحمه عند ، ولا يأخذه خَلْفٌ ، ولا يَحُدُّهُ أمام ، ولم[(٣)] يظهره قبل،ولم يُفْنِهِ بعد ، ولم يجمعه كل ، ولم يوجده كان ، ولم يفقده ليس»— فهذا الكلام أكثره مجمل ، وفيه ما هو حق ، وفيه ما هو باطل .

فقوله : «لايظله فوق» حق ، إذ ظاهره أن الله ليس فوقه شيء . وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : «أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء »[(٤)] .

وأما قوله :«لا يُقِلُّهُ[(٥)] تحت». فإن أراد به أن الله ليس فوق الخلق فهذا ليس بحق . والنبي صلى الله عليه وسلم لما قال : «أنت الظاهر فليس فوقك شيء» لم يقل : لست فوق شيء ، بل قال : «أنت الباطن فليس دونك شيء» ، ولم يقل : ليس لك دون ، ولا قال : لستَ موصوفا

(١) أى قول الحلاج ، وهو الذى نقلناه من كلام القشيرى قبل صفحات .

(٢) فى الأصل : ولايقطعه ، وكذا وردت من قبل ، والمثبت من «القشيرية»

(٣) فى الأصل : ولا ، وكذا وردت من قبل . والمثبت من «القشيرية».

(٤) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٢٠٨٤/٤ (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب مايقول عند النوم) ؛ سنن أبى داود ٤٢٦/٤–٤٢٧ (كتاب الأدب ، باب مايقول عند النوم) ؛ سنن الترمذى (ط. المدينة المنورة) ١٣٨/٥ (كتاب الدعاء ، باب ماجاء فى الدعاء إذا أوى إلى فراشه) ؛ سنن ابن ماجة ١٢٥٩/٢–١٢٦٠ (كتاب الدعاء ، باب دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم) . وتكرر الحديث فى باب ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه ١٢٧٤/٢–١٢٧٥ ؛ المسند (ط. الحلبى) ٣٨١/٢ .وأول الحديث—وهذه رواية مسلم— كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا إذا أخذنا مضجعنا أن نقول : اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ... اللهم أنت الأول .. الحديث.

(٥) فى الأصل : يقطعه .

بالفوق[١] ، ففرق بين قوله : ليس دونه شيء ، وليس شيء فوقه ، وبين قوله : ليس موصوفا بفوق ، وما هو موصوف بتحت[٢] .

وأما قوله[٣] : «لا يقابله حد ، ولا يزاحمه عند» ، فظاهره باطل . إذْ ظاهره أن الله لا يقابله شيء من المخلوقات ، ولا تنتهى إليه المحدودات ، ولا يكون عنده شيء من المخلوقات . وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة .

فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [سورة الأعراف : ٢٠٦] .

وقال : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [سورة الأنبياء : ١٩] .

وقال : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾[سورة فاطر : ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [سورة آل عمران : ٥٥] .

وقال : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [سورة المعارج : ٤] .

---

(١) فى الأصل : بالفرق . وأرجح أن الصواب ما أثبته ، وسترد عبارة مشابهة لهذه العبارة بعد قليل كما أثبتها هنا .

(٢) فى الأصل: «... وبين قوله ليس موصوفا بفوق . ففرق بين قوله : ليس دونه وليس شئ فوقه وبين قوله : موصوفا بفوق وما تحت». وفى هذا الكلام تكرار واضطراب ، ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٣) أى الحلاج ، وهو الكلام الذى أورده القشيرى من قبل .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم فى الأحاديث المستفيضه : إِنَّكُمْ سَتَرَوْن ربكم كما ترون الشمس والقمر[١]

وقوله : «لا يأخذه خَلْف ، ولايحدُّه أَمام» كلام مجمل . والله موصوف فى الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة بأن المخلوق يكون أمامه وبين يديه فى غير/ موضع ، فلا يجوز نفى ذلك عنه

ص ٣١

وأما قوله : «ولم يظهره قبل ولم يفنه بعد » . فظاهره صحيح . فإن ظاهره أنه ما ظهر بقبل كان قبله ، ولا يَفْنَى فيكون شئ بعده ، وهذا حق . فهو سبحانه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «أنت الأول فليس قبلك شئ ، وأنت الآخر فليس بعدك شئ» .

وأما قوله : «ولم[٢] يجمعه كل ، ولم يوجده كان ، ولم[٣] يفقده ليس ». ففيه إجمال . فإن أراد أنه لا يُقال : كان الله ، فهذا باطل .

فى الصحيح عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أهل اليمن قالوا : يارسول الله جئناك لنتفقه فى الدين ولنسألك عن أول

(١) لم أجد حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الألفاظ ، ولكن توجد أحاديث عديدة فى الرؤية فيها هذا المعنى.وأحاديث الرؤية جاءت بألفاظ مختلفة ومن طرق عدة عن جماعة من الصحابة فى : البخارى ١٢٧/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى · وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) ولفظه : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته.. الحديث.ومن رواية جرير بن عبد الله : إنكم سترون ربكم عيانا ... الحديث ؛ وفى مسلم ١٦٤/١ (كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية) وجاء فيه من عدة طرق . ؛ سنن أبى داود ٢٣٣/٤-٢٣٤ (كتاب السنة ، باب الرؤية) ؛ سنن ابن ماجة ٦٣/١ (المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية) ؛ سنن الترمذى ٩٢/٤-٩٤ (كتاب صفة الجنة ، باب ما جاء فى رؤية الرب تبارك وتعالى) .

(٢) فى الأصل : لم . والمثبت هنا هو الذى ورد من قبل ، وهو الموجود فى «القشيرية» .

(٣) فى الأصل . وليس . والمثبت هنا هو الذى ورد من قبل ، وهو الموجود فى «القشيرية».

هذا الأمر ماكان[(١)] . قال[(٢)] : كان الله ولم يكن شئ قبله[(٣)]، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السمٰوات والأرض ، وكتب فى الذكر كل شئ[(٤)] » .

وكذلك إن أراد أنه لايوصف بليس ، فإن الله ينفى عنه أشياء كما ثبتت له أشياء . وإن أراد أنه لم يوجد بكان ولا يفقد بليس —فهذا حق . فإنه ليس بمحدَث فى وقت دون وقت . ولا يجوز عليه العدم . فلا حدث بكان ، ولا يفقد بليس .

وأما قوله : «وصفه لاصفة له» . فمجمل[(٥)] . فإن أراد أن صفاته لا توصف بالكلام فالله—ورسوله—قد وصف صفاته ، مثل وصف علمه بأنه بكل شئ محيط ، وقدرته بعمومها وأنه على كل شئ قدير ، ورحمته بأنها وسعت كل شئ .

---

(١) فى الأصل : حسالسق فى هذا،وبعدها بياض بمقدار أربع كلمات . والذى أثبته هو رواية البخارى ١٢٤/٩.

(٢) فى الأصل : فقال.

(٣) فى الأصل : غيره . والتصويب من رواية البخارى ١٢٤/٩ . وجاء لفظ غيره فى رواية البخارى ١٠٥/٤-١٠٦ وفيها : «..كان الله ولم يكن شئ غيره ، وكتب فى الذكر كل شئ ، وخلق السماوات والأرض .....».

(٤) الحديث مع اختلاف فى الألفاظ عن عمران بن حصين فى : البخارى ١٢٤/٩ (كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم) ، ١٠٥/٤-١٠٦ (كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء فى قول الله تعالى : وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) ؛ المسند (ط.الحلبى) ٤٣١/٤-٤٣٢،٤٣٣،٤٣٦ وجاء جزء من هذا الحديث فى : سنن الترمذى ٣٨٩/٥ (كتاب المناقب ، باب فى ثقيف وبنى حنيفة) . وانظر تعليق على كتاب الصفدية ١٤/١-١٦.وقد تكلم ابن تيمية على هذا الحديث فى رسالة مستقلة طبعت أكثر من مرة .

(٥) فى الأصل : فحمل .

وإن أراد أن العبد لاتحيط صفته بصفة[١] ربّه فحق ، وما أظنه أراد ما يريده بعض[٢] المتكلمين من أن صفة لا تقوم بها صفة ، لأن العرض لايقوم بالعرض ، بل تكون الصفتان والعرضان جميعا قائمين بالعَيْن .

وأما قوله : «فعله لا علة له» فمجمل ، وهو أقرب إلى الحق . إن أراد أنه لم يفعل شيئا لعلة من غيره ، فهذا حق . وإن أراد أنه لم يفعل الأشياء لعلة من نفسه ، مثل مشيئته وإرادته وعلمه ، فهذا ليس بحق ، والأشبه أنه أراد المعنى الأول .

وأما قوله : «كونه لا أمد له» فهذا حق صحيح.

وأما قوله : «تنزَّه عن أحوال خلقه» فصحيح إذا أراد أنه ليس[٣] مثل خلقه فى شئ من الأشياء . ولكن من جعل فى هذا الكلام أنه لا يوصف بالصفات [التى] تليق به[٤] ، كما يوصف خلقه من تلك الصفات بما يليق بهم ، فهذا باطل . فإنه يوصف بالعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام ، وإن كان خلقه يوصفون بما يليق بهم من ذلك .

/**وأما قوله** : «ليس له من خلقه مزاج ، ولا فى فعله علاج»، فهو صحيح،فإن الله لاعون له ولاظهير . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا ظ ٣١

(١) فى الأصل : بصفات بصفة ...

(٢) فى الأصل : بعد ، وهو تحريف.

(٣) فى الأصل : فصحيح أنه إذا أراد ليس ...، ولعل ما أثبته هو الصواب.

(٤) فى الأصل : بالصفات تليق به .

﴿مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[سورة سبأ : ٢٢][1] ، بل هو الغنى عن جميع خلقه . وكذلك سبحانه إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كُنْ فيكون ، لايحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه من المعالجة .

وكذلك **قوله** : «باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم» صحيح . وإن كان ما باين الله به خلقه أعم من مجرد القدم ، فإنه باينهم بجميع صفاته ، ليس له فى شئ منها مِثْل .

وأما قوله : «إن قلت : متى ، فقد سبق الوقتَ ذاتُه» ، فهذا صحيح . فإن الله لا يُقال : متى كان ، إذ هو القديم الذى لم يزل ولا يزال .

وأما قوله : «إن قلت هو ، فالهاء والواو خلقه» ، فهو كلام فاسد . فإنه إن أراد أنه لا يُقال : هو ، فهذا خلاف إجماع المسلمين وسائر الأمم ، وهو فاسد بضرورة العقل والشرع .

قال تعالى : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [سورة الحديد : ٣] . وقال : ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [سورة هود : ٧] . وقال : ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [سورة البروج : ١٤] . ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [سورة الحديد : ٤] .

وفى القرآن من ذِكْر «هو» أكثر من أن يُحصر هنا ، فنفى قول[2] «هو» من أعظم الباطل .

---

(١) فى الأصل حرّفت الآية هكذا : وما له فيهما ...

(٢) فى الأصل : القول . ولعل الصواب ما أثبته.

وإن أراد أن يقال : «ما هو» لعدم العلم بحقيقته ، فلا يصلح أن يدل على ذلك بقوله : فالهاء والواو خلقه . فإن هذا لو كان حجة لصح أن يحتج به فى متى وأين ، وبتقدير كون الحروف مخلوقة ، لايصلح أن يحتج بذلك على نفى الإخبار بها عن الله ، أو الاستفهام[1] بها عن بعض شؤونه وصفاته . وإدخال لفظ «هو» بين متى وأين ، يدلّ[على]أنه[2] أراد الاستفهام .

وإن أراد أنا إذا قلنا «هو» فإنما تكلمنا بحروف مخلوقة ، وأن ذلك يفيد نفى معرفتنا به ، فهذا من أبطل الكلام . فإن القائلين بأن الحروف مخلوقة والحروف غير مخلوقة ، متفقون على أن الإخبار عنه بهو لا ينفى معرفته ، فظهر أن قوله : «الهاء والواو خلقه» كلامٌ ليس فيه هنا فائدة بحال .

وإذا كان المتكلم بذلك لم يذكر كلاما منتظما مفيدا ، سواء كان حقًّا أو باطلا ، فهو جدير على أن لا يُستدل بكلامه على أنه حق أو باطل . ثم قائل ذلك : إن أراد أن نفس أصوات العباد مخلوقة فهذا صحيح ، وإن أراد أن نفس الحروف : حروف القرآن وغيره ، ما تكلم الله بها ، وليست من كلامه ، فهذا خلاف الكتاب والسنة ،/ وخلاف سلف الأمة وأئمتها . ص ٣٢

وأما قوله : «إن قلت : أين ، فقد [تقدَّم][3] المكانَ وجودُه»—

(١) فى الأصل : أو الاستفهامه ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : فدل أنه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) كلمة «تقدم» سقطت هنا ، وهى فى «القشيرية» وسبق ورودها قبل ذلك .

فحجة ضعيفة . لأن وجوده قبل المكان[١] لايمنع بعد خلق المكان أن يقال : وأين هو؟ فإن الأين نسبة وإضافة لاتكون إلا بعد وجود المضاف إليه . وأما « متى » فهو يقتضى حدوث المسئول عنه ، فجواب «متى» يقتضى حدوثه ، إلا أن يجاب عنها بأنه لم يزل . فإذا قال القائل : متى كان ؟ قيل له : لم يزل ولا يزال . وأما جواب : أين ، فهو يقتضى[٢] علوه ، وهو عليٌّ عظيم وليس بمحدَث ، فلا يُشبَّه أحدهما بالآخر .

وأما قوله : « فالحروف آياته » ، فكلام صحيح . وكذلك القرآن هو كلام الله غير مخلوق ، وهو آياته . وكون القرآن– بحروفه ومعانيه–آياته ، لايستلزم كون ذلك مخلوقا .

وأما قوله : « ووجوده إثباته» ، فلم يرد به– والله أعلم – ما يعنيه[٣] المتكلم بلفظ «الوجود» . وإنما أراد به ما يريده الصوفية ، وهو مطابق اللغة . يقول : وجود العبد له هو إثباته .

وأما قوله : « معرفتُهُ توحيدُه ، وتوحيدُه تمييزُه من خلقه» ، فلا ريب أن هذا إبطالٌ لمذهب الاتحاد والحلول ، وهو حق . وتمييزُه من خلقه متفق عليه بين أهل الإيمان ، ولا يستقيم ذلك إلا إذا كان بائناً[٤] من خلقه ، غير داخل فيهم .

---

(١) فى الأصل : الممكنات ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : فهى تقتضى .

(٣) فى الأصل : مايعينه ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : بائن ، وهو خطأ .

وأما قوله : «ما تُصوِّر فى الأذهان فهو بخلافه» فهو كلام مجمل ، ومعناه الصحيح : أن حقيقة الرب لايتصورها العبد ، من تصور شيئا اعتقد أنه حقيقة الرب فالله بخلاف ذلك . والمعنى الباطل أن يُقال · «كل ما تصوره العبد وعقله[١] فهو مخالف للحق» فليس الأمر كذلك .

وأما قوله : «كيف يحلُّ به ما منه بدأه[٢] ؟ أو يعود إليه ما هو أنشأه[٣] ؟» ، فكلام مجمل . فإن من يقول : القرآن مخلوق خلقه الله منفصلا عنه ، قد يقول مثل هذا الكلام ، فيقول · لايحل القرآن به ولا يقوم بذاته ، فإنه منه بدأ ، ولايعود إليه لأنه[٤] أنشأه والقول بأن كلام الله مخلوق منفصل عنه قول باطل ، وهو شعار الجهمية ، وهو فى الحقيقة تكذيب للرسل .

وكذلك **قوله** : «لاتماقله[٥] العيون» قد يشعر أنه لا تجوز رؤيته بالعيون . وليس الأمر كذلك ، بل رؤيته بالعيون جائزة ، والمؤمنون يوم القيامة يرونه عياناً ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن كانت الأبصار لا تدركه .

وأما قوله : «لاتقابله الظنون»-فمن المجملات .

ظ ٣٢ /**وقوله** : «قربه كرامته ، وبعده إهانته»-فردود .

أما أولا : فإنه وصفه بالبعد ، والله لايوصف بالبعد ، وإن وُصِف

(١) فى الأصل : وعمله ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : بدا . والمثبت هو الذى فى «القشيرية».

(٣) فى الأصل : انشا . والمثبت هو الذى فى «القشيرية».

(٤) فى الأصل : لأن ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : لاتماثله ، وهو تحريف . والكلمة وردت من قبل وفى «القشيرية» كما أثبتها هنا. وفى «لسان العرب» : «ومَقَله بعينه يَمْقُله مَقْلاً : نظر إليه» .

بالقرب . هذا إن أراد قربه من عباده وبعده منهم . وإن أراد تقريبه لهم وتبعيده لهم ، فاللفظ لايدل على ذلك . فإن القرب والبعد غير التقريب والتبعيد .

وأما ثانيا : فلأن قربه من عباده وتقريبه لهم– عند سلف الأمة وأئمتها وعامة المشايخ الأجلاء– ليس مجرد الإنعام والكرامة ، بل يقرب من خلقه كيف شاء ، ويُقرِّب إليه منهم من يشاء ، كما قد بينّا ذلك فى موضعه (١) .

وقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «أقرب ما يكون العبد من ربه فى جوف الليل الآخر» (٢) .

وثبت فى الصحيح أنه قال : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» (٣) .

---

(١) لابن تيمية عدة رسائل فى هذا الموضوع منها رسالة «فى الجمع بين علو الرب عز وجل وبين قربه من داعيه وعابديه» فى مجموع فتاوى الرياض ٥/٢٢٦–٢٥٥. وله رسائل أخرى فى هذا الموضوع فى المجموع السابق ٦/٥–٥٠ .

(٢) الحديث عن عمرو بن عنبسة رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٥/٢٢٩ (كتاب الدعوات ، باب منه) وأوله : أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : أقرب مايكون ... الحديث ، وقال عنه الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .؛ وهذا الحديث جزء من حديث طويل عن عمرو بن عنبسة أيضا فى : النسائى ١/٢٢٤–٢٢٥ (كتاب المواقيت ، باب النهى عن الصلاة بعد العصر) وأوله : قلت يارسول الله هل من ساعة أقرب من الأخرى؟؛ وجاء الحديث بألفاظ مختلفة عن عدد من الصحابة فى : سنن ابن ماجة ١/٣٩٦ (كتاب إقامة الصلاة ، باب ماجاء فى الساعات التى تكره فيها الصلاة).

(٣) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ١/٣٥٠ (كتاب الصلاة ، باب مايقال فى الركوع والسجود) ؛ سنن النسائى (بشرح السيوطى) ٢/١٨٠ (كتاب التطبيق ، باب أقرب مايكون العبد من الله عز وجل) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٢/٤٢١.

وقال تعالى : ﴿ واسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [سورة العلق : ١٩] .

وأما قوله : « علُّوه من غير توقُّل ومجيئه من غير تنقل» ، فكلام مجمل ، هو إلى البدعة أقرب . فإنه قد يظهر منه أنه ليس هو فوق خلقه . ويفهم منه نفى ما دل عليه الكتاب والسنة من وصفه بالاستواء والمجئ والإتيان وغير ذلك . وهذه المسألة والتى قبلها كبيرتان ذكرناهما فى غير هذا الموضع ، مثل «جواب الاعتراضات المصرية[1] » وغير ذلك .

وقوله : «هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، والقريب والبعيد» ليس فى أسماء الله «البعيد» ، ولا وصفه بذلك أحد من سلف الأمة وأئمتها ، بل هو موصوف بالقرب دون البعد .

وفى الحديث المشهور فى التفسير أن المسلمين قالوا : يارسول الله أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [سورة البقرة . ١٨٦][2] ، وهذا يقتضى وصفه

---

(١) كتاب «جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية» من كتب الأصول الهامة التى ألفها ابن تيمية ، وهو كتاب مفقود . ذكره ابن عبد الهادى فى «العقود الدرية » (ص ٢٩) وابن القيم فى «أسماء مؤلفات ابن تيمية (ص١٩) وابن شاكر فى «فوات الوفيات» ٧٨/١ ، والصفدى فى «الوافى بالوفيات» (مخطوطة أكسفورد ص 24) وهو فى أربع مجلدات. وذكره ابن رجب فى «الذيل» ٤٠٣/٢ وقال : « ...على الفتاوى الحموية» أربع مجلدات . وذكر أنه وكتاب «الاستقامة »وكتب أخرى قد صنفها ابن تيمية «وهو بمصر فى مدة سبع سنين صنفها فى السجن » . وكلام ابن تيمية هنا يدل على أنه ألف «الاستقامة» بعد جواب الاعتراضات المصرية كما بينت فى المقدمة .

(٢) الحديث عن أبى برزة السجستانى عن الصُّلب بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيرى عن أبيه عن جده ، ورواه ابن مردويه وأبو الشيخ الأصبهانى من حديث محمد بن أبى حميد ، عن جرير ، به . انظر تفسير ابن كثير (ط. الشعب) ٣١٣/١ ، وقد بين محققو التفسير أنه فى المخطوطة «السختيانى» راجعين إلى الجرح والتعديل ٩٠/١/٣ والحديث أورده الطبرى فى تفسيره (ط. المعارف) ٤٨٠/٣ ، وذكر الأستاذ أحمد شاكر : «السجستانى» هذا هو الصحيح الثابت هنا وفى المصادر المعتمدة ... ووقع فى بعض المراجع « السختيانى» وهو خطأ مطبعى» . ثم قال : «وهذا الحديث ضعيف جداً ، منهار الإسناد بكل حال . وقد وهم الحافظ ابن كثير حين ذكره . . . وجعله من حديث معاوية بن حيدة القشيرى» . وانظر جامع الأصول ١١٧/٢ - ١١٨ .

بالقرب دون البعد .

وفى الصحيحين عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه لما جعلوا يرفعون أصواتهم بالتكبير : «أيها الناس أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لاتدعون أصمَّ ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا قريبا ، إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته[١] ».

وإنما الواجب أن يُوصف بالعلو والظهور ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : «أنت الظاهر فليس فوقك شئ ، وأنت الباطن فليس دونك شئ[٢] » .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾[سورة البقرة : ٢٥٥] ، فلو قال : هو العليُّ القريب ، كان حسنا/ صوابا . وكذلك لو قال : قريب فى علوه ، عليٌّ فى دنوه . ص ٣٣

فأما وصفه بأنه القريب البعيد فلا أصل له ، بل هو وصف باسم حسن وبضده ، كما لو قيل : العلى السافل ، أو الجواد البخيل ، أو الرحيم القاسى ، ونحو ذلك ، والله تعالى له الأسماء الحسنى . وإنما يؤتى

---

(١) الحديث عن أبى موسى الأشعرى فى : البخارى ٨٢/٨ ، ٨٧ (كتاب الدعوات ، باب الدعاء إذا علا عقبة ، باب قول لاحول ولاقوة إلا بالله) وأوله : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فكنا إذا علونا كبرنا فقال ... الحديث ، ١١٧/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى (وكان الله سميعا بصيرا) ؛ مسلم ٢٠٧٦/٤-٢٠٧٧ (كتاب الذكر والدعاء ...، باب استحباب خفض الصوت بالذكر) ؛ سنن أبى داود ١١٦/٢-١١٧ (كتاب الوتر ، باب فى الاستغفار) ؛ سنن الترمذى (ط. المدينه المنورة)١٧٢/٥-١٧٣ (كتاب الدعوات ، باب ماجاء فى فضل التسبيح والتكبير والتهليل...) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٣٩٤/٤ ، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤١٧-٤١٨، ٤١٩.

(٢) سبق الحديث ص ١٢٩ .

مثل هؤلاء من القياس الفاسد . لمّا سمعوه يخبر عن نفسه بأنه الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، قاسوا على ذلك القريب والبعيد ، وهذا خطأ . لأن تلك الأسماء كلها حسنة دالة على كمال إحاطته مكاناً وزماناً ، وأما هذا فهو جمع بين الاسم الحسن وضده .

الوجه الرابع

الوجه الرابع[١] : أنه قدَّم كلام الشبلى فى الاعتقاد قبل كلام جميع المشايخ الذين هم أجل منه وأعظم ، مع أن هذه المسألة لا تستحق التقديم ، وإنما مرتبته فيما بعد كما ذكرها هناك ، وكان الواجب أن يؤخِّر ذلك إلى موضعه ، فإنه ذكر بعد ذلك أول الواجبات ، وهذا هو الذى يستحق التقديم . ومثل هذا يقتضى كون المصنِّف فيه نوع من الهوى . ومن أعظم الواجبات على أهل هذا الطريق خلوهم من[٢] الهوى ، فإن مبناه على قوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [سورة النازعات : ٤٠] .

ثم قال أبو القاسم رحمه الله[٣] : «سمعت أبا حاتم[٤] يقول : سمعت أبا نصر السراج رحمه الله يقول[٥] : سُئِلَ رُوَيْم[٦] عن أول

(١) انظر بداية الوجه الثالث فيما سبق ص١١٥ .
(٢) فى الأصل : على، وهو تحريف.
(٣) فى «القشيرية»١/٢٦ .
(٤) القشيرية: أبا حاتم الصوفى .
(٥) القشيرية : أبا نصر الطوسى يقول ..
(٦) أبو محمد رويم بن أحمد بن يزيد البغدادى ، وهو من أهل بغداد ، ومن مشايخ الصوفية بها ، توفى سنة ٣٣٠ . انظر ترجمته وأقواله فى : طبقات الصوفية ، ص١٨٠-١٨٤ ؛ صفة الصفوة ٢/٢٤٩-٢٥٠ ؛ المنتظم ٦/١٣٦-١٣٧ ؛ القشيرية ١/١١٦-١١٧ ؛ الطبقات الكبرى ١/٧٥ ؛ الأعلام ٣/٦٥ .

فرض افترضه[١] الله[٢] على خلقه ماهو؟ قال : المعرفة . يقول الله عز وجل[٣] : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات :٥٦] . قال ابن عباس : ليعرفون[٤] » .

قلت : هذا الكلام [صحيح][٥] ، فإن أول ما أوجبه الله على لسان رسوله هو : الإقرار بالشهادتين ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن : «إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، [فليكن][٦] أول ماتدعوهم إليه شهادة ألاَّ إله إلا الله وأن محمدا رسول الله» أخرجاه فى الصحيحين[٧] .

وكذلك قال المشايخ المعتمدون-مثل الشيخ عبد القادر وغيره-: «والإقرار بالشهادتين يتضمن المعرفة» . لكن ذهب طائفة من أهل الكلام ، وممن اتّبعهم من الفقهاء والصوفية ، إلى أنه يجب على العبد المعرفة أولاً ، قبل وجوب الشهادتين . ومنهم من قال : يجب على العبد

---

(١) فى الأصل : أفرضه ، وهو تحريف . والمثبت من «القشيرية» .
(٢) القشيرية : الله عز وجل .
(٣) القشيرية : فقال المعرفة لقوله جل ذكره .
(٤) القشيرية : إلا ليعرفون.
(٥) كلمة «صحيح» أضفتها إلى الكلام الناقص ليستقيم المعنى .
(٦) فليكن : ساقطة من الأصل
(٧) الحديث بمعناه عن ابن عباس (وعن معاذ) رضى الله عنهم فى : البخارى ١١٩/٢ (كتاب الزكاة ، باب لاتؤخذ كرائم أموال الناس فى الصدقة) ؛ مسلم ٥٠/١-٥١ (كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه) ؛ سنن الترمذى ٦٩/٢ (كتاب الزكاة ، باب ماجاء فى كراهية أخذ خيار المال فى الصدقة) ؛ سنن ابن ماجه ٥٦٨/١ (كتاب الزكاة ، باب فرض الزكاة) ؛ سنن النسائى ٣/٥ (كتاب الزكاة ، باب وجوب الزكاة) ؛ سنن الدارمى ٣٧٩/١ (كتاب الزكاة ؛ باب فى فضل الزكاة).

النظر قبل المعرفة . ومنهم من قال : يجب القصد إلى النظر . ومن غالبيتهم[١] من أوجب الشك . وقد بسطنا القول فى هذه المسألة فى غير/ هذا الموضع .

ظ ٣٣

فهذا القول يوافق هؤلاء ، لكن فى صحه الحكاية بهذا اللفظ عن رُوَيْم نظر ، فإن رويماً من أهل العلم والمعرفة ، وما ذكره من الحجة لايدل على هذا الجواب ، فليس فى قوله : ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ ما يدل على أن المعرفة أول الواجبات ، سواء فسَّر : يعبدون : بيعرفون ، أو فسَّر بغير ذلك . فإن خَلْقَهُمْ لشئ لايدل على أنه أول واجب ، إن لم يُبَيَّن ذلك بشئ آخر .

وأما التفسير المذكور عن ابن عباس ، فالذين[٢] ذكروه عنه جعلوا هذه المعرفة هى المعرفة الفطرية التى يُقِرُّ بها المؤمن والكافر . ومقصودهم بذلك أن جميع الإنس والجن قد وُجد منهم ماخُلقوا له من العبادة ، التى هى مجرد الإقرار الفطرى ، وجعلوا ذلك فرارا من احتجاج القدرية بهذه الآية .

ولا ريب أن هذا ضعيف ، ليس المراد أن الله خلقهم لمجرد الإقرار الفطرى ، وقد تكلمنا على الآية فى غير هذا الموضع .

ولعل السائل سأله عن أعظم واجب فقال : المعرفة . لقوله : (إلا ليعبدون) أى يعرفون . واعتقد رويم أن هذه المعرفة هى المعرفة التى يشير

(١) فى الأصل : غالبيهم ، وهو تحريف.
(٢) فى الأصل : فالذى.

إليها مشايخ الطريق ، وهى معرفة الخواص ، فيكون جوابه عن أعظم واجب لا عن أول واجب ، فهذا كما ترى .

ثم ذكر **أبو القاسم** بغير إسناد عن الجنيد أنه قال[١] : «إن أول مايحتاج إليه [العبد][٢] من عقد الحكمة : معرفةُ المصنوع صانعَه ، والمحدَث كيف كان إحداثه ، فيعرف صفة الخالق من المخلوق ، والقديم[٣] من المحدَث ، ويذل لدعوته ، ويعترف بوجوب طاعته ، فإن من لم يعرف ما لله[٤] لم يعترف بالملك[٥] لمن استوجبه» .

وهذا كلام حسن يناسب كلام الجنيد ، وقد ضمَّن هذا الكلام التمييز بين المخلوق والخالق ، لئلا يقع السالك فى الاتحاد والحلول ، كما وقع فيه طوائف ، وذكر أصلين : التصديق والانقياد ، لأن الإيمان قولٌ وعمل ، فذكر معرفة الصانع ، وذكر الذل لدعوته ، والاعتراف بوجوب طاعته .

وهذا من أصول أهل السنة ، وأئمة المشايخ ، خصوصا مشايخ الصوفية ، فإن أصل طريقهم الإرادة التى هى أساس العمل ، فهم فى الإرادات والعبادات والأعمال والأخلاق أعظم رسوخا منهم فى المقالات والعلوم ، وهم بذلك أعظم اهتماما ، وأكثر عناية ، بل من لم يدخل فى ذلك لم يكن من أهل الطريق بحال .

---

(١) فى «القشيرية» ٢٦/١-٢٧ بعد الكلام السابق مباشرة.

(٢) العبد : ساقطة من الأصل . وأثبتها من «القشيرية».

(٣) القشيرية : وصفة القديم .

(٤) القشيرية : فإن من لم يعرف مالكه..

(٥) فى الأصل : يعرف الملك . والتصويب من «القشيرية» .

/وهذا حق . فإن الدين والإيمان قول وعمل ، وأوله قول القلب وعمله ، فمن لم يَنْقدْ بقلبه ولم يَذِلَّ لله لم يكن مؤمنا ، ولا داخلا فى طريق الله ، ولهذا لم يتنازع المشايخ أن الإيمان يزيد وينقص ، وأن الناس يتفاضلون فيه ، وأن أعمال القلوب من الإيمان ، كما يتنازع غيرهم . ص ٣٤

وذكر أبو القاسم بعد هذا كلاما عن المشايخ فيه جُمَل مستحسنة قال[١] : «أخبرنى محمد بن الحسين ، سمعت[٢] محمد بن عبد الله[٣] يقول : سمعت أبا الطيب المراغى : يقول : للعقل دلالة ، وللحكمة إشارة ، وللمعرفة شهادة . فالعقل يدل ، والحكمة تشير ، والمعرفة تشهد : أن صفاء العبادات لا يُنال إلا بصفاء التوحيد» .

وقال[٤] : « وسئل الجنيد » – ولم يسنده[٥] – «عن التوحيد . فقال : إفراد الموحَّد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته : أنه الواحد ، الذى لم يلد ولم يولد ، بنفى الأضداد والأنداد والأشباه ، فلا[٦] تشبيه ، ولاتكييف ، ولاتصوير ، ولاتمثيل . ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى : ١١] » .

وقال[٧] : «حدثنا[٨] محمد بن أحمد بن محمد بن يحيي الصوفى ،

(١) فى «القشيرية» ٢٧/١ بعد الكلام السابق مباشرة.
(٢) القشيرية : قال : سمعت .
(٣) القشيرية : محمد بن عبد الله الرازى .
(٤) أى القشيري فى «القشيرية» بعد الكلام السابق مباشرة .
(٥) عبارة : ولم يسنده : زيادة من ابن تيمية .
(٦) القشيرية : بلا .
(٧) فى «القشيرية» بعد الكلام السابق مباشرة ٢٧/١-٢٨.
(٨) القشيرية : أخبرنا .

حدثنا[(١)] عبد الله بن على التميمى الصوفى ، يحكى عن الحسين بن على الدامغانى ، قال : سُئل أبو بكر الزاهد[(٢)] عن المعرفة فقال : المعرفة اسم ، ومعناه : وجود تعظيم فى القلب يمنعك عن التعطيل والتشبيه . وقال أبو الحسن البوشنجى[(٣)] رحمه الله : التوحيد أن يُعلم[(٤)] أنه غير مشبَّه للذوات ولا منفىٍّ الصفات» .

وهذان قولان حسنان . ولا يتنازع فى هذه الجملة أهل السنة والجماعة .

قال أبو القاسم القشيرى[(٥)] : سمعت أبا حاتم السجستانى[(٦)] يقول : سمعت أبا نصر الطوسى السراج يحكى عن يوسف بن الحسين قال : قام رجل بين يدى ذى النون[(٧)] فقال : أخبرنى عن التوحيد ماهو ؟ فقال :

---

(١) القشيرية : قال أخبرنا ..

(٢) القشيرية ٢٨/١ الزاهرا باذى . ولم أعرف من هو.

(٣) فى الأصل : أبو الحسين ، والتصويب من «القشيرية». وهو أبو الحسن على بن أحمد بن سهل البوشنجى المتوفى سنة ٣٤٨ ، من مشايخ الصوفية . انظر أقواله وترجمته فى : طبقات الصوفية ، ص ٤٥٨-٤٦١ ؛ القشيرية ١٧٢/١ ؛ المنتظم ٣٩١ ؛ طبقات الشافعية ٣٤٤/٣-٣٤٥ (وفيها : على بن أحمد بن إبراهيم ووفاته ٣٤٧)؛ الطبقات الكبرى ١٠٣/١.

(٤) القشيرية : أن تعلم .

(٥) فى «القشيرية» ٣١/١ بعد كلام الحلاج السابق.

(٦) وهو أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان الجشمى السجستانى المتوفى سنة ٢٤٨ .من كبار العلماء باللغة والشعر ، من أهل البصرة . انظر ترجمته فى : إنباه الرواة ٥٨/٢-٦٤ ؛ وفيات الأعيان ١٥٠/٢-١٥٢ ؛ الأعلام ٢١٠/٣.

(٧) القشيرية : ذى النون المصرى . وهو أبو الفيض ، أو الفيّاض ، ثوبان بن إبراهيم الإخميمى المصرى ، أحد مشاهير الصوفية ، نوبى الأصل من الموالى توفى سنة ٢٤٥ . انظر ترجمته وأقواله فى : طبقات الصوفية ، ص ١٥-٢٦ ؛ صفة الصفوة ٢٨٧/٤-٢٩٣ ؛ القشيرية ٥٤/١-٥٦ ؛ الطبقات الكبرى ٥٩/١-٦١ ؛ ميزان الاعتدال ٣٣/٢-٣٤ ؛ لسان الميزان ٤٣٧/٢-٤٣٨ ؛ الأعلام ٨٨/٢.

أن[١] تعلم أن قدرة الله[٢] فى الأشياء بلا [مزاج ، وصنعه للأشياء بلا][٣] علاج ، وعلة كل شئ صنعه ، ولا علة لصنعه ، وليس فى السموات العلا ، ولا فى الأرضين السفلى ، مُدبِّرٌ غير الله ، وكل ماتُصوِّر فى وهمك فالله بخلافه[٤] ».

هذا الكلام غالبه فى ذكر فعل الحق سبحانه وربوبيته ، أخبر أنه رب كل شئ ، لامدبر غيره : ردًّا على القدرية ونحوهم ، ممن يجعل بعض الأشياء خارجة عن قدرة الله وتدبيره ، وأخبر أن قدرته وصنعه ليس مثل قدرة العباد وصنعهم ، فإن قدرة أبدانهم عن امتزاج الأخلاط ، وأفعالهم عن معالجة ، والله تعالى ليس كذلك .

وأما قوله : «علة كل شئ صنعه/ ولا علة لصنعه»– فقد تقَدَّم أن هذا يريد به أهلُ الحق معناه الصحيح : أن الله سبحانه لايبعثه ويدعوه إلى الفعل شئٌ خارج عنه ، كما يكون مثل ذلك للمخلوقين ، فليس له علة غيره ، بل فعله علة كل شئ ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . ظ ٣٤

ومقصود أبى القاسم يبيِّن أن القوم لم يكونوا على رأى القدرية من المعتزلة ، وهذا حق . فما نعلم فى المشايخ المقبولين فى الأمة من كان على رأى المعتزلة ، لا فى قولهم فى الصفات بقول جهم ، ولا فى قولهم فى الأفعال بقول القدرية . بل هم أعظم الناس إثباتا للقدر ، وشهوداً له ،

---

(١) القشيرية : هو أن..

(٢) القشيرية : الله تعالى

(٣) مابين المعقوفتين ساقط من الأصل وأثبته من «القشيرية».

(٤) القشيرية : بخلاف ذلك.

وافتقاراً إلى الله والتجاءً إليه . حتى أن من المنتسبين إلى الطريق من غَلَوا[١] فى هذا ، حتى يذهب إلى الإباحة والجبر ، ويعرض عن الشرع والأمر والنهى . فهذه الآفة توجد كثيراً فى المتصوفة والمتفقِّرة ، وأما التكذيب بالقدر فقليل فيهم جداً[٢] .

ثم ذكر عنهم فى الإيمان كلمتين يدل بهما على أن الإيمان عندهم مجرد التصديق . وليس هذا مذهب القوم ، بل الذى حكاه عن الجنيد **فقال**[٣] : «وقال الجنيد : [التوحيد][٤] علمك وإقرارك بأن الله فرد فى أزليته ، لا ثانىَ معه ، ولا شئ يفعل فعله . وقال [أبو] عبد الله بن خفيف[٥] : الإيمان تصديق القلوب بما أعلمه الحق من الغيوب» .

وهذا المذكور عن الجنيد وابن خفيف حسن وصواب ، لكن لم يدل على أن أعمال القلوب ليست من الإيمان .

ثم ذكر عنهم فى مسألة الاستثناء فى الإيمان شيئا حسنا **فقال**[٦] : «وقال أبو العباس السيَّارى : عطاؤه على نوعين : كرامة واستدراج ، فما

---

(١) فى الأصل : من فعلوا ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : حد.

(٣) فى «القشيرية» بعد الكلام السابق مباشرة ٣١/١.

(٤) التوحيد : ساقطة من الأصل . وأثبتها من «القشيرية» .

(٥) أبو : ساقطة من الأصل . وهو أبو عبد الله محمد بن خفيف بن إسفكشاذ الضبى الشيرازى الشافعى ، شيخ الصوفية فى وقته ، مات سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة . انظر ترجمته وأقواله فى : القشيرية ١٧٣/١-١٧٤ ؛ طبقات الصوفية ، ص ٤٦٢-٤٦٦ ؛ الطبقات الكبرى ١٠٣/١ ؛ المنتظم ١١٢/٧ ؛ طبقات الشافعية ١٤٩/٣-١٦٣ ؛ شذرات الذهب ٧٦/٣-٧٧.

(٦) بعد الكلام السابق مباشرة فى «القشيرية» ٣٢/١.

أبقاه عليك فهو كرامة ، وما أزاله عنك فهو استدراج ، فقل : أنا مؤمن إن شاء الله تعالى» .

قال[١] : «وأبو العباس السيارى كان شيخ وقته».

وقال[٢] :«سمعت الأستاذ أبا على الدقّاق يقول : غمز رَجُلٌ رِجْلَ أبي العباس السيارى ، فقال : تغمز رِجلا مانقلتها قط فى معصية الله تعالى[٣] ».

قال[٤] : « وقال أبو بكر الواسطى : من قال أنا مؤمن بالله حقاً . قيل له : الحقيقة تشير إلى إشراف واطّلاع وإحاطة ، فمن فقده فقد بطل[٥] دعواه منها[٦] ».

قال أبو القاسم[٧] · «يريد بذلك ما قاله أهل السنة من أن المؤمن[٨] الحقيقى من كان محكوماً له بالجنة ، فمن لم يعلم ذلك[٩] من سرِّ حكمة الله تعالى ، فدعواه بأنه مؤمن حقاً غير صحيحة» .

قلت : الاستثناء فى الإيمان سنة عند عامة/ أهل السنة ، وقد ذكره ص ٣٥

(١) بعد الكلام السابق مباشرة.

(٢) بعد الكلام السابق مباشرة .

(٣) القشيرية : الله عز وجل

(٤) بعد الكلام السابق مباشرة.

(٥) القشيرية : فمن فقده بطل ..

(٦) القشيرية : فيها.

(٧) بعد الكلام السابق مباشرة ٣٢/١.

(٨) القشيرية : .. السنة: إن المؤمن..

(٩) فى الأصل : فمن لم يعلم ذلك من يعلم ذلك ، وهو تحريف.

طائفة من المرجئة وغيرهم ، وأوجبه كثير من أهل السنة . ومن وجوهه وجهان حسنان :

أحدهما : أن الإيمان الذى أوجبه الله على العبد من الأمور الباطنة أو الظاهرة ، لايتيقن أنه أتى بها على الوجه الذى أُمر به كاملا ، بل قد يكون أخلَّ ببعضه فيستثنى لذلك .

والوجه الثانى : أن المؤمن المطلق من علم الله أنه يوافى بالإيمان ، فأما الإيمان الذى تتعقّبه الردة فهو باطل ، كالصوم والصلاة الذى يبطل قبل فراغه ، فلا يعلم العبد أنه مؤمن حتى يقضِىَ جميع إيمانه ، وذلك إنما يكون بالموت .

وهذا معنى ما يروى عن ابن مسعود أنه قيل له : إن فلاناً يقول : إنه مؤمن . قال : فقولوا له : أهو فى الجنة ؟ فقال : الله أعلم . قال : فهلاَّ وكَّلت الأولى كما وكَّلت الثانية؟

وهذا الوجه تختاره طائفة من متكلمى أهل الحديث المائلين إلى الإرجاء ، كالأشعرى وغيره ممن يقول بالاستثناء ، ولايُدخل الأعمال فى مسمَّى الإيمان ، فيجعل الاستثناء لايعود إلا إلى النوايا[1] فقط ، وهو الذى ذكره أبو القاسم وفسَّر به كلام أبى بكر الواسطى . وكلام الواسطى يحتمل الوجهين جميعا ، فإن الإشراف والاطّلاع قد يكون على الحقيقة التى هى عند الله فى هذا الوقت ، وقد يكون على ما يوافى به العبد . وأما كلام أبى العباس فظاهر فى أنه راعى الخاتمة .

---

(١) فى الأصل : الموایاه ، وهو تحريف . وأرجح أن الصواب ما أثبته.

فإن قيل : فإذا كان القدر السابق لا ينافى الأسباب ، فما وجه ماثبت فى الصحيح عن أبى هريرة [رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله إنى رجل شاب وأنا أخاف على نفسى العنت ، ولا أجد ما أتزوج به النساء ، فسكت عنى ، ثم قلت مثل ذلك فسكت عنى ، ثم قلت مثل ذلك فسكت عنى ، ثم قلت مثل ذلك] [(١)]، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يا أبا هريرة جفَّ القلم بما أنت لاقٍ ، فاختص على ذلك أو دع»[(٢)] ؟ .

فهذا يقتضى أن اختصاءه الذى قصد أن يمتنع به من الفاحشة لايدفع المقدور .

وكذلك فى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى أنهم سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن العزل ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «لا عليكم أن تفعلوا ، فما من نسمة كتب الله أن تكون إلاَّ وهى كائنة»[(٣)] . فهذا

---

(١) مابين المعقوفتين بياض بالأصل ، ورجحت أنه كلام ساقط من الحديث ، وقد أثبته من البخارى ٧/٤-٥.

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله فى : البخارى ٧/٤-٥ (كتاب النكاح ، باب مايكره من التبتل والخصاء) وأوله : قلت يارسول الله : إنى رجل شاب ... الحديث ؛ سنن النسائى ٦/٤٩ (كتاب النكاح ، باب النهى عن التبتل). وعبارة (فاختص على ذلك أودع) وهى رواية النسائى ، قال المعلق: ليس من باب التخيير ، بل من باب النهى كقوله تعالى: (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر).

(٣) الحديث عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه مع اختلاف فى بعض الألفاظ فى : البخارى ٣/١٤٨ (كتاب العتق ، باب من ملك من العرب رقيقا فوهب وباع وجامع...) وأوله: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بنى المصطلق فأصبنا سبيا ... وأحببنا العزل ، فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما عليكم ... الحديث ، ٧/٣٣ (كتاب النكاح ، باب العزل)؛ مسلم ٢/١٠٦١ (كتاب النكاح ، باب حكم العزل)؛ سنن أبى داود ٢/٣٣٨ (كتاب النكاح ، باب ما جاء فى العزل) ؛ الموطأ ٢/٥٩٤ (كتاب الطلاق ، باب ما جاء فى العزل)؛ المسند (ط. الحلبى) ٣/٦٨.

يقتضي أن عزل الماء ، وهو سبب لعدم العلوق ، لا فائدة فيه لدفع ماكتبه الله من الأولاد .

وفي الصحيحين عن ابن عباس—وهو في مسلم عن عمران بن حصين—وهذا لفظه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب . قال : ومن هم يارسول الله ؟ قال : هم الذين لا يكتوون ، ولايسترقون [١] ، ولايتطيَّرون ، وعلى ربهم يتوكلون .

فقال[٢] عكاشة : ادع الله يجعلني منهم ، قال : أنت منهم ، فقام رجل فقال يانبي الله : ادع الله أن يجعلني منهم . فقال : سبقك بها عكاشة[٣] » .

ظ ٣٥ فقد جعل التوكل ها/هنا موجبا لترك الاكتواء والاسترقاء ، وهما من الأسباب .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : قالت أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم امتعني بزوجي رسول الله ، وبأبي أبي سفيان ، وبأخي معاوية.قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم «قد سألت الله لآجال مضروبة ، وأيام معدودة ، وأرزاق مقسومة ، لن يعجِّل الله

---

(١) في الأصل : ولايسرقون ، وهو تحريف . والذي أثبته هو ما جاء في الحديث.

(٢) في الأصل : فقام ، وكتب الناسخ حرف «ل» فوق الميم ، مشيراً بذلك إلى ما في بعض روايات الحديث من أن عكاشة قام ... فقال ... الخ .

(٣) الحديث بهذه الألفاظ في أربعة مواضع عن أبي هريرة وعمران بن حصين في : مسلم ١/١٩٧–١٩٨ (كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولاعذاب)؛ البخاري ٧/١٤٦ (كتاب اللباس ، باب البرود والحِبَرَة والشملة) .

شيئا قبل أجله ، ولن يؤخِّر شيئا عن أجله ، ولو كنتِ سألتِ الله أن يعيذك من عذاب فى النار ، أو عذاب فى القبر ، كان خيراً وأفضل». قال : وذُكرت عنده القردة والخنازير ، هى مِنْ مِسْخ ؟ فقال : «إن الله لم يجعل لمسخٍ نسلا ولا عَقِبا ، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك»[1] .

وفى رواية : قال رجل يارسول الله : القردة والخنازير هى مما مسخ ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «إن الله لم يهلك قوما أو يعذِّب قوما فيجعل لهم نسلا[2] » فهذا الحديث أخبر فيه أن الدعاء –وهو من الأسباب– لا يفيد فى إطالة الأعمار ، ويفيد فى النجاة من عذاب الآخرة .

قيل : ليس كل مايظنه الإنسان سببا يكون سببا ، وليس كل سبب مباحا فى الشريعة ، بل قد تكون مضرته أعظم من منفعته ، فيُنتهى عنه ، وليس كل سبب مقدوراً للعبد ، فالعبد يؤمر بالسبب الذى أحبه الله ، ويؤذن له فيما أذن الله فيه ، مع أمره بالتوكل على الله تعالى . فأما ما لاقدرة له فيه ، فليس فيه إلا التوكل على الله والدعاء له ، وذلك من أعظم الأسباب التى يؤمر بها العبد أيضا .

وما كان من الأسباب محرَّماً لرجحان فساده على صلاحه ، أو غير

(١) الحديث عن عبد الله بن مسعود عن أم حبيبة رضى الله عنها فى : مسلم ٤/٢٠٥٠–٢٠٥١ (كتاب القدر ، باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لاتزيد ولاتنقص عما سبق به القدر) وأوله : قالت أم حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم أمتعنى بزوجى . وفى رواية : متعنى بزوجى ... الحديث ؛ المسند (ط. المعارف) ٥/٢٦٠ ، ٦/١٢–١٣ ومواضع أخرى .

(٢) هذه الرواية فى : مسلم ٤/٢٠٥١–٢٠٥٢ (نفس الكتاب والباب السابقين) .

نافع لايفيد[١] ، بل يظن أنه نافع ، فإنه لايؤمر به أيضا ، فلا يؤمر بما لا فائدة فيه ، وما كان فساده راجحا نهى عنه .

وجماع الأمر أن[٢] الأسباب : إما أن تكون مقدورة أو غير مقدورة ، فغير المقدور ليس فيه إلا الدعاء والتوكل . والمقدور إما أن يكون فساده راجحا أو لا يكون ، فإن كان فساده راجحا/نهى عنه ، وإن لم يكن فساده راجحا فينهى عنه كما ينهى عن إضاعة المال والعبث . وأما السبب المقدور النافع منفعة راجحة فهو الذى ينفع ويؤمر به ويندب إليه[٣] .

ص ٣٦

وأيضا فينبغى أن يعرف أن التوكل على الله من أعظم الأسباب ، فربما كان بعض الأسباب يضعف التوكل ، فإذا ترك ذلك كمل توكله ، فهذا التقسيم حاصر[٤] ، والقدر يأتى على جميع الكائنات ، وبهذا يتبين فقه الأحاديث .

أما حديث الاختصاء ، فإن الاختصاء محرم لرجحان مفسدته . وقد ثبت فى الصحيح عن [سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه][٥] قال : زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن مظعون عن التبتل ، ولو أَذِنَ لاختصينا[٦] .

(١) فى الأصل : لامفيد ، وهو تحريف.

(٢) فى الأصل : أما ، وهو تحريف

(٣) فى الأصل كأنها : ويود فيه ، ورجحت أنه تحريف من الناسخ ، ولعل الصواب ما أثبته.

(٤) فى الأصل : حاضر ، وهو تحريف.

(٥) مابين المعقوفتين ساقط من الأصل.

(٦) الحديث عن سعد بن أبى وقاص فى موضعين فى : البخارى ٤/٧ (كتاب الترغيب فى =

وبيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مع ركوب الاختصاء المحرم لايسلم من الزنا ، بل لابد أن يفعل ما كُتبَ عليه منه ، كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «كَتَبَ الله على ابن آدم حظه من الزنا ، فهو مدرك ذلك لامحالة ، فالعينان تزنيان ، وزناهما النظر ، واللسان يزنى ، وزناه المنطق ، والأذنان تزنيان ، وزناهما الاستماع ، واليد تزنى ، وزناها البطش ، والرجل تزنى ، وزناها الخطا ، والنفس تتمنى ، والفرج يُصدِّق ذلك أو يكذِّبه[1]» .

وأما حديث العزل ، فالعزل لايمنع انعقاد الولد ، ولا تركه يوجب الولادة . ولهذا لو عزل عن سريته وأتت بولد أُلحق به ، فإن الماء سبّاق ، مع ما فيه من ترك لذة الجماع . فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن الولد المكتوب يكون ، عزلت أو لم تعزل ، كما قال : «ليس من كل الماء يكون الولد»[2] ، فلا يكون ترك العزل سببا للولادة ، ولا العزل

= النكاح ، باب ما يكره من التبتل والخصاء) ونص الحديث : رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل ، ولو أذن له لاختصينا)؛ النسائى ٤٨/٦ (كتاب النكاح ، باب النهى عن التبتل) وفى البخارى فى نفس الصفحة رواية أخرى عن عبد الله بن مسعود : كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فقلنا ألا نستخصى؟ فنهانا عن ذلك ثم رخص لنا أن تنكح المرأة بالثوب ..»

(١) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٥٤/٨ (كتاب الاستئذان ، باب زنا الجوارح دون الفروج) وأوله : إن الله كتب .. الحديث .، مسلم ٢٠٤٦/٤، ٢٠٤٧ فى موضعين (كتاب القدر ، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنى وغيره) ؛ سنن أبى داود ٣٣١/٢-٣٣٢ فى ثلاثة مواضع (كتاب النكاح ، باب ما يؤمر به من غض البصر) ؛ المسند (ط. المعارف) ١٤٧/١٤ ، ومواضع أخرى فى المسند .

(٢) الحديث عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه فى : مسلم ١٠٦٤/٢ (كتاب النكاح باب ، حكم العزل) ولفظه ... فقال : «ما من كل الماء يكون الولد ، وإذا أراد الله خلق شئ لم يمنعه شئ». وجاء الحديث أيضا عن أبى سعيد الخدرى فى : منحة المعبود فى ترتيب مسند الطيالسى أبى داود (ط . المنيرية بالأزهر ، ١٣٧٢) ٣١٢/١ (كتاب االنكاح ، باب ثواب الرجل فى إتيان زوجته . . . وما جاء فى العزل) ولفظه : ليس من كل الماء يكون الولد . . الحديث .

سببا لمنعها ، والقدر ماض بالأمرين ، فلا فائدة فيه .

ومثل هذا ما ثبت فى الصحيح أنه نهى عن النذر ، وقال : «لا يأتى بخير وإنما يُستخرج به من البخيل[١]» ، فأخبر أن النذر ليس من الأسباب التى تُجتلب بها المنفعة ، وتُدفع بها المضرة ، ولكن نلقيه إلى ما قُدِّر له ، فنهى عنه لعدم فائدته .

وأما حديث السبعين ألفا ، فلم يصفهم بترك سائر التطبب وإنما وصفهم بترك الاكتواء والاسترقاء ، والاكتواء مكروه ، وقد نهى عنه فى غير هذا الحديث ، لما قال : «وأنا أنهى أمتى عن الكى[٢]» والمسترقى لم يفعل شيئا إلا اعتماده على الراقى ./ فتوكله على الله سبحانه وحده لاشريك له أنفع له من ذلك . ظ ٣٦

وهذا الجواب الآخر ، وهو أن المسترقى يضعف توكُّله على الله ، فإنه

---

(١) الحديث عن ابن عمر وأبى هريرة رضى الله عنهم مع اختلاف فى بعض الألفاظ فى : البخارى ١٢٤/٨-١٢٥ (كتاب القدر ، باب إلقاء النذر العبد إلى القدر) وأوله عن ابن عمر : نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن النذر ... الحديث ؛ مسلم ١٢٦٠/٣-١٢٦٢ فى ست مواضع (كتاب النذر ، باب النهى عن النذر ، وأنه لايرد شيئا) ؛ سنن أبى داود ٣١٤/٣ ، ٣١٥ (كتاب الأيمان والنذور ، باب النهى عن النذر) ؛ سنن الترمذى ٤٧/٣ (كتاب النذور ، باب فى كراهية النذور) ؛ سنن النسائى ١٥/٧-١٦ فى أربعة مواضع (كتاب الأيمان والنذور ، باب النهى عن النذر) ؛ سنن ابن ماجة ٦٨٦/١ (كتاب الكفارات ، باب النهى عن النذر) ؛ سنن الدارمى ١٨٥/٢ (كتاب النذور والأيمان ، باب النهى عن النذر) ؛ المسند (ط. المعارف) ١٩١/٧-١٩٢ ومواضع أخرى فى المسند .

(٢) الحديث عن ابن عباس وغيره من الصحابة فى : البخارى ١٢٢/٧-١٢٣ فى موضعين (كتاب الطب ، باب الشفاء فى ثلاث) ولفظه : الشفاء فى ثلاثة : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكية نار ... الحديث ؛ سنن الترمذى ٢٦٣/٣ (كتاب الطب ، باب ماجاء فى كراهية الكيِّ) ؛ سنن أبى داود ٩/٤ (كتاب الطب ، باب فى الكى) ؛ سنن ابن ماجه ١١٥٥/٢ (كتاب الطب ، باب الكى) ؛ المسند (ط. الحلبى) ١٥٦/٤ ومواضع أخرى .

إنما طلب دعاء الغير ورقيته . فاعتمادِ قلبه على الله وحده ، وتوكله عليه أكمل لإيمانه وأنفع له .

وأما حديث أم حبيبة ، ففيه أن الدعاء يكون مشروعا نافعا فى بعض الأشياء دون بعض ، وكذلك هو ، ولهذا لا يحب الله المعتدين فى الدعاء . فالأعمار المقدَّرة لم يشرع الدعاء بتغييرها ، بخلاف النجاة من عذاب الآخرة ، فإن الدعاء مشروع له نافع فيه . وقد كتبت مسألة زيادة العمر بصلة الرحم فى غير هذا الموضع [١] ، ولا يلزم من تأثير صلة الرحم ونحو ذلك [أن يزيد العمر ، كما قد يقال بزيادة العمر] بتأثير الدعاء [٢] ، ولذلك كان يكره أحمد أن يُدعَى له بطول العمر ويقول : هذا فُرِغ منه .

ثم ذَكَرَ [ما جاء] فى الرؤية [٣] . **قال أبو القاسم** [٤] : «سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى رحمه الله [٥] يقول : سمعت منصور بن عبد الله[يقول]: [٦] سمعت أبا الحسن العنبرى[يقول] : [٦] سمعت سهل

(١) لم أجد فيما بين يدى من المراجع ذكر رسالة خاصة بهذا الموضوع لابن تيمية ، ولكن تكلم ابن تيمية كلاما موجزا عن قوله صلى الله عليه وسلم : «من سره أن يُبسط له فى رزقه ويُنسأ له فى أثره فليصل رحمه» انظر مجموع فتاوى الرياض جـ٨ ص ٥١٦-٥١٨ ، ص ٥٤٠ .

(٢) فى الأصل : ونحو ذلك فيما تأثير الدعاء . ورأيت أن الجملة محرفة وناقصة ، ولعل فيما أثبته بين المعقوفتين ، وما أصلحت به العبارة ما يستقيم به الكلام .

(٣) فى الأصل : ثم ذكر فى الرؤية . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى «القشيرية» ٣٣/١ .

(٥) رحمه الله : ليست فى «القشيرية».

(٦) يقول : ساقطة من الأصل ، وأثبتها من «القشيرية» .

ابن عبد الله التسترى يقول : ينظر إليه [تعالى][١] المؤمنون بأبصارٍ[٢] من غير إحاطة ، ولا إدراك نهاية».

وهذا الكلام من أحسن الكلام ، وكلام سهل بن عبد الله فى السنة وأصول الاعتقادات أسدّ[٣] وأصوب من كلام غيره ، وكذلك الفضيل ابن عياض ونحوه ، فإن الذين كانوا من المشايخ أعلم بالحديث والسنة واتبع لذلك هم أعظم علما وإيمانا ، وأجل قدرا فى ذلك من غيرهم .

وقول سهل : «ولا إدراك نهاية». يتضمن شيئين : أحدهما : نفى الإدراك الذى نفاه الله عنه يجمع بين ما أثبته الكتاب والسنة وما نفاه . والثانى : أنه نفى إدراك النهاية ، ولم ينف نفس النهاية . وهذا فى الظاهر يخالف قول أبى القاسم : «لاحد لذاته».

ثم قال أبو القاسم[٤] : «قال[٥] أبو الحسين النورى : شاهد الحقُّ القلوبَ ، فلم ير قلبا أشوق إليه من قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، فأكرمه بالمعراج تعجيلا للرؤية[٦] والمكالمة».

وقصده بهذه الحكاية إثبات رؤية محمد صلى الله عليه وسلم ربَّه ليلة المعراج ، وهذا هو قول أكثر أهل السنة : [أنه رأى ربَّه بفؤاده][٧] .

---

(١) تعالى : زيادة من «القشيرية» .

(٢) القشيرية : بالأبصار .

(٣) فى الأصل : أشد . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٤) فى «القشيرية» ٣٣/١ بعد الكلام السابق مباشرة .

(٥) القشيرية : وقال .

(٦) فى الأصل : لرؤية . والمثبت من «القشيرية» .

(٧) فى الأصل بياض بعد كلمة «السنة» بمقدار ثلاث كلمات ، ولعل ما أثبته بين المعقوفتين يوافق الكلام الناقص .

ثم ذكر [ماجاء][١] فى العلو **فقال**[٢] : «سمعت الإمام أبا بكر [محمد بن الحسن][٣] [بن] فورك[٤] يقول : سمعت محمد[بن] المحبوب[٥] خادم أبى عثمان المغربى يقول : قال لى أبو عثمان/ المغربى ص ٣٧ يوما : يامحمد ، لو قيل لك[٦] : أين معبودك ؟ إيش تقول ؟: قلت : أقول : حيث لم يزل ، قال : فإن قال : فأين[٧] كان فى الأزل[٨] ؟ إيش تقول ؟. قلت : أقول[٩] : حيث [هو][١٠] الآن » . **قال**[١١] : «يعنى أنه كان ولامكان فهو الآن على ماعليه كان[١٢] . فارتضى[١٣] منى ذلك ، ونزع قميصه وأعطانيه».

وقال أبو القاسم[١٤] : « سمعت أبا بكر بن فورك يقول[١٥] : سمعت أبا عثمان المغربى يقول : كنت أعتقد شيئا من حديث الجهة ، فلما قدمت

(١) عبارة «ماجاء» أضفتها ليستقيم الكلام .

(٢) فى «القشيرية» ١/٣٣-٣٤

(٣) محمد بن الحسن . زيادة من «القشيرية» .

(٤) القشيرية : .. بن فورك رحمه الله تعالى . وسبقت ترجمة ابن فورك ، ص ٤٣ .

(٥) فى الأصل : محمد المجنون ، والظاهر أنه تحريف . والمثبت من «القشيرية»

(٦) القشيرية : لو قال لك أحد .

(٧) القشيرية ١/ ٢٣٤ : أين .

(٨) فى الأصل : الأول . والمثبت من «القشيرية».

(٩) القشيرية : قال : قلت : أقول ....

(١٠) هو : ساقطة من الأصل . وأثبتها من «القشيرية».

(١١) بعد الكلام السابق مباشرة .

(١٢) القشيرية : أنه كما كان ولا مكان ، فهو الآن كما كان .

(١٣) القشيرية : قال : فارتضى ...

(١٤) بعد الكلام السابق مباشرة .

(١٥) القشيرية : وسمعت الإمام أبا بكر بن فورك رحمه الله تعالى يقول ..

بغداد زال[ذلك]عن قلبي [١] ، فكتبت إلى أصحابنا بمكة أنى أسلمت [الآن إسلاما] [٢] جديداً ».

قلت : هذا الكلام الذى ذكره عن أبى عثمان كلام مجمل ليس فيه دليل على أنه كان يقول : ليس فوق السموات رب ، ولاهناك إله ، كما يقوله من يقول : إن الله ليس فوق العرش . وقد يعبر [عن] [٣] ذلك بعضهم بأنه ليس فى الجهة ، بل إقراره لخادمه على جواب السائل له : أين معبودك ؟ يخالف ماذكره أبو القاسم [الذى] [٤] **قال** فى خطبة كتابه [٥] : « تعالى عن أن يقال كيف هو ؟ أو أين [هو] [٦] ؟» فلو أراد ماذكره أبو القاسم لقال : لايقال أين هو ، بل قال : حيث لم يزل . وهذا لايوافق قول من يقول : ليس بداخل العالم ولاخارجه ، ولاهو فوق العرش ولافى جهة ، لأن قوله : حيث لم يزل ، إخبار بأنه حيث لم يزل ، و«حيث» ظرف من ظروف المكان ، لأيطلق إلا على الجهة والحيز . وعند النفاة لا يقال : حيث لم يزل ، ولا كان فى الأزل [٧] بحيثٍ .

وكذلك قوله : «فإن قال : فأين كان فى الأزل [٧] ؟ فقال : أقول : حيث الآن» لايستقيم عند من ينفى الجهة ، فإنه لايقال : أين كان فى الأزل [٧] ، ولا يقال : حيث الآن . بل هذا السؤال والجواب

(١) فى الأصل : زال عنى قلبى . والمثبت من «القشيرية».

(٢) عبارة «الآن إسلاما» أثبتها من «القشيرية».

(٣) عن : ساقطة من الأصل .

(٤) الذى : ساقطة من الأصل ، وأثبتها ليستقيم الكلام .

(٥) فى «القشيرية» ١٧/١ .

(٦) هو : ساقطة من الأصل . وأثبتها من «القشيرية». (٧) فى الأصل : فى الأول .

ممتنع عندهم ، وإن كانوا فى ذلك مخالفين للنصوص ، وإجماع السلف ، وأئمة الدين ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم سأَل بأين ، فقال : أين الله ؟ فقال له المسئول : فى السماء ، فحكم بإيمان من قال ذلك . وكذلك سئل فقيل له : أين كان ربنا قبل أن يخلق السمٰوات والأرض ؟ فأجاب عن ذلك . ولكن جواب أبى عثمان يوافق قول[١] أهل الإثبات ، وهم أهل الفطرة العقلية السليمة من الأوَّلين والآخرين ، الذين يقولون : إنه فوق العالم ، إذ[٢] العلم بذلك فطرى عقلى ضرورى/ لايتوقف على سمع . ظ ٣٧

أما العلم بأنه استوى على العرش بعد أن خلق السموات والأرض فى ستة أيام فهذا سمعى : إنما[٣] عُلِم من جهة أخبار الأنبياء . ولهذا شرع الله تعالى لأهل الملل الاجتماع كل أسبوع يوما واحدا ، ليكون الأسبوع الدائر دليلا على الأسبوع الذى خلق الله فيه السمٰوات والأرض ، ثم استوى على العرش . ولهذا لا يُعرف الأسبوع إلا من جهة أهل الكتب الإلٰهية ، بخلاف اليوم فإنه معلوم بالحس ، وكذلك الشهر والسنة يُعلم بالحس وسير القمر ، فيعلم بالحس والحساب . وأما الأسبوع فليس له سبب حسى ، وكذلك لايوجد لأيام الأسبوع ذكر عند الأمم الذين لاكتاب لهم ، ولا أخذوا عن أهل الكتب ، كالترك الباقين فى بواديهم : فى لغتهم اسم اليوم والشهر والسنة ، دون أيام الأسبوع ،

---

(١) فى الأصل : يوافق أحد قول ... ورأيت أن حذف «أحد» يستقيم به الكلام .
(٢) فى الأصل : إذا ، وهو تحريف .
(٣) فى الأصل : إما ، وهو تحريف .

بخلاف الفرس ونحوهم ممن أخذ عن المرسلين ، فإن فى لغتهم أيام الأسبوع .

وأهل الإثبات منازعون [فى][1] أن الاستواء : هل هو مجرد نسبة وإضافة بين الله وبين العرش ، من غير أن يكون البارى تصرف بنفسه بصعود أو علو ونحو ذلك ؛ أو هو يتصرف بنفسه ، وأنه استوى على العرش بعد أن لم يكن مستوياً ؟

وكذلك استواؤه[2] إلى السماء ونزوله ، ونحو ذلك ، عن قولين مشهورين :

والأول : قول كثيرٍ ممن يميل إلى الكلام ، وقول طائفة من الفقهاء والصوفية .

والثانى : قول أهل الحديث ؛ وقول كثير من أهل الكلام والفقهاء والصوفية .

فكلام أبى عثمان[3] ظاهره يوافق القول الأول . وأما الذى كان يعتقده فى الجهة ، ثم رجع عنه ، فهو أمر مجمل لم يذكره ؛ فلعله كان يعتقد من التجسيم والتمثيل ما يقوله أهل الضلال من الرافضة والمجسّمة فرجع عن ذلك ، فإن هذا ممكن ، ولعله كان يعتقد أن البارى تعالى

---

(١) فى : ساقطة من الأصل ، وأثبتها ليستقيم الكلام .
(٢) فى الأصل : استواه
(٣) فى الأصل : أبو عثمان ، وهو خطأ .

محصور فى السموات تظله[١] وتقره ، وأنه مفتقر إلى عرش يحمله ، فرجع عن ذلك .

وأعظم ما يُقال : إنه كان يعتقد أن الاستواء من الصفات الفعليه المتجددة ، وأنه يفعله بنفسه ، ثم رجع عن ذلك إلى أنه على ما كان عليه ، مع كونه مستوياً على العرش ، لكنه خلق العرش بعد أن لم يكن مخلوقاً ، فيلزم[٢] أن يكون موصوفا بأنه فوق العرش . وهذا يقوله كثير من المثبتة ، وإن كان هذا ليس موضع الكلام فيه .

/فأما أن يقال : إن أبا عثمان رجع عن اعتقاد علو الله على خلقه ، وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته ، عالٍ عليهم – فليس فى كلامه مايفهم [منه][٣] ذلك بحال . ثم لو فُرض أن أبا عثمان قال قولاً فيه غلط لم يصلح أن يُجعل ذلك أصلا لاعتقاد القوم . فإن كلام أئمة المشايخ المصرِّح بأن الله فوق العرش كثيرٌ منتشر ، فإذا وُجد عن بعضهم ما يخالف ذلك ، كان ذلك خلافا لهم . ص ٣٨

والصوفية يوجد فيهم المصيب والمخطئ ، كما يوجد فى غيرهم ، وليسوا فى ذلك بأجلّ من الصحابة والتابعين ، وليس أحد معصوما فى كل ما يقوله إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نعم ، وقوع الغلط فى مثل هذا يوجب ما نقوله دائما : إن المجتهد فى

---

(١) فى الأصل : تصله .

(٢) فى الأصل : يلزم

(٣) منه : ساقطة من الأصل .

مثل هذا من المؤمنين إن[١] استفرغ وسعه فى طلب الحق ، فإن الله يغفر له خطأه ، وإن حصل منه نوع تقصير ، فهو ذنب لا يجب أن يبلغ الكفر ، وإن كان يُطلق القول بأن هذا الكلام كفر ، كما أطلق السلف الكفر على من قال ببعض مقالات الجهمية ، مثل القول بخلق القرآن ، أو إنكار الرؤية ، أو نحو ذلك مما هو دون[٢] إنكار علو الله على الخلق ، وأنه فوق العرش ، فإن تكفير صاحب هذه المقالة كان عندهم من أظهر الأمور ، فإن التكفير المطلق ، مثل الوعيد المطلق ، لايستلزم تكفير الشخص المعيَّن حتى تقوم عليه الحجة التى تكفِّر تاركها .

كما ثبت فى الصحاح عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الرجل الذى قال : إذا أنا مت فاحرقونى ثم اسحقونى[٣] ثم ذرُّونى فى اليم ، فوالله لئن قدر الله علىّ ليعذبنى عذابا لايعذبه أحداً من العالمين . فقال الله له : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : خشيتك ، فغفر له[٤] .

فهذا الرجل اعتقد أن الله لايقدر على جمعه إذا فعل ذلك ، أو شك ، وأنه لا يبعثه . وكل من هذين الاعتقادين كفر يكفر من

(١) فى الأصل : أو . ولعل ما أثبته هو الصواب

(٢) فى الأصل : مما دون هو ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : اسقونى ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته ، وهو اللفظ الموجود فى الحديث .

(٤) الحديث عن أبى هريرة وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم فى : البخارى ١٧٦/٤ (كتاب الأنبياء ، باب حدثنا أبو اليمان) وأوله : كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه .. الحديث ، ١٠١/٨ (كتاب الرقاق ، باب الخوف من الله) ؛ مسلم ٢١١٠/٤ ، ٢١١١ (كتاب التوبة ، باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه) ؛ سنن النسائى ٩١/٤-٩٢ (كتاب الجنائز ، باب أرواح المؤمنين) ؛ سنن ابن ماجه ١٤٢١/٢ (كتاب الزهد ، باب ذكر التوبة) ؛ المسند (ط.المعارف) ٦٨/١٤

قامت[1] عليه الحجة ، لكنه كان يجهل ذلك ، ولم يبلغه العلم بما يرده عن جهله ، وكان عنده إيمان بالله وبأمره ونهيه ووعده ووعيده ، فخاف من عقابه ، فغفر الله له بخشيته .

فمن أخطأ فى بعض مسائل الاعتقاد ، من أهل الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر والعمل الصالح ، لم يكن أسوأ حالا من هذا الرجل ، فيغفر[2] الله خطأه ، أو يعذّبه إن كان/ منه تفريط فى اتّباع الحق على قدر دينه . وأما تكفير شخص علم إيمانه بمجرد الغلط فى ذلك فعظيم . ظ ٣٨

فقد ثبت فى الصحيح عن ثابت بن الضحاك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لعن [المؤمن] كقتله ، ومن رمى مؤمنا بالكفر فهو كقتله »[3] .

وثبت فى الصحيح أن من قال لأخيه يا كافر ، فقد باء به أحدهما[4] . وإذا[5] كان تكفير المعيّن على سبيل الشتم كقتله ، فكيف

(١) فى الأصل : يكفر من بخلافه من قامت ، ويوجد شطب على «من» الأولى . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : فغفر .

(٣) فى الأصل : قال لعن كقتله ، وما أثبته هو لفظ الحديث فى البخارى ١٣٣/٨ . والحديث عن ثابت بن الضحاك رضى الله فى : البخارى فى موضعين : الأول ١٣٣/٨ (كتاب الأيمان ، باب من حلف بملة سوى الإسلام) ونصه : من حلف بغير ملة الإسلام فهو كما قال . قال : ومن قتل نفسه بشئ عُذّب به فى نار جهنم . ولعن المؤمن كقتله ومن رمى مؤمنا بكفر فهو كقتله» . والثانى ١٥/٨ (كتاب الأدب ، باب ماينهى من السباب واللعن) مع اختلاف فى الألفاظ . وجاء الحديث أيضا فى : سنن الترمذى ١٣٢/٤ (كتاب الإيمان ، باب من رمى أخاه بكفر) ؛ المسند (ط.الحلبى) ٣٤/٤.

(٤) الحديث عن أبى هريرة وابن عمر رضى الله عنه فى موضعين : البخارى ٢٦/٨ (كتاب الأدب ، باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال) وأوله–وهى رواية أبى هريرة – إذا قال الرجل لأخيه ياكافر... الحديث ؛ مسلم ٧٩/١ فى موضعين (كتاب الإيمان ، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم : ياكافر) ؛ سنن الترمذى ١٣٢/٤ (كتاب الايمان ، باب فى من رمى أخاه بكفر) ؛ الموطأ ٩٨٤/٢ (كتاب الكلام ، باب مايكره من الكلام) ؛ المسند (ط.المعارف) ٣١٤/٦ ، ١١٥/٧ ؛ ومواضع أخرى .

(٥) فى الأصل : وإذ .

يكون تكفيره على سبيل الاعتقاد ؟ فإن ذلك أعظم من قتله ، إذْ كل كافر يُباح قتله ، وليس كل من أبيح قتله يكون كافرا ، فقد يُقتل الداعى إلى بدعة لإضلاله الناس وإفساده ، مع إمكان أن الله يغفر له فى الآخرة لما معه من الإيمان ، فإنه قد تواترات النصوص بأنه يخرج من النار مَنْ فى قلبه مثقال ذرة من إيمان .

وقد رواه مسلم فى صحيحه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : بينا جبريل قاعدا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ سمع نقيضا من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا بابٌ من السماء فُتح اليوم ، لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى[1] الأرض لم ينزل قط إلا اليوم ، فسلَّم وقال : أبشر بنورين أوتيتَهما لم يؤتَهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما[2] إلا أعطيته[3]

وفى صحيح مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾[سورة البقرة : ٢٨٤] دخل فى قلوبهم منها [شئ][4] لم يدخل قلوبهم من شئ ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « قولوا سمعنا وأطعنا » قال : فألقى الله الإيمان فى قلوبهم ، فأنزل الله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ

(١) فى الأصل : من ، وهو خطأ . والمثبت هو لفظ الحديث فى مسلم .

(٢) فى الاصل : منها . والمثبت هو لفظ الحديث فى مسلم .

(٣) الحديث بهذه الألفاظ عن ابن عباس رضى الله عنهما فى : مسلم ٥٥٤/١ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ..)

(٤) شئ : ساقطة من الأصل . وأثبتها من نص الحديث فى مسلم ١١٦/١.

وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾[سورة البقرة : ٢٨٦] قال : قد فعلت[1] .

وكلام المشايخ فى مسألة العلو كثير ، مثل ما ذكر محمد بن طاهر المقدسى الحافظ الصوفى المشهور الذى صنَّف للصوفية كتاب «صفة التصوف» و« مسألة السماع» وغير ذلك[2] ، ذكر عن الشيخ الجليل أبى جعفر الهمدانى أنه حضر مجلس أبى المعالى الجوينى وهو يقول : كان الله ولا عرش ، وهو على ما عليه كان ، أو كلاما من هذا المعنى ، فقال : ياشيخ ، دعنا من ذكر العرش ، أخبرنا عن هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا فإنه ما قال عارف قطُّ : يا الله ، إلاّ وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو ، ولا يلتفت يَمنة ولا يَسْرة ، فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا ؟ قال : فصرخ أبو/ المعالى ولطم على رأسه وقال : حيَّرنى الهمدانى حيرنى الهمدانى . ص ٣٩

---

(١) هذا جزء من لفظ الحديث فى مسلم ١١٦/١ (كتاب الإيمان ، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق) . وجاء الحديث مع اختلاف فى الألفاظ عن ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهم فى : مسلم ١١٥/١ - ١١٦ كتاب الإيمان ، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلاّ ما يطاق) ؛ المسند (ط . المعارف) ٣٤١/٣ - ٣٤٢ (رقم ٢٠٧٠) ، ٣٠/٥ - ٣١ (رقم ٣٠٧١) . وانظر الحديث برواياته المتعددة فى تفسير الطبرى (ط . المعارف) ١٤٢/٦ - ١٤٥ . وانظر أيضا ١٠٤/٦ - ١٠٥ .

(٢) أبو الفضل محمد بن طاهر بن على بن أحمد المقدسى الشيبانى ، من حفاظ الحديث ، كان داوودى المذهب . ولد سنة ٤٤٨ وتوفى سنة ٥٠٧ . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ١١٥/٣-١١٦ ؛ ميزان الاعتدال ٥٨٧/٣ ؛ لسان الميزان ٢٠٧/٥-٢١٠ ؛ الأعلام ٤١/٧ . وقد طبع كتابه بعنوان «صفوة التصوف» بشرح وتعليق الشيخ أحمد الشرباصى ، ط.مطبعة دار التأليف ، القاهرة ١٣٧٠/١٩٥٠ : وذكر عنه ابن حجر فى « لسان الميزان » ٢٠٧/٥ - ٢٠٨ : ليس بالقوى فإن له أوهام كثيرة فى تواليفه . . . وله انحراف عن السنة إلى تصوف غير مرضى وهو فى نفسه صدوق لم يتهم وله حفظ ورحلة واسعة . . »

وقال الإمام العارف مُعَمَّر بن أحمد الأصبهانى – شيخ الصوفية فى أواخر المائة الرابعة قبل القشيرى – فى رسالة له [١] : «أحببت أن أوصى أصحابى بوصية من السنة ، وموعظة من الحكمة ، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر [٢] ، وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين»قال فيها : «وإن الله استوى على عرشه بلا كيف ، ولاتشبيه ، ولاتأويل . والاستواء معقول ، والكيف فيه مجهول ، وأنه عز وجل [مستوٍ على عرشه] ، [٣] بائن من خلقه ، والخلق بائنون منه ، بلا حلول ، ولاممازجة ، ولااختلاط ، ولا ملاصقة ، لأنه الفرد البائن من الخلق ، الواحد ، الغنىّ عن الخلق ، وأن الله سميع بصير ، عليم خبير ، يتكلم ، ويرضى ويسخط [٤] ، ويضحك ويعجب ، ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكا ، وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء ، فيقول : هل من داع فأستجيب له ؟ [هل من مستغفر فأغفر له] ؟ [٥] هل من تائب فأتوب عليه ؟ حتى يطلع الفجر . ونزول [٦] الرب إلى

(١) سبقت ترجمة معمر بن أحمد الأصبهانى ، ص ٨٣ وذكر ابن تيمية هذه الوصية فى الفتوى الحموية (مجموع فتاوى الرياض ٦١/٥)كما أوردها فى « درء تعارض العقل والنقل » (بتحقيق) ٢٥٦/٦ – ٢٥٧ .

(٢) فى الفتوى الحموية ... والأثر بلا كيف (وكذا جاءت فى طبعة الشيخ محمد حامد الفقى فى مجموعة مع الرسالة التدمرية وألفية العراق ، ص١٢٣) . وهذه الزيادة مقحمة على الأرجح ، وليس هذا مكانها ، وستأتى بعد قليل .

(٣) عبارة «مستو على عرشه» : ساقطة من الأصل ، وهى فى «درء تعارض العقل والنقل»وفى «الفتوى الحموية الكبرى» .

(٤) فى الأصل : ويسخطك ، وهو تحريف .

(٥) العبارة بين المعقوفتين ساقطة من الأصل وهى فى «درء» و«الحموية»

(٦) درء ، الحموية : قال · ونزول

السماء بلا كيف ، ولاتشبيه ، ولا تأويل ، فمن أنكر النزول أو تأوّل [١] فهو مبتدع ضال».

ثم ذكر كلامهم فى القدر [٢] . **قال أبو القاسم** [٣] : «سمعت محمد ابن الحسين السلمى يقول [٤] : سمعت أبا عثمان المغربى يقول ، وقد سئل عن الخلق ، فقال : قوالب وأشباح [٥] تجرى عليهم أحكام القدرة».

قال [٦] : «وقال الواسطى : لما كانت الأرواح والأجساد قامتا بالله وظهرتا به لابذواتها ، كذلك قامت الخطرات والحركات بالله لابذواتها ، إذ [٧] الخطرات والحركات [٨] فروع الأجساد والأرواح».

قال أبو القاسم [٩] : «صرَّح بهذا الكلام أن أكساب العباد مخلوقة لله [١٠] ، وكما أنه لا خالق للجواهر إلا الله [١١] ، فكذلك لاخالق للأعراض إلا الله [١١] » .

وهذا الذى قاله صحيح ، وهو متفق عليه بين المشايخ ، لايُعرف منهم من أنكر شيئا من أصول السنة فى مسائل القدر .

---

(١) درء ، الحموية : وتأوَّل .

(٢) فى الأصل : ثم ذكر فى كلامهم القدر . وهو تحريف والمقصود هنا هو القشيرى .

(٣) فى «القشيرية»١/٣٤-٣٥.

(٤) القشيرية : .. السلمى رحمه الله يقول .

(٥) فى الأصل : قوالب أشباح . والمثبت من «القشيرية».

(٦) بعد الكلام السابق مباشرة .

(٧) فى الأصل : إذا . والمثبت من «القشيرية».

(٨) القشيرية : إذ الحركات والخطرات .

(٩) بعد الكلام السابق مباشرة ١/٣٤-٣٥ .

(١٠) القشيرية ١/٣٥ : لله تعالى .

(١١) القشيرية : إلا الله تعالى .

وقال[(١)] : «سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السامى [(٢)] يقول : سمعت محمد بن عبد الله [(٣)] ، سمعت أبا جعفر الصيدلانى [(٤)] ، سمعت أبا سعيد الخراز[(٥)] يقول : مَنْ ظن أنه ببذل الجهد يصل فَمُتَعَنٍّ [(٦)] ، ومن ظن أنه بغير الجهد يصل فمُتَمَنٍّ[(٧)] » .

وهذا كلام حسن ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : «احرصْ على ما ينفعك ، واستعِن بالله ولاتعجز ، وإنْ أصابك شئ فلا تقل لو أنى فعلت كذا وكذا ، ولكن قل ماقَدَّرَ اللهُ وما شاء فَعَل ، فإن اللَّوَّ/ تفتح عمل الشيطان» [(٨)] ظ٣٩

وقال : «لن يُدخِل أحداً عملُه الجنةَ ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلاَّ أن يتغمَّدَنى الله بفضله ورحمته [(٩)] » .

---

(١) فى«القشيرية» بعد الكلام السابق مباشرة ٣٥/١ .

(٢) القشيرية : السلمى رحمه الله ..

(٣) القشيرية :.. عبد الله يقول .

(٤) القشيرية :.. الصيدلانى يقول .

(٥) أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز ، من مشايخ الصوفية ببغداد توفى سنة ٢٧٧ (وقيل ٢٧٩ وقيل ٢٨٦) . انظر ترجمته وأقواله فى : القشيرية ١٢٩/١ ؛ طبقات الصوفية ، ص٢٢٨-٢٣٢ ؛ حلية الأولياء ٢٤٦/١٠-٢٤٩ ؛ صفة الصفوة ٢٤٥/٢-٢٤٧ ؛ المنتظم ١٠٥/٥ ؛ شذرات الذهب ١٩٢/٢-١٩٣ .

(٦) فى الأصل : فتغن . والمثبت من «القشيرية» .

(٧) فى الأصل : الكلمة ناقصة وأثبتها من «القشيرية» .

(٨) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى مسلم ٢٠٥٢/٤ (كتاب القدر ، باب فى الأمر بالقوة وترك العجز ..) وأوله : المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ...؛ سنن ابن ماجة ٢٣١/١ (المقدمة ، باب فى القدر)؛ المسند (ط. الحلبى) ٣٦٦/٢-٣٧٠ .

(٩) الحديث عن أبى هريرة وعائشة رضى الله عنهما فى البخارى ١٢١/٧ (كتاب المرضى ، باب تمنى المريض الموت) وأوله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لن يدخل ... الحديث ، =

ثم قال[١] : «وقال الواسطى : [المقامات][٢] أقسام قُسِّمْت ، ونعوت أُجريتْ ، كيف تُستجلَب بحركات أو تُنال بسَعَايات ؟».

وهذا الكلام ظاهره ليس بجيد ، بل هو مردود . وهذه المسألة بعينها سُئل عنها النبى صلى الله عليه وسلم ، كما ثبت عنه فى الأحاديث الصحاح من حديث عمران بن حُصَيْن وعلى بن أبى طالب وغيرهما لما أخبر بالقدر فقالوا : ألا نَدَعُ العمل ونتَّكِلُ على الكتاب ؟ فقال : «لا ، اعملوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِماَ خُلق له[٣] ».

وفى[٤] الصحيحين عن علىّ بن أبى طالب قال : كنا فى جنازة [فى] بقيع الغرقد[٥] ، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة ، فنكَّس وجعل ينكت بمخصرته[٦] ، ثم قال : «ما منكم من أحد إلاَّ وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة».

= ٩٨/٨ مع اختلاف فى بعض الألفاظ (كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل) ؛ مسلم ٢١٦٩/٤-٢١٧١ فى أربعة مواضع (كتاب المنافقين ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى) ؛ سنن ابن ماجة ١٤٠٥/٢ (كتاب الزهد ، باب التوقى على العمل) ؛ سنن الدارمى ٣٠٥/٢-٣٠٦ (كتاب الرقاق ، باب لاينجى أحدكم عمله) ؛ المسند (ط. المعارف) ١٩٢/١٢ .

(١) أى القشيرى فى «القشيرية» ٣٥/١ .

(٢) كلمة «المقامات» : ساقطة من الأصل ، وأثبتها من «القشيرية».

(٣) الحديث عن عمران بن حصين وعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما فى : البخارى ١٢٢/٨ (كتاب القدر ، باب جف القلم على علم الله) ؛ مسلم ٢٠٤٠/٤ (كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمى فى بطن أمه ...) ؛ سنن أبى داود ٣٠٧/٤-٣٠٨ (كتاب السنة ؛ باب فى القدر) ؛ سنن الترمذى ٣٠١/٣-٣٠٢ (كتاب القدر ، باب ماجاء فى الشقاء والسعادة) ؛ سنن ابن ماجة ٣٠/١-٣١ (المقدمة ، باب فى القدر) ؛ المسند (ط. المعارف) ١٦٤/١ . وانظر (ت٦) .

(٤) فى الأصل : ففى .

(٥) فى الأصل : فى جنازة ببيع الغرقد . والتصويب من البخارى ٩٦/٢

(٦) فى الأصل : بخصرته . والتصويب من البخارى ٩٦/٢ .

فقالوا : يارسول الله : [أفلا][(١)] نتكل على كتابنا ؟ فقال : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له ؛ أما مَنْ كان مِنْ أهل السعادة فسيصير لعمل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فسيصير لعمل الشقاء». ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى وصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى .. ﴾ الآية [سورة الليل : ٦][(٢)] .

وفى الصحيح عن عمران بن حصين قال : قال رجل : يارسول الله : أيُعرف[(٣)] أهل الجنة من أهل النار؟ قال : نعم ، قال : فَلِمَ يعمل العاملون ؟ قال : كلٌّ يعمل لما خلق له ، أو لما يسر له[(٤)]. وفى رواية : كل ميسر لما خلق له .

وفى صحيح [مسلم][(٥)] من حديث أبى الأسود الدئلى قال : قال لى عمران بن حُصَيْن : أرأيت مايعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، أشئ

(١) أفلا : زيادة من البخارى ٩٦/٢ .

(٢) هذا الحديث مروى مع اختلاف فى الألفاظ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى أكثر كتب السنة وفى عدة مواضع . انظر مثلا فى : البخارى ٩٦/٢ (كتاب الجنائز ، باب موعظة المحدث عند القبر) ؛ ١٧٠/٦-١٧١ (كتاب التفسير ، باب سورة والليل إذا يغشى) ، ١٢٣/٨-١٢٤ (كتاب القدر ، باب وكان أمر الله قدرا مقدورا) ؛ مسلم ٢٠٣٩/٤-٢٠٤٠ (كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمى فى بطن أمه ...) ؛ سنن أبى داود ٣٠٧/٤-٣٠٨ (كتاب السنة ، باب فى القدر) وجاء الحديث فى سنن الترمذى وسنن ابن ماجة فى الموضعين المذكورين فى (ت٣ فى الصفحة السابقة) والحديث فى المسند (ط . المعارف) فى مواضع كثيرة . انظر الأرقام : ٦٢١ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١١١٠ ، ١١٨١ ، ١٣٤٨ .

(٣) فى الأصل : أتعرف . والمثبت هو لفظ الحديث فى البخارى .

(٤) الحديث بهذه الألفاظ عن عمران بن حصين رضى الله عنه فى : البخارى ١٢٢/٨ (كتاب القدر . باب جف القلم على علم الله).

(٥) مسلم : ساقطة من الأصل .

قُضِيَ عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق [(١)] ، أو فيما يستقبلون مما [(٢)] أتاهم به نبيهم [(٣)] وثبتت الحجة عليهم ؟، فقلت : بل شئ قضى عليهم [ومضى عليهم] [(٤)] ، قال [فقال] [(٥)] : أفلا يكون ظلما ؟ قال : ففزعت من ذلك فزعا شديدا . وقلت : كل شئ خلقُ الله ، وملكُ يده ، فلا يُسأَلُ عمَّا يفعل وهم يُسألون . فقال لى : يرحمك الله إنى لم أُرِدْ بما سألتك إلا لِأَحْزُرَ عقلك . إن رجلين من مُزَيْنَةَ أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يارسول الله ، أرأيت مايعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، أشئ قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون منه [(٦)] مما أتاهم به [نبيهم] [(٧)] وثبتت الحجة عليهم ؟ قال [(٨)] : لا بل شئ قُضِيَ عليهم ومضى فيهم . وتصديق ذلك/ فى كتاب الله [(٩)] : ص ٤٠ ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [سورة الشمس :٦-٧] [(١٠)].

وفى السنن حديث عمر أنه سُئل عن تفسير هذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ

(١) فى صحيح مسلم : من قدر ما سبق .
(٢) فى صحيح مسلم : يستقبلون به مما ..
(٣) فى الأصل : ميهم ، وهو تحريف . والمثبت من صحيح مسلم .
(٤) ومضى عليهم : ساقطة من الأصل ، وأثبتها من صحيح مسلم .
(٥) فقال : أثبتها من صحيح مسلم .
(٦) فى صحيح مسلم : به .
(٧) نبيهم : ساقطة من الأصل ، وأثبتها من صحيح مسلم .
(٨) فى صحيح مسلم : فقال .
(٩) فى صحيح مسلم : ..الله عز وجل .
(١٠) الحديث بهذه الألفاظ فى : صحيح مسلم ٤/٢٠٤١-٢٠٤٢ (كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمى فى بطن أمه ...الخ) .

رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [سورة الأعراف :١٧٢] ، قال عمر رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، فقال:[خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، فقال] :[1] خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون ، فقال رجل : ففيم[2] العمل يارسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله إذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال النار ، فيدخل به النار ، وإذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال الجنة ، فيدخله به الجنة»[3] .

وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : جاء سراقة بن مالك بن جُعْشُم فقال : يارسول الله ، بيِّن لنا ديننا كأنَّا خلقنا الآن ، فيم[4] العمل اليوم؟ أفيما[5] جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، أم فيما

(١) مابين المعقوفتين ساقط من الأصل وأثبته من سنن أبي داود ٣١٣/٤ .

(٢) فى الأصل : ففيهم ، وهو تحريف .

(٣) الحديث مع اختلاف فى اللفظ عن عمر رضى الله عنه فى : سنن أبي داود ٣١٢/٤-٣١٣ (كتاب السنة ، باب فى القدر) ؛ الموطأ ٨٩٨/٢-٨٩٩ (كتاب القدر ، باب النهى عن القول بالقدر) ؛ سنن الترمذى ٣٣١/٤ (كتاب التفسير ، تفسير سورة الأعراف) . وقال الترمذى : «هذا حديث حسن ، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر . وقد ذكر بعضهم فى هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلا» . روى الحاكم الحديث فى مستدركه ٢٧/١ وقال : «هذا حديث صحيح على شرطها ولم يخرجاه» .

(٤) فى صحيح مسلم : فيما .

(٥) فى الأصل : فيما والمثبت من «صحيح مسلم» .

يُستقبل[(١)] ؟ قال : [لا][(٢)] بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير . قال : ففيم العمل ؟ فقال : اعملوا فكل ميسر وفى لفظ ، كل عامل ميسر لعمله[(٣)] » .

وفى السنن عن [ابن] أبى خِزَامَةَ عن أبيه[(٤)] قال : قلت : يارسول الله أرأيت رُقىً نسترقيها[(٥)] ، ودواء نتداوى به وتقاةً نتقيها[(٦)] هل تَرُدُّ من قدر الله شيئا ؟ قال : هى من قدر الله[(٧)] ».

فهذه السنن وغيرها تبين أن الله سبحانه ، وإن كان قد تقدم علمه وكتابه وكلامه بما سيكون من السعادة والشقاوة ، فما قدَّره أن يكون ذلك بالأسباب التى قدَّرها ، فالسعادة بالأعمال الصالحة ، والشقاوة بالفجور . وكذلك الشفاء الذى يقدّره للمريض يقدّره بالأدوية والرقى ، وكذلك سائر مايقدِّر من أمر الدنيا والآخرة .

فقول القائل : كيف تستجلب الأقسام بالحركات ؟

---

(١) فى صحيح مسلم : نستقبل .

(٢) لا : ساقطة من الأصل . وأثبتها من صحيح مسلم

(٣) الحديث بهذه الألفاظ عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى : مسلم ٤/٢٠٤٠-٢٠٤١ (كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمى فى بطن أمه ...)

(٤) فى الأصل : عن أبى حرابة عن أبيه . والتصويب من سنن أبى داود وسنن ابن ماجة

(٥) فى الأصل : يسترقيها ، وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : يتقيها ، وهو تحريف .

(٧) الحديث مع اختلاف فى الألفاظ عن ابن أبى خزامة عن أبيه فى : سنن الترمذى ٣/٢٧٠ (كتاب الطب ، باب ما جاء فى الرقى والأدوية) . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح ، ٣/٣٠٨ (كتاب القدر ، باب ما جاء لاترد الرقى ولا الدواء من قدر الله شيئا) وانظر تعليق الترمذى ؛ سنن ابن ماجة ٢/١١٣٧ (كتاب الطب ، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٣/٤٢١ .

ظ ٤٠ جوابه : أن الأقسام تناولت الحركات كما تناولت السعادات/ ، والله تعالى قدَّر أن يكون هذا بهذا . فإذا ترك العبد العمل ظاناً أن السعادة تحصل له ، كان هذا الترك سبباً لكونه من أهل الشقاوة .

وهنا ضل فريقان : فريق كذَّبوا بالقضاء والقدر ، وصدَّقوا بالأمر والنهى . وفريق آمنوا بالقضاء والقدر ، لكن قصَّروا فى الأمر والنهى . وهؤلاء شر من الأوَّلين ، فإن هؤلاء من جنس المشركين الذين قالوا : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [سورة الأنعام :١٤٨] ، وأولئك من جنس المجوس .

لكن إذا عُنِيَ بهذا الكلام أن العبد لا يتكل على عمله ولايظن[١] أنه ينجو[٢] بسعيه ، فهذا معنى صحيح . فالأسباب التى من العباد ، بل ومن غيرهم ، ليست موجبات لا لأمر الدنيا ، ولا لأمر الآخرة ، بل قد يكون لابد منها ومن أمور أخرى من فضل الله ورحمته خارجة عن قدرة العبد ، وما ثمَّ موجب إلا مشيئة الله ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وكل ذلك قد بيَّنه النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو معروف عند من نَوَّر الله بصيرته .

وأما التفريق بين المقدور عليه والمعجوز عنه ، ففى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كلٍّ خير . احرص على ما

---

(١) فى الأصل : لايظن .ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام

(٢) فى الأصل : ينجوا .

ينفعك ، واستعن بالله ، ولاتعجز ، وإن أصابك شئ فلا تقل : لو أنى فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل ، فإن اللَّو تفتح عمل الشيطان»[١] .

وفى سنن أبى داود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه اختصم إليه رجلان ، فقضى على أحدهما ، فقال المقضى عليه : حسبى الله ونعم الوكيل . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكَيْس ، فإذا أحزنك أمر فقل حسبى الله ونعم الوكيل»[٢] .

قال أبو القاسم [٣] : « وسئل الواسطى عن الكفر بالله أولله . فقال : الكفر والإيمان ، والدنيا والآخرة من الله [وإلى الله] [٤] وبالله ولله/من الله ابتداء وإنشاء ، وإلى الله مرجعاً وانتهاءً [٥] ، وبالله بقاء وفناء ، ولله ملكا وخلقا » . ص ٤١

قال[٦] : «وقال الجنيد : سئل بعض العلماء عن التوحيد .

(١) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : صحيح مسلم ٢٠٥٢/٤(كتاب القدر ، باب فى الأمر بالقوة وترك العجز ...) ؛ سنن ابن ماجة ٣١/١ (المقدمة ، باب فى القدر) ، ١٣٩٥/٢ (كتاب الزهد ، باب التوكل واليقين) .

(٢) الحديث عن عوف بن مالك رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٤٢٦/٣ (كتاب الأقضية ، باب الرجل يحلف على حقه) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٢٤/٦-٢٥ .

(٣) فى «القشيرية» بعد كلام القشيرى السابق مباشرة ٣٦/١ .

(٤) عبارة «وإلى الله» : ساقطة من الأصل . وأثبتها من «القشيرية» .

(٥) القشيرية : ومنتهى .

(٦) بعد الكلام السابق مباشرة .

فقال : هو [اليقين] .[١] فقال السائل : بيِّن لى ما هو؟ فقال : هو معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم فعلُ الله[٢] وحده لا شريك له ، فإذا فعلت ذلك فقد وحَّدته[٣] » .

وقال[٤] : «سمعت محمد بن الحُسَيْن[٥] يقول : سمعت عبد الواحد بن على يقول : سمعت القاسم بن القاسم[٦] : سمعت محمد بن موسى الواسطى[٧] سمعت محمد بن الحسين الجوهرى[٨] سمعت ذا النون المصرى يقول ، وجاءه[٩] رجل فقال : ادع الله لى . فقال : إن كنت أُيِّدت[١٠] فى علم الغيب بصدق التوحيد فكم من دعوة مجابة قد سبقت لك ، وإلا فإن النداء لاينفع[١١] الغرقى » .

قال[١٢] : «وقال الواسطى : ادَّعى فرعون الربوبية على الكشف ، وادعت المعتزلة على السر[١٣] ، تقول[١٤] : ما شئت

(١) اليقين : ساقطة من الأصل . وأثبتها من «القشيرية» .
(٢) القشيرية : الله عز وجل .
(٣) فى الأصل : وجدته . والمثبت من «القشيرية» .
(٤) بعد الكلام السابق مباشرة ١/٣٦ - ٣٧ .
(٥) القشيرية : ... الحسين رحمه الله .
(٦) القشيرية : ... بن القاسم يقول .
(٧) القشيرية : ..الواسطى يقول .
(٨) القشيرية : ..الجوهرى يقول ..
(٩) القشيرية : وقد جاءه ..
(١٠) القشيرية : قد أيدت .
(١١) القشيرية : لاينقذ .
(١٢) بعد الكلام السابق مباشرة .
(١٣) القشيرية : الستر .
(١٤) فى الأصل : فقال . والمثبت من «القشيرية» .

فعلت . وقال أبو الحسين النورى : [التوحيد][1] كل خاطر يشير إلى الله بعد أن لا تزاحمه خواطر التشبيه».

قلت : كلام الواسطى والجنيد المذكور هنا هو توحيد الربوبيه ، وأن الله رب كل شئ ومليكه وخالقه ، وفيه الرد على القدرية الذين يجعلون أفعال العباد خارجة عن قدرته وخلقه وملكه ، وكذلك جعل فيهم الواسطى شبها من فرعون ، فإن فرعون كشف كفره ، وقال : ﴿ أَنَاَ رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، فادّعى الربوبية علانية . والقدرية تدعى أنها رب الأفعال وما يتولد عنها ، فقد ادّعت ربوبيته لكن فى السر ، وهى ربوبية أفعال الأعيان .

لكن مقصود أهل التحقيق ، كالجنيد ونحوه ، أن يكون هذا التوحيد للعبد خلقا ومقاما ، بحيث يعطيه ذلك كمال توكله على الله تعالى ، وتفويضه إليه ، والصبر لحكمه والرضا بقضائه ، ما لم يخرجه ذلك إلى إسقاط الأمر والنهى والثواب والعقاب ، والوعد والوعيد ، كما يقع فى/ بعض ذلك طائفة من المتصوفة . ظ ٤١

وأما قول ذى النون : «إن كنت أيدت فى علم الغيب بصدق التوحيد»- فلا يراد به مجرد الإقرار بالربوبية العامة ، فإن المشركين كانوا يوحّدون هذا التوحيد ، كما قال تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[سورة الزمر : ٣٨] ، وقال تعالى ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١٠٦] .

(١) التوحيد : ساقطة من الأصل ، وأثبتها من القشيرية ٣٧/١ .

قالوا : إيمانهم هو إيمانهم بأنه خالق كل شئ ، وشركهم أن عبدوا معه إلـهًا آخر .

وإنما أراد تحقيق توحيد الربوبية وتوحيد الإلـهية ، وهو أن يُعبد الله وحده لا يُشرَك به شيئا ، فهذا التوحيد الذى جاءت به الرسل : هو يسعد صاحبه ، ويدخل الجنة لامحالة له[١] من دعوة مجابة ، ومن فاته هذا التوحيد فإن الله لايغفر أن يُشرك به ، فلا ينفعه الدعاء .

وهذا هو التوحيد المذكور فى قول المراغى[٢] : «صفاء العبادات لايُنال إلا بصفاء التوحيد».

وأما قول النورى : «التوحيد كل خاطر يشير إلى الله»– فهو يَعُمُّ ذلك. يقول : كل توجّه إلى الله وحده بقول أو عمل فهو توحيد إذا لم يكن فيه تشبيه الخالق بالمخلوق ، أو المخلوق بالخالق ، كما فى قول الجهمية والممثِّلة والقدرية ونحوهم . وقد تقدم ما ذكره المشايخ من نفى التشبيه والتعطيل .

وكذلك **ما ذكره عن**[٣] : «الشيخ أبى عبد الرحمن : سمعت عبد الواحد بن بكر[٤] ، سمعت هلال بن أحمد يقول : سئل أبو على الروذبارى[٥] عن التوحيد فقال : استقامة القلب بإثبات مفارقة

---

(١) فى الأصل توجد واو فوق «له» .

(٢) فى الأصل : المراعى.

(٣) الكلام التالى فى «القشيرية» ٣٧/١ وفيها : «وأخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى رحمه الله تعالى قال : سمعت .

(٤) القشيرية : .. بن بكر يقول .

(٥) أبو على أحمد بن محمد القاسم بن منصور الروذبارى ، من أهل بغداد ، سكن مصر ، وصار =

التعطيل ، وإنكار التشبيه ، والتوحيد فى كلمة واحدة : كل ما صوَّرته الأفهام[١] والأفكار ، فإن الله سبحانه بخلافه[٢] : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [سورة الشورى : ١١]».

قال[٣] : « وقال أبو القاسم النصراباذى : الجنة باقية بإبقائه ، وذكره لك ومحبته لك باقٍ ببقائه . فشتَّان بين ما هو باق ببقائه ، وبين ما هو باق بإبقائه» .

قال/القشيرى[٤] : « وهذا الذى قاله الشيخ النصراباذى غاية التحقيق[٥] ، فإن أهل [الحق][٦] قالوا : صفات ذات القديم [سبحانه][٧] باقيات ببقائه تعالى ، فنبَّه على هذه المسألة ، ونبَّه على أن الباقى[٨] باقٍ ببقائه[٩] خلاف[١٠] ما قاله مخالفو الحق[١١] » . ص ٤٢

= شيخها ، مات بها سنة ٣٢٢ وقيل ٣٢٣ ، كان الجنيد أستاذه فى التصوف ، انظر أقواله وترجمته فى : طبقات الصوفية ، ص ٣٥٤ - ٣٦٠ ؛ القشيرية ١/١٥١ - ١٥٢ ؛ صفة الصفوة ٢/٢٥٦ -٢٥٧ ؛ حلية الأولياء ١٠/٣٥٦ - ٣٥٧ ، شذرات الذهب ٢/٢٩٦ - ٢٩٧ ؛ المنتظم ٦/٢٧٢ - ٢٧٣ (وأسماه : محمد بن أحمد) .

(١) القشيرية : كل ماصوّره الأوهام .

(٢) القشيرية : الله سبحانه بخلافه لقوله تعالى .

(٣) بعد الكلام السابق مباشرة .

(٤) بعد الكلام السابق مباشرة ، ١/٣٧-٣٨ .

(٥) القشيرية : الشيخ أبو القاسم النصراباذى هو غاية فى التحقيق .

(٦) الحق : ساقطة من الأصل ، وأثبتها من «القشيرية».

(٧) فى الأصل : ذات التقديم ، وهو تحريف . والمثبت من «القشيرية» .

(٨) القشيرية ١/٣٨ : وبيّن أن الباقىَ..

(٩) فى الأصل : ببقا . والمثبت من «القشيرية».

(١٠) القشيرية : بخلاف .

(١١) القشيرية : أهل الحق .

قلت : النصراباذى مقصوده[(١)] التفريق بين من طلب النعيم بالمخلوق ، وطلب النعيم لِحَظِّه من الخالق ، فقال : ما فى المخلوق باق بإبقائه ، وأما محبته لك وذكره لك فباق ببقائه . وليس مقصوده أن البقاء الذى يوصف به الرب هو صفة زائدة على الذات . بما[(٢)] ليس بصفة ، كما ينازع فيه أهل الكلام ، مثل متكلمة أهل الإثبات وغيرهم . بل القاضى أبو بكر الذى يعظّمه القشيرى ، ويقول : هو أوحد وقته ، كان يقول : ليس الباقى باقيا ببقاءٍ .

والنزاع فى هذه المسألة إذا حُقِّق لم يرجع إلى معنًى محصّل يستوجب النزاع .

ثم قال أبو القاسم[(٣)] : «حدثنا محمد بن الحسين[(٤)] سمعت النصراباذى يقول : أنت متردد بين صفات الفعل وصفات[(٥)] الذات ، وكلاهما صفته [تعالى][(٦)] على الحقيقة ، فإذا هيَّمك فى مقام التفرقة قَرَّبك[(٧)] بصفات فعله ، وإذا[(٨)] بلَّغك إلى مقام الجمع قَرَّبك[(٩)] بصفات ذاته».

---

(١) فى الأصل : مقصود .

(٢) فى الأصل : بم .

(٣) بعد كلامه السابق مباشرة فى «القشيرية» ٣٨/١ .

(٤) القشيرية : أخبرنا محمد بن الحسين قال ..

(٥) فى الأصل : وبين صفات . والمثبت من «القشيرية».

(٦) تعالى : ساقطة من الأصل وأثبتها من «القشيرية».

(٧) فى «القشيرية» : قرنك . والكلمة فى الأصل فى هذا الموضع مهملة ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته ، وستتكرر بعد قليل معجمة .

(٨) فى الأصل : فإذا . والمثبت من «القشيرية» .

(٩) القشيرية : قرنك .

قال[١] : « وأبو القاسم النصراباذى [كان][٢] شيخ وقته » .

قلت هذا الكلام من النصراباذى يقتضى أنه موصوف بصفات فعله[٣] على الحقيقة ، مثل الخلق والرزق ، كما أنه موصوف بصفات الذات على الحقيقة ، كالعلم والقدرة . وهذا هو الذى ذكره أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذى عن مذهب الصوفية فى كتاب «التعرف» ، وهو قول جمهور الفقهاء وأهل الحديث وطوائف من أهل الكلام ، وليس هو قول الأشعرية[٤] الذين سلك سبيلهم أبو القاسم القشيرى .

قال : «الخلق والرزق عندهم عين المخلوق ، ولايستحق أن يسمى بالخالق الباعث الوارث إلا بعد وجود هذه المفعولات»[٥] ./ والنزاع فى أن الفعل هل هو صفة لله ؟ وهل يوصف بالأسماء الفعلية فى الأزل ؟ وقد بسطنا الكلام فى هاتين المسألتين فى موضعه . ظ ٤٢

وقال[٦] : «سمعت الإمام أبا إسحاق الإسفراييني[٧] يقول : لما قدمت من بغداد كنت أدرّس فى جامع نيسابور فى[٨] مسألة الروح ، وأشرح القول أنها مخلوقة[٩] ، وكان أبو القاسم النصراباذى قاعداً

(١) بعد الكلام السابق مباشرة .
(٢) كان : ساقطة من الأصل ، وأثبتها من «القشيرية» .
(٣) فى الأصل : علمه ، وهو خطأ .
(٤) فى الأصل : الأشعرى .
(٥) بحثت عن هذه العبارات فى كتاب «التعرف» للكلاباذى ، فلم أجدها .
(٦) بعد الكلام السابق مباشرة فى «القشيرية» ٣٨/١ .
(٧) القشيرية : الإسفراييني رحمه الله .
(٨) فى : غير موجودة فى القشيرية .
(٩) القشيرية : القول فى أنها مخلوقة .

متباعداً عنا ، يصغى إلى كلامى ، فاجتاز بنا بعد ذلك بأيام[(١)] قلائل ، فقال لمحمد الفرّاء[(٢)] : أشهد أنى أسلمت [جديدا][(٣)] على يد هذا الرجل ، وأشار إلىّ» .

قلت: لعله كان عنده بعض شبهة أو رأى فاسد فى خلقها ، كما يعرض مثل ذلك لبعض الناس .

وقال[(٤)] : «سمعت محمد بن الحسين السلمى [يقول : سمعت أبا حسين الفارسى يقول : سمعت إبراهيم بن فاتك يقول سمعت الجنيد][(٥)] يقول : متى يتصل من لاشبيه له ولانظير[(٦)] بمن له شبيه ونظير ؟! هيهات ، هذا ظن عجيب إلا بما لطف اللطيف من حيث لا دَرْك ، ولا وهم ، ولا إحاطة إلا إشارة اليقين وتحقيق الإيمان» .

قلت : هذا الكلام يقتضى أن العباد إنما عرفوا ربهم بما لطف به من تعرُّفِه إليهم وهدايته إياهم بما أعطاهم ، لا معرفة إدراك وإحاطة . وهذا حسن ، وربما يتضمن نوعاً من الرد على طريقة أهل النظر الذين يجعلونه بمجرده محصِّلا للمعرفة المطلوبة .

وقال[(٧)] : «حدثنا محمد بن الحسين[(٨)] سمعت عبد الواحد بن

---

(١) القشيرية : يوما بأيام .

(٢) فى الأصل : العدا . والتصويب من القشيرية .

(٣) جديداً : ساقطة من الأصل ، وأثبتّها من القشيرية .

(٤) بعد الكلام السابق مباشرة .

(٥) مابين المعقوفتين ساقط من الأصل ، وأثبته من «القشيرية» .

(٦) القشيرية : ولا نظير له .

(٧) بعد الكلام السابق مباشرة ٣٨/١-٣٩ .

(٨) القشيرية : وأخبرنا محمد بن الحسين ، رحمه الله تعالى قال ..

بكر[١] ، حدثنى أحمد بن محمد البردعى[٢] ، حدثنا[٣] طاهر بن إسماعيل الرازى قال : قيل ليحيى بن معاذ : أخبرنى عن الله[٤] ، فقال : إله واحد ، فقال[٥] : كيف هو؟ فقال : ملك[٦] قادر ، فقال[٧] : أين هو؟ فقال : بالمرصاد[٨] . فقال السائل : لم أسألك عن هذا ، فقال : ماكان غيرَ هذا كان صفةَ المخلوق ، فأما صفته فما أخبرتك عنه[٩] ».

قلت : لا تُعلم صحة هذا الكلام عن يحيى بن معاذ ، إذْ فى الإسناد من لانعرفه ، وكلام يحيى بن معاذ[١٠] عندهم دون كلام الكبار من أهل

(١) القشيرية : عبد الواحد بن بكر يقول .

(٢) فى الأصل : الردعى . وجاء النص التالى فى «طبقات الصوفية» ص ١١٢-١١٣ . وضبط الأستاذ نور الدين شريبة الاسم : «البرذعى» . ولكنى وجدت فى تعليقات الأستاذ فؤاد سيد على «العبر» ١١٨/٢ مايلى : «البردعى : بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الدال المهملة وفى آخرها العين المهملة نسبة إلى «بردعة» ، وهى بلدة من أقصى بلاد أذربيجان» وقال الأستاذ نور الدين شريبة فى تعليقه السابق : «أحمد بن محمد بن على بن هارون ، أبو العباس البردعى (فى الأصل : البرذعى) الحافظ ، حدّث بدمشق عن أبى الحسن ، على بن مهروية القزوينى وغيره وروى عنه أبو الحسين بن الميدانى ، ومكى بن محمد وغيرهما . تاريخ دمشق جـ ٣ ص ٣٦٤-٣٦٦».

(٣) القشيرية ٣٩/١ : البرذعى ، قال : قال: حدثنا .

(٤) القشيرية : الله عز وجل .

(٥) القشيرية : فقيل له ..

(٦) القشيرية : مالك . وفى «طبقات الصوفية» ١١٣/١ : ملك .

(٧) القشيرية : فقيل .

(٨) القشيرية : هو بالمرصاد . والمثبت موافق لنص «طبقات الصوفية».

(٩) فى الأصل : فما أخبرت عنه . والمثبت من «القشيرية» وفى طبقات الصوفية : فما أخبرتك به .

(١٠)أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازى ، من الصوفية الوعاظ ، من أهل الرى ، أقام ببلخ ومات فى نيسابور سنة ٢٥٨ . انظر ترجمته وأقواله فى طبقات الصوفية ، ص ١٠٧-١١٤ ؛ صفة الصفوة ٧١/٤-٨٠ ؛ القشيرية ٩١/١-٩٢ ؛ الطبقات الكبرى ٦٩/١-٧٠ ؛ حلية الأولياء ٥١/١٠-٧٠ ؛ شذرات الذهب ١٣٨/٢-١٣٩ ؛ الأعلام ٢١٨/٩ .

ص ٤٣ التحقيق فى المعاملات/ وغيرها ، فإنه يتكلم فى الرجاء بكلام يشبه كلام سِفْلَة المرجئة ، لا يوافق أصول المشايخ الكبار المتمسّكين بالسنة ، ويدّعى فى التوحيد مقاما هو الغاية ، وقد عابه عليه أبو يزيد وغيره ، وكلامه يشبه كلام الوعّاظ ، وهى طريقة أبى القاسم ونحوه .

وهذا الكلام المذكور من هذا الباب ، فإنه ليس كل ما لم يذكره فى هذا الجواب بصفة المخلوق لله ، بل لله صفات كثيرة عظيمة لم تدخل فى هذا الكلام . ثم صفة المخلوق إن كان لأجل الاشتراك فى الاسم ، فقوله : «ملك قادر ، وإنه بالمرصاد» كما قال تعالى : ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [سورة التوبة : ٥] .

وأيضا فالجواب عن أين هو ؟ خلاف الجواب الذى رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقرَّه وحكم بإيمان قائله ، وخلاف ما أجاب به هو سائله ، فإنه لما قال : أين الله ؟ فقيل له : فى السماء[1] ، رضى بهذا وأقرّ صاحبه ولم يقل : هذا صفة المخلوق .

وقد روى شيخ الإسلام الأنصارى الهروى صاحب «علل المقامات» و«منازل السائرين» فى كتابه المسمى بـ«الفاروق»[2] بإسناد عن يحيى بن معاذ أنه قال : إن الله على العرش بائن من خلقه . وقد أحاط بكل شئ علما ، وأحصى كل شئ عددا ، لا يشذ عن هذه المقالة إلا جهمى ردئ

(١) مضى الحديث من قبل .

(٢) أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن على الهروى الأنصارى ، طبع كتابه «منازل السائرين» بتحقيق دى لوجييه دى بوركى ، ط . المعهد الفرنسى ، القاهرة ، ١٩٦٢ . وذكر الزركلى من كتبه «الفاروق فى الصفات» .

ضلِّيل ، وهالك مرتاب ، يمزج الله بخلقه ، ويخالط منه الذات بالأقذار ، والإتيان فى هيئته [١] ، وهو يخالف إنكاره الأين فى هذه الرواية .

وقال أبو القاسم[٢] : « حدثنا محمد بن الحسين سمعت [٣] أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول : كل ما توهم [٤] متوهم بالجهل أنه كذلك ، فالعقل يدل على أنه بخلافه » .

قال[٥] : « وسأل ابن شاهين الجنيد عن معنى «مع» فقال : على معنيين[٦] : مع الأنبياء بالنصرة والكلاءة[٧] : قال الله[٨] : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [سورة طه : ٤٦] ، ومع العامة بالعلم والإحاطة : قال الله تعالى[٩] : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [سورة المجادلة : ٧][١٠] ، فقال[١١] ابن شاهين : مثلك/ يصلح أن يكون دالاً للأمة على الله» . ظ ٤٣

---

(١) فى الأصل : فى قصبيه ، ولعل الصواب ما أثبته

(٢) بعد الكلام السابق مباشرة ١/٣٩ .

(٣) القشيرية : وأخبرنا محمد بن الحسين قال سمعت.

(٤) القشيرية : توهمه .

(٥) بعد الكلام السابق مباشرة ١/٣٩-٤٠ .

(٦) القشيرية : فقال : مع على معنيين .

(٧) فى الأصل : والكلأ . والمثبت من القشيرية .

(٨) القشيرية : الله تعالى .

(٩) القشيرية ١/٤٠ : قال تعالى .

(١٠) كلمة «نجوى» فى الآية الكريمة غير موجودة فى الأصل .

(١١) القشيرية : قال .

قلت : هذا كلام حسن متفق على صحة معناه بين أئمة الهدى ، وكانوا يقولون مثل هذا الكلام ردًّا على من يقول من الجهمية : إن الحق بذاته فى كل مكان ، وينكر أن يكون فوق العرش . وقد وقع فى ذلك طائفة من المتصوفة حتى جعلوه عين الموجودات . ونفس المصنوعات ، كما يقوله أهل الاتحاد العام .

قال القشيرى(١) : «وسئل ذو النون المصرى عن قوله(٢) : ﴿ الرَّحْمَـٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾[سورة طه : ٥] ، فقال : أثبت ذاته ونفى مكانه ، فهو موجود [بذاته ، والأشياء موجودة](٣) بحكمه كما شاء(٤)» .

قلت : هذا الكلام لم يَذْكر له إسناداً عن ذى النون ، وفى هذه الكتب من الحكايات المسندة شىء كثير لا أصل له ، فكيف بهذه المنقطعة المسيئة التى تتضمن أن يُنقل عن المشايخ كلام لا يقوله عاقل ، فإن هذا الكلام ليس فيه مناسبة للآية ، بل هو مناقض لها . فإن هذه الآية لم تتضمن إثبات ذاته ونفى مكانه بوجه من الوجوه ، فكيف تُفسَّر بذلك ؟

وأما قوله : «هو موجود بذاته ، والأشياء موجودة بحكمه»— فهو حق ، لكن ليس هذا معنى الآية .

---

(١) بعد الكلام السابق مباشرة ١/٤٠

(٢) القشيرية : عن قوله تعالى .

(٣) مابين المعقوفتين ساقط من الأصل ، وأثبته من «القشيرية» .

(٤) القشيرية : كما شاء سبحانه .

قال[(١)] : «وسئل الشبلى عن قوله[(٢)] : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾[(٣)] [فقال : الرحمن لم يزل ، والعرش محدَث ، والعرش بالرحمن استوى][(٤)].

قلت : هذا الكلام أيضا ليس له إسناد عن الشبلى ، وهو يتضمن من الباطل ما هو تحريف للقرآن .

أما قوله : «الرحمٰن لم يزل ، والعرش محدث» فحق . وأما قوله : «العرش بالرحمٰن استوى» فهو أولا : خلاف القرآن . فإن الله أخبر أنه هو الذى استوى على العرش ، فكيف يقال إن المستوى إنما هو العرش .

وأما ثانيا : فإنه إذا قال : «العرش استوى به» فهذا [ليس][(٥)] أبلغ من قوله : إنه استوى على العرش .

كما فى حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه [وسلم][(٦)] أهلَّ حين استوت به راحلته[(٧)] ، وذلك يقتضي أن يكون العرش استوى بالله واستقلَّ به وحمله ، وإن لم يُرِد هذا المعنى . وإنما أراد أن العرش اعتدل

---

(١) فى «القشيرية» بعد الكلام السابق مباشرة ٤٠/١ .

(٢) القشيرية : قوله تعالى .

(٣) فى الأصل لم يثبت الناسخ كلمة «استوى» من الآية الكريمة .

(٤) مابين المعقوفتين ساقط من الأصل ، وأثبته من «القشيرية» ماعدا عبارة «العرش محدَث» فهى ساقطة من «القشيرية» وأثبتها لأنها وردت فى كلام ابن تيمية بعد سطور قليلة منسوبة إلى الشبلى .

(٥) ليس : ساقطة من الأصل ، ومعنى الكلام يقتضى إثباتها .

(٦) كلمة «وسلم» : ساقطة من الأصل .

(٧) الحديث عن ابن عمر رضى الله عنهما فى : البخارى ١٣٩/٢ (كتاب الحج ، باب الإهلال مستقبل القبلة) ؛ مسلم ٨٤٢/٢ ، ٨٤٥ (كتاب الحج ، باب الإهلال من حيث تنبعث الراحلة) . ونص الحديث – وهذه رواية البخارى : «أهل النبى صلى الله عليه وسلم حين استوت به راحلته قائمة».

واستوى بقدرة الله ، فهذا ليس هو معنى الآية ، بل تحريف صريح يستحق قائله العقوبة البليغة ، ولا يصلح أن يُحكى مثل هذا عن قدوة [١] فى الدين ، بل ولا عن أطراف/ الناس . ص ٤٤

قال [٢] : «وسئل جعفر بن نصير عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَـٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ ، فقال : استوى علمه بكل شىء، فليس شئ أقرب إليه من شىء».

وهذا من نمط الذى قبله وأردى ، وهو أسخف من تأويلات القرامطة الباطنية . فإن اللفظ ليس فيه مايدل على ذلك أصلا ، وجعفر ابن نصير أجلُّ من أن يقول هذا التحريف [٣] الذى لايصدر مثله إلا عن بعض غلاة الرافضة والقرامطة ، والملحدين الطاعنين فى القرآن .

قال [٤] : «وقال [٥] جعفر الصادق : من زعم أن الله فى شىء أو من شىء أو على شىء فقد أشرك ؛ إذ لو كان على شىء لكان محمولا ، أو كان [٦] فى شىء لكان محصورا ، أو كان [٧] من شىء لكان محدَثا» .

---

(١) فى الأصل : قدرة ، وهو تحريف وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) بعد الكلام السابق مباشرة فى «القشيرية» ولكنه سقط من الطبعة الجديدة بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وهو فى الطبعة القديمة (ط.صبيح) ص ٦ .

(٣) هو أبو محمد جعفر بن محمد بن نصير الخلدى الخواص ، بغدادى المنشأ والمولد ، صحب الجنيد بن محمد وعرف بصحبته وتوفى ببغداد سنة ٣٤٨ . انظر ترجمته وأقواله فى : طبقات الصوفية ، ص٤٣٤ – ٤٣٩ ، القشيرية ١٦٧/١ ؛ صفة الصفوة ٢٦٤/٢ – ٢٦٥.

(٤) فى «القشيرية» بعد الكلام السابق مباشرة ٤٠/١ – ٤١ .

(٥) القشيرية : قال .

(٦) القشيرية : ولو كان .

(٧) القشيرية ٤١/١ : ولو كان .

قال [١] : «وقال جعفر الصادق فى قوله [٢] : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [سورة النجم : ٨] : من توهم أنه بنفسه دنا جعل ثَمَّ مسافة [٣] ، وإنما [٤] [التدانى] [٥] أنه كلما قَرُبَ منه بَعَّدَه عن أنواع المعارف ، إِذْ لاَ دُنُوَّ ولا بُعْد».

قلت : هذا الكلام وأشباهه مما اتفق أهل المعرفة على أنه مكذوب على جعفر ، مثل كثير من الإشارات التى ذكرها عنه أبو عبد الرحمن فى «حقائق التفسير» ، والكذب على جعفر كثير منتشر . والذى نقله العلماء الثقات عنه معروف ، يخالف رواية المفترين عليه [٦] .

قال [٧] : « [ورأيت] [٨] بخط الاستاذ أبى على أنه قيل لصوفى . [أين الله ؟] [٩] فقال : أسحقك الله ، تطلب مع العَيْن أثراً [١٠]».

قلت : هذا كلام مجمل ، قد يعنى به الصدِّيق معنًى صحيحاً ، ويعنى به الزنديق معنًى فاسداً ؛ فإن السائل : أين الله ؟ قد يكون سؤاله عن شك عن معرفة ما يستحقه الله من العلو ، وقد يكون الاستعلام

---

(١) بعد الكلام السابق مباشرة ٤١/١ .

(٢) القشيرية : الصادق أيضا فى قوله .

(٣) القشيرية :.. دنا ثَمَّ جعل مسافة .

(٤) القشيرية : إنما .

(٥) التدانى : ساقطة من الأصل وأثبتها من «القشيرية» .

(٦) فى الأصل : عنه .

(٧) بعد الكلام السابق مباشرة ٤١/١ .

(٨) كلمة «ورأيت» ساقطة من الأصل وأثبتها من «القشيرية».

(٩) عبارة «أين الله» ساقطة من الأصل ، وأثبتها من «القشيرية».

(١٠) فى الأصل : أثر . والصواب ما أثبته . وفى «القشيرية» : أين.

[عن] [(١)] حال المسئول . كما سأل النبى صلى الله عليه وسلم الجارية : أين الله ؟ فالذى سأل الصوفى: أين الله ؟ إن كان شاكاً فى نعت ربه ، أو جاهلا بحال المسئول ، فهو ناقص . فيحتمل أن الصوفى كان عارفاً بالله ، وقد عاين السائل من حاله ما عرف به صدقه ، فقال : سؤالك سؤال من يريد أن يستدل بالأثر/ على حالٍ[(٢)] ، وأنت قد عاينت ما يغنيك عن ذلك : فقال : أتطلب مع العَيْن أثراً أو هدًى ؟ ظ ٤٤

كما أن المعروفين بالإيمان من الصحابة لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يقول لأحدهم : أين الله؟ وإنما قال ذلك لمن شك فى إيمانه كالجارية . وهذا كما يذكر فى حكاية أخرى أن بعضهم لقى شخصا فقال : أين ربك ؟ فقال : لاتقل أين ربك؟ ولكن قل : أين محل الإيمان من قلبك ؟ أى أن مثلى لايقال له : أين ربك؟ وإنما أُسأل عمَّا يليق بمثلى أن يُسأل عنه .

بل كما فى الحكاية المعروفة عن يزيد بن هارون الواسطى ، ونحوها أيضا لأحمد بن حنبل أن مُنكراً أو نكيراً لما أتياه وسألاه : من ربك ؟ وما دينك؟ ومن نبيك ؟ فقال : أتقولان لى هذا وأنا يزيد بن هارون الواسطى ، أُعلِّم الناس السنّة ستين سنة ، فقالا : اعذرنا فإنَّا بهذا أُمرنا ، وانصرفا وتركاه .

وظاهر الأمر فى حال الصوفى الذى ذكره الأستاذ أبى على أنه قصد هذا ، لأنه قال للسائل : أسحقك الله ، أتطلب مع العين أثرا ؟ وهذا

---

(١) عن : ساقطة من الأصل .

(٢) فى الأصل : حالى. ولعل الصواب ما أثبته .

العين الذى أغناه عن الأثر · إما أن يكون فى معرفته بربه ، أو معرفته بحال المسئول ؟ فلوكان الأول لم يك جاهلا فيسأل : أين[١] الله ؟ ، ولم يجب[٢] عليه الصوفى حتى يقول له : أسحقك الله ؛ فعلم أنه [كان][٣] عارفا بحال الصوفى ، وطلب منه زيادة امتحان له عن معرفته بربه ، فقال : أتطلب مع العين أثرا ؟.

وأما المعنى الذى يعنيه الزنديق ، فأن يكون من أهل الاتحاد المعين ، فيعتقد أنه عاين الله بعين بصره فى الدنيا ، فيقول : أتطلب مع العين أثرا ؟

أو يعتقد أن الوجود المُعَايَن هو عين وجود الحق ، كما تقوله الاتحادية أهل الاتحاد المطلق ، أو نحو ذلك من مقالات الزنادقة المنافقين .

ولكن ظاهر الحكاية لايوافق هذا ، فإنه عند هؤلاء العين والأثر[٤] واحدٌ . والصوفى قال · أتطلب مع العين أثراً[٥] ؟ وهذا يقتضى أن السائل بأَيْن يصح منه طلب الأثر بعد العين .

وليس فى الحكاية مقصود/ لأبى القاسم من نفى كون الله على العرش ، ولا يقول أبو القاسم بأن العارف حصل له فى الدنيا من معاينة الله تعالى ما يغنيه عن الأثر . ص ٤٥

(١) فى الأصل : أن ، وهو تحريف ظاهر .

(٢) فى الأصل : ولم يحر (غير منقوطة) . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) كان : ساقطة من الأصل ، وسياق الكلام يقتضى إثباتها .

(٤) فى الأصل : العين ولا أثر واحد ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل : أثر . وهو خطأ .

قال أبو القاسم[(١)] : «حدثنا الشيخ أبو عبد الرحمن سمعت[(٢)] أبا العباس بن الخشَّاب البغدادى ، سمعت أبا القاسم بن موسى ، سمعت محمد بن أحمد ، سمعت الأنصارى ، سمعت[(٣)] الخزَّاز يقول : حقيقة القرب فَقْد حُسْن[(٤)] الأشياء من القلب ، وهدوء الضمير إلى الله[(٥)]».

قلت : هذه الحكاية فى إسنادها من لا يُعرف حاله ، وإن صح هذا الكلام عن أبى سعيد الخزَّاز ، فليس مقصوده أن القرب من الله ليس إلا مجرد ذلك ؛ ولكن أراد أن هذا هو الذى يحقق القرب ، وحقيقة الشئ عندهم مايحققه ، فيكون علة لوجوده ، ودليلا على صحته .

كما يروون فى الحديث الذى رواه ابن [عساكر][(٦)] مرسلا ، وروى مسندا من وجه ضعيف لايثبت : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لحارثة ابن سراقة «كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا . قال : فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى حجرها وذهبها ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتمتعون فيها ، وإلى أهل النار يعذَّبون فيها . فقال :

---

(١) فى «القشيرية» ٤١/١ ، بعد الكلام السابق مباشرة .

(٢) القشيرية : أبو عبد الرحمن السلمى قال سمعت ..

(٣) القشيرية : .. البغدادى يقول سمعت .. بن موسى يقول ... بن أحمد يقول.. الأنصارى يقول : سمعت .

(٤) القشيرية : حِسّ .

(٥) القشيرية : الله تعالى .

(٦) عساكر : ساقطة من الأصل .

عرفتَ فَالْزم ، عبدٌ نوَّر الله قلبه»[١].

فقولهم فى هذا الحديث الذى يروونه : ماحقيقة إيمانك ؟ أى مايحققه ويصدّقه ، فذكر ما يصدّقه ويحققه من اليقين والزهد ، كما جاء فى الحديث : نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد[٢].

فقول أبى سعيد : «حقيقة القرب» أى الذى يحققه هو خلو القلب مما سوى الله وسكونه إلى الله ، وهذا تحقيق الإخلاص والتوحيد ، الذى مَنْ حقّقه كان أقرب الخلق إلى الله ، وهو تحقيق كلمة الإخلاص : لا إله إلا الله . وهذا على درجتين ؛ فأهل الفناء يفقدون إدراك الأشياء ومعرفتها ، مصطلمين فى /ذكر الله والملائكة وأولو العلم ، وهو سبحانه شهد وحدانيتهم فى إلاهيته متضمنة شهادته لجميع خلقه ، فإنه شهيد عليم ، ليس عن المخلوقات بغائب ، فأولو العلم ظ ٤٥

(١) لم أجد هذا الحديث إلا فى «أسد الغابة» لابن الأثير (ط . دار الشعب) ١/٤٢٥ – ٤٢٦ وأورد سنده كما يلى : «أخبرنا أبو القاسم يعيش بن صدقة بن على الفراتى الفقيه الشافعى ، أخبرنا أبو محمد يحيى بن على بن الطراح ، أخبرنا أبو الحسن محمد بن على بن محمد المهتدى بالله ، أخبرنا محمد بن يوسف بن دُوسْت العلاف ، أخبرنا عبد الله بن محمد البغوى ، حدثنا عبد الله بن عون ، أخبرنا يوسف ابن عطية ، عن ثابت البنانى ، عن أنس قال ، بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى إذ استقبله شاب من الأنصار ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحت ياحارث ؟ قال : أصبحت مؤمنا بالله حقا . قال . انظر ماذا تقول ... الحديث . كما وجدت الحديث فى مسند أنس بن مالك فى الجامع الكبير للسيوطى ٢/٢٧٨ إلا أنه سمى الصحابى الحارث بن مالك هكذا : عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد والحارث بن مالك نائم فحرّكه برجله . قال : ارفع رأسك ، فرفع رأسه . فقال : بأبى أنت وأمى يارسول الله . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحت ياحارث بن مالك ؟ قال : أصبحت يارسول الله مؤمنا حقا .. الخ . وذكر السيوطى أن الحديث قد أورده ابن عساكر فى تاريخه .

(٢) ذكر السيوطى هذا الحديث فى «الجامع الكبير» ١/٨٥١ فقال : «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ، ويهلك آخر هذه الأمة بالنحل (كذا ، ولعل صوابها : بالبخل) والأمل . ابن أبى الدنيا وابن لال والخطيب فى كتاب البخلاء عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده » .

الشاهدون ألاَّ إلـه إلا هو إذا لم يكن فيهم عجز يوجب الفناء يُعْطَوْن[١] من القوة على ما يشهدون به الأمر ، وتلك شهادة كاملة أكمل من شهادة أهل الفناء ، فيفقدون تألّه قلوبهم للأشياء ووجدهم وطمأنينتهم[٢] إليها معتاضين[٣] بتألّه[٤] قلوبهم لله ووجدهم به وطمأنينة قلوبهم بذكره ، لا يفقدون الشهادة التى تزيد فى علمهم وإيمانهم من شهود الربوبية المحيطة جملة وتفصيلا ، والإلهية الواجبة جملة وتفصيلا ، وما يدخل فى ذلك من أصناف المخلوقات والمأمورات .

وقال أبو القاسم[٥] : «سمعت محمد بن الحسين[٦] ، [٧] سمعت محمد بن على الحافظ ، سمعت أبا معاذ القزوينى[٧] ، سمعت أبا على الدلال ، سمعت أبا عبد الله بن قهرمان[٨] ، سمعت إبراهيم الخَوَّاص يقول : انتهيت إلى رجل وقد صرعه الشيطان ، فجعلت أؤذن فى أذنه ، فنادانى الشيطان من جوفه : دعنى أقتله ، فإنه يقول : القرآن مخلوق» .

قلت : هذه الحكاية موافقة لأصول السنة ، وقد ذكروا نحوها حكايات ، واعترض فى ذلك الغزالى وغيره : بأن هذا استدلال

(١) فى الأصل كأنها «يعطفون» وكتب فى الهامش تصحيح : يعصون . ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : وطمأنينهم ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : معتاظين .

(٤) فى الأصل : بجالة ، وهو تحريف .

(٥) فى «القشيرية» ٤١/١-٤٢ بعد العبارات التى سبق ورودها مباشرة .

(٦) القشيرية : .. محمد بن الحسين يقول ....

(٧ -٧) ساقط من «القشيرية» .

(٨) القشيرية : .. الدلال يقول .. بن قهرمان يقول ..

بكلام[١] الشياطين فى أصول الدين ، وذكر عن الإمام أحمد فى ذلك حكاية باطلة ذكرها فى «المنخول»[٢] **فقال** : «رُبَّ رجلٍ يعتقد الشىء دليلا وليس بدليل كما يذكر».

وجواب هذا : أن الجن فيهم المؤمن والكافر ، كما دلّ على ذلك القرآن ، ويُعرف ذلك بحال المصروع ، ويُعرف بأسباب قد يقضى[٣] بها أهل المعرفة ، فإذا عُرف أن الجنىّ من أهل الإيمان ، كان هذا مثل ما قصَّه الله فى القرآن من إيمان الجن بالقرآن ، وكما فى السيرة من أخبار الهواتف .

وإبراهيم الخَوَّاص من أكبر الرجال الذين لهم خوارق[٤] ، فله علمه بأن هذا الجنىّ من المؤمنين لمَّا ذكر/ هذه الحكاية على سبيل الذم لمن يقول بخلق القرآن . ص ٤٦

(١) فى الأصل : استهلال لكلام .. الخ ، وأحسب أن العبارة محرفة ، ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : المسجول . وراجعت كتاب «مؤلفات الغزالى» للدكتور عبد الرحمن بدوى (ط. المجلس الأعلى للآداب والعلوم والفنون ، القاهرة ، ١٩٦٠) فوجدت من مؤلفات الغزالى : منجول (رقم ٧١) : المنخول فى الأصول (رقم٢) ، المنخول والمنتحل فى علم الجدل (رقم٧) . ولعل الصواب ما أثبته ، وهو قريب من رسم الكلمة فى الأصل .

(٣) فى الأصل : قد يقص . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن اسماعيل الخَوَّاص المتوفى سنة ٢٩١ ، من أقران الجنيد . انظر ترجمته وأقواله فى : طبقات الصوفية ، ص ٢٨٤-٢٨٧ ؛ صفة الصفوة ٨٠/٤-٨٤ ؛ القشيرية ١٣٦/١ ؛ تاريخ بغداد ٧/٦-١٠ ؛ الأعلام ٢٢/١ .

« فصل »

قال أبو القاسم[(١)] : «وقال ابن عطاء[(٢)] : لما خلق الله الأحرف جعلها سرًّا[(٣)] ، فلمّا خلق آدم بثَّ ذلك السر فيه[(٤)] ، ولم يبث ذلك السر فى أحد من الملائكة[(٥)] ، فجرت الأحرف على لسان آدم[(٦)] بفنون الجريان وفنون المعارف[(٧)] ، فجعلها الله صوراً لها».

قال أبو القاسم[(٨)] : «صرَّح ابن عطاء-رحمه الله[(٩)] - بأن الحروف مخلوقة».

قلت : لم يذكر لهذه الحكاية إسناداً ، ومثل هذا لا تقوم به حجة ، ولا يحلّ لأحد أن يدلَّ المسلمين فى أصول دينهم بكلام لم تُعرف صحة نقله ، مع ما عُلم من كثرة الكذب على المشايخ المقتدى بهم ، فلا يثبت بمثل هذا الكلام قول لابن عطاء ولا مذهب ، بل قد ظهر على هذه

(١) فى «القشيرية» ٤٢/١ بعد الكلام السابق مباشرة.

(٢) ذكر محققا «القشيرية» أنه : أحمد بن عطاء الروذبارى . وهو أبو عبد الله أحمد بن عطاء الروذبارى ، ابن أخت أبى على ، توفى سنة ٣٦٩ . انظر ترجمته وأقواله فى : القشيرية ١٨٤/١-١٨٦ ؛ طبقات الصوفية ، ص ٤٩٧-٥٠٠ ؛ شذرات الذهب ٦٨/٣ ؛ تاريخ بغداد ٣٣٦/٤-٣٣٧ .

(٣) القشيرية : إن الله تعالى لما خلق الأحرف جعلها سراً له ..

(٤) القشيرية : فلما خلق آدم عليه السلام بث فيه ذلك السر.

(٥) القشيرية : من ملائكته .

(٦) القشيرية : آدم عليه السلام .

(٧) القشيرية : وفنون اللغات .

(٨) بعد الكلام السابق مباشرة .

(٩) عبارة «رحمه الله» : ليست فى «القشيرية».

الحكاية من كذب ناقلها ، وجهل قائلها ما لا يصلح معه أن يُحمد الاعتقاد بها ، فلو[١] فرض أن هذه الحكاية قالها بعض الأعيان لكان فيها من الغلط ما يردها على قائلها .

وكذلك أن الله لم يخصَّ آدم بالأحـــرف ، وإنما خصَّـــه بتعليم الأسماء كلها ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْملاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ ﴾ [سورة البقرة : ٣١] .

وقد تنازع الناس : هل المراد بها أسماء من يعقل ؟ لقوله : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ ﴾ ، أو أسماء كل شئ ؟ ، على قولين .

والأول اختيار ابن جرير الطبرى[٢] ، وأبى بكر عبد العزيز صاحب الخلاَّل وغيرهما .

والثانى أصح ؛ لأن فى الصحيحين فى حديث الشفاعة عن النبى صلى الله عليه وسلم : «يا آدم : أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلَّمك أسماء كل شئ»[٣] ، ويبين ذلك أن الملائكة كانوا يتكلمون قبل أن يخبرهم آدم

(١) فى الأصل : فلم . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) قال الطبرى فى تفسيره (ط. دار المعارف) ١/٤٨٦-٤٨٧ : «قد تقدم ذكرنا التأويل الذى هو أولى بالآية ، على قراءتنا ورسم مصحفنا ، وأن قوله : (ثم عرضهم) بالدلالة على بنى آدم والملائكة ، أَوْلى منه بالدلالة على أجناس الخلق كلها ، وإن كان غير فاسد أن يكون دالاًّ على جميع أصناف الأمم ، للعلل التى وصفنا» .

(٣) جاء الحديث وفيه عبارة «وعلمك أسماء كل شئ» عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : البخارى ٩/١٤٨ (كتاب التوحيد ، باب قوله : وكلم الله موسى تكليما) . وجاء حديث آخر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفيه عبارة : «وعلمك الأسماء كلها» فى : سنن أبى داود ٤/٣١٢

بالأسماء ، وقد خاطبوا الله وخاطبوا آدم قبل ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴾ الآية [سورة البقرة : ٣٠] .

قال : وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لما خلق الله آدم قال : اذهب إلى أولئك النفر من الملائكة فسلّم عليهم ، واسمع ما يُحَيُّونك به[١] ، فإنها[٢] تحيتك ، وتحية ذريتك من بعدك ، فذهب إليهم فقال : السلام عليكم ./ فقالوا : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، فزادوه»[٣] . ظ ٤٦

وأيضا فآدم عليه السلام تكلم قبل أن يعلّمه الله أسماء كل شئ . كما في الصحيحين أن الله لما خلق آدم عطس ، فقال : الحمد لله رب العالمين . فقال الله له : يرحمك ربك[٤] .

وأيضا فمن المعلوم أن الملائكة كانوا يسبّحون الله ويمجّدونه قبل خلق

---

(١) يحيونك به : كذا في الأصل ، ولم يرد لفظ «به» في البخاري ومسلم .

(٢) في الأصل : فإن . وما أثبته هو لفظ الحديث .

(٣) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه مع اختلاف في بعض الألفاظ في : البخاري ٤/١٣١–١٣٢ (كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) وأوله : خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا ، ثم قال : اذهب فسلّم على أولئك .. الحديث . والحديث في : البخاري ٨/٥٠ (كتاب الاستئذان ، باب بدء السلام) ؛ مسلم ٤/٢١٨٣ – ٢١٨٤ (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب ما يدخل الجنة أقوام ..)

(٤) الجزء الأول من الحديث في «الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية» ، ص ١٤٢–١٤٣ . وقال الشيخ محمد المدني عنه : «أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب ، والحاكم وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه» .

آدم وقبل إخباره[١] إياهم بالأسماء ، فكيف يظن ظانٌّ أن النطق كان مختصا بآدم لما عُلِّم الأسماء ؟

وأيضا فإن هذه الحكاية – من قائلها الأول – مرسلة ، لا إسناد لها ، ولم يأثرها عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أحد من أصحابه ، وأحسن أحوالها أن تكون من الإسرائيليات التى إذا لم يُعرف أنها حق أو باطل لم يُصدَّق بها ولَم يُكذَّب ، ومثل هذه لا يعتمد عليها فى الدين بحال .

والمعروف عن بعض المشايخ حكاية ، لو ذكرها أبو القاسم لكان احتجاجه بها أمثل ، وهو ما أن الإمام أحمد ذُكر له عن السرى السقطى أنه ذُكر عن بكر بن حبيش العابد أنه قال : لما خلق الله الحروف سجدت له ، إلا الألف ، فقالت : لا أسجد حتى أُومر ، فقال أحمد : هذا كفر .

وهذا الكلام لم يقله بكر بن حبيش والسرى ونحوه من العبّاد ، إلا ليبينوا الفرق بين من لا يفعل إلا ما أُمر به ، ومن يعتمد بما لم يؤمر به من البدع . وهذا مقصود صحيح ؛ فإن العمل الصالح المقبول هو ما أمر الله به ورسوله ، دون ما شُرع من الدين الذى لم يأذن به الله . لكن كثير من العباد لا يحفظ الأحاديث ولا أسانيدها ، فكثيرا ما يغلطون فى إسناد الحديث أو متنه . ولهذا قال يحيى بن سعيد : ما رأينا الصالحين فى شئ أكذب منهم فى الحديث ، يعنى على سبيل الخطأ . وقال أيوب

(١) فى الأصل : اجناه ، وهو تحريف .

السختياني : إنَّ من جيراني لمن أرجو[1] بركة دعائهم في السحر ، ولو شهد عندي على جزرة بقل لما قبلت شهادته .

ولهذا يميِّزون في أهل الخير والزهد والعبادة بين ثابت البناني والفضيل ابن عياض/ونحوهما ، وبين مالك بن دينار وفرقد السبخي وحبيب العجمي وطبقتهم ، وكل هؤلاء أهل خيرٍ وفضلٍ ودينٍ ، والطبقة الأولى يدخل حديثها في الصحيح .

ص ٤٧

وقال مالك بن أنس رحمه الله : أدركت في هذا المسجد ثمانين رجلا ، لهم خير وفضل وصلاح ، كل يقول : حدثني أبي عن جدي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، لم نأخذ عن أحد منهم شيئا ، وكان ابن شهاب يأتينا وهو شاب فنزدحم على بابه ؛ لأنه كان يعرف هذا الشأن .

هذا وابن شهاب كان فيه من مداخلة الملوك ، وقبول جوائزهم ما لا يحبه أهل الزهد والنسك ، والله يختص كل قوم[2] بما يختاره ، فأولئك النسَّاك رووا هذا الأثر ، ليفرّقوا بين العمل المشروع المأمور به ، وما ليس بمشروع مأمور به .

وجاء في لفظ : لما خلق الله الحروف . فاحتج بهذا من يقول من الجهمية : إن القرآن أو حروفه مخلوقة . فقال أحمد : هذا كفر ، لأن فيه القول بخلق ما هو من القرآن ، وذلك الأثر لا يُعرف له إسناد ، ولا

---

(١) في الأصل : لمن أن أرجو ..

(٢) في الأصل : يوم ، ولعل الصواب ما أثبته .

يُعرف قائله ، ولا ناقله ، ولا يؤثر عن صاحب ، ولا تابع ، ولعله من الإسرائيليات ، فرد الاحتجاج به أسهل الأمور .

وأما ما تضمنه من الفرق بين العمل الذى يؤمر به والذى لا يؤمر به ، فهذا الفرق ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ، متى كان فى الأحاديث التى لا تُعرف صحتها والأحاديث الضعيفة ما يوافق أصول الإسلام وما لا يوافق قبول[1] الحق وترك الباطل ، فنقبل[2] من هذه الحكاية ما وافق الأصول ، وهو الذى أخذه بكر بن حبيش والسرى وغيرهما ، ونردُّ منها ما خالف الأصول ، وهو الذى رده الإمام أحمد وغيره من أئمة الهدى ، مع أن أحمد من أعظم الناس قولا لما قصده السرى من الفرق بين المأمور وغير المأمور ، وهو من أعظم الناس أمراً بالعمل المشروع ، ونهياً عن غير المشروع .

ثم حكاية السرى ، لعله لم يُرد بالحروف إلا المداد الذى تُكتب به الحروف فسجدت ، فإنه/ قال : فسجدت له إلا الألف ، فقالت : لا أسجد حتى أُومر . وهذا إشارة إلى انتصاب الألف وانخفاض[3] غيرها ، وهذا صورة ما يُكتب به من المداد . وأما الحروف التى أنزلها الله فى كتابه ، فلا يختلف حكمها باختلاف ما يكتب به من صورة المداد . ظ ٤٧

ولعل هذا أيضا هو الذى قصده فى حكاية ابن عطاء ، إن كان لها أصل ، فإنه قد ذكر ابن قتيبة فى «المعارف» : «أن الله لما أهبط آدم أنزل

(١) فى الأصل : قبل ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : فنقلب ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : وانخفاظ .

عليه حروف المعجم فى إحدى وعشرين صحيفة[(١)] » فيكون ناقلها قصد أن آدم اختُصَّ من بين الملائكة بأن عُلِّمْ الكتابة بهذه الحروف . كما قال تعالى:﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ﴾[سورة العلق : ٤-٥] .

والملائكة ، وإن كان الله قد وصفهم بأنهم يكتبون ، كما قال تعالى : ﴿كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفعَلُونَ ﴾[سورة الانفطار : ١١ ، ١٢] . وقال : ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾[سورة الزخرف : ٨٠] ، فلا يجب أن تكون حروفهم المكتوبة مثل الحروف التى يكتبها الآدميون ، إذ يكون الذين قالوا : إنه خلق الحروف ، أرادوا أنه خلق أصوات العباد ، فلا ريب أن الله خالق أصوات العباد وأفعالهم . لكن هذا لا يقتضى أن حروف القرآن ، أو مطلق الحروف ، مخلوقة ، بل يجب التفريق بين ما هو من صفات الله تعالى ، وما هو من خصائص المخلوقين .

والتأويل من المداد ليس هو الظاهر من الحكاية ، فإنه قال : فَجَرَتِ الأحرف على لسان آدم ، ولا هو أيضا بذاك ولكن ذِكْرُ أمثال هذه الحكايات لبيان المعتقدات ، نوع من ركوب الجهالات والضلالات ، فإذا تبين أنها لا تصح : لامن ناقلها ولا من قائلها ، وأنها مشتملة على أنواع من الباطل ، كان بعد ذلك ذكر هذه التأويلات

---

(١) قال ابن قتيبة فى كتابه «المعارف» ، ص ١٨ ، تحقيق الدكتور ثروت عكاشة ، ط. مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٠ : «وولد لآدم أربعون ولداً فى عشرين بطنا ، فأنزل عليهم تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وحروف المعجم فى إحدى وعشرين ورقة ، وهو أول كتاب كان فى الدنيا حدَّ الله عليه الألسنة كلها» .

أحسن مما يذكره المحتجون بها من تأويلاتهم لنصوص الكتاب والسنة الصحيحات الصريحات .

فتبين بذلك أن أهل السنة فى كل مقام أصح نقلا وعقلا من غيرهم ، لأن ذلك من تمام ظهور ما أرسل الله به رسوله من الهدى/ ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ظهوره بالحجة ، وظهوره بالقدرة . ص ٤٨

ثم إن هذه الحكاية المعروفة عن السرى لما بلغت الإمام أحمد أنكرها غاية الإنكار ، حتى توقَّف عن مدح السرى ، مع ماكان يذكر من فضله وورعه ، ونهى عن أن يذكر عنه مدحه حتى يُظهر خطأه فى ذلك ، مع أن السرى اعترف بأنه[١] لم يقلها ذاكراً ، وإنما قالها آثراً .

فذكر الخلَّال فى كتاب «السنة» : « ذِكرُ السرى وما أحدث . أخبرنى أحمد بن محمد : عن[٢] مطر وزكريا بن يحيى : أن أبا طالب حدثهم ، أنه قال لأبى عبد الله : جاءنى كتاب من طرسوس أن سرياً[٣] قال : لما خلق الله الحروف سجدت إلا الألف ، فإنه قال : لا أسجد[٤] حتى أُومر ، فقال: هذا الكفر».

قال الخلَّال : فأخبرنا أبو بكر المروذى : قال : جاءنى كتاب من الثغر فى أمر رجل تكلَّم بكلام ، وعرضته على أبى عبد الله فيه : لما خلق الله الحروف سجدت إلا الألف ، فغضب أبو عبد الله غضباً شديداً حتى

(١) فى الأصل : بأنها ، وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : أن ، ولعل الصواب ما أثبته
(٣) فى الأصل : أسريا ، وهو تحريف .
(٤) فى الأصل : لايسجد ، وهو تحريف .

قال : هذا كلام الزنادقة ، وَيْلَهُ هذا جهمي . وكان فى الكتاب الذى كتب به أن هذا الرجل قال : لو أن غلاما من غلمان حارث – يعنى المحاسبى – لخبَّر أهل طرسوس . فقال أبو عبد الله : أشد ما ها هنا قوله : لو أن غلاما من غلمان حارث لخبَّر أهل طرسوس ، ما البلية إلا حارث ، حذِّروا عنه أشد التحذير .

قال أبو بكر المروذى : جاءنى حسن بن البزَّاز برقعة فيها كلام هذا الرجل بخطه . قال: إن هذا خطه ، فيها مكتوب : إنى إنما حكيت عن غيرى ، فلما قرأتها قلت لحسن : قد أقرَّ ، قال : إنِّى أقر . قلت : فقوله : حكيت عن غيرى . قلت لأبى عبد الله : بأى شئ ترى ؟ قال : دعه حتى يقرَّ ، وبلغ أبا عبد الله عن حسن أنه قال بعد مجيئه إلى أبى عبد الله بالرقعة : ليس له عند أبى عبد الله إلا خيرا ، فقال : اذهب إليه فقل له : قد علمت ما فى قلبى حتى على مثل هذا ، قل له : لا تحك عنى شيئاً مرة[1] ، فلقيت حسنا ، فقال : ليس أحكى عنه شيئا .

ثم أيضا قول القائل : «لما خلق الله الأحرف جعلها سرًّا له ، فلما خلق آدم عليه السلام بث ذلك السر فيه ، ولم يبث ذلك السر فى أحد من ملائكته » – فساده ظاهر من وجوه :

ظ ٤٨ أحدها[2] : أن فيه أنه خلق الحروف قبل خلق آدم ، /وهذا لم يقله أحد من المسلمين ، فإن الذين يقولون بخلقها ، يقولون : إنما يخلقها إذا أراد إنزال كلامه على رسوله ، فيخلق حروفا فى الهواء[3] يسمعها جبريل

(١) فى الأصل : عن مرة . ورأيت أن حذف «عن» يستقيم به الكلام .

(٢) فى الأصل : أحدهما ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : الهوى .

أو غيره ، ينزل بها ويفهمه المعنى الذى أراده بتلك الحروف ، فيكون جبريل أول من تكلم بتلك الحروف وعبَّر بها عن مراد الله ، وهو المعنى القائم بنفسه ، كما يعبِّر عن الأخرس من فهم معناه بإشارته . فأما أن يُقال : خُلقت الحروف قبل خلق آدم عليه السلام ، ولم تخاطب بها[1] الملائكة ، فهذا لم يقله أحد .

الثانى : أنه جعل الحروف لآدم دون الملائكة ، ومن المعلوم أن الذى نزل بالقرآن وغيره من كلام الله هم الملائكة ، وهم تلقَّوْا الحروف عن الله قبل أن يتلقاها الأنبياء ، فكيف يُسلبون ذلك ؟

الثالث : أن قوله : جعلها سرًّا له-كلام لا حاصل له ، لأن السرَّ ما أسرَّه الله فأخفاه عن عباده ، أو بعضهم ، أو ما تضمَّن ما أسرَّه ، وهذه الحروف أظهر شئ لبنى آدم ، حتى أن النطق بها أظهر صفاتهم .

وكذلك قال الله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [سورة الذاريات : ٢٣] .

وإن قيل : إن الحروف تتضمن من المعانى ما أسرَّه الله – فلا ريب أنها تتضمن كل ما يُعبَّر عنه من المعانى : سرِّها وجهرها . فالاختصاص للسر بها .

قال أبو القاسم[2] : «قال[3] سهل بن عبد الله : إن الحروف لسان

(١) فى الأصل : به . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى القشيرية ٤٢/١ بعد كلام القشيرى السابق مباشرة .

(٣) القشيرية : وقال .

فعل لا لسان ذات ، لأنها فعل فى مفعول . قال : وهذا أيضا صريح لأن[١] الحروف مخلوقة » .

قلت : هذا الكلام ليس له إسناد عن سهل ، وكلام سهل بن عبد الله وأصحابه فى السنة والصفات والقرآن أشهر من أن يُذكر هنا . وسهل من أعظم الناس قولا بأن القرآن كله حروف ، ومعانيه غير مخلوقة ، بل صاحبه أبو الحسن بن سالم – أَخْبَرُ الناس بقوله – قد عُرف قوله وقول أصحابه فى ذلك – وقد ذكر أبو بكر بن إسحاق الكلاباذى فى «التعرف فى مذاهب التصوف» عن الحارث المحاسبى وأبى الحسن بن سالم أنهما كانا يقولان : إن الله يتكلم بصوت[٢] . ومذهب السالمّية[٣]/ أصحاب سهل ، ظاهر فى ذلك ، فلا يُترك هذا الأمر المشهور المعروف الظاهر لحكاية مرسلة لا إسناد لها .

ص ٤٩

ثم هذا الكلام فى ظاهره من قلة المعرفه ما لا يصلح أن يضاف إلى سهل بن عبد الله ، لأن قوله : «لأنها فعل فى مفعول» إن أراد : «فعل

---

(١) القشيرية : تصريح بأن ..

(٢) قال الكلاباذى فى «التعرف لمذهب أهل التصوف» ، ص ٤٠ : «وقالت طائفة منهم : كلام الله حروف وصوت ، وزعموا أنه لا يُعرف كلامه إلا كذلك ، مع إقرارهم أنه صفة الله تعالى فى ذاته غير مخلوق ، وهذا قول الحارث المحاسبى ، ومن المتأخرين ابن سالم».

(٣) السالمية هم أتباع أبى عبد الله محمد بن أحمد بن سالم المتوفى سنة ٢٩٧ ، وابنه أبى الحسن أحمد بن محمد بن سالم (المتوفى ٣٥٠) وقد تتلمذ أحمد بن محمد بن سالم على سهل بن عبد الله التسترى . ومن أشهر رجال السالمية أبو طالب المكى صاحب كتاب «قوت القلوب» المتوفى ٣٨٦ . ويجمع السالمية فى مذهبهم بين كلام أهل السنة وكلام المعتزلة مع ميل إلى التشبيه ونزعة صوفية اتحادية . انظر عنهم : شذرات الذهب ٣٦/٣ ؛ اللمع للسراج ، ص ٤٧٢–٤٧٦ ط. القاهرة ، ١٩٦٠ ؛ طبقات الصوفية ، ص ٤١٤–٤١٦ ؛ الطبقات الكبرى للشعرانى ، ص ٩٩–١٠٠ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٥٧ ، ٢٠٢ ؛ مقالة «السالمية» فى دائرة المعارف الإسلامية لماسينيون .

قائم بذات الله» كما يقال : تكلم ، وخلق ، ورزق ، عند الجمهور الذين يقولون : هذه أمور قائمة بذاته ، فقوله بعد ذلك «فى مفعول» لا يصلح ، فإنه فعل قائم بذات الله ليس فى مفعول .

وإن أراد بها : « فعل منفصل عن الله » ، فكل متصل عن الله فهو مفعول ، مثل قول القائل : « مفعول فى مفعول ، وفعل فى فعل » وهذا لا يصلح أن يُحتج به ، لأنه متى علم أنها مفعولة ، وأنها فعل بمعنى مفعول ، فسواء كانت فى نظيرها أو لم تكن هى مخلوقة .

وإن قيل : إنه أراد أنها فعل فى الآدمى الذى هو مفعول .

فيقال : كلاهما[1] مفعول . وأيضا فهذا إنما يدل على أن أصوات العباد ومدادهم مخلوق ، لايدل على أن الحروف التى هى من كلام الله مخلوقة .

قال أبو القاسم[2] : «وقال الجنيد فى جوابات مسائل الشاميين : التوكل عمل القلب ، والتوحيد قول القلب ».

قال أبو القاسم[3] : «وهذا[4] قول أهل الأصول : إن الكلام هو المعنى الذى قام بالقلب من معنى الأمر والنهى ، والخبر والاستخبار».

قلت : هذه المقالة لما أَسْنَد موضعها من كلام أبى القاسم الجنيد لم يكن فيها حجة لمطلوبه ، فالمذكور عن المشايخ الكبار ليس فيه صحيح صريح لمطلوبه الذى يخالف به الأحاديث الصحيحة وإجماع السلف ،

(١) فى الأصل : كلامها ، وهو تحريف .

(٢) فى «القشيرية» ٤٢/١ بعد كلامه السابق مباشرة .

(٣) بعد الكلام السابق مباشرة .

(٤) القشيرية : قال : وهذا .

بل إما أن يُفقد فيه الوصفان أو أحدهما ، وذلك أن الجنيد رضى الله عنه ذكر أن التوحيد قول القلب ، فأضاف القول إلى القلب ، وهذا مما لا نزاع فيه : أن القول والحديث ونحوهما مع التقييد يُضاف إلى النفس والقلب .

كما فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن الله تجاوز/لأمتى عمَّا حدَّثت به أنفسها ما لمَ تتكلم به أو تعمل»[1] . ظ ٤٩

وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾[سورة يوسف : ٥٣] وقال أبو الدرداء : «ليحذر أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر» . وقال الحسن البصرى : «ما زال أهل العلم يوعدون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر[2] ، ويناطقون القلوب حتى نطقت ، فإذا لها أسماع وأبصار ، فنطقت بالعلم ، وأُورثت الحكمة» .

فوصف القلب والنفس بأنه : يقول ، ويأمر ، ويتحدث ، وينطق ، ونحو ذلك يستعمل مع التقييد باتفاق المسلمين ، لكن النزاع فى شيئين :

---

(١) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٤٦/٧ (كتاب الطلاق ، باب الطلاق فى الإغلاق والكره والسكران ..) وأوله : إن الله تجاوز عن أمتى .. الحديث . وفى رواية مسلم : لأمتى . وهو فى : مسلم ١١٦/١ (كتاب الإيمان ، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر) ؛ سنن أبى داود (كتاب الطلاق ، باب فى الوسوسة بالطلاق) ؛ سنن النسائى ١٢٧/٦–١٢٨ فى موضعين (كتاب الطلاق ، باب من طلق فى نفسه) ؛ سنن ابن ماجة ٦٥٨/١ (كتاب الطلاق ، باب من طلق فى نفسه ولم يتكلم) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٤٢٥/٢ .

(٢) فى الأصل : التكر ، وهو تحريف .

أحدهما : أن الكلام على الإطلاق من غير إضافة إلى نفس أو قلب أو نحو ذلك ، هل هو اسم لمجرد المعنى ، أو لمجرد الحروف ، أو لمجموع المعانى والحروف ؟

هذا فيه ثلاثة أقوال : فالقشيرى وطائفة يقولون بالأول . وطائفة أخرى من أهل الكلام والفقه والعربية تقول بالثانى . وأما سلف الأمة وأئمتها فإنهم يقولون[1] بالوسط ، وهو الثالث : أن الكلام عند الإطلاق يتناول الحروف والمعانى جميعا .

وقول النبى صلى الله عليه وسلم : «إن الله تجاوز لأمتى عمَّا حدثت به أنفسها ما لم تتكلَّم أو تعمل به» يفرِّق بين الحديث[2] المقيَّد بالنفس ، وبين الكلام المطلق .

الثانى : أن معنى الكلام الذى تطابقه العبارة ، هل هو من جنس العلوم والإرادات أم ليس من هذا الأحسن ، بل هو حقيقة أخرى ؟ وهذا فيه نزاع بين الطوائف المنتسبة إلى السنة ، والتى ليست منتسبة إليها ؛ فنى هؤلاء وهؤلاء من يقول بهذا ، وفى هؤلاء وهؤلاء من يقول بهذا .

فتبين أن ما ذكره الجنيد من قول القلب ليس هو قول من يقول : إن الكلام هو المعنى القائم بالنفس .

وأما قول أبى القاسم : إن «هذا قول أهل الأصول» بالعموم ، فلا

---

(١) فى الأصل . يقول ، وهو خطأ .

(٢) فى الأصل : الحديد ، وهو تحريف .

خلاف بين الناس أن أول من أحدث هذا القول فى الإسلام أبو محمد عبد الله بن/سعيد بن كُلَّاب البصرى ، واتبعه على ذلك أبو الحسن الأشعرى ومن نصر طريقتهما ، وكانا يخالفان المعتزلة ويوافقان أهل السنة فى جمل أصول السنة . ولكن لتقصيرهما فى علم السنة وتسليمهما للمعتزلة أصولا فاسدة ، صار فى مواضع من قوليهما مواضع فيها من قول المعتزلة ما خالفا به للسنة ، وإن كانا لم يوافقا المعتزلة مطلقا .

ص ٥٠

وهذه المسألة : مسألة حد الكلام ، قد أنكرها عليهما جميع طوائف المسلمين ، حتى الفقهاء والأصوليون . والمصنِّفون فى أصول الفقه على مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد ، يذكرون الكلام وأنواعه : من الأمر ، والنهى ، والخبر ، وما فيه من العام والخاص ، وأن الصيغة داخلة فى مسمَّى ذلك عند جميع فرق الأمة : أصوليِّها وفقيهها ومحدثها وصوفيِّها ، إلا عند هؤلاء ، فكيف يضاف هذا القول إلى أهل الأصول عموماً وإطلاقاً ؟

ثم من العجب قول أبى القاسم عن أهل الأصول : «هو المعنى الذى قام بالقلب من معنى الأمر والنهى والخبر والاستخبار» ، ومعلوم أن الأمر والنهى والخبر والاستخبار أنواع الكلام . والجنس ينقسم إلى أنواعه ، واسمه صادق على كل نوع من الأنواع ، كما إذا قسمنا الحيوان [إلى : طير ودواب] يعمها[1] ، ويصدق اسمه على كل منها ، فيجب أن يكون حد الكلام واسمه صادقا على أنواعه : من الأمر والنهى ، والخبر

(١) فى الأصل : إذا قسمنا الحيوان يعمها ، والكلام هكذا ناقص ، ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

والاستحبار . فإن كان الكلام ليس إلا مجرد المعنى ، فهذه الأنواع ليست إلا مجرد معنى . فإذا قال : إن الكلام هو المعنى الذى قام بالقلب من معنى الأمر والنهى والخبر والاستخبار ، كان قد جعل المعنى الذى للأمر غير الأمر ، وهذا يطابق قول أهل الجماعة لا يطابق قوله ، بل كان حقه أن يقول : المعنى الذى قام بالقلب من الأمر والنهى لا من معنى الأمر والنهى ، لكنه تكلم فى الأمر والنهى والخبر والاستخبار .

فأما فى الكلام فتكلم فيه بما تلقَّاه عن أولئك المتكلمة الذين أحسنوا فى مواضع كثيرة ، /وردُّوا بها على المعتزلة وغيرهم ، وأساءوا فى مواضع خالفوا بها السنة وإن كانوا متأوِّلين ، والله يغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[سورة الحشر : ١٠] ظ ٥٠

« فصـــل »

فى الحديث الذى فى الصحيحين عن جويرية أم المؤمنين لما خرج النبى صلى الله عليه وسلم من عندها ثم رجع إليها فوجدها تسبح بحصى ، فقال لها : «مازلت منذ اليوم ؟ قالت : نعم . [قال النبى صلى الله عليه وسلم][١] لقد قلتُ بعدكِ [أربع][٢] كلمات [ثلاث مرات][٣] لو وزنت بما[٤] قلتيهن منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله عدد خلقه ، سبحان

(١) مابين المعقوفتين ساقط من الأصل ، وزدته من صحيح مسلم .
(٢) كلمة «أربع» زدتها من صحيح مسلم .
(٣) عبارة : ثلاث مرات ، زيادة من صحيح مسلم .
(٤) فى الأصل : بها ، وهو تحريف . والتصويب من صحيح مسلم .

[الله][1] زنة عرشه ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله مداد كلماته»[2].

فيه فوائد ترد على الجهمية والمتفلسفة :

منها قوله : «زنة عرشه» ، وذلك فى معرض التعظيم لوزن[3] العرش ، وأنه أعظم المخلوقات وزناً ، وذلك يدل على ثقله ، كما جاءت بقية الأحاديث بثقله ، خلافاً لما يقوله من يقوله من المتفلسفة : إن الأفلاك وما فوقها ليس بثقيل ولا خفيف ، بناءً على اصطلاح لهم : [الثقيل][4] ما تحرك إلى السفل ، والخفيف ماتحرك إلى فوق ، وإن الأفلاك لاتهبط ولا تصعد ، وذلك أن الله أمسكها بقدرته كما أمسك الأرض فى مقرها ، مع العلم بأن مقر الأجسام أمر عدمى ، ليس [فيه][5] ما يوجب اختصاص شئ به دون الآخر .

ومنها قوله : «رضا نفسه» . فيه إثبات نفسه وإثبات رضاه ، وأن رضاه ليس هو مجرد إرادته ، فإنه قد قال : «عدد خلقه» . والمخلوق هو الذى أراده وشاءه ، فلو كان رضاه هو إرادته لكان مراده موجودا ، فإن مراده قد وُجد قبل هذا الكلام ، فإنه ماشاء الله كان . وهذا الكلام

(١) لفظ الجلالة ساقط من الأصل وزدته من صحيح مسلم .

(٢) الحديث مع اختلاف فى الألفاظ عن جويرية أم المؤمنين رضى الله عنها فى : مسلم ٢٠٩٠/٤ ، ٢٠٩١ (كتاب الذكر والدعاء ، باب التسبيح أول النهار وعند النوم) وأوله : مازلت على الحال التى فارقتك عليها ؟ .. والحديث فى : سنن الترمذى ٢١٦/٥ (كتاب الدعوات ، باب منه) ؛ سنن أبى داود ١٠٩/٢ (كتاب الصلاة ، باب التسبيح بالحصى) ؛ المسند (ط. المعارف) ٩٧/٤ ، ١٠٤/٥-١٠٥ .

(٣) فى الأصل : لو وزن ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) كلمة «الثقيل» : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

(٥) فيه : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

يقتضى أن رضى نفسه أعظم من ذلك . ومن ذلك أنه جمع بين رضا نفسه ومداد كلماته ، فأثبت له الرضا والكلام ، والرضا مستلزم الإرادة وإن لم يكن هو عين الإرادة ، ففيه إثبات / كلامه ورضاه الذى يتضمن محبته ومشيئته . ص ٥١

وهاتان الصفتان هما اللتان أنكرهما الجعد بن درهم أول الجهمية ، لما زعم أن الله [لم][١] يتخذ إبراهيم خليلا ، إذ لا محبة له ولا رضا ، ولم يكلِّم موسى تكليما ، وعن ذلك نفت المعتزلة أن يكون له فى نفسه إرادة أو كلام ، ولم يجعلوا ذلك إلا مخلوقًا فى غيره .

وتقرب منهم طائفة من الأشعرية فأثبتت الإرادة ، ولم يجعلوا المحبة والرضا صفة إلا الإرادة ، وأثبتت الكلام ولم يجعلوه إلا معنىً واحداً قائماً بذاته ، فوافقوا أهل الإثبات فى بعض الحق ، والجهمية فى بعض الباطل .

ومن ذلك أنه انتقل من صفة المخلوق إلى صفة الخالق ، فذكر عدد المخلوقات ، وذكر وزن سقفها وأعظمها . كما فى الحديث الصحيح ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنها وسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وسقفها عرش الرحمن »[٢] .

---

(١) لم : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

(٢) الحديث فى مسند أحمد(ط . الحلبى) ٢/ ٣٣٥ ، ٣٣٩ عن أبى هريرة ، وهو جزء من حديث وأوله : « من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة ، فإن حقا على الله أن يدخله الجنة .. الحديث . وفيه : إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله عز وجل للمجاهدين فى سبيله ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله عز وجل فسلوه الفردوس فإنه وسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن عز وجل ، ومنه تفجر – أو تنفجر – أنهار الجنة » – شك أبو عامر . والحديث أيضا فى البخارى ٧٦/٤ (كتاب الجهاد ، باب درجات المجاهدين فى سبيل الله) . والحديث بمعناه عن معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت فى : سنن الترمذى : تحفة الأحوذى للمباركفورى (ط المدينة المنورة) ٢٢٥/٧ ، ٢٢٦ (كتاب صفة الجنة ، باب ما جاء فى صفة درجات الجنة) .

« فصل يتعلق بالسماع »

كلام القشيرى فى «الرسالة القشيرية» عن السماع وتعليق ابن تيمية عليه

قال أبو القاسم القشيرى فى باب السماع[(١)] : «قال الله تعالى[(٢)] : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [سورة الزمر : ١٨]».

قال أبو القاسم[(٣)] : «اللام فى قوله : «القول» ، تقتضى التعميم والاستغراق ، والدليل عليه أنه مدحهم باتّباع الأحسن ».

قلت : وهذا يذكره طائفة : منهم أبو عبد الرحمٰن السلمى وغيره .

كلام القشيرى السابق غلط من وجوه

وهو غلط باتفاق الأمة وأئمتها لوجوه[(٤)] :

الوجه الأول

أحدها : أن الله سبحانه وتعالى لا يأمر باستماع كل قول بإجماع المسلمين ، حتى يقال : اللام للاستغراق والعموم ، بل من القول ما يَحْرُم استماعه ومنه ما يُكره ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صُبَّ فى أذنيه الآنك يوم القيامة»[(٥)] .

---

(١) فى «القشيرية» ٢/٦٣٧ .

(٢) القشيرية : قال الله عز وجل .

(٣) بعد الكلام السابق مباشرة .

(٤) فى الأصل : لوجود ، وهو تحريف .

(٥) الحديث عن ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهم مع اختلاف فى بعض الألفاظ فى : البخارى ٩/٤٢ (كتاب التعبير ، باب من كذب فى حُلُمِهِ) وأوله : من تحلَّم بحلم ... ومن استمع إلى حديث قوم .. الحديث . والحديث أيضا فى : سنن الدارمى ٢/٢٩٨ (كتاب الرقاق ، باب فى حفظ السمع) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٢/٥٠٤ . وفى «لسان العرب» : «الآنك» : الأُسْرُبُّ ، وهو الرصاص القلعى ... وقيل : هو الرصاص الأبيض . وقيل : الأسود» .

وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّنْ شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ٦٨ ، ٦٩] (١).

/فقد أمر سبحانه بالإعراض عن كلام الخائضين فى آياته ، ونهى عن القعود معهم ، فكيف يكون استماع كل قول محموداً ؟ ظ ٥١

وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [سورة النساء : ١٤٠] .

فجعل الله المستمع لهذا الحديث مثل قائله ، فكيف يمدح كل مستمع كل قول ؟ .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ١-٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا .. ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [سورة الفرقان : ٦٣-٧٢] .

وروى أن ابن مسعود سمع صوت لهو فأعرض عنه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن كان ابن مسعود لكريما » (٢) .

---

(١) فى الأصل سقطت عبارة «حسابهم من» من الآية الثانية .

(٢) ذكر السيوطى فى « الدر المنثور » ٥/٨٠ -٨١ فى تفسير آية ٧٢ من سورة الفرقان ما يلى :

« وأخرج ابن أبى حاتم وابن عساكر عن إبراهيم بن ميسرة رضى الله عنه . قال : بلغنى أن ابن مسعود =

فإذا كان الله تعالى قد مدح وأثنى [على] من أعرض [(١)] عن اللغو ومر به كريما لم يستمعه ، كيف يكون استماع كل قول ممدوحا ؟

وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ [سورة الإسراء : ٣٦] ، فقد أخبر أنه يسأل [(٢)] العبد عن سمعه وبصره وفؤاده ، ونهاه أن يقول ما ليس له به علم .

وإذا كان السمع والبصر والفؤاد كل ذلك منقسم إلى ما يُؤمر به ، وإلى ما يُنهى عنه ، والعبد مسئول عن ذلك كله ، كيف يجوز أن يقال : كل قول فى العالم كان،فالعبد محمود على استماعه [(٣)] ؟ هذا بمنزلة أن يُقال : كل مرئى فى العالم فالعبد ممدوح على النظر إليه .

ولهذا دخل الشيطان من هٰذين البابين على كثير من النساك ، فتوسَّعوا فى النظر إلى الصور المنهى عن النظر إليها ، وفى استماع الأقوال والأصوات التى نهُوا عن استماعها ، ولم يكتف الشيطان بذلك حتى زيَّن لهم أن جعلوا ما نهوا عنه عبادة وقربة وطاعة ، فلم يحرِّموا ما حرَّم /الله ص ٥٢ ورسوله ولم يدينوا دين الحق .

كما حكى عن [أبى سعيد الخرّاز] أنه قال : رأيت إبليس [فى النوم

= مر معرضا ولم يقف . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لقد أصبح مسعود أو أمسى كريما » ثم تلا إبراهيم : (وإذا مروا باللغو مروا كراما) .

(١) فى الأصل : قد أثنى ومدح من أعرض . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٢) فى الأصل : أن سيال : وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : كل قول فى العالم كان العبد محمود على استماعه . ولعل الصواب ما أثبته .

وهو يمر عنى ناحية] فقلت [له : تعال ، مالك ؟] : فقال : بقى لى فيكم لطيفة : السماع ، وصحبة الأحداث»[١]

وأصحاب ذلك وإن [كان][٢] فيهم من ولاية الله وتقواهم ومحبته والقرب إليه ما فاقوا به على من لم يساوهم فى مقامهم ، فليسوا فى ذلك بأعظم من أكابر السلف المقتتلين فى الفتنة ، والسلف المستحلِّين لطائفة من الأشربه المسكرة ، والمستحلِّين لربا الفضل والمتعة ، والمستحلِّين للحشوش ، كما قال عبد الله بن المبارك : ربّ رجل فى الإسلام له قدم حسن وآثار صالحة ، كانت منه الهفوةِ والزلة ، لا يُقتدى به فى هفوته وزلته[٣] .

والغلط يقع تارة فى استحلال المحرَّم بالتأويل ، وفى ترك الواجب بالتأويل ، وفى جعل المحرَّم عبادة بالتأويل ، كالمقتتلين فى الفتنة ، حيث رأَوْا ذلك واجبا ومستحبًّا ، وكما قال طائفة ، مثل عبد الله بن داود

(١) كما حكى عن ... الأحداث : كذا جاء الخبر فى الأصل ، واستكملته مختصرا من «الرسالة القشيرية» . وتمامه فى «الرسالة القشيرية» ١٢٩/١ : «سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا عبد الله الرازى يقول : سمعت أبا العباس الصيّاد يقول : سمعت أبا سعيد الخرّاز يقول : رأيت إبليس فى النوم وهو يمر عنى ناحية . فقلت له : تعال ، مالك ؟ فقال : إيش أعمل بكم ، أنتم طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس . فقلت : ماهو؟ قال : الدنيا. فلما ولّى عنى التفت إلىّ وقال : غير أن لى فيكم لطيفة . فقلت : وما هى؟ قال : صحبة الأحداث» . وروى ابن الجوزى هذا الخبر فى كتابه«تلبيس إبليس» ص ٢٧٦-٢٧٧ بألفاظ مقاربة لألفاظ القشيرى . وروى خبراً آخر (ص ٢٧٦) نصه كما يلى : «وبإسناد عن ابن الفرج الرستمى الصوفى يقول : رأيت إبليس فى النوم ، فقلت له : كيف رأيتنا : أعرضنا عن الدنيا ولذاتها وأموالها ، فليس لك إلينا طريق ؟ فقال : كيف رأيت ما اشتملت به قلوبكم باستماع الغناء ومعاشرة الأحداث ؟».

(٢) كان : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : لا يقتدى به من فى هفوته وزلته . ولعل الصواب ما أثبته .

الحربى[(١)] وغيره : إن شرب النبيذ المختلف فيه أفضل من تركه .

فالتأويل يتناول الأصناف الخمسة : فيجعل الواجب مستحبا ومباحا ومكروها ومحرَّما ، ويجعل المحرَّم مكروهاً ومباحاً ومستحباً وواجبا ، وهكذا فى سائرها .

ومما يُعتبر به أن النسَّاك وأهل العبادة والإرادة توسَّعوا فى السمع والبصر ، وتوسَّع العلماء وأهل الكلام والنظر فى الكلام والنظر بالقلب ، حتى صار لهؤلاء الكلام المحدَث ، ولهؤلاء السماع المحدَث : هؤلاء فى الحروف[(٢)] ، وهؤلاء فى الصوت ، وتجد أهل السماع كثيرى الإنكار على أهل الكلام ، كما صنَّف الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى مصنَّفا فى ذم الكلام وأهله،وهما من أئمة أهل السماع[(٣)] ، ونجد أهل العلم والكلام مبالغين فى ذم أهل السماع ، كما نجده فى كلام أبى بكر بن فورك ، وكلام المتكلمين فى ذم السماع وأهله والصوفية /ما لا يُحصى كثرة . ظ ٥٢

وذلك أن هؤلاء فيهم انحراف يشبه انحراف اليهود أهل العلم

(١) عبد الله بن داود الحربى : كذا فى الأصل ، ولم أجد فى كتب الرجال أحداً بهذا الاسم . ولكنى وجدت عبد الله بن داود الخُرَيْبى، المتوفى سنة ٢١٣ وقيل غير ذلك . قال الذهبى فى العبر ٣٦٤/١ : «الحافظ الزاهد ، سمع الأعمش والبكّار ، وكان من أعبد أهل زمانه» . وانظر ترجمته أيضا فى : الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ق٢ ج٢ ص٤٧ ؛ تهذيب التهذيب ١٩٩/٥–٢٠٠ ؛ تقريب التهذيب ، ص ٤١٢–٤١٣ ؛ خلاصة تهذيب الكمال ، ص ١٩٩ .

(٢) فى الأصل : فى الحرف .

(٣) وهما من أئمة أهل السماع : كذا فى الأصل . وهذا يدل على سقوط كلام عن إمام آخر من أئمة التصوف ذم الكلام وأهله وهو من أئمة أهل السماع . وقد يكون المقصود أبا طالب المكى صاحب «قوت القلوب» أو الغزالى .

والكلام ، وهؤلاء فيهم انحراف يشبه انحراف النصارى أهل العبادة والإرادة .

وقد قال الله فى الطائفتين : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١١٣][1] .

ولهذا تجد تنافراً بين الفقهاء والصوفية ، وبين العلماء والفقراء [من] هذا الوجه .

والصواب أن يُحمد من حال[2] كل قوم ما حمده الله ورسوله ، كما جاء به الكتاب والسنة ، ويُذم من حال كل قوم ما ذمه الله ورسوله ، كما جاء به الكتاب والسنة ، ويجتهد المسلم فى تحقيق قوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾[سورة الفاتحة : ٦-٧] . قال النبى صلى الله عليه وسلم : «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون »[3] . وقد تكلمنا على بعض ما يتعلق

---

(١) فى الأصل سقط من الآية الكريمة قوله تعالى (وقالت النصارى ليست اليهود على شئ) .

(٢) فى الأصل : من كل حال ، وهو تحريف .

(٣) الحديث عن عدى بن حاتم رضى الله عنه فى سنن الترمذى فى موضعين ٢٧١/٤ ، ٢٧٢ (كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة فاتحة الكتاب) وأوله فى الموضع الأول : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد .. الحديث ، ولفظه : «فإن اليهود مغضوب عليهم وإن النصارى ضُلَّال» وقال الترمذى : «هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث سماك بن حرب ، وروى شعبة عن سماك بن حرب عن عبَّاد بن حُبَيْش عن عدى بن حاتم عن النبى صلى الله عليه وسلم الحديث بطوله» . والحديث فى المسند (ط. الحلبى) ٣٧٨/٤ وفيه : «إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين النصارى..» .

بهذه الأمور فى غير هذا الموضع فى مواضع .

الوجه الثانى

الوجه الثانى[١] : أن المراد بالقول فى هذا الموضع القرآن ، كما جاء ذلك فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة القصص : ٥١] ، فإن القول الذى أُمروا بتدبّره هو الذى أُمروا باستماعه ، والتدبّر[٢] بالنظر والاستدلال والاعتبار والاستماع . فمن أمرنا باستماع كل قول أو باستماع القول الذى لم يُشرع استماعه ، فهو بمنزلة من أمر بتدبّر كل قول والنظر فيه ، أو بالتدبر[٣] للكلام الذى لم يُشرَع تدبره والنظر فيه ، فالمنحرفون فى النظر والاستدلال بمثل هذه الأقوال من أهل الكلام المبتدع .

وذلك أن «اللام» فى لغة العرب هى للتعريف ، فتنصرف إلى المعروف عند المتكلم والمخاطَب ، وهى تعم جميع المعروف ، فاللام فى القول تقتضى[٤] التعميم والاستغراق ، لكن /عموم ما عرفته ، وهو القول المعهود المعروف بين المخاطِب والمخاطَب ، ومعلوم أن ذلك هو القول الذى أثنى الله عليه وأمرنا باستماعه والتدبر له واتّباعه ، فإنه[٥] قال فى أول هذه السورة : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ

ص ٥٣

---

(١) بدأ الوجه الأول فيما سبق ، ص ٢١٦ .

(٢) فى الأصل : والتبدير، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : أو بالتبدبر ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : يقتضى .

(٥) فى الأصل : فإن .

الْخَالِصُ ﴾ [سورة الزمر : ١-٣] فذكر فى السورة كلامه ودينه : الكلم الطيب ، والعمل الصالح .

وخير الكلام كلام الله ، وأصل العمل الصالح عبادة الله وحده لا شريك له [كما فى] (١) قوله : ﴿ قُلْ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة الزمر : ١٤-١٨] .

ثم قال بعد ذلك : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَـٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [سورة الزمر : ٢٢-٢٣] .

فأثنى على أهل السماع والوجد للحديث الذى نَزَّله ، وهو أحسن الحديث ، ولم يثن على مطلق الحديث ومستمعه ، بل تضمن السياق الثناء على أهل ذكره والاستماع لحديثه (٢) ، كما جمع بينهما فى قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [سورة الحديد : ١٦] وفى قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهَ

---

(١) زدت عبارة «كما فى» ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : للحديثه ، وهو تحريف .

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ [سورة الأنفال : ٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٠٤ ، ٢٠٥] .

ظ ٥٣ ثم قال بعد ذلك ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآناً عَرَبِياً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[سورة الزمر : ٢٧-٢٨] فذكر القرآن ، وبيّن أنه قدَّر فيه من جميع المقاييس والأمثال المضروبة لأجل التذكر ، فدعا هنا إلى التذكر والاعتبار بما فيه من الأمثال ، وذلك يتضمن النظر والاستدلال والكلام المشروع ، كما أنه فى الآية الأولى أثنى على أهل السماع له والوجد ، وذلك يتضمن السماع والوجد المشروع .

ثم قال بعد ذلك : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًىٰ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ . وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٣٢ ، ٣٣] .

ذكر البخارى فى صحيحه تفسير مجاهد—وهو أصح تفسير التابعين— **قال**(١) : «والذى(٢) جاء بالصدق : القرآن ، وصدَّق به : المؤمن ،

(١) فى : صحيح البخارى ١٢٥/٦(كتاب التفسير ، سورة الزمر) .
(٢) فى الأصل : الذى . وما أثبته هو الذى فى «البخارى».

يجئ يوم القيامة يقول : هذا الذى أعطيتنى عملت بما فيه» . فذكر الصدق والمصدِّق به مُثْنياً عليه[1] ، وذكر الكاذب والمكذِّب للحق ، وهما نوعان من القول ملعونان[2] هما وأهلها ، فكيف يكون مُثْنياً على من استمعهما ؟

ولاريب أن البدع الكلامية والسماعية المخالفة للكتاب والسنة تتضمن الكذب على الله والتكذيب بالحق ، كالجهمية الذين يصفون الله بخلاف ما وصف به نفسه ، فيفترون عليه الكذب ، أو يروون[3] فى ذلك آثاراً مضافة إلى الله ، أو يضربون مقاييس ويسندونها إلى العلوم الضرورية والمعقول الصحيح الذى هو حق من الله ، وكل ذلك كذب . ويكذِّبون بالحق لما جاءهم ، وهو ما ورد به الكتاب والسنة من الخبر بالحق والأمثال المضروبة له ، وكذلك كثير من الأشعار التى[4] يسمعها أهل السماع ، قد يتضمن من الكذب على الله والتكذيب بالحق أنواعاً .

ونفس الانتصار لما خالف الشريعة من السماع وغيره يتضمن الكذب على الله ، مثل أن يقول القائل : إن الله أراد/بقوله : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ ﴾ [سورة الزمر : ١٨] مستمعَ كلِ قولٍ فى العالم ، فهذا كذب على الله وإن كان قائله منا ، ولأنهم[5] يكذِّبون بالحق المخالف لأهوائهم . ص ٥٤

(١) فى الأصل : مثبتا عليه ، وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : معلونان ، وهو تحريف .
(٣) فى الأصل : يرون ، وهو تحريف .
(٤) فى الأصل : الذى ، وهو تحريف .
(٥) فى الأصل : ولاثم ، وهو تحريف .

ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [سورة الزمر : ٤١] ، فأخبر أنه أنزل القول الذى هو الكتاب بالحق ، وأن المهتدى لنفسه هداه ، وضلاله على نفسه ، والرسول ليس بوكيل عليهم ، يحصى أعمالهم ويجزيهم عليها ، بل إلى الله إيابهم ، وعلى الله حسابهم .

ثم قال : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ واتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [سورة الزمر : ٥٣-٥٥] وهذا الأحسن هنا هو الأحسن الذى فى قوله : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [سورة الزمر : ١٨] ، وفى قوله لموسى عن التوراة : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ [سورة الأعراف : ١٤٥] ، كما سنذكره إن شاء الله .

ثم قال : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُوا بَلَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [سورة الزمر : ٧١-٧٤][١] مع قوله[٢] : ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ [سورة الزمر : ٦٩] .

(١) توجد بعض كلمات محرفة فى الأصل فى آية ٧١ من سورة الزمر .

(٢) فى الأصل : إلى قوله ، وهو خطأ إذ إن الآية التالية هى آية رقم ٦٩ وهى تسبق الآيات التى قبلها

فجعل الفرقان بين أهل الجنة والنار هؤلاء الآيات التى تلتها الرسل عليهم ، فمن استمعها واتّبعها كان من المؤمنين أهل الجنة ، ومن أعرض عنها كان من الكافرين أهل النار.

والكتاب هو الذى جعله الله حاكما بين الناس ، كما قال : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾[سورة البقرة : ٢١٣].

فهذا كله إذا تدبره المؤمن علم علما يقينيا أن الكتاب والقول والحديث وآيات الله : كل ذلك/ واحد ، والمحمودون الذين أثنى الله عليهم[1] هم المتّبعون لذلك استماعا وتدبُّرا وإيمانا وعملا . أما مدح الاستماع لكل قول فهذا لا يقصده عاقل ، فضلا عن أن يُفسَّر به كلام الله ، وهذا يتوكد **بالوجه الثالث** .

ظ ٥٤

الوجه الثالث

وهو أن الله فى كتابه إنما حمد استماع القرآن ، وذم المعرضين عن استماعه ، وجعلهم أهل الكفر والجهل : الصم البكم . فأما مدحه لاستماع كل قول فهذا شئ لم يذكره الله قط ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[سورة الأعراف : ٢٠٤].

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ [سورة الأنفال : ٢][2]

وقال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ

---

(١) فى الأصل : والمحمود الذى أثنى الله عليه ، وهو تحريف .

(٢) سقطت كلمة «الذين» من الآية الكريمة .

آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا ﴾ [سورة مريم : ٥٨](١).

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ [سورة المائدة : ٨٣].

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ [سورة الإسراء : ١٠٧-١٠٩].

وقال تعالى فى ذم المعرضين عنه : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [سورة الأنفال : ٢٢-٢٣].

وقال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٧١].

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً ﴾ [سورة الفرقان : ٧٣].

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [سورة فصلت : ٢٦].

وقال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ

---

(١) سقطت عبارة «الله عليهم» من الآية الكريمة.

مُّسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [سورة المدثر : ٤٩-٥١][١] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ [سورة النجم ٥٩-٦١] . قال غير واحد من السلف : هو الغناء . فقال : اسمدْ[٢] لنا ، أى غنِّ[٣] لنا[٤] ، فذمّ المعرض عما يجب من استماع المشتغل عنه باستماع الغناء ، كما هو فعل كثير من الذين أضاعوا الصلاة واتّبعوا الشهوات ، وحال كثير من المتنسّكة فى اعتياضهم بسماع المكاء والتَّصْدِيَة عن سماع قول الله تعالى ص ٥٥

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ﴾ [سورة لقمان :٦] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ ثم قال : ﴿ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [سورة البقرة : ٦-٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [سورة فصلت :٥] .

---

(١) توجد كلمات محرفة فى الآيات السابقة ضربت عن ذكرها صفحا اكتفاء بما سبقت الإشارة إليه .

(٢) فى الأصل : اسدى ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : غنا ، وهو تحريف .

(٤) فى «تفسير ابن كثير» لآية ٦١ من سورة النجم : وقوله : (وأنتم سامدون) ، قال سفيان الثورى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال . الغناء ، هى يمانية ، اسمدْ لنا : غنِّ لنا . وكذلك قال عكرمة» . وفى تفسير الطبرى لقوله تعالى (وأنتم سامدون) : « وقال عكرمة : هو الغناء بالحميرية .. عن عكرمة عن ابن عباس قال : السامدون : المغنون» .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [سورة محمد :١٦].

وقال : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة يونس : ٤٢].

وقال : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [سورة يونس : ٤٣].

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ [سورة الأنعام :٢٥]

الوجه الرابع

الوجه الرابع : أنهم لا يستحسنون استماع كل قول منظوم ومنثور ، بل هم من أعظم الناس كراهة ونفرة لما لا يحبونه من الأقوال منظومها ومنثورها ، ونفورهم عن كثير من الأقوال أعظم من نفور المنازع لهم فى سماع المكاء والتصدية عن هذا السماع . وإذا لم يكن العموم مراداً بالاتفاق كان حمل الآية عليه باطلا .

الوجه الخامس

الوجه الخامس : أنه قال : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [سورة الزمر : ١٧ ، ١٨] فمدحهم باستماع القول واتباع أحسنه .

ظ ٥٥

ومعلوم أن كثيرا/ من القول ليس فيه حسن ، فضلا عن أن يكون فيه أحسن ، بل فيه كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ

كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [سورة إبراهيم :٢٦] .

وقال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ [سورة العنكبوت :٦٨] .

وقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٢] .

وقال : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ﴾ [سورة الحجرات :١٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ [سورة الحجرات : ١١] .

وقال : ﴿ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ [سورة المجادلة :٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [سورة النساء :٨١] .

وهو قد استدل بقوله : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾[سورة الزمر :١٨] على العموم ، وهو حجة على صدق ذلك كما تقدم

وقوله : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ ، كقوله فى هذه السورة : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[سورة الزمر : ٥٥] ، فهذه الكلمة مثل هذه الكلمة سواءً بسواء .

وهذا من معانى تشابه القرآن ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ

الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَثَانِيَ ﴾[سورة الزمر :٢٣] ، فاتباع أحسن ما أنزل إلينا من ربنا هو اتباع أحسن القول .

وبهذا أمر بنى إسرائيل حيث قال : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ [سورة الأعراف :١٤٥].

ثم قال أبو القاسم [١] : «وقال تعالى : ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [سورة الروم :١٥] ، جاء فى التفسير : أنه السماع» .

قلت : فهذا قد ورد عن طائفة من السلف : أنه السماع الحسن فى الجنة [٢] ، وأن الحور العين يغنين بأصوات لم يسمع الخلائق بأحسنَ منها ، لكن تنعيم الله تعالى لعباده بالأصوات الحسنة فى الجنة واستماعها لا يقتضى أنه يشرِّع أو يبيح سماع كل صوت فى الدنيا ، فقد وعد فى الآخرة بأشياء حرَّمها فى الدنيا ، كالخمر والحرير وأوانى الذهب والفضة .

ص ٥٦ بل قال صلى الله عليه وسلم : «من شرب الخمر فى الدنيا لم يشربها فى الآخرة» [٣] . وقال : «من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى

(١) فى «القشيرية» ٦٣٧/٢ بعد كلامه السابق مباشرة .

(٢) فى «الدر المنثور» للسيوطى فى تفسير آية ١٥ من سورة الروم « ... عن يحيى بن أبى كثير : فى روضة يحبرون قال : لذة السماع فى الجنة» . وقال ابن الجوزى فى تفسيره «زاد المسير» : «وفى معنى «يحبرون» أربعة أقوال . أحدها : يكرمون ، .. والثانى : ينعمون . قال الزجاج : والحَبْرة فى اللغة : كل نغمة حسنة . والثالث : يفرحون . والرابع . أى الحَبْر : السماع فى الجنة» .

(٣) الحديث عن ابن عمر رضى الله عنهما فى : سنن ابن ماجة ١١١٩/٢ (كتاب الأشربة ، باب من شرب الخمر فى الدنيا لم يشربها فى الآخرة) ؛ سنن النسائى (بشرح السيوطى) ٢٨٥/٨ (كتاب الأشربة ، باب الرواية فى المدمنين فى الخمر) ؛ المسند (ط.المعارف) ٣١٥/٦ ، ٣٢٩ .

الآخرة»[١] . وقال : «لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا فى صحافها ، فإنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة»[٢] .

وهذه الأحاديث من الصحاح المشاهير المجمع على صحتها ، فقد أخبر أنه من استعمل هذه الأمور فى الدنيا : من المطعوم والملبوس وغيرها لم يستعمله فى الآخرة .

فلو قيل له : هذا السماع الحسن الموعود به فى الجنة هو لمن نزَّه مسامعه فى الدنيا عن سماع الملاهى ، لكان هذا أشبه بالحق والسنة ، وقد ورد به الأثر : «يقول الله يوم القيامة : أين الذين كانوا ينزِّهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشياطين ؟ أدخلوهم وأسمعوهم تحميدى وتمجيدى والثناء علىّ ، وأخبروهم أنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[٣]

---

(١) الحديث عن ابن عمر وأنس وغيرهما من الصحابة رضى الله عنهم فى : البخارى ١٥٠/٧ (كتاب اللباس ، باب لبس الحرير ...) فى مواضع ، مسلم ١٦٤١/٣–١٦٤٢ (كتاب اللباس والزينة ، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة ...) ؛ سنن ابن ماجة ١١٨٧/٢ (كتاب اللباس ، باب كراهية لبس الحرير) ؛ المسند (ط. المعارف) ١٢٣/١–١٢٤ ، ٢٤٣ .

(٢) الحديث مع اختلاف فى الألفاظ عن حذيفة وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم فى : البخارى ١١٣/٧ (كتاب الأشربة ، باب آنية الفضة) وأوله : لاتشربوا ... الحديث ، مسلم ١٦٣٧/٣–١٦٣٨ فى موضعين (كتاب اللباس والزينة ، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة) ؛ المسند (ط.الحلبى) ٣٩٠/٥ .

(٣) أورد السيوطى فى «الدر المنثور» ١٥٣/٥ هذا الأثر مع اختلاف فى الألفاظ عن ابن أبى الدنيا فى «ذم الملاهى» والأصبهانى فى «الترغيب» عن محمد بن المنكدر ، وأخرجه الدينورى فى «المجالسة» عن مجاهد . كما أخرجه الديلمى عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم القيامة قال الله : أين الذين كانوا ينزّهون أسماعهم وأبصارهم عن مزامير الشيطان ؟ ميِّزوهم ، فيميَّزون فى كُثُب المسك والعنبر ، ثم يقول للملائكة أسمعوهم من تسبيحى وتحميدى وتهليلى . قال : فيسبّحون بأصوات لم يسمع السامعون بمثلها قط» .

ثم قال أبو القاسم[١] : «واعلم أن سماع الأشعار بالألحان الطيّبة ، والنغم المستلذة - إذا لم يعتقد المستمع محظوراً ،ولم يسمع على مذموم فى الشرع ، ولم ينجرّ فى زمام هواه ، ولم ينخرط فى سلك لهوه - مباحٌ[٢] فى الجملة . ولا خلاف أن الأشعار أُنشدت بين [يدى][٣] النبى صلى الله عليه وسلم[٤] ، وأنه سمعها ولم ينكر عليهم فى إنشادها ، فإذا جاز سماعها[٥] بغير الألحان الطيبة فلا يتغير الحكم بأن يسمع بالألحان[٦] هذا ظاهر من الأمر ، ثم ما يوجب للمستمع توفّر الرغبة على الطاعات وتَذكّر ما أعدّ الله[٧] لعباده المتّقين من الدرجات ، ويحمله على التحرز من الزلات ، ويؤدى إلى قلبه فى الحال صفاء الواردات - مستحبٌ فى الدين ، ومختارٌ فى الشرع» .

قال[٨] : «وقد جرى على لفظ الرسول[٩] صلى الله عليه وسلم ما هو قريب من الشعر ، وإن لم يقصد أن يكون شعرا» . وذكر الحديث المتفق عليه عن أنس/بن مالك قال[١٠] : كانت الأنصار يحفرون الخندق ، ظ ٥٦

(١) فى القشيرية ٦٣٧/٢ بعد الكلام السابق مباشرة .

(٢) فى الأصل : فى سلكه لهو مباح . والمثبت من «القشيرية» .

(٣) يدى : ساقطة من الأصل ، وأثبتها من «القشيرية» .

(٤) القشيرية : رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٥) القشيرية : استماعها

(٦) فى الأصل : من الألحان ، والمثبت من القشيرية» .

(٧) القشيرية : الله تعالى .

(٨) بعد الكلام السابق مباشرة .

(٩) القشيرية : رسول الله .

(١٠) ذكر القشيرى فى القشيرية ٦٣٨/٢ سندا طويلا انتهى بقوله .. حدثنا شعبة عن حميد قال : سمعت أنسا يقول ...

فجعلوا يقولون :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخره فأكرم الأنصار والمهاجره[١] .

وقال[٢] : «ليس[٣] هذا اللفظ منه ، صلى الله عليه وسلم ، على وزن الشعر»[٤] .

قلت : تضمّن هذا الكلام شيئين :

أحدهما : إباحة سماع الألحان والنغمات المستلذة بشرط ألّا يعتقد المستمع محظورا ، وألّا يسمع مذموما[٥] فى الشرع ، وألّا يتّبع[٦] منه هواه

والثانى : أن ما أوجد للمستمع الرغبة فى الطاعات ، والاحتراز من

---

(١) الحديث عن أنس بن مالك وغيره من الصحابة رضى الله عنهم مع اختلاف فى بعض الألفاظ فى البخارى ٢٥/٤ (كتاب الجهاد والسير ، باب التحريض على القتال ..) ، ٥٠/٤ (نفس الكتاب ، باب البيعة فى الحرب ألا يفروا ..) وأوله : كانت الأنصار يوم الخندق تقول .. الخ . والحديث فى مواضع أخرى فى البخارى ، وفى : مسلم ١٤٣١/٣-١٤٣٢ فى عدة مواضع (كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة الأحزاب وهى الخندق) .

(٢) بعد الكلام السابق مباشرة .

(٣) القشيرية : وليس

(٤) القشيرية ... الشعر ، لكنه قريب منه .

(٥) فى الأصل : ولم يسمع مذموم ، وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : ولم يتبع ، وهو تحريف

الذنوب ، وتذكر وعد الحق ، ووصول[١] الأحوال الحسنة إلى قلبه فهو مستحب .

وعلى هاتين المقدمتين بنى من قال باستحباب ذلك ، مثل أبى عبد الرحمن السلمى وأبى حامد وغيرهما ، وفى هؤلاء من قد يوجبه أحيانا إذا رأَوْا أنه لا يُؤدَّى الواجبُ إلا به .

وكذلك قد يفضّلونه على سماع القرآن إذا رأوا أن ما [يحصل بسماع الألحان أكثر مما][٢] يحصل بسماع القرآن[٣] . وهم فى ذلك يضاهون لمن يوجب من الكلام المحدَث ما يوجبه ، ولمن يفضّل [ما][٤] فيه من العلم على ما يُستفاد من القرآن والحديث .

لكن فى أولئك من يرى الإيمان لا يتم إلا بما ابتدعوه من الكلام ، وفيهم من يكفّر بمخالفته أو يفسّق[٥] .

وأهل السماع أيضا فيهم من يرى الإيمان لا يتم إلا به ، وفيهم من يقول فى مُنْكِرِه الأقوال العظيمة ، وقد يكون يسعى فى قتل منكِرِه ، لكن جنسهم [كان] خيرا من [جنس] المتكلمة[٦] ممّا فعلوا غير ذلك

(١) فى الأصل : وصول ، وهو تحريف .

(٢) مابين المعقوفتين ساقط من الأصل ، وزدته ليستقيم الكلام .

(٣) يقول الغزالى فى كتابه «إحياء علوم الدين» ١٨٨/٦ «فإن قلت : فإنه كان سماع القرآن مفيداً للوجد ، فما بالهم يجتمعون على سماع الغناء من القوّالين دون القارئين ..؟» ويجيب على ذلك بقوله : «فاعلم أن الغناء أشد تهييجا للوجد من القرآن من سبعة أوجه» ويذكر الغزالى هذه الأوجه السبعة بعد ذلك ١٨٨/٦-١٩٣ (ط. لجنة نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٥٦) .

(٤) ما : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقم الكلام .

(٥) فى الأصل : أو يفسّقهم .

(٦) فى الأصل : لكن جنسهم خيرا من المتكلمة . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

من الذنوب كما [يستحبُّون علم الكلام ويوجبونه] ،[١] ويذمُّون تاركه ويسبُّونه ، ويعاملونه من العداوة بما يُعامل به الكافر وبإزاء استحباب هؤلاء أو إيجابهم أن قوما من أهل العلم يكفِّرونهم باستحباب ذلك أو إيجابه . ولهذا تجد[٢] /فى المستحبين له وفى المنكرين له من الغلو ما أوجب الافتراق والعداوة والبغضاء ، وأصل ذلك ترك الفريقين جميعا لما شرعه الله من السماع الشرعى الذى يحبه الله ورسوله وعباده المؤمنون[٣] .

ص ٥٧

وهاتان المقدمتان كلاهما غلط مشتمل على دليل[٤] مجمل ، من جنس استدلالهم بما ظنوه من العموم فى قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾[سورة الزمر : ١٨] ، وبما وعد الله به فى الآخرة من السماع الحسن .

ولهذا نشأ من هاتين المقدمتين اللتين لُبِّس فيهما الحق بالباطل قول لم يذهب إليه أحد من سلف الأمة ولا أئمتها ، فإنه وإن نقل عن بعض أهل المدينة وغيرهم أنه سمع الغناء ، فلم يقل أحد منهم أنه مستحب فى الدين ومختار فى الشرع أصلا ، بل كان فاعل ذلك منهم يرى مع ذلك كراهته ، وأن تركه أفضل ، أو يرى أنه من الذنوب ، وغايته أن يطلب سلامته من الإثم أو يراه مباحا ، كالتوسع فى لذات المطاعم والمشارب والملابس والمساكن . فأما رجاء الثواب بفعله والتقرب إلى الله فهذا لا

(١) بعد «كما» يوجد بياض بمقدار كلمتين فى الأصل ، ولعل ما أثبته بين المعقوفتين يستقيم به الكلام .

(٢) فى الأصل : ولهذا اتحد ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : المؤمنين ، وهو خطأ .

(٤) فى الأصل : ذلك ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

يحفظ عن أحد من سلف الأمة وأئمتها ، بل المحفوظ عنهم أنهم رأوا هذا من ابتداع الزنادقة ، كما قال الحسن بن عبد العزيز الجروى[(١)] : سمعت الشافعى يقول : خلَّفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمّونه : التغبير ، يصدُّون به الناس عن القرآن[(٢)]

والتغبير : هو الضرب بالقضيب .غبَّر أى أثار غباراً ، وهو آلة من الآلآت التى تُقرن بتلحِين الغناء .

والشافعى بكمال علمه وإيمانه علم أن هذا مما يصدُّ القلوب عن القرآن ، ويعوِّضها به عنه ، كما قد وقع أن هذا إنما يقصده زندبق منافق من منافقة المشركين أو الصابئين وأهل الكتاب ، فإنهم هم الذين أمروا بهذا فى الأصل ، كما قال ابن الراوندى[(٣)] : «اختلف الفقهاء فى

(١) أبو على الحسن بن عبد العزيز بن الوزير بن صابى الجروى المصرى نزيل بغداد ، كان من أعيان المحدثين الثقات ، توفى سنة ٢٥٧ . انظر ترجمته فى : تهذيب التهذيب ٢/٢٩١-٢٩٢ ؛ تاريخ بغداد ٧/٣٣٧-٣٣٩ ؛ اللباب فى تهذيب الأنساب ١/٢٢٣ .

(٢) ذكر ابن الجوزى فى «تلبيس إبليس» (ص ٢٣٠) الخبر بسنده إلى الحسن بن عبد العزيز الجروى (وفيه : الحروى) كما يلى : «قال سمعت محمد بن إدريس الشافعى يقول : خلفت بالعراق شيئا أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير ، يشغلون به الناس عن القرآن» ثم علق ابن الجوزى بقوله : «وقد ذكر أبو منصور الأزهرى : المغيِّرة قوم يغيِّرون ذكر الله بدعاء وتضرع ، وقد سموا مايطربون به من الشعر فى ذكر الله عز وجل تغبيرا ، كأنهم إذا شاهدوها بالألحان طربوا ورقصوا ، فسموا مغيّرة لهذا المعنى . وقال الزجّاج : سموا مغيرين لتزهيدهم الناس فى الفانى من الدنيا وترغيبهم فى الآخرة».

(٣) أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندى ، أو ابن الراوندى ، ويقال ابن الربوندى ، زنديق ملحد ، كان أولا من متكلمى المعتزلة ، ونسبت إليه فرقة منهم هى «الراوندية» ، ثم تزندق واشتهر بالإلحاد وكتب كتابا يرد فيه على المعتزلة هو كتاب «فضيحة المعتزلة» وقد رد عليه ابن الخياط من المعتزلة بكتابه «الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد» وقد طارد السلطان أبو عيسى فى زمن الخليفة المقتدر بالله ابن الراوندى فهرب ولجأ إلى ابن لاوى اليهودى بالأهواز وصنف له كتابه الذى سماه «الدامغ للقرآن» . وقد توفى ابن الراوندى سنة ٢٩٨ ويقال صلب وهو ابن ٨٦ سنة . انظر ترجمته فى : =

ظ ٥٧

السماع : فقال بعضهم : هو مباح ./وقال بعضهم : هو محرَّم . وعندى أنه واجب» . وهذا مما اعتضد به أبو عبد الرحمن[١] فى مسألة السماع ، وهذا[٢] متهم[٣] بالزندقة .

وكذلك ابن سينا فى «إشاراته »أمر بسماع الألحان ، وبعشق الصور ، وجعل ذلك مما يزكى النفوس ، ويهذبها[٤] ويصفِّيها[٥] ، وهو من

= البداية والنهاية ١١/١١٢-١١٣ ؛ المنتظم ٦/٩٩-١٠٥ ؛ شذرات الذهب ٢/٢٣٥-٢٣٦ ؛ وفيات الأعيان ١/٧٨ ؛ لسان الميزان ١/٣٢٣-٣٢٤ ؛ الأعلام ١/٢٥٢-٢٥٣ .

(١) لعل ابن تيمية يقصد أبا عبد الرحمن السلمى .

(٢) أى : وابن الراوندى .

(٣) فى الأصل : متم ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : ويهدى بها ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) يقول ابن سينا فى كتابه «الإشارات والتنبيهات» ٣، ٤/٨٢٠-٨٢٧ : «ثم إنه ليحتاج إلى الرياضة . والرياضة متوجهة إلى ثلاثة أغراض : الأول : تنحية ما دون الحق عن مستن الإيثار . والثانى : تطويع النفس الأمارة ، للنفس المطمئنة ، لتنجذب قوى التخيل والوهم إلى التوهمات المناسبة للأمر القدسى ؛ منصرفة عن التوهمات المناسبة للأمر السفلى . والثالث : تلطيف السر للتنبّه . والأول : يعين عليه الزهد الحقيقى . والثانى : يعين عليه عدة أشياء : العبادة المشفوعة بالفكرة . ثم الألحان المستخدمة لقوى النفس المُوقِّعة لما لُحِّن به من الكلام ، موقع القبول من الأوهام . ثم نفس الكلام الواعظ ، من قائل ذكى بعبارة بليغة ، ونغمة رخيمة ، وسمت رشيد . وأما الغرض الثالث : فيعين عليه : الفكر اللطيف ، والعشق العفيف الذى يأمر فيه شمائل المعشوق ، ليس سلطان الشهوة».

ولابن سينا رسالة «فى ماهية العشق» ط. استانبول ،١٩٥٣ عنوان الفصل الخامس منها (ص ١٤) : «فى ذكر عشق الظرفاء والفتيان للأوجه الحسان» ويقول فيه (ص١٩) : «وعشق الصورة الحسنة من الإنسان قد يتبعه أمور ثلاثة : أحدها حب معانقته ، والثانى حب تقبيله ، والثالث حب مباضعته . فأما حب المباضعة فما يتيقن عنده أن هذا العشق ليس خاصا إلا بالنفس الحيوانية ...». ثم يقول ابن سينا (ص ٢٠) : «وأما المعانقة والتقبيل فإذا كان الغرض فيهما هو التقارب أو الاتحاد ، وذلك لأن النفس تود أن تنال معشوقها بحسها اللمسى نَيْلَها بحسها البصرى فتشتاق إلى معانقته ... فليسا بمنكرين فى ذاتيهما ، لكن استتباعها بالعرض ، أعنى أموراً شهوانية فاحشة توجب التوق عنهما ... فمن عشق هذا الضرب من العشق فهو فتى ظريف ، وهذا العشق هو المنسوب إلى الفتيان والظرفاء» . ويقول ابن سينا قبل ذلك : «إن النفس النطقية والحيوانية أيضا -لجوار النطقية- أبدا تعشقان كل شئ حسن النظم والتأليف والاعتدال ، مثل المسموعات الموزونة وزنا متناسبا ..».

الصابئة الذين خلطوا بها[(١)] من الحنيفية ما خلطوا ، وقبله الفارابى كان إماما فى صناعة التصويت موسيقاوياً عظيما[(٢)] .

فهذا كله يحقق قول الشافعى رضى الله عنه . ونحن نتكلم على المقدّمتين إن شاء الله بكلام يناسب ما كتبته هنا .

فأما احتجاجه بأن النبى صلى الله عليه وسلم سمع ما أُنشد بين يديه من الأشعار ولم ينكره ، وأنه قال ما يشبه الشعر – فيقال : بل الشعر أعظم مما وصفته ، فقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن من الشعر حكمة »[(٣)] .

---

(١) أى بدين الصابئة . وذكر ابن تيمية فى عدة مواضع من كتابه «درء تعارض العقل» وغيره من كتبه أن ابن سينا كان من أتباع القرامطة الباطنية الذين كانوا بمصر ، وأنه كان هو وأهل بيته من أهل دعوة هؤلاء المصريين . انظر مثلا : درء تعارض العقل والنقل ٢٨٩/١–٢٩٠ ، ١٠/٥ ، ٥٩/١٠–٦٠ (وانظر تعليقى على هذه المواضع) .

(٢) كان الفارابى من أعظم الموسيقيين فى عصره . ذكر ابن خلكان فى ترجمته (وفيات الأعيان ٢٤١/٤) أنه كان فى مجلس سيف الدولة بن حمدان : «فقال : فهل تسمع ؟ فقال : نعم . فأمر سيف الدولة بإحضار القيان ، فحضر كل ماهر فى هذه الصناعة بأنواع الملاهى ، فلم يحرك أحد منهم آلته إلا وعابه أبو نصر (الفارابى) وقال له : أخطأت ، فقال له سيف الدولة : وهل تحسن فى هذه الصنعة شيئا؟ فقال : نعم ، ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها وأخرج منها عيدانا وركبها ، ثم لعب بها ، فضحك منها كل من كان فى المجلس ، ثم فكها وركبها تركيبا آخر ، ثم ضرب بها فبكى كل من كان فى المجلس ، ثم فكها وغيّر تركيبها وضرب بها ضربا آخر فنام كل من فى المجلس حتى البواب ، فتركهم نياما وخرج . ويحكى أن الآلة المسماة بالقانون من وضعه ، وهو أول من ركبها هذا التركيب».

وذكر الزركلى فى ترجمته للفارابى فى «الأعلام» ٢٤٣/٧ من كتبه المخطوطة : «المدخل إلى صناعة الموسيقى». وقد طبع للفارابى كتاب ضخم هو كتاب «الموسيقى الكبير» حققه غطاس عبد الملك خشبة وراجعه دكتور محمد أحمد الحفنى ، فى سلسلة «تراثنا» ، ط. دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ .

(٣) الحديث عن أبى بن كعب وابن عباس وآخرين من الصحابة رضوان الله عليهم فى : البخارى ٨ /٣٤ (كتاب الأدب ، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه) ؛ سنن=

وقال : «جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم وأموالكم»[(١)] .

وكان ينصب لحسَّان منبرا لينشد الشعر الذى يهجو فيه المشركين ، وقال : «اللهمَّ أيِّده بروح القدس»[(٢)] [وقال صلى الله عليه وسلم له : « إن روح القدس] معك ما دمت تنافح عن نبيه»[(٣)] .

وقال عن عبد الله بن رواحة : «إن أخاً لكم لا يقول الرفث»[(٤)] .

= الترمذى ٢١٦/٤ (كتاب الأدب ، باب ما جاء إن من الشعر حكمة) ؛ سنن ابن ماجة ١٢٣٥/٢-١٢٣٦ (كتاب الأدب ، باب الشعر) ؛ سنن الدارمى ٢٩٦/٢-٢٩٧ (كتاب الاستئذان ، باب فى أن من الشعر حكمة) ؛ المسند (ط. المعارف) ١٣٨/٤-١٣٩ ومواضع أخرى .

(١) الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ١٦/٣ (كتاب الجهاد ، باب كراهية ترك الغزو) ؛ سنن الدارمى ٢١٣/٢ (كتاب الجهاد ، باب فى جهاد المشركين باللسان واليد) .

(٢) الحديث عن حسان بن ثابت وأبى هريرة وعمر رضى الله عنهم فى : البخارى ٩٤/١ (كتاب الصلاة ، باب الشعر فى المسجد) ؛ مسلم ٤ /١٩٣٢ ، ١٩٣٣ (كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل حسَّان بن ثابت) وأوله : إن عمر مرّ بحسّان وهو ينشد الشعر فى المسجد .. الحديث . والحديث أيضا فى : النسائى ٣٧/٢ (كتاب المساجد ، باب الرخصة فى إنشاد الشعر الحسن فى السجد) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٢٢٢/٥ . والحديث مع اختلاف فى اللفظ فى : البخارى ٣٦/٨ (كتاب الأدب ، باب هجاء المشركين).

(٣) فى الأصل : بروح القدس معك ما دمت تنافح عن نبيه . ولعل الصواب ما أثبته . والقسم الثانى الذى يبدأ بالعبارات التى بين المعقوفتين هو معنى حديث آخر عن عائشة رضى الله عنها جاء فى : مسلم ١٩٣٥/٤-١٩٣٨ (كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل حسّان بن ثابت) ولفظه : «إن روح القدس لايزال يؤيدك ، ما نافحت عن الله ورسوله» . والحديث فى : سنن أبى داود ٤١٥/٤-٤١٦ (كتاب الأدب ، باب ماجاء فى الشعر) ولفظه فيه : «إن روح القدس مع حسَّان ما نافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) وهو أيضا فى سنن الترمذى ٢١٦/٤-٢١٧ (كتاب الأدب ، باب ماجاء فى إنشاد الشعر) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٧٢/٦ .

(٤) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٥٤/٢-٥٥ (كتاب التهجد ، باب فضل من تعارَّ فى الليل فصلى) ، ٣٦/٨(كتاب الأدب ، باب هجاء المشركين) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٣ / ٤٥١ .

وقد استنشد الشريد بن سويد الثقفى مائة قافية من شعر أُمَيَّة بن أبى الصلت وهو يقول : هيه هيه[١] .

وسمع قصيدة كعب بن زهير[٢] ، وهذا باب واسع .

وقد قال الله تعالى فى كتابه ، بعد أن قال : ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [سورة الشعراء : ٢٢٤] : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [سورة الشعراء : ٢٢٥-٢٢٧] ، فلم يذم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا ،/ من الشعراء المنتصرين من بعد ما ظُلموا . ص ٥٨

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً

---

(١) الحديث عن عمرو بن الشريد عن أبيه رضى الله عنه فى : مسلم ١٧٦٧/٤ (كتاب الشعر ، الحديث الأول) ؛ سنن ابن ماجة ١٢٣٦/٢ (كتاب الأدب ، باب الشعر) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٣٨٨/٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

(٢) ذكرت كتب السيرة والتاريخ قصة إهدار الرسول صلى الله عليه وسلم لدم كعب بن زهير قبل إسلامه ، ثم قصة إسلامه – رضى الله عنه – وقدومه المدينة وإنشاده قصيدته المشهورة التى أولها

بانت سعاد فقلبى اليوم متبولُ متيم إثرها لم يفد مكبول

بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعفو النبى صلى الله عليه وسلم عنه .

انظر الخبر فى : سيرة ابن هشام ١٤٤/٤-١٥٨ ؛ جوامع السيرة لابن حزم (تحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد ، ط. المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ) ، ص ٢٤٩ ؛ الإصابة لابن حجر ٢٧٩/٣-٢٨٠ ؛ الاستيعاب لابن عبد البر (بذيل الإصابة) ٢٨٠/٣-٢٨٢

حتى يَرِيَهُ[1] خير من أن يمتلئ شعرا»[2] ، فذم الممتلئ بالشعر الذى لم يُستعمل بما يوجب الإيمان والعمل الصالح وذكر الله كثيرا ، ولم يذم الشعر مطلقا ، بل قد [يبيِّن معنى الحديث] ما قاله الشافعى[3] : «الشعر كلام ، فَحَسَنُهُ كَحَسَنِ الكلام وقبيحه كقبيحه» هذا قوله فى الشعر مع قوله فى التغبير ، ليبيِّن أن إباحة أحدهما غير مستلزمة الآخر .

وأما قوله : «فإذا جاز سماعها بغير الألحان الطيّبة فلا يتغير الحكم بأن تسمع بالألحان الطيبة ، هذا ظاهر من الأمر» – فإن هذه حجة فاسدة جدا ، والظاهر إنما هو عكس ذلك . فإن نفس سماع الألحان مجرداً عن كلام يحتاج إلى أن تكون مباحة مع انفرادها ، وهذا من أكبر مواقع النزاع ، فإن أكثر المسلمين على خلاف ذلك ، ولو كان كل من الشعر أو التلحين مباحاً على الانفراد ، لم يلزم الإباحة عند الاجتماع إلا بدليل خاص ، فإن التركيب له خاصة يتعين الحكم بها .

---

(١) قال ابن حجر فى «فتح البارى» ٥٤٨/١٠ (ط. السلفية) : «ويريه : بفتح الياء آخر الحروف بعدها راء ثم ياء أخرى . قال الأصمعى : هو من الوَرْى بوزن الرَمْى . يقال منه : رجل مورى ، غير مهموز ، وهو أن يورى جوفه .. وقال أبو عبيد : الورى هو أن يأكل القيح جوفه ... وقيل معنى قوله : «حتى يريه» أى يصيب رئته ..» .

(٢) الحديث عن ابن عمر وأبى هريرة رضى الله عنهم فى : البخارى ٣٦/٨–٣٧ (كتاب الأدب ، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن) ؛ مسلم ١٧٦٩/٤ (كتاب الشعر ،الحديث السابع) ؛ سنن أبى داود ٤١٤/٤ (كتاب الأدب ، باب ماجاء فى الشعر) ؛ سنن الترمذى ٢١٩/٤ (كتاب الأدب ، باب ماجاء : لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا ...) ؛ سنن ابن ماجة ١٢٣٧/٢ (كتاب الأدب ، باب ماكره من الشعر) ؛ سنن الدارمى ٢٩٧/٢ (كتاب الاستئذان ، باب لأن يمتلئ جوف أحدكم ..) ؛ المسند (ط. المعارف) ٥٦/٣ ، ٥٧ ، ٦٨ ومواضع أخرى كثيرة فى المسند .

(٣) فى الأصل : بل قد ما قاله الشافعى . ولعل ما أثبته يتم به الكلام ويستقيم .

وهذه الحجة بمنزلة حجة من قال : إن خبر الواحد إذا لم يُفِد العلم عند انفراده لم يفد العلم مع نظائره ومع القرائن ، فَجَحَدَ العلم الحاصل بالتواتر .

وبمنزلة ما يُذكر عن إياس بن معاوية أن رجلا قال له : ما تقول فى الماء ؟ قال : حلال . قال : والتمر ؟ قال : حلال . قال : فالنبيذ ؟ [قال :] ماء وتمر[١] .

فقال له إياس بن معاوية : أرأيت لو ضربتُكَ بكف من ترابٍ أكنت أَقْتُلك ؟ قال : لا . قال : فإن ضربتك بكف من تبن أكنت أقتلك ؟ قال : لا . قال : فإن ضربتك بماء أكنت أقتلك ؟ قال : لا . قال : فإن أخذت الماء والتبن والتراب فجعلتها طينا ، وتركته حتى جف ، وضربتك به ، أقتلك ؟ قال : نعم . فقال : كذلك النبيذ . يقول : إن القاتل هو القوة الحاصلة بالتركيب ، والمفسد للعقل هو القوة/ المسكرة الحاصلة بالتركيب . ظ ٥٨

وكذلك هنا : الذى يسكر النفوس ويلهيها ويصدها عن ذكر الله وعن الصلاة قد يكون فى التركيب ، وليست الأصوات المجتمعة فى استفزازها للنفوس وإزجاعها : إما بنياحةٍ وتحزين ، وإما بإطرابٍ وإسكار ، وإما بإغضابٍ وحَمِيَّة ، بمنزلة الصوت الواحد .

وهذا القرآن – الذى هو كلام الله – وقد نَدَبَ [النبى صلى الله عليه وسلم][٢] إلى تحسين الصوت به ، وقال : «زيِّنوا القرآن بأصواتكم»[٣] .

---

(١) قال : زدتها ليستقيم الكلام . وفى الأصل : وجر ، وهو تحريف .

(٢) عبارة : النبى صلى الله عليه وسلم ، زدتها لإيضاح الكلام .

(٣) ذكر البخارى الحديث على أنه عنوان أحد أبواب كتاب التوحيد فقال ٩ /١٥٧ (كتاب =

وقال لأبي موسى : «لقد مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك . فقال : لو علمت أنك تستمع لحَبَّرْتُهُ لك تحبيرا»(١) .

وكان عمر يقول : يا أبا موسى ، ذكِّرْنَا ربنا ، فيقرأ أبو موسى وهم يستمعون(٢) .

= التوحيد ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : الماهر بالقرآن مع الكرام البررة ، وزيِّنوا القرآن بأصواتكم) ولم يذكر الحديث ضمن أحاديث الباب . أما أبو داود فروى الحديث فى سننه عن البراء بن عازب رضى الله عنه ٢ /٩٩ (كتاب الوتر ، باب استحباب الترتيل فى القراءة) . ورواه عنه من طريقين النسائى فى سننه (بشرح السيوطى) ٢/١٣٩–١٤٠ (كتاب افتتاح الصلاة ، باب تزيين القرآن بالصوت) . ورواه عنه أيضا : ابن ماجة فى سننه ٢/٢٤٦ (كتاب إقامة الصلاة ، باب فى حسن الصوت بالقرآن) ؛ الدارمى فى سننه ٢ /٤٧٤ (كتاب فضائل القرآن ، باب التغنى بالقرآن) ؛ أحمد فى مسنده (ط. الحلبى) ٤/٢٨٣ ، ٢٨٥ .

(١) جاء الحديث عن أبى موسى الأشعرى ونصه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لو رأيتنى البارحة ، وأنا أسمع لقراءتك ؟ لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود» . قال ابن الأثير فى «جامع الأصول ١٠ /٥٣ إنه فى البخارى ومسلم وسنن أبى داود . وهو فى : البخارى ٦/١٩٥ (كتاب فضائل القرآن ، باب حسن الصوت بالقراءة) . وهذا الحديث وحديث آخر رواه عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن عبد الله بن قيس ، أو الأشعرى ، أعطى مزماراً من مزامير آل داود» فى : مسلم ١/٥٤٦ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن) وهو بمعناه عن أبى هريرة فى : المسند (ط. الحلبى) ٢/ ٣٥٤ ، ٣٦٩ ، ٤٥٠ ؛ سنن الدارمى ٢/ ٤٧٣ (كتاب فضائل القرآن ، باب التغنى بالقرآن) . وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه فى سنن الدارمى فى نفس الموضع السابق وفى المسند (ط. الحلبى) ٥/٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٩ . وعن عائشة فى المسند (ط. الحلبى) ٦/٣٧ ، ١٦٧ ؛ سنن الدارمى ١/٣٤٩ (كتاب الصلاة ، باب التغنى بالقرآن) .

أما الزيادة التى فيها كلام أبى موسى رضى الله عنه ، فقال ابن الأثير فى «جامع الأصول» ١٠ /٥٣–٥٤ : «قال الحميدى : زاد البرقانى : قلت : والله يارسول الله ، لو علمت أنك تسمع قراءتى لحبرته لك تحبيرا . قال : وحكى أن مسلما أخرجه . ولم أجد هذه الزيادة فيا عندنا من كتاب مسلم» .

(٢) هذا الخبر رواه الدارمى عن ابن شهاب عن أبى سلمة بن عبد الرحمن فى سننه ٢ /٤٧٢ (كتاب فضائل القرآن ، باب التغنى بالقرآن) . وذكره ابن حجر فى الإصابة ٢ /٣٥٢ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أَذِنَ الله لشئ[(١)] كأَذَنِهِ لنبى حسن الصوت ، يتغنَّى بالقرآن ، يجهر به»[(٢)] .

وقال : «لله أشد أَذَناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»[(٣)] .

ومع هذا فلا يسوغ أن يقرأ القرآن بألحان الغناء ، ولا أن يقرن به من الألحان ما يقرن بالغناء من الآلات وغيرها ، لا عند من يقول بإباحة ذلك ولا عند من يحرِّمه ، بل المسلمون متفقون على الإنكار لأن يُقرن بتحسين الصوت بالقرآن الآلات المطربه بالفم[(٤)] كالمزامير ، وباليد كالغرابيل .

فلو قال قائل : النبى صلى الله عليه وسلم قد قرأ القرآن ، وقد استقرأه من ابن مسعود ، وقد استمع لقراءة أبى موسى ، وقال : «لقد أوتى مزمارا من مزامير داود» — فإذا قال قائل : إذا جاز ذلك بغير هذه الألحان ، فلا

---

(١) فى الأصل : لنبى ، وهو تحريف . والمثبت هو لفظ الحديث فى كتب السنة .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٦ /١٩١ (كتاب فضائل القرآن ، باب من لم يتغن بالقرآن) ، ٩ /١٥٧ (كتاب التوحيد ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : الماهر بالقرآن مع الكرام البررة ..) ؛ مسلم ١ /٥٤٥-٥٤٦ (كتاب صلاة المسافرين ، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن) ؛ سنن أبى داود ٢ /١٠١ (كتاب الوتر ، باب استحباب الترتيل فى القراءة) ؛ سنن النسائى ٢ /١٤١ (كتاب افتتاح الصلاة ، باب تزيين القرآن بالصوت) ؛ سنن الدارمى ١ /٣٤٩ (كتاب الصلاة ، باب التغنى بالقرآن) ؛ المسند (ط. المعارف) ١٤ /٨٦-٨٨ ، ٢٢٩ . ومعنى قوله : أَذِنَ : أى استمع .

(٣) الحديث عن فضالة بن عبيد رضى الله عنه فى : سنن ابن ماجة ١ /٤٢٥ (كتاب إقامة الصلاة ، باب فى حسن الصوت بالقرآن) . وقال الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى فى تعليقه : «فى الزوائد : إسناده حسن» . وقال : «أَذَناً : بفتحتين ، بمعنى : استماعا» والحديث عن فضالة أيضا فى : المسند (ط. الحلبى) ٦ /١٩ ، ٢٠ .

(٤) فى الأصل : بالفهم ، وهو تحريف .

يتغير الحكم بأن يسمع بالألحان – كان هذا منكرا من القول وزوراً باتفاق الناس .

وأما المقدمة الثانية ، وهى قوله بعد أن أثبت الإباحة : « إن ما أوجب للمستمع أن يوفِّر الرغبة على الطاعات ، ويذكِّر ما أعد الله لعباده المتقين من الدرجات ، ويحمله على [التحرز][1] / من الزلات ، ويؤدى إلى قلبه فى الحال[2] صفاء الواردات – مستحب فى الدين ، ومختار فى الشرع» – فنقول : تحقيق هذه المقدمة : أن الله سبحانه يحب الرغبة فيما أمر به ، والحذر مما نهى عنه ، ويحب الإيمان بوعده ووعيده وتذكّر ذلك[3] وما يوجبه من خشيته ورجائه[4] ومحبته والإنابة[5] إليه ، ويحب الذين يحبونه ، فهو يحب الإيمان – أصوله وفروعه – والمؤمنين ، والسماع يحصِّل المحبوب ، وما حصَّل المحبوب فهو محبوب ، فالسماع محبوب .

ص ٥٩

وهذه المقدمة مبناها على أصلين :

أحدهما : معرفة ما يحبه الله .

والثانى : أن السماع يحصِّل محبوب الله خالصا أو راجحا .

فإنه إذا حصَّل محبوبه ومكروهه ، والمكروه أغلب ، كان مذموما ، وإن تكافأ فيه المحبوب والمكروه ، لم يكن محبوبا ولا مكروها .

---

(١) التحرز : ساقطة من الأصل من هذا الموضع ، وسبق ورودها من قبل .

(٢) فى الأصل : ألحان ، وهو تحريف ، وسبق ورود الكلمة من قبل كما أثبتها هنا .

(٣) فى الأصل : وبذكر ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : ورجاه ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : والإبانة ، وهو تحريف .

أما الأصل الأول : وهو معرفة ما يحبه الله ، فهى أسهل ، وإن كان غلط فى كثير منها كثير من الناس .

وأما الأصل الثانى : وهو أن السماع المحدَث يحصِّل هذه المحبوبات ، فالشأن فيها ، ففيها زل من زل ، وضل من ضل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

التعليق على الكلام السابق من وجوه : الوجه الأول

ونحن نتكلم على ذلك بوجوه نبيِّن بها إن شاء الله المقصود :

الوجه الأول : أن نقول : يجب أن يُعرف أن المرجع فى القُرَبِ والطاعات والديانات والمستحبات إلى الشريعة ، ليس لأحدٍ أن يبتدع دينا لم يأذن الله به ، ويقول : هذا يحبه الله ، بل بهذه الطريق بُدِّل دين الله وشرائعه ، وابتدع الشرك وما لم يُنزِّل الله به سلطانا .

وكل ما فى الكتاب والسنة ، وكلام سلف الأمة ، وأئمة الدين ومشايخه ، من الحضِّ على اتّباع ما أُنزل إلينا من ربنا ، واتّباع صراطه المستقيم ، واتّباع الكتاب ، واتّباع الشريعة ، والنهى عن ضد ذلك ، فكله نهى عن هذا ، وهو ابتداع دين لم يأذن الله به ، سواء كان الدين فيه عبادة غير الله وعبادة الله بما لم يأمر به ، بل دين الحق أن نعبد الله وحده لا شريك له بما أمرنا به على ألسنة رسله ، كما قال الفضيل بن عياض فى قوله : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [سورة الملك : ٢] قال : أخلصه وأصوبه . قيل : [يا أبا على : ما أخلصه وأصوبه ؟][1] فقال : إن العمل

ظ ٥٩

(١) مابين المعقوفتين ساقط من الأصل ، وما أثبته هو تمام الكلام المأثور عن الفضيل . وانظر الخبر فى رسالة «العبودية» لابن تيمية ، ص ٧٦ (تحقيق الأستاذ عبد الرحمن البانى ، ط. المكتب الإسلامى ، ط. ثانية ، بيروت ، ١٣٨٩)= مجموع فتاوى الرياض ١٠/١٧٣-١٧٤

إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يُقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يُقبل ، حتى يكون خالصا صوابا . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة .

وكلام المشايخ الذين ذكرهم أبو القاسم فى هذا الأصل كثير ، مثل ما ذكره عن الشيخ أبى[١] سليمان الدارانى أنه قال : ربما يقع النكتة فى قلبى من نكت القوم أياماً فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة[٢] .

وعن صاحبه أحمد بن أبى الحوارى أنه قال : من عمل بلا اتّباع سنة فباطل عمله .

وعن سهل بن عبد الله التسترى أنه قال : كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء : طاعة كان أو معصية فهو عيش النفس ، وكل فعل يفعله بالاقتداء فهو عذاب على النفس[٣] . وعن أبى حفص النيسابورى أنه قال : من لم يزن أفعاله وأحواله كل وقت بالكتاب والسنة ، ولم يتهم خواطره ، فلا تعده فى ديوان الرجال .

وعن الجنيد بن محمد أنه قال : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم .

وعن الجنيد أيضا أنه قال : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة . وعن أبى

(١) فى الأصل : أبا ، وهو خطأ .
(٢) أورد هذا الكلام القشيرى فى «القشيرية» ١/٨٦ .
(٣) أورد القشيرى هذا الكلام للتسترى فى «القشيرية ١/٨٥ .

عثمان النيسابورى أنه قال : من أمَّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمَّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة . قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [سورة النور : ٥٤] .

وعن أبى حمزة البغدادى قال : من علم [طريق الحق تعالى سَهُلَ عليه سلوكه ، ولا دليل على][(١)] الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول فى أحواله وأقواله وأفعاله .

وعن أبى عمرو بن نجيد قال : كل حال لا يكون نتيجة علم فإن ضرره أكثر على صاحبه من نفعه . وسُئل عن التصوف فقال : الصبر تحت الأمر والنهى

وعن أبى يعقوب النهرجورى قال : أفضل الأحوال ما قارن العلم .

ص ٦٠ /ومثل هذا كثير فى كلام أئمة المشايخ ، وهم إنما وصُّوا بذلك لما يعلمونه من حال كثير من السالكين : أنه يجرى مع ذوقه ووجده وما يراه ويهواه ، غير[(٢)] متبع لسبيل الله التى بعث بها ، وهذا من نوع الهوى بغير هدى من الله .

والسماع المحدَث يحرِّك الهوى . ولهذا كان بعض المشايخ المصنِّفين فى ذمه سمى كتابه «الدليل الواضح فى النهى عن ارتكاب الهوى الفاضح» . ولهذا كثيرا ما يُوجد فى كلام المشايخ الأمر بمتابعة[(٣)] العلم ، يعنون بذلك

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل ، وأثبته من كلام أبى حمزة البغدادى الذى أورده القشيرى فى «القشيرية» ١ /١٣٩ .

(٢) فى الأصل : عن ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : بمتاعة . ولعل الصواب ما أثبته .

الشريعة كقول أبي يزيد البسطامي رحمه [الله][(١)] : عملت فى المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد عليَّ من العلم ومتابعته ، ولولا اختلاف العلماء لتفتت[(٢)] ، واختلاف العلماء رحمة إلا فى تجريد التوحيد .

وقال أبو الحسين النورى : من رأيتَه يدَّعى مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقربنَّ منه .

وقال أبو عثمان النيسابورى : الصحبة مع الله بحسن الأدب ، ودوام الهيبة والمراقبة[(٣)] ، والصحبة مع الرسول صلّى الله[(٤)] عليه وسلم باتّباع سنته ، ولزوم ظاهر العلم ، والصحبة مع أولياء الله بالاحترام والخدمة ، والصحبة مع الأهل بحسن الخلق ، والصحبة مع الإخوان بدوام البشر ما لم يكن إثما ، والصحبة مع الجهَّال بالدعاء لهم والرحمة عليهم .

وذلك لأنه لما كان أصل الطريق هو الإرادة والقصد ، والعمل فى ذلك [فيه][(٥)] من الحب والوجد[(٦)] ما لا ينضبط ، فكثيراً[(٧)] ما يعمل السالك بمقتضى ما يجده فى قلبه من المحبة ، وما يدركه ويذوقه من طعم العبادة ، وهذا إذا لم يكن موافقاً لأمر الله ورسوله ، وإلا كان صاحبه فى ضلال ، من جنس ضلال المشركين وأهل الكتاب الذين اتّبعوا أهواءهم بغير هدى من الله .

---

(١) فى الأصل : البطامى رحمه ..
(٢) لتفتت : كذا فى الأصل . وفى «القشيرية» ١ /٨٠: لبقيت .
(٣) فى الأصل : الهيبة المراقبة . والتصويب من «القشيرية» ١ /١١٠ .
(٤) فى الأصل : الرسول الله صلى الله ..
(٥) فيه : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .
(٦) فى الأصل : والحده . ولعل الصواب ما أثبته .
(٧) فى الأصل : فكثير ، وهو خطأ .

قال الله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [سورة الفرقان : ٤٣] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ ﴾ [سورة القصص : ٥٠] . ظ ٦٠

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ١١٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [سورة البقرة : ١٢٠][1]

وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] .

وكثيرا ما يبتلى كثير من أهل السماع بشعبة من حال النصارى من الغلو فى الدين واتّباع أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وإن كان فيهم من فيه فضل وصلاح ، فهم فيما ابتدعوه من ذلك ضالون عن سبيل الله ، يحسبون أن هذه البدعة تهديهم إلى محبة[2] الله ، وإنها لتصدهم عن سبيل الله ، فإنهم عَشَوْا عن ذكر الله الذى هو : كتابه : عن استماعه وتدبّره واتباعه .

(١) الآيات الكريمة السابقة فى الأصل ناقصة أو محرّفة .

(٢) فى الأصل : إلى محبات ، وهو تحريف .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [سورة الزخرف : ٣٦-٣٩] .

وقد قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة الجاثية : ١٨-١٩] . فالشريعة التي جعله[١] عليها تتضمن ما أمر به . وكل حُب وذوق ووجد لا تشهد له هذه الشريعة فهو من أهواء الذين لا يعلمون ، فإن العلم بما يحبه الله إنما هو ما أنزله الله إلى عباده مِن هُداه .

ولهذا قال فى إحدى الآيتين : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [سورة الأنعام : ١١٩] . وقال فى الآية الأخرى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [سورة القصص : ٥٠] .

ص ٦١

فكل من اتّبع ذوقا أو وجدا بغير هدى من الله ، سواء كان ذلك عن حب أو بغض ، فليس لأحدٍ أن يتّبع ما يحبه فيأمر به ويتخذه دينا ، وينهى عما يبغضه ويذمّه ويتخذ ذلك دينا إلا بهدى من الله ، وهو شريعة الله التى جعل عليها رسوله . ومن اتّبع ما يهواه حبا وبغضا بغير الشريعة ، فقد اتّبع هواه بغير هدًى من الله .

(١) فى الأصل : جعلها .

ولهذا كان السلف [يعدون][(١)] كل من خرج عن الشريعة فى شئ من الدين من أهل الأهواء ، ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء ويذمّونهم بذلك ، ويأمرون بألا يُغترّ بهم ، ولو أظهروا ما أظهروه من العلم والكلام والحجاج ، أو العبادة والأحوال ، مثل المكاشفات وخرق العادات ، كقول يونس بن عبد الأعلى:قلت للشافعى[(٢)] : تدرى يا أبا عبد الله ما كان يقول فيه صاحبنا – أريد الليث بن سعد وغيره – كان يقول : لو رأيته يمشى على الماء لاتثق به ولا تعبأ به ولا تكلمه . قال الشافعى : فإنه والله ما قصَّر[(٣)] .

وعن عاصم قال : قال أبو العالية : تعلَّموا الإسلام،فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه ، وعليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام ، ولا تحرِّفوا الإسلام يمينا وشمالا ، وعليكم بسنة نبيكم والذى كان عليه أصحابه ، وإياكم وهذه الأهواء التى تلقى بين الناس العداوة والبغضاء . فحدَّثت الحسن . قال : صدق ونصح ، قال : فحدثت حفصة بنت سيرين ، فقالت : يا أبا على أنت حدثت محمداً[(٤)] بهذا ؟ قلت : لا . قالت : فحدِّثه إذًا .

وقال أبى بن كعب : عليكم بالسبيل والسنة ، فإنه ما على الأرض عبدٌ على السبيل والسنة ذَكَرَ اللَّهَ ففاضت به عيناه من خشية الله فيعذِّبه ،

(١) يعدون : ساقطة من الأصل ، وأثبتها ليتم الكلام ويستقيم .
(٢) فى الأصل : الشافعى ، ولعل الصواب ما أثبته .
(٣) فى الأصل ، قد حصر ، ولعل الصواب ما أثبته . وقد أورد ابن الجوزى الخبر فى «تلبيس إبليس» (ص١٤) بعد أن ساقه بسنده ، فقال : «... سمعت يونس بن الأعلى يقول : قال صاحبنا–يعنى الليث بن سعد–:لو رأيت صاحب بدعة يمشى على الماء ما قبلته . فقال الشافعى : إنه ما قصّر ، لو رأيته يمشى على الهواء ما قبلته .
(٤) فى الأصل : محمد ، وهو خطأ .

وما على الأرض عبد على السبيل والسنة ذَكَرَ الله فى نفسه فاقشعرّ جلده من خشية الله ، إلا كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها فهى كذلك ، إذ [١] أصابتها ريح شديدة فتحاتّ عنها ورقها ، ولتحطّ [٢] عنه / خطاياه كما تحاتّ عن تلك الشجرة ورقها ، وإن اقتصاداً فى سبيلٍ وسنة ، خير من اجتهاد فى خلاف سبيلٍ وسنة ، فانظروا أن يكون عملكم : إن كان اجتهاداً أو اقتصاداً أن يكون ذلك على منهاج الأنبياء وسنتهم [٣] . ظ ٦١

وكذلك قال عبد الله بن مسعود : الاقتصاد فى السنة خير من الاجتهاد فى البدعة .

وقيل لأبى بكر بن عيّاش: يا أبا بكر مَن السنىّ ؟ قال: الذى إذا ذُكرت الأهواء لم يغضب لشيءٍ منها .

وهذا أصل عظيم من أصول سبيل الله وطريقه يجب الاعتناء به ، وذلك أن كثيرا من الأفعال قد يكون مباحاً فى الشريعة ، أو مكروها ، أو متنازعا فى إباحته وكراهته ، وربما كان محرَّما أو متنازعا فى تحريمه ، فتستحبُّه طائفة من الناس يفعلونه على أنه حسن مستحب ، ودين وطريق يتقربون به ، حتى يعدُّون من يفعل ذلك أفضل ممن لا يفعله ، وربما جعلوا ذلك

---

(١) فى الأصل : إذا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ولأحط عنه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) أورد ابن الجوزى الخبر مختصرا فى «تلبيس إبليس»(ص٨) بعد أن ساقه بسنده فقال: «...عن أبى بن كعب ، قال : عليكم بالسبيل والسنة ، فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسه النار ، وإن اقتصادا فى سبيل وسنة ، خير من اجتهاد فى إخلاف (كذا والصواب : خلاف) ».

من لوازم طريقتهم إلى الله ، أو جعلوه شعار الصالحين وأولياء الله ، ويكون ذلك خطأً وضلالاً وابتداعَ دينٍ لم يأذن به الله .

مثال ذلك : حلق الرأس فى غير الحج والعمرة لغير عذر ، فإن الله قد ذكر فى كتابه حلق الرأس وتقصيره فى النسك ، وذكر حلقه لعذر فى قوله : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٦] .

وأما حلقه لغير ذلك فقد تنازع العلماء فى إباحته وكراهته نزاعا معروفا على قولين هما روايتان عن أحمد . ولا نزاع بين علماء المسلمين وأئمة الدين أن ذلك لا يُشرع ولا يستحب ، ولا هو من سبيل الله وطريقه ، ولا من الزهد المشروع للمسلمين ، ولا مما أثنى الله به على أحد من الفقراء .

ومع هذا فقد اتخذه طوائف من النسَّاك الفقراء والصوفية ديناً ، حتى جعلوه شعاراً وعلامةً على أهل الدين والنسك والخير والتوبة/ والسلوك إلى الله المشير[1] إلى الفقر والصوفية ، حتى أن من لم يفعل ذلك يكون منقوصا عندهم خارجاً[2] عن الطريقة المفضَّلة المحمودة عندهم ، ومن فعل ذلك دخل فى هديهم وطريقهم .

ص ٦٢

وهذا ضلال عن طريق الله وسبيله باتفاق المسلمين ، واتخاذ ذلك دينا وشعاراً لأهل الدين من أسباب تبديل الدين ، بل جعله علامة على المروق من الدين أقرب ، فإن الذى يكرهه – وإن فعله صاحبه عادة لا عبادة –

(١) فى الأصل الكلمة غير واضحة وكأنها : التمبن ، ولعل الصواب ما أثبته .
(٢) فى الأصل : خارج ، وهو خطأ .

يحتج بأنه من سيماء الخوارج المارقين الذين جاءت الأحاديث الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم بذمّهم من غير وجه ، ورُوى [عنه صلى الله عليه وسلم](1) : « سيماهم التحليق(2) » .

فإذا كان هذا سيماء أولئك المارقين - وفى المسند والسنن عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من تشبَّه بقوم فهو منهم»(3) - كان هذا على بعده من شعار أهل الدين أَوْلى من العكس .

---

(1) ما بين المعقوفتين زدته للإيضاح .

(2) جاءت عبارة «سيماهم التحليق» فى حديث رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ١٦١/٩ (كتاب التوحيد ، باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم) وأول الحديث : «يخرج ناس من قبل المشرق . . وفيه : قيل : ما سيماهم ؟ قال : سيماهم التحليق . أو قال : التسبيد» وجاءت العبارة فى حديثين آخرين الأول عن أبى سعيد الخدرى وأنس بن مالك والثانى عن أنس فى : سنن أبى داود ٣٣٥/٤ - ٣٣٦ (كتاب السنة ، باب فى قتال الخوارج) . وجاء حديث أنس بن مالك فى : سنن ابن ماجة ٦٢/١ (المقدمة ، باب فى ذكر الخوارج) . كما جاء حديث أبى سعيد الخدرى فى المسند (ط . الحلبى) ٦٤/٣ . وجاءت العبارة نفسها فى حديث آخر عن أبى برزة الأسلمى رضى الله عنه فى : سنن النسائى ١١٠/٧ (كتاب تحريم الدم ، باب من شهر سيفه ثم وضعه فى الناس) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٤٢١/٤ - ٤٢٢ . وجاءت العبارة ونصها : «سيماهم التحالق» فى حديث عن أبى سعيد الخدرى فى : مسلم ٧٤٥/٢ (كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم) . وفى حدبث عن سهل بن حنيف عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «يتيه قوم من المشرق محلقة رؤوسهم» وهو فى : مسلم ٧٥٠/٢ (كتاب الزكاة ، باب الخوارج شر الخلق والخليقة) .

(3) الحديث بهذا اللفظ عن ابن عمر رضى الله عنهما فى : سنن أبى داود ٦٥/٤ (كتاب اللباس ، باب فى لبس الشهرة) وذكره التبريزى فى «مشكاة المصابيح» ٤٧٧/٢ . وعلق الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى بقوله : «إسناده حسن» . وهو جزء من حديث عن ابن عمر رضى الله عنهما رواه أحمد فى مسنده فى ثلاثة مواضع من مسنده (ط. المعارف) ١٤٢/٧ ، ١٤٣ ، ٥٧/٨ (أرقام ٥١١٤ ، ٥١١٥ ، ٥٦٦٧) وعلق الشيخ أحمد شاكر على هذه المواضع الثلاث بقوله : إسناده صحيح . ولفظ الحديث فى المسند : «بعثت بين يدى الساعة بالسيف حتى يُعبد الله وحده لا شريك له ، وجُعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجُعل الذل والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبّه بقوم فهو منهم» .

ولهذا لما جاء صبيغ بن عِسْل [١] التميمى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسأله عمَّا سأله من المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وضربه ضرباً عظيما ، كشف رأسه فوجده ذا ضفيرتين ، فقال : لو وجدتك محلوقا لضربت الذى فيه عيناك [٢] ، لأنه لو وجده محلوقا استدلَّ بذلك على أنه من الخوارج المارقين ، وكان يقتله لأمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتالهم .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى صفتهم : «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية» [٣]

ولا ريبْ أن الخوارج كان فيهم من الاجتهاد فى العبادة والورع ما لم

(١) فى الأصل : صبيغ بن على ، وهو تحريف .

(٢) أورد ابن الجوزى فى كتابه «مناقب عمر بن الخطاب» (ص ١٠٨ – ١١٠) ، خبر صبيغ بن عِسْل مفصلا ، وذكر خبره مع عمر رضى الله عنه بروايات كثيرة أسندها إلى عدد من الصحابة والتابعين . كما أورده ابن عساكر فى تاريخه ٣٨٥/٦ (نقلا عن كتاب «اخبار عمر» للأستاذين على وناجى الطنطاوى ، ص ٢٢٤ – ٢٢٥ ، ط . دمشق ، ١٣٧٩/١٩٥٩) . وجاء الخبر فى سنن الدارمى ٥٤/١ – ٥٦ (المقدمة ، باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع) . وذكره السيوطى فى صون المنطق ٥٠/١ – ٥١ ؛ والآجرى فى كتابه «الشريعة» ص ٧٣ – ٧٤ ، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى ، ط . السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٣٦٩/١٩٥٠ . وانظر : درء تعارض العقل والنقل ١٧٢/٧ .

(٣) جاءت أحاديث كثيرة عن الخوارج منها هذا الحديث الذى ذكر ابن تيمية عبارات منه هنا ومنها الأحاديث التى يذكرها ابن تيمية بعد قليل . وقد سرد ابن الأثير فى كتابه «جامع الأصول» كثيرا من أحاديث الخوارج ، انظر جـ ١٠ ص ٤٣٢ – ٤٤٢ . كما خصص الإمام مسلم ثلاثة أبواب من كتاب الزكاة لأحاديث الخوارج . انظر : مسلم ٧٤٠/٢ – ٧٥٠ (كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ، وباب التحريض على قتل الخوارج ، وباب الخوارج شر الخلق والخليقة)

والعبارات التى ذكرها ابن تيمية فى هذا الموضع لم ترد فى حديث واحد ولكن جاءت فى عدة أحاديث أكثرها عن أبى سعيد الخدرى وبعضها عن غيره من الصحابة رضى الله عنهم . انظر : البخارى ٢٠٠/٤–٢٠١ (كتاب المناقب ، باب علامات النبوة) ؛ مسلم ٧٤٣/٢–٧٤٤ (كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم) ؛ سنن أبى داود ٣٣٥/٤–٣٣٧ (كتاب السنة ، باب فى قتال الخوارج) .

يكن فى الصحابة ، كما ذكره النبى صلى الله عليه وسلم . لكن لما كان على غير الوجه المشروع أفضى بهم إلى المروق من الدين .

ولهذا قال عبد الله بن مسعود وأُبَىّ بن كعب : اقتصاد فى سنة خير من اجتهاد فى بدعة .

وقد/ تأول فيهم علىّ بن أبى طالب الذى قاتلهم بأمر النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان قتاله لهم من أعظم[1] حسناته وغزواته التى يمدح بها ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم حضّ على قتالهم ، وقال : «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد »[2] . ظ ٦٢

وقال : «أينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن فى قتلهم أجرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة»[3] .

وفى الصحيح عن على أيضا : «لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل»[4] .

---

(١) فى الأصل : من العظم ، وهو تحريف .

(٢) هذه العبارات– مع اختلاف فى الالفاظ–جاءت فى حديث عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه فى: البخارى ١٣٧/٤ (كتاب الأنبياء ، باب قول الله عز وجل : وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر) ؛ مسلم ٧٤٢/٢ ، ٧٤٣ (كتاب الزكاة باب ذكر الخوارج وصفاتهم) ؛ سنن أبى داود ٣٣٥/٤ (كتاب السنة ، باب فى قتال الخوارج) ؛ سنن النسائى ١٠٩/٧ (كتاب تحريم الدم ، باب من شهر سيفه) .

(٣) هذه العبارات– مع اختلاف فى الألفاظ – جزء من حديث عن على رضى الله عنه فى : البخارى ٢٠٠/٤–٢٠١ (كتاب المناقب ، باب علامات النبوة فى الإسلام) ؛ مسلم ٧٤٦/٢–٧٤٧ (كتاب الزكاة ، باب التحريض على قتل الخوارج) ؛ سنن أبى داود ٣٣٦/٤ (كتاب السنة ، باب فى قتال الخوارج)

(٤) لنكلوا عن العمل : كذا فى الحديث المروى عن على رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٣٣٦/٤ (فى نفس الحديث المذكور فى التعليق السابق) ولكنه جاء فى مسلم وفيه : لا تكلوا عن العمل : انظر مسلم ٧٤٨/٢ (فى الكتاب والباب السابقين فى التعليق السابق) وفى المسند (ط. المعارف) ٩٠/٢ : لا تكلوا على العمل .

وكانوا يتشدَّدون [فى] أمر الذنوب[(١)] والمعاصى حتى كفَّروا المسلمين وأوجبوا لهم [الخلود][(٢)] فى النار .

ولا ريب أن كثيرا من النسَّاك والعباد والزهاد قد يكون فيه شعبة من الخوارج ، وإن كان مخالفا لهم فى شعب أخرى . فلزوم زى معيَّن من اللباس ، سواء كان مباحاً أو كان مما يقال : إنه مكروه ، بحيث يجعل ذلك دينا ومستحباً وشعاراً لأهل الدين ، هو من البدع أيضا ، فكما أنه لا حرام إلا ما حرَّمه الله ، فلا دين إلا ما شرعه الله .

الوجه الثانى

الوجه الثانى : أن قولهم : إن هذا السماع يحصِّل محبوب الله وما حصَّل محبوبه فهو محبوب له – قول باطل . وكثير من هؤلاء – أو أكثرهم – حصل لهم الضلال والغواية من هذه الجهة ، فظنوا أن السماع يثير محبة الله ، ومحبة الله هى أصل الإيمان الذى هو عمل القلب ، وبكمالها يكمل ، وهى فيما يذكره أبو طالب وغيره نهاية المقامات[(٣)] ، وربما قال بعضهم : هى المقام التى يرتقى مقدمه العامة وساقه الخاصة[(٤)] . ويقول من يقول منهم : إن السماع هو من توابع المحبة ، وأنهم إنما فعلوه لما يحرِّكه من محبة الله سبحانه وتعالى ، إذ[(٥)] السماع يحرِّك من كل قلب ما فيه ، فمن كان فى قلبه حب الله

---

(١) فى الأصل : وكانوا يشددون أمر الذنوب .. الخ .

(٢) الخلود : ساقطة من الأصل ، وأثبتها ليستقيم الكلام .

(٣) يقول أبو طالب المكى فى كتابه «قوت القلوب» ٣/٧٣ (ط. المكتبة الحسينية ، القاهرة ، ١٣٥١) : «المحبة من أعلى مقامات العارفين ، وهى إيثار من الله تعالى لعباده المخلصين ، ومعها نهاية الفضل العظيم» .

(٤) فى الأصل : التى بعى مقدمه العامة وساقه الخاصة . وراجعت هذه العبارة فى مظانها فلم أجدها ، ولعل ما أثبته هو أقرب شئ إلى المقصود . والمعنى أن المحبة يمتاز فيها الخاصة على العامة فيرتقون إلى ساقها بيما يبقى العامة عند أسفلها ومقدمها ، فكأن القائل شبّه المحبة بالشجرة .

(٥) فى الأصل : إذا .

ورسوله حرَّك السماع هذا الحب ، وما يتبع الحب من الوجد والحلاوة وغير ذلك ، كما يثير من قلوب أخرى / محبة الأوثان والصلبان والإخوان والخِلاَّن والأوطان والعشراء[١] والمردان والنسوان ، ولهذا يذكر عن طائفة من أعيانهم سماع القصائد فى باب المحبة كما فعل أبو طالب[٢] .

ص ٦٣

فيقال : إن ما[٣] يهيجه هذا السماع المبتدع ونحوه من الحب وحركة القلب ليس هو الذى يحبه الله ورسوله ، بل اشتماله على ما لا يحبه الله وعلى ما يبغضه ، أكثر من اشتماله على ما يحبه ولا يبغضه ، وحَدُّهُ[٤] عمَّا يحبه الله ونهيه عن ذلك ، أعظم من تحريكه لما يحبه الله ، وإن كان يثير حبا وحركة ويُظن أن ذلك يحبه الله ، وأنه مما يحبه الله ، فإنما ذلك من باب اتّباع الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى .

ومما يبين ذلك أن الله سبحانه وتعالى بيَّن فى كتابه محبته ، وذكر موجباتها وعلاماتها ، وهذا السماع يوجب مضاداً لذلك منافياً له .

وذلك أن الله يقول فى كتابه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] .

وقال : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ٣١] .

ويقول : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

---

(١) فى الأصل : والعشران ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) انظر : قوت القلوب ٣/٨٩-٩٢ .

(٣) فى الأصل : إنما .

(٤) وحَدُّهُ : كذا فى الأصل ، والمعنى أن السماع يصرف المرء عمّا يحبه الله ويبعده عنه .

أَعِزَّةٍ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] .

فهذه ثلاثة أصول لأهل محبة الله : إخلاص دينهم ، ومتابعة رسوله ، والجهاد فى سبيله .

فإنه أخبر عن المشركين الذين يتخذون الأنداد أنهم يحبونهم كما يحبون الله . ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] ، فالمؤمنون أشد حبا لله من المشركين الذين يحبون الأنداد كما يحبون الله ، فمن أحب شيئاً غير الله كما يحب الله ، فهو من المشركين لا من المؤمنين .

ومحبة رسوله من محبته . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى الحديث المتفق عليه فى الصحيحين : «والذى نفسى/ بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه[١] من ولده ووالده والناس أجمعين»[٢] . ٦

وفى صحيح البخارى أن عمر قال له : يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلىَّ من كل شئ إلا من نفسى ، فقال : لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك . قال : فأنت أحب إلى من نفسى . قال : فأنت الآن يا عمر»[٣] .

---

(١) فى الأصل : حتى يكون أحب اليّ ، وهو تحريف .

(٢) ورد الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : البخارى ١ /٨ (كتاب الإيمان ، باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان) ؛ مسلم ١ /٦٧ (كتاب الإيمان ، باب وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من الأهل ..) ؛ المسند (ط. الحلبى) ١٧٧/٣ ، ٢٠٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ؛ سنن ابن ماجة ٢٦/١ (المقدمة ، باب فى الإيمان) .

(٣) الحديث عن عبد الله بن هشام رضى الله عنه فى : البخارى ١٢٩/٨ (كتاب الأيمان والنذور ، باب كيف كانت يمين النبى صلى الله عليه وسلم) ولفظ الحديث : لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك .. الحديث .

وفى الصحيحين أنه قال : «ثلاث من كنَّ فيه فقد وجد حلاوة الإيمان» . وفى لفظ : «لا يجد حلاوة الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار»[1] .

وقد قال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [سورة التوبة : ٢٤][2] ، فبيَّن أنه إن كان الأهل والمال أحب إليهم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فليتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، فلم يرض منهم أن يكون حبهم لله ورسوله كحب الأهل والمال ، وأن يكون حب الجهاد فى سبيله كحب الأهل والمال ، بل حتى يكون الجهاد فى سبيله – الذى هو تمام حبه وحب رسوله – أحب إليهم من الأهل والمال .

فهذا يقتضى أن يكون حبهم لله ورسوله مقدَّماً على كل محبة ، ليس عندهم شئ يحبونه كحب الله ، بخلاف المشركين .

---

(١) الحديث بلفظ : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ... الحديث ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : البخارى ١/٨ (كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان) ، ١/٩ (كتاب الإيمان ، باب من كره أن يعود فى الكفر .. الخ)، ٩/ ٢٠ (كتاب الإكراه ، باب من اختار الضرب ..) ؛ مسلم ١/٦٦ (كتاب الإيمان ، باب بيان خصال .. الخ) .

وجاء الحديث بلفظ : «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله ، وحتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما» عن أنس رضى الله عنه فى : البخارى ٨/١٤ (كتاب الأدب ، باب الحب فى الله) .

(٢) فى الأصل نقصت كلمات كثيرة من الآية الكريمة .

ويقتضى : الأصل الثانى : وهو أن يكون الجهاد فى سبيله أحب إليهم من الأهل والمال ، فإن ذلك هو تمام الإيمان الذى ثوابه حب الله ورسوله .

كما قال تعالى:﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ إيماناً لا يكون بعده ريب ، ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [سورة الحجرات : ١٥][(١)]

٦٤ وبذلك وصف أهل المحبة/ فى قوله : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [سورة المائدة : ٥٤] . فأخبر سبحانه بذلهم للمؤمنين ، وعزهم على الكافرين ، وجهادهم فى سبيله ، وأنهم لا يخافون لومة لائم ، فلا يخافون لوم الخلق لهم على ذلك .

وهؤلاء هم الذين يحتملون الملام والعذل فى حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله ، والله يحبهم وهم يحبونه ، ليسوا بمنزلة من يحتمل الملام والعذل فى محبة ما لا يحبه الله ورسوله ، ولا بمنزلة الذين أظهروا من مكروهات الحق ما يُلامون عليه ويسمون بالملامتية[(٢)] ، ظانين أنهم لما أظهروا ما يلومهم الخلق عليه من المنكرات مع صحتهم فى الباطن ، كان ذلك من صدقهم وإخلاصهم ، وهم فى ذلك إنما يتّبعون الظن وما تهوى الأنفس .

(١) فى الأصل لم ترد عبارة «ورسوله ثم لم يرتابوا» فى الآية الكريمة .

(٢) الملامتية طائفة من الصوفية «أظهروا للخلق قبائح ما هم فيه وكتموا عنهم محاسنهم.، فلامهم الخلق على ظواهرهم ، ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم» (من رسالة الملامتية نقلا عن كتاب : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة للدكتور أبى العلا عفيفى ، ص ١٦ (ط . عيسى الحلبى ، القاهرة ١٣٦٤/١٩٤٥) . وقد عرض المؤلف فى القسم الأول من كتابه (ص ١١ - ٦٨) للكلام عنهم بالتفصيل ونشر فى القسم الثانى ٦٩ - ١٢٠ رسالة الملامتية لأبى عبد الرحمن السلمى بعد التعريف بالرسالة ومؤلفها . وانظر تعريف الجرجانى فى «التعريفات» لكلمة «الملامية» .

فإن ذلك المنكر الذى يكرهه الله ورسوله ، لا يكون فعله مما يحبه الله ورسوله ، ولا يكون من الصدق والإخلاص فى حب الله ورسوله ، والناس يُلامون عليه ،

وسنام ذلك الجهاد فى سبيل الله ، فإنه أعلى ما يحبه الله ورسوله ، واللائمون عليه كثير ، إذ كثير من الناس الذين فيهم إيمان يكرهونه ، وهم إما مخذِّلون مفتِّرون للهمة والإرادة فيه ، وإما مرجفون مضعِّفون للقوة والقدرة عليه ، وإن كان ذلك من النفاق .

قال الله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [سورة الأحزاب : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [سورة الأحزاب : ٦٠] .

وأما الأصل الثالث : وهو متابعة السنة والشريعة النبوية . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [سورة آل عمران : ٣١] .

قال طائفة من السلف : ادّعى قوم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله ، فأنزل الله هذه الآية[1] ، فجعل حب العبد لربه موجبا

(١) قال الطبرى فى تفسيره ٦ /٣٢٢ (ط. المعارف) : «اختلف أهل التأويل فى السبب الذى أنزلت هذه الآية فيه . فقال بعضهم : أنزلت فى قوم قالوا على عهد النبى صلى الله عليه وسلم : إنَّا نحب ربنا ، فأمر الله جل وعز نبيهُ محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : إن كنتم صادقين فيما تقولون فاتبعونى . فإن ذلك علامة صدقكم فيما قلتم من ذلك» . وانظر ٦ /٣٢٢-٣٢٣ .

ومقتضيا لاتباع رسوله ، وجعل اتباع رسوله موجبا ومقتضيا لمحبة الرب عبده ، فأهل اتّباع الرسول يحبهم الله ، ولا يكون حبا لله إلا من يكون منهم .

وإذا عرفت هذه الأصول فعامة أهل السماع المحدَث مقصِّرون فى هذه الأصول الثلاثة ، وهم فى ذلك متفاوتون تفاوتا كثيرا بحسب قوة اعتياضهم بالسماع المحدَث عن السماع المشروع وما يتبع ذلك ، حتى آل الأمر بأخرة إلى الانسلاخ من الإيمان بالكلية ، ومصيره منافقا محضا أو كافراً صرفا .

وأما عامتهم وغالبهم ، الذين فيهم حب الله ورسوله وما يتبع ذلك ، فهم فيه مقصِّرون ، تجد فيهم من التفريط فى الجهاد فى سبيل الله ، وما يدخل فيه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتفريط فى متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شريعته وسنته ، وأوامره وزواجره ، أمراً عظيما جدا ، وكذلك فى أمر الإخلاص لله ، تجد فيهم من الشرك الخفى أو الجلى أموراً كثيرة .

ولهذا كان هذا السماع ، سماع المكاء والتصدية ، إنما هو فى الأصل سماع المشركين ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [سورة الأنفال : ٣٥] . وفيهم من اتخاذ أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله[1] ما ضاهوا به النصارى فى كثير من ذلك ، حتى أن منهم من يعبد بعض البشر ويعبد قبورهم ، فيدعوهم ويستغيث بهم ، ويتوكل عليهم ، ويخافهم ويرجوهم ، إلى غير ذلك مما هو من حقوق الله وحده لا

(١) فى الأصل لم يرد لفظ الجلالة .

شريك له ، ويطيعون سادتهم وكبارهم فى تحليل الحرام وتحريم الحلال ، ويقول بعضهم فى اتحاد الله ببعض مخلوقاته وحلوله فيهم ، شبيه ما [١] قالته النصارى فى المسيح عليه الصلاة والسلام .

ولهذا يكون كثير من سماعهم الذى يحرِّك وجدهم ومحبتهم إنما يحرك /وجدهم ومحبتهم لغير الله ، كالذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله . ص ٦٥

وأما الشريعة ، وما أمر الله به ونهى عنه ، وأحلَّه وحرَّمه ، ففيهم من المخالفة لذلك ، بل [من] الاستخفاف [٢] بمن يتمسك به ما الله به عليم ، حتى سقط من قلوبهم تعظيم كثير من فرائض الله ، وتحريم كثير من محارمه . فكثيرا ما يضيِّعون فرائضه ويستحلُّون محارمه ، ويتعدون [٣] حدوده تارةً : اعتقاداً ، وتارةً : عملا .

وكثير من خيارهم —الذين هم مؤمنون— يقعون فى كثير من فروع ذلك وإن كانوا مستمسكين بأصول الإسلام .

وأما غير هؤلاء فيصرِّحون بسقوط الفرائض – كالصلوات الخمس وغيرها– عنهم ، ويحلُّ الخبائث – من الخمر والفواحش ، أو الظلم أو البغى ، أو غير ذلك – لهم ، وتزول عن قلوبهم المحبة لكثير مما يحبه الله ورسوله ، كالمحبة [٤] التامة التى هى كمال الإيمان ، بل لابد أن ينقص فى

---

(١) فى الأصل : بما .

(٢) فى الأصل : بل الاستخفاف ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : ويعبدون ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : كما المحبة ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

قلوبهم حب ما أحبه الله ورسوله ، فلا يبقى للقرآن والصلاة ونحو ذلك فى قلوبهم من المحبة والحلاوة والطيب وقرة العين ما هو المعروف لأهل كمال الإيمان ، بل قد يكرهون بعض ذلك ويستثقلونه ، كما هو من نعت المنافقين الذين قال الله فيهم : ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ [سورة النساء : ١٤٢] و[قد يهجرون] القرآن الذى[1] ما تقرَّب العباد إلى الله بأحب إليه منه ، بل قد يستثقلون سماعه وقراءته لما اعتاضوا عنه [من السماع][2] ، وقد يقومون ببعض هذه العبادات الشرعية صوراً[3] ورسماً كما يفعله المنافقون ، لا محبة وحقيقة ووجداً كما يفعله المؤمنون .

وأما الجهاد فى سبيل الله ، فالغالب عليهم أنهم أبعد عنه من غيرهم ، حتى نجد فى عوام المؤمنين : من الحب للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والمحبة والتعظيم لأمر الله ، والغضب/ والغيرة لمحارم الله ، وقوة المحبة والموالاة لأولياء الله . وقوة البغض والعداوة لأعداء الله — ما لا يوجد فيهم ، بل يوجد فيهم ضد ذلك . ظ ٦٥

ومعلوم أن أهل الإيمان والصلاح منهم لا يفقدون هذا بالكلية ، لكن هذا السماع المحدَث — هو وتوابعه — سبب ومظنَّة لضد الجهاد فى سبيل الله ، حتى أن كثيرا منهم يعدُّون ذلك نقصا فى طريق الله وعيبا ومنافياً للسلوك الكامل إلى الله .

ومن السبب الذى ضل به هؤلاء وغوَوْا ما وجدوه فى كثير ممن ينتسب

(١) فى الأصل : والقرآن الذى ... ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) بعد عبارة «لما اعتاضوا عنه» توجد فى المخطوطة كلمة غير واضحة كأنها «بيده» . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٣) فى الأصل : صور ، وهو خطأ .

إلى الشريعة [من الداعين] إلى الجهاد[١] ، من ضعف حقيقة الإيمان ، وسوء النيات والمقاصد ، وبعدهم عن النيَّات الخالصة لله ، وصلاح قلوبهم وسرائرهم ، وعن أن يقصدوا بالجهاد أن تكون كلمة الله هى العليا ، وأن يكون الدين كله لله ، كما وجدوه فى كثير ممن يذم السماع المحدَث من قسوة القلب ، والبعد عن مكارم الأخلاق وذوق حقيقة الإيمان .

فهذا التفريط فى حقوق الله والعدوان على حدوده[٢] الذى وُجِد فى هؤلاء وأمثالهم ، ممن لا يتدين بالسماع المحدَث ، بل يتدين ببعض هذه الأمور – صار شبهةً لأولئك ، كما أن التفريط والعدوان الموجود فى أهل السماع المحدَث ، صار شبهه لأولئك فى ترك كثير مما عليه كثير منهم من حقائق الإيمان ، وطاعة الله ورسوله .

ولهذا تفرَّق[٣] هؤلاء فى الدين ، وصارت كلُّ طائفةٍ مبتدعةً لدين لم يشرعه الله ، ومنكرةً لما مع الطائفة الأخرى من دين الله ، وصار فيهم شبه الأمم قبلهم .

كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [سورة المائدة : ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتْ

(١) فى الأصل : إلى الشريعة إلى الجهاد ... ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٢) فى الأصل : والعدوان الحدوده ، وهو تحريف . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٣) فى الأصل : يفرق ، وهو تحريف .

ص ٦٦ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [سورة البقرة : ١١٣] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [سورة البقرة : ٨٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٥](١) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٩] .

وأما دين الله وهداه الذى أنزل به كتابه ، وبعث به رسوله ، فهو اتّباع كتابه وسنته فى جميع الأمور ، وترك اتّباع ما يخالف ذلك فى جميع الأمور ، والإجماع على ذلك .

كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ اللَّهِ

(١) فى الأصل : من بعد ما جاءتهم ، وهو خطأ .

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٢ – ١٠٧][١] .

وأما كون الشعر فى نفسه لايستمع [إليه][٢] إلا إذا كان من الكلام المباح أو المستحب ، والشعر المقول فى سماع المكاء والتصدية كثير منه – أو أكثره – ليس كذلك ، فهذا مقام آخر نبيِّنه إن شاء الله . فصار احتجاجهم بما[٣] سمعه النبى صلى الله عليه وسلم من الشعر على استماع الغناء مردوداً بهذه الوجوه الثلاث .

قال أبو القاسم[٤] : «وقد سمع الأكابر[٥] الأبيات بالألحان . فمن[٦] قال بإباحته[٧] : مالك بن أنس وأهل الحجاز ، كلهم يبيحون الغناء . فأما[٨] الحُدَاء[٩] فإجماع منهم على إباحته[١٠]» .

قلت :/ هذا النقل يتضمن[١١] غلطاً بإثبات باطل وترك حق ، وقد تبع فيه أبا عبد الرحمن[١٢] على ما ذكره فى مسألة السماع . وذلك أن المعروف ظ ٦٦

(١) فى الأصل فى آية ١٠٣ : فأنقذهم ، وهو خطأ .

(٢) إليه : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل تكررت «بما» مرتين .

(٤) فى «القشيرية» ٢/٦٣٨ بعد كلامه الذى سبق وروده من قبل مباشرة .

(٥) القشيرية : السلف والأكابر .

(٦) فمن : كذا فى الأصل ، وفى «القشيرية» .

(٧) القشيرية : بإباحته من السلف .

(٨) القشيرية : وأما

(٩) فى «لسان العرب» : «حَدَا الإبل وحَدَابها يَحْدُو حَدْواً وحُِدَاءً (ممدود) :زجرها خلفها وساقها ... الجوهرى : الحَدْوُ سَوْقُ الإبل والغناء لها» .

(١٠) القشيرية : على إجازته .

(١١) فى الأصل : يضمن ، وهو تحريف .

(١٢) أى تبع فيه القشيرى أبا عبد الرحمن السلمى .

عند أئمة السلف من الصحابة والتابعين : مثل عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمر ، وعبد [الله] بن عباس [(١)] ، وجابر بن عبد الله ، وغيرهم ، وعن أئمة التابعين ، ذم الغناء وإنكاره .

وكذلك من بعدهم من أئمة الإسلام فى القرون الثلاثة ، حتى ذكر زكريا بن يحيى الساجى فى كتابه الذى ذكر فيه إجماع أهل العلم واختلافهم [(٢)] ، فذكر أنهم متفقون على كراهته إلا رجلان : إبراهيم بن سعد من أهل المدينة [(٣)] ، وعبيد الله بن الحسن العنبرى من أهل البصرة [(٤)] .

وأما نقلهم لإباحته عن مالك وأهل الحجاز كلهم ، فهذا غلط من أسوأ الغلط . فإن أئمة أهل الحجاز على كراهته وذمه ، ومالك نفسه لم

(١) فى الأصل : وعبد بن عباس .

(٢) فى الأصل : يحيى بن زكريا ، وهو خطأ . وهو أبو يحيى زكريا بن يحيى بن عبد الرحمن بن بحر (محمد؟) بن عدى الضبى البصرى الساجى ، ولد سنة ٢٢٠ وتوفى بالبصرة ٣٠٧ ، فقيه ومحدث ، أخذ عن المزنى وغيره ، من كتبه «اختلاف الفقهاء» ، «علل الحديث» . انظر ترجمته فى : طبقات الشافعية ٢٩٩/٣-٣٠١ ؛ تذكرة الحفاظ ٧٠٩/٢-٧١٠ ؛ طبقات الفقهاء للشيرازى : ص ١٠٤ ؛ معجم المؤلفين ١٨٤/٤ ؛ الأعلام ٨١/٣ .

(٣) فى الأصل : سعد بن إبراهيم ، وهو خطأ . وهو إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، أبو إسحاق المدنى نزيل بغداد . ولد سنة ١٠٨ واختلف فى وفاته فقيل سنة ١٨٢ وقيل سنة ١٨٤ وقيل غير ذلك . قال أحمد عنه : ثقة ، وقال أيضا : أحاديثه مستقيمة ، وذكر عنه الخطيب فى تاريخ بغداد أخباراً تدل على إجازته للغناء . انظر ترجمته فى : تهذيب التهذيب ١٢١/١-١٢٣ ؛ تاريخ بغداد ٨١/٦-٨٦ .

(٤) فى الأصل : وعبد الله بن الحسن .. الخ ، وهو خطأ . وهو عبيد الله بن الحسن بن حصين العنبرى القاضى من تميم ولد سنة ١٠٥ وتوفى سنة ١٦٨ . وهو من أهل البصرة ، قال عنه النسائى : فقيه بصرى ثقة . وذكر عنه ابن حجر فى «تهذيب التهذيب» عدة مسائل اتهم بها ، وقيل إنه رجع عن بعضها ولم يذكر مسألة الغناء . انظر ترجمته فى : تهذيب التهذيب ٧/٧-٨ ؛ الأعلام ٣٤٦/٤ . وانظر قول ابن الجوزى فى «تلبيس إبليس» ص ٣٣٠ : «وقال (أبو الطيب) الطبرى : فقد أجمع علماء الأمصار على كراهية الغناء والمنع منه ، وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبيد الله العنبرى» .

يختلف قوله وقول أصحابه فى ذمه وكراهته ، بل هو من المبالغين فى ذلك ، حتى صنّف أصحابه كتبا مفردة فى ذم الغناء والسماع ، وحتى سأله إسحاق بن عيسى الطبّاع [(١)] عما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء فقال : إنما يفعله عندنا الفساق .

وقد ذكر محمد بن طاهر فى مسألة السماع حكاية عن مالك أنه ضرب بطبل وأنشد أبياتاً ، وهذه الحكاية مما لا يتنازع أهل المعرفة فى أنها كذب على مالك [(٢)] .

وكذلك الشافعى لم يختلف قوله فى كراهته . وقال فى كتابه المعروف «بأدب القضاة» : الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ، ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته [(٣)] . وقد قال عن السماع الدينى المحدَث : خلفت ببغداد

---

(١) فى الأصل : الصباغ ، وهو خطأ . وهو أبو يعقوب إسحاق بن عيسى بن نجيح بن الطباع البغدادى نزيل أدنه ، ولد سنة ١٤٠ وتوفى سنة ٢١٥ وقيل ٢١٤ وقيل ٢١٦ . روى عن مالك والحمّادين وغيرهم وقال البخارى : مشهور الحديث . وقال أبو حاتم : أخوه أحب إلىّ منه وهو صدوق . انظر ترجمته فى : تهذيب التهذيب ١/٢٤٥ ؛ العبر ١/٣٦٧ .

(٢) أبو الفضل محمد بن طاهر بن على بن أحمد المقدسى الشيبانى المعروف بابن القيسرانى سبقت ترجمته (ص ١٦٧) وذكرت أن من كتبه كتاب «صفوة التصوف» تحقيق الدكتور أحمد الشرباصى رحمه الله عقد فيه أبوابا كثيرة تكلم فيها عن السماع ، ولكنى لم أجد فيها ما ذكره ابن تيمية ، وإنما وجدت فيه (ص ١٤٦–١٤٧) ما يلى : «عن مصعب الزبيرى قال : حضرت مجلس مالك بن أنس فسأله أبو مصعب عن السماع ، فقال مالك : ما أدرى ؛ أهل العلم ببلدنا هذا لا ينكرون ذلك ، ولا يقعدون عنه ، ولا ينكره إلا غبى جاهل ، أو ناسك عراق غليظ الطبع» .

وقد نقل ابن الجوزى فى كتابه «تلبيس إبليس» (ص ٢٣٩–٢٤٥) صفحات من كتاب «صفوة التصوف» لمحمد بن طاهر ورد عليها فارجع إليه .

(٣) قال ابن الجوزى فى «تلبيس إبليس» (ص ٢٣٠) : «وقد نص الشافعى فى كتاب «أدب القضاء» على أن الرجل إذا دام (لعلها : داوم) على سماع الغناء ردت شهادته وبطلت عدالته» .

شيئاً أحدثته[١] الزنادقة يسمونه التغبير ، يصدُّون به الناس عن القرآن[٢]

نعم كان كثير من أهل المدينة يسمع الغناء ، وقد دخل معهم فى ذلك/ بعض فقهائهم[٣] ، فأما أن يكون هذا قول أهل الحجاز كلهم ، أو قول مالك ، فهذا غلط . وكان الناس يعيبون من استحل ذلك من أهل المدينة ، كما عابوا على غيرهم ، حتى كان الأوزاعى يقول : من أخذ بقول أهل الكوفة فى النبيذ ، وبقول أهل مكة فى المتعة والصرف ، ويقول أهل المدينة فى الغناء ، أو قال : الحشوش[٤] والغناء – فقد جمع الشر كله ، أو كلاماً هذا معناه .

ص ٦٧

وأما فقهاء الكوفة فمن[٥] أشد الناس تحريما للغناء ، ولم يتنازعوا[٦] فى ذلك ، ولم يكونوا يعتادونه كما كان يفعله أهل المدينة ، بل كانوا مفتونين بالنبيذ المتنازع فيه .

وقد سئل مالك عمَّا يترخص فيه بعض أهل المدينة من الغناء ، فقال : لا ، إنما يفعله عندنا الفساق .

وقد سئل القاسم بن محمد عن الغناء ، فقال : إذا ميَّز الله الحق من الباطل ، من أى قسم يكونُ الغناء ؟

---

(١) فى الأصل : حدثته ، وهو تحريف .

(٢) سبق الكلام على هذا الخبر من قبل .

(٣) فى الأصل : فقائهم ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : الحسوس. وفى «اللسان» : «وفى الحديث أنه – صلى الله عليه وسلم– نهى عن إتيان النساء فى محاشهن . . . وفى رواية : فى حشوشهن : أى أدبارهن» .

(٥) فى الأصل : ممن ، وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : ولم يتنازعون ، وهو خطأ .

ثم قال أبو القاسم[١] : «وقد وردت الأخبار واستفاضت الآثار فى ذلك ، وروى عن ابن جريج[٢] أنه كان يرخِّص فى السماع ، فقيل له[٣] : إذا أُتِىَ بك يوم القيامة ، ويُؤتَى بحسناتك وسيئاتك ، ففى أى الجنبين يكون سماعك؟[٤] فقال : لا فى الحسنات ولا فى السيئات . يعنى أنه من المباحات» .

قلت : ليس ابن جريج وأهل مكة ممن يُعرف عنهم الغناء ، بل المشهور عنهم أنهم كانوا يُعيِّرون من يفعل ذلك من أهل المدينة ، وإنما المعروف عنهم المتعة والصرف . ثم هذا الأثر وأمثاله حجة على من احتج به ، فإنه لم يجعل منه شيئاً من الحسنات ، ولم ينقل عن السلف أنه عدَّ شيئاً من أنواعه حسنةً ، فقوله على ذلك لا يخالف الإجماع[٥] .

ومن فعل شيئا من ذلك على أنه من اللذة الباطلة ، التى لا مضرَّة فيها ولا منفعة ، فهذا كما يُرخَّص للنساء فى الغناء ، والضرب بالدفّ فى الأفراح ، مثل قدوم الغائب/ وأيام الأعياد ، بل يؤمرون بذلك فى العُرُسات[٦] كما روى «اعلنوا النكاح واضربوا عليه بالدف[٧]» وهو مع ظ ٦٧

(١) فى «القشيرية» ٦٣٨/٢ بعد كلامه الذى سبق وروده مباشرة .

(٢) فى الأصل : أبى جريح ، وهو تحريف . والتصويب من «القشيرية» . وهو أبو الوليد أو أبو خالد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، ولد بمكة سنة ٨٠ وتوفى بها سنة ١٥٠ . فقيه الحرم المكى وإمام أهل الحجاز فى عصره . قال الذهبى : كان ثبتا لكنه يدلس . انظر ترجمته فى : تذكرة الحفاظ ١٦٩/١–١٧١ ؛ تهذيب التهذيب ٤٠٢/٦–٤٠٦ ؛ الأعلام ٣٠٥/٤ .

(٣) فى الأصل : فقال له . والتصويب من «القشيرية» .

(٤) القشيرية : ففى أى الجانبين سماعك ؟

(٥) فى الأصل : فقال على ذلك مخالف للإجماع ، وهو تحريف ظاهر . ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) فى «لسان العرب» أن جمع عُرْس : «أعراسٌ وعُرْسات»

(٧) الحديث – مع اختلاف فى اللفظ – عن عائشة رضى الله عنها فى : سنن الترمذى ٢٧٦/٢ (كتاب =

ذلك باطل ، كما فى الحديث الذى فى السنن : أن امرأةً نذرت[١] أن تضرب لقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدف ، فلما قدم عمر أمرها بالسكوت[٢] . وقال : «إن هذا رجل[٣] لا يحب الباطل[٤]» .

= النكاح ، باب ما جاء فى إعلان النكاح) وقال عنه الترمذى : هذا حديث حسن غريب فى هذا الباب» ؛ سنن ابن ماجة ١ /٦١١ (كتاب النكاح ، باب خطبة النكاح) ، وقال المحقق : «فى الزوائد : فى إسناده خالد بن إلياس أبو الهيثم العدوى ، اتفقوا على ضعفه» . وجاءت العبارة الأولى من الحديث فقط ، وهى «أعلنوا النكاح» فى المسند (ط. الحلبى) ٤ /٥ عن عبد الله بن الزبير عن أبيه

(١) فى الأصل : ندمت ، وهو تحريف .

(٢) الحديث عن عبد الله بن بريدة عن أبيه بريدة رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٥ /٢٨٣-٢٨٤ (كتاب المناقب ، مناقب عمر بن الخطاب ، باب منه) ونصه فيه : «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض مغازيه فلما انصرف جاءت جارية سوداء ، فقالت : يا رسول الله إنى كنت نذرت إن ردك الله سالما أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنّى . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كنت نذرت فاضربى وإلا فلا ، فجعلت تضرب فدخل أبو بكر وهى تضرب ، ثم دخل على وهى تضرب ، ثم دخل عثمان وهى تضرب ، ثم دخل عمر فألقت الدف تحت إستها ، ثم قعدت عليه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان ليخاف منك ياعمر ، إنى كنت جالساً وهى تضرب ، فدخل أبو بكر وهى تضرب ، ثم دخل علىّ وهى تضرب ، ثم دخل عثمان وهى تضرب ، فلما دخلت أنت ياعمر ألقت الدف» . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث بريدة . وفى الباب عن عمر وعائشة» . والحديث مع اختلاف يسير فى اللفظ عن بريدة فى : المسند (ط . الحلبى) ٥ /٣٥٣ ، وهو عنه مختصرا فى : المسند (ط. الحلبى) ٥ /٣٥٦ .

وفى سنن أبى داود ٣ /٣٢٢ جاء حديث آخر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مشابه لأول هذا الحديث وفيه : أن امرأة أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ، إنى نذرت أن أضرب على رأسك بالدف . قال : أوفى بنذرك . قالت : إنى نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا ... الحديث .

(٣) فى الأصل : رجلا ، وهو خطأ .

(٤) عبارة : «إن هذا رجل لا يحب الباطل» جاءت فى حديث آخر ذكره ابن تيمية فى «رسالة فى قنوت الأشياء كلها لله عز وجل» (جامع الرسائل ١ /٢٠-٢١) ونص الحديث هناك : لما دخل عمر على النبى صلى الله عليه وسلم وعنده الأسود بن سريع ينشده ، فأسكته مرتين أو ثلاثا . قال : من هذا الذى تُسكتنى له . قال : هذا رجل لا يحب الباطل . وعلقت على الحديث بقولى : «هذا الحديث مروى بمعناه فى : المستدرك للحاكم ٣ /٦١٥ . وقال الحاكم : «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ؛ المحب الطبرى فى «الرياض النضرة» (ط. الحلبى) ١ /٢٧٣ ؛ مجمع الزوائد ٩ /٦٦ . ورويت قطعة من هذا الحديث فى : المسند (ط. الحلبى) ٤ /٢٤ ؛ الإصابة لابن حجر والاستيعاب لابن عبد البر فى ترجمة الأسود بن سريع ، طبقات ابن سعد ٧ /٤٢» .

وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل ، إلا رميه بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبة امرأته ، فإنهن من الحق »[١]

والباطل من الأعمال هو ما ليس فيه منفعة ، فهذا يرخَّص فيه للنفوس التى لا تصبر على ما ينفع . وهذا الحق فى القدر الذى[٢] يُحتاج إليه : فى الأوقات [التى] تقتضى[٣] ذلك : الأعياد ، والأعراس ، وقدوم الغائب ، ونحو ذلك .

وهذه نفوس النساء والصبيان ، فهن اللواتى كن يغنين فى ذلك على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه ، ويضربن بالدف . وأما الرجال فلم يكن ذلك فيهم ، بل كان السلف يسمون الرجل المغنِّى : مخنَّثاً ، لتشبُّهه بالنساء . ولهذا رُوى : «اقرأوا القرآن بلحون العرب ، وإياكم ولحون العجم والمخانيث والنساء »[٤] .

(١) الحديث عن عقبة بن عامر رضى الله عنه فى : سنن النسائى (بشرح السيوطى) ٦ / ١٨٥ (كتاب الخيل ، باب تأديب الرجل فرسه) ؛ سنن ابن ماجة ٢ / ٩٤٠ (كتاب الجهاد ، باب الرمى فى سبيل الله) ؛ سنن الدارمى ٢ / ٢٠٤ - ٢٠٥ (كتاب الجهاد ، باب فى فضل الرمى والأمر به) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٤ / ١٤٤ ، ١٤٨. وجاء الحديث بنفس الألفاظ تقريبا فى سنن الترمذى ٣/٩٥ (كتاب الجهاد ، باب ما جاء فى فضل الرمى فى سبيل الله) ولكن رواه الترمذى . . عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . . الحديث أورد رواية أخرى عن عقبة بن عامر . ثم قال : «وفى الباب عن كعب بن مرّة وعمرو بن عبسة وعبد الله بن عمرو . هذا حديث حسن صحيح» . وأول الحديث (وهذه رواية الترمذى) : «إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة : . . الحديث» وفيه : «كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل إلا رميه بقوسه ، وتأديبه فرسه . وملاعبته أهله ، فإنهن من الحق» .

(٢) فى الأصل : التى

(٣) فى الأصل : فى الأوقات تتقاضى .. ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى المعجم الكبير للسيوطى : «اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابين ، وسيجئ قوم من بعدى يرجعون القرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح لا يجاوز حناجرهم ، مفتونة =

ولهذا لما سئل القاسم بن محمد عن الغناء فقال للسائل : يا ابن أخي أرأيت إذا ميَّز الله يوم القيامة بين الحق والباطل ، ففي أيهما يجعل الغناء ؟ فقال : في الباطل . قال : فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟.

فكان العلم بأنه من الباطل مستقرًّا في نفوسهم كلهم ، وإن فعله بعضهم مع ذلك ، إذ مجرد كون الفعل باطلا[1] إنما يقتضي عدم منفعته ، لا يقتضي تحريمه ، إلا أن يتضمن مفسدة .

قال أبو القاسم[2] : «وأما الشافعي – رحمه الله– فإنه لا يحرِّمه ، ويجعله في العوام مكروهاً ، حتى لو احترف الغناء[3] أو اتّصف على الدوام/ بسماعه على وجه التلهّي به[4] تُردّ به الشهادة ، ويجعله ممّا يسقط المروءة ، ولا يُلحقه بالمحرَّمات» .

ص ٦٨

قال[5] : «وليس كلامنا في هذا النوع من السماع ، فإن هذه الطائفة جلّت[6] مرتبتهم عن أن يسمعوا[7] بلهو ، أو يقعدوا للسماع بسهو ، أو يكونوا[8] بقلوبهم متفكرين[9] في مضمون لغو ، أو يستمعوا على صفة غير كفءٍ»[10] .

قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» . قال السيوطي : «محمد بن نصر في الصلاة وأبو نصر السجزي في الإبانة عن حذيفة» .

(١) في الأصل : باطل ، وهو خطأ .

(٢) في «القشيرية» ٢/٦٣٨ بعد كلامه السابق مباشرة .

(٣) القشيرية : بالغناء .

(٤) به : ساقطة من «القشيرية» .

(٥) بعد كلامه السابق مباشرة في «القشيرية» ٢/٦٣٨-٦٣٩ .

(٦) في الأصل : خلت ، والتصويب من «القشيرية» .

(٧) القشيرية : رتبتهم عن أن يستمعوا ..

(٨) في الأصل : وكانوا ، وهو تحريف . والتصويب من «القشيرية» ٢/٦٣٩ .

(٩) القشيرية : مفكّرين .

(١٠) في الأصل : غير وكفر ، وهو تحريف . والتصويب من «القشيرية» .

قلت : لم يختلف قول الشافعى فى كراهته والنهى عنه للعوام والخواص ، لكن هل هى كراهة تحريم ، أو تنزيه ، أو تفضيل بين بعض وبعض ؟ هذا مما يتنازع فيه أصحابه ، وهذا قوله فى سماع العامة . وأما السماع الدينى [الذى][١] جعله أبو القاسم للخاصة ، فهو عند الشافعى من فعل الزنادقة ، كما قال : خلَّفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير ، يصدُّون به الناس عن القرآن .

فعنده أن هذا السماع أعظم من أن يقال فيه مكروه أو حرام ، بل هو عنده مضادٌ للإيمان ، وشَرْعُ دينٍ لم يأذن الله به ، ولم ينزل به سلطان .

وإن كان من المشايخ الصالحين من تأوَّل فى ذلك ، وبتأويله واجتهاده يغفر الله له خطأه[٢] ، ويثيبه[٣] على ما مع التأويل من عمل صالح ، فذلك لا يمنع أن يقال [ما][٤] فى الفعل من الفساد ، إذ[٥] التأويل من باب المعارض فى حق بعض الناس ، تُدفع[٦] به عنه العقوبة ، كما تدفع[٦] بالتوبة والحسنات الماحية ، وهذا لمن استفرغ وسعه فى طلب الحق .

فقول الشافعى رضى الله عنه فى هؤلاء ، كقوله فى أهل الكلام :

---

(١) الذى : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : خطاوه ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : وتثبته ، وهو تحريف .

(٤) ما : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام

(٥) فى الأصل : إذا ، وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : يدفع .

حكمى[١] فى أهل الكلام[٢] أن يُضربوا بالجريد والنعال[٣] ، ويُطاف بهم فى العشائر والقبائل ، ويُقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام[٤] . وقوله : لأن يبتلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يبتلى بالكلام[٥] .

ظ ٦٨ ومع هذا فقد ابتلى ببعض ذلك على وجه/التأويل طوائف من أهل العلم والدين والتصوف والعبادة .

ولهذا كان الكلام فى السماع على وجهين :

أحدهما : سماع اللعب والطرب . فهذا يقال فيه مكروه أم محرم ؟ أو باطل أو مرخَّص فى بعض أنواعه ؟

والثانى : السماع المحدَث لأهل الدين والقرب . فهذا يقال فيه : إنه بدعة وضلالة ، وإنه مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ، وإجماع السالفين جميعهم ، وإنما حدث فى الأمة لما أُحدث الكلام ، فكثر هذا فى العلماء وهذا فى العبَّاد .

ولهذا كان يزيد بن هارون الواسطى – وهو من أتباع التابعين وأواخر

---

(١) فى الأصل : حلى ، وهو تحريف . والكلام التالى أورده ابن الجوزى فى كتابه «تلبيس إبليس» ص ٨٢–٨٣ ونسبة إلى الشافعى .

(٢) تلبيس إبليس : فى علماء الكلام .

(٣) والنعال : ليست فى «تلبيس إبليس» .

(٤) تلبيس إبليس : وأخذ فى الكلام .

(٥) تلبيس إبليس (ص ٨٢) : لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر فى الكلام .

القرون الثلاثة[١] – تجتمع فى مجلسه الأمم العظيمة ، وكان أجلّ مشايخ الإسلام إذ ذاك[٢] ، فكان ينهى عن الجهمية وعن المغيِّرة : هؤلاء أهل الكلام المخالف للكتاب والسنة ، وهؤلاء أهل السماع المحدَث المخالف للكتاب والسنة .

ولهذا لم يستطع أحد ممن يستحب السماع المحدَث ويستحسنه أن يحتج لذلك[٣] بأثرٍ عمَّن مضى ولا بأصل[٤] فى الكتاب والسنة .

قال أبو القاسم[٥] : «وقد رُوى عن ابن عمر آثار فى إباحته للسماع[٦] ، وكذلك عبد الله[٧] بن جعفر بن أبى طالب» .

قلت : أما النقل عن ابن عمر فباطل ، بل المحفوظ عن ابن عمر ذمه للغناء ونهيه عنه ، وكذلك عن سائر أئمة الصحابة : كابن مسعود ، وابن عباس ، وجابر ، وغيرهم ، ممن ائتم بهم المسلمون فى دينهم .

وأما ما يذكر مِنْ فعل عبد الله بن جعفر فى أنه كان له جارية يسمع غناءها فى بيته ، فعبد الله بن جعفر ليس ممن يصلح أن يعارض قوله فى

---

(١) فى الأصل : الثالث . وهو تحريف .

(٢) أبو خالد يزيد بن هارون بن زاذان بن ثابت الواسطى ، من حفاظ الحديث الثقات ، ولد بواسط سنة ١١٨ وتوفى بها سنة ٢٠٦ . قُدّر من كان يحضر مجلسه بسبعين ألفا . قال عنه الذهبى : «القدوة شيخ الإسلام» . انظر ترجمته فى : تذكرة الحفاظ ١/٣١٧-٣٢٠ ؛ تهذيب التهذيب ١١/٣٦٦-٣٦٩ ؛ الأعلام ٩/٢٤٧

(٣) فى الأصل : بذلك .

(٤) فى الأصل : ولا أصل .

(٥) فى «القشيرية» ٢/٦٣٩ بعد كلامه السابق مباشرة .

(٦) القشيرية : السماع .

(٧) القشيرية : وكذلك عن عبد الله .

الدين – فضلا عن فعله – لقول ابن مسعود وابن عمر ، وابن عباس ، وجابر ، وأمثالهم .

ص ٦٩ ومن احتج بفعل مثل عبد الله فى الدين فى مثل/ هذا ، لزمه[١] أن يحتج بفعل معاوية فى قتاله لعلىّ ، وبفعل ابن الزبير فى قتاله فى الفُرقة ، وأمثال ذلك ، ممّا لا يصلح لأهل العلم والدين أن يدخلوه فى أدلة الدين والشرع ، لا سيما النسَّاك والزهاد . وأهل الحقائق لا يصلح لهم أن يتركوا سبيل المشهورين بالنسك والزهد بين الصحابة ، ويتّبعوا سبيل غيرهم .

وما أحسن ما قال حذيفة رضى الله عنه : يامعشر القرّاء استقيموا وخذوا طريق من كان قبلكم ، فوالله لئن اتبعتموهم لقد سبقتم سبقاً بعيدا ، ولئن أخذتم يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيداً .

ثم الذى فعله عبد الله بن جعفر كان فى داره ، لم يكن يُجتمع عنده على ذلك ، ولا يسمعه إلا ممن مملوكته ، ولا يعدّه دينا وطاعة ، بل هو عنده من الباطل . وهذا مثل ما يفعله بعض أهل السعة من استماع غناء جاريته فى بيته ، ونحو ذلك ، فأين هذا من هذا ؟ هذا لوكان مما يصلح أن يحتج به[٢] فكيف وليس بحجة أصلا ؟.

قال[٣] : «وكذلك عن عمر وغيره فى الحداء»[٤].

قلت : أما الحداء ، فقد ذُكر الاتفاق على جوازه ، فلا يحتج به فى موارد .

(١) فى الأصل : ألزمه .

(٢) به : ساقطة من الأصل .

(٣) بعد كلامه السابق مباشرة ٢/٦٣٩

(٤) القشيرية : .. عن عمر رضى الله عنهم أجمعين ، فى الحداء وغيره .

وقد ثبت أن عامر بن الأكوع كان يحدو الصحابة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : من السائق ؟ قالوا : عامر بن الأكوع ، فقال : يرحمه [الله][١] . فقالوا : يارسول الله لولا امتعتنا به . ففى الصحيحين عن سلمة بن الأكوع ، قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسرنا ليلا ، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع : ألا[٢] تسمعنا من هنياتك – وكان عامر رجلا شاعرا – فنزل يحدو بالقوم يقول :

والله لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر ، فداءً لك[٣] ، ما اقتفينا وثبِّت الأقدام إن لاقينا

وألقينْ سكينةً علينا إنا إذا صيح بنا أتينا

وبالصُّيَاح عوَّلوا علينا

فقال رسول/الله صلى الله عليه وسلم : من هذا السائق ؟ قالوا : عامر ابن الأكوع ، فقال : يرحمه الله ، فقال رجل من القوم : وجبت يانبى الله، لولا أمتعتنا به» . فذكر الحديث فى استشهاده فى تلك الغزوة: غزوة خيبر[٤] . ظ ٦٩

(١) لفظ الجلالة غير موجود فى الأصل ، وزدته ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : لا ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : بذلك ، والتصويب من «صحيح مسلم» .

(٤) ورد هذا الحديث مختصرا فى الصحيحين عن البراء بن عازب رضى الله عنه ونصه – فى البخارى – عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ينقل التراب ، وقد وارى التراب بياض بطنه وهو يقول :

لولا أنت ما أهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزل السكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأولى قد بَغَوْا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا =

وفى صحيح مسلم ، عن سلمة بن الأكوع قال : لما كان يوم خيبر قاتل أخى قتالا شديدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتد عليه سيفه فقتله ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، وشكُّوا فيه : رجل مات فى سلاحه . قال سلمة : فقفل رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر . فقلت : يا رسول الله ائذن لى أن أرجز لك[1] ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر : أَعْلَمُ ما تقول ، قال : فقلت :

لـولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدقت .

فـأنـزلـن سكـينـة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

والمشركون قد بغوا علينا .

فلما قضيت رجزى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال هذا ؟ قلت له : أخى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرحمه الله . قال : فقلت : يارسول الله ، والله إن ناساً ليهابون الصلاة عليه ،

= وهذا الحديث فى : البخارى ٤ /٢٦ (كتاب الجهاد والسير ، باب حفر الخندق) ؛ مسلم ٤ /١٤٣٠–١٤٣١ (كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة الأحزاب وهى الخندق) ؛ سنن الدارمى ٢ /٢٢١ (كتاب السير ، باب فى حفر الخندق) .

أما نسبة الأبيات إلى عامر بن الأكوع فهو فى حديث آخر طويل موافق لما أورده ابن تيمية هنا –وهو جزء من الحديث– فى أكثر ألفاظه ولكنه لم يرد فى البخارى . وهو مروى عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه فى : مسلم ٣ /١٤٢٧–١٤٢٨ (كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة خيبر) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٣ /٤٣١ ؛ سنن النسائى (بشرح السيوطى) ٦ /٢٦–٢٧ (كتاب الجهاد ، باب من قاتل فى سبيل الله فارتد عليه سيفه فقتله) .

(١) فى الأصل : بك . والتصويب من صحيح مسلم .

يقولون : رجل مات بسلاحه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبوا ، مات جاهداً مجاهداً ، فله أجره مرتين»[١] .

وكذلك قد ثبت فى الصحيح حديث أنجشة الحبشى الذى كان يحدو ، حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : رويدك أنجشة سوقك بالقوارير ، يعنى النساء ، أمره بالرفق بهن لئلا تزعجهن الإبل فى السير إذا اشتد سيرها[٢] ، وينزعجن بصوت الحادى .

ففى الصحيحين عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره ، وغلام أسود يقال له أنجشة يحدو ، /فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك أنجشة رويدك سوقك بالقوارير . قال أبو قلابة : يعنى النساء . وأخرجاه من حديث ثابت عن أنس بنحوه[٣] . ص ٧٠

ومن حديث قتادة عن أنس قال : كان للنبى صلى الله عليه وسلم خادم يقال له أنجشة ، وكان حسن الصوت ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : رويدك يا أنجشة ، لا تكسر القوارير . قال قتادة : يعنى ضعفة النساء[٤] .

---

(١) الحديث عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه فى : مسلم ٣/١٤٢٩-١٤٣٠ (كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة خيبر) .

(٢) فى الأصل : كسيرها ، وهو تحريف .

(٣) هذه الرواية من حديث ثابت عن أنس رضى الله عنه فى : البخارى ٨/٤٧ (كتاب الأدب ، باب المعاريض مندوحة عن الكذب) ؛ مسلم ٤/١٨١١ (كتاب الفضائل ، باب رحمة النبى صلى الله عليه وسلم للنساء وأمر السواق مطاياهن بالرفق بهن) .

(٤) هذه الرواية عن قتادة رضى الله عنه فى : البخارى ٨/٤٧ (فى الكتاب والباب السابقين) ؛ مسلم ٤/١٨١٢ (فى الكتاب والباب السابقين) .

وفى رواية البخارى عن أبى قلابة قال : كانت أم سليم فى الثَّقَلِ وأنجشة غلام النبى صلى الله عليه وسلم يسوق بهن ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا أنجش رويدك سوقك بالقوارير [(١)] .

وفى رواية البخارى عن ثابت عن أنس قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فحدا الحادى ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أرفق يا أنجشة ، ويحك ، بالقوارير[(٢)] .

واحتجاجهم بإنشاد الشعر ، كما قال **أبو القاسم**[(٣)] : «وأُنْشِد بين يَدَىْ النبى – صلى الله عليه وسلم – الأشعار فلم ينه عنها ، ورُوِى أنه صلى الله عليه وسلم استنشد الأشعار» .

وهذا من القياس الفاسد كما تقدم .

قال[(٤)] : ومن المشهور الظاهر حديث الجاريتين ، وذكر حديث الجاريتين

(١) هذه الرواية عن أبى قلابة عن أنس رضى الله عنه فى : البخارى ٨/٤٤-٤٥ (كتاب الأدب ، باب من دعا صاحبه فنقص من اسمه حرفا) ؛ مسلم ٤/١٨١١ (فى الكتاب والباب السابقين) .

(٢) هذه الرواية عن ثابت عن أنس فى : البخارى ٨/٤٧ (كتاب الأدب ، باب المعاريض مندوحة عن الكذب) ؛ مسلم ٤/١٨١١ (فى الكتاب والباب السابقين) .

وتكرر الحديث – مع اختلاف فى الألفاظ – عن أنس رضى الله عنه فى : البخارى ٨/٣٥-٣٦ (كتاب الأدب ، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٣/١٠٧ ، ١١٧ ، ١٦٨ وفى مواضع أخرى فى المسند . وجاء الحديث مختصرا عن ابن عباس رضى الله عنهما فى : سنن الدارمى ٢/٢٩٥-٢٩٦ (كتاب الاستئذان ، باب فى المزاح) .

(٣) فى «القشيرية» ٢/٦٣٩ بعد كلامه السابق مباشرة .

(٤) القشيرية ٢/٦٣٩ والكلام التالى تلخيص لما فى «القشيرية» ولم يذكر ابن تيمية نص كلام القشيرى . ونص كلام القشيرى : «ومن المشهور الظاهر أنه دخل بيت عائشة رضى الله عنها ، وفيه جاريتان تغنيان ، فلم ينههما» . ثم ذكر القشيرى سند الحديث إلى أن قال : «عن عائشة رضى الله عنها : أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه دخل عليها وعندها قينتان تغنيان بما تقاذفت به الأنصار يوم بُعاث ، فقال أبو بكر : مزمار الشيطان (مرتين) . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : دعهما ...الخ

اللتين كانتا تغنيان فى بيت عائشة بما تقاولت به الأنصار يوم بُعاث . فقال أبو بكر : مزمور الشيطان ؟ ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : دعهما[١] يا أبا بكر فإن لكل قوم عيداً ، وعيدنا هذا اليوم[٢] .

وقد تقدم أن الرخصة فى الغناء فى أوقات الأفراح للنساء والصبيان أمر مضت به السنة ، كما يرخَّص لهم فى غير ذلك من اللعب ، ولكن لا يُجعل الخاص عاما . ولهذا لما قال أبو بكر : أمزمور الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لم ينكر النبى صلى الله عليه وسلم هذه التسمية ، والصحابة لم يكونوا يفضلون شيئا من ذلك ، ولكن ذكر النبى صلى الله عليه وسلم/ أمرا خاصا بقوله : إن لكل قوم عيدا ، وهذا عيدنا . ظ ٧٠

ومثل هذا قوله لعمر : «لو رآك سالكا فجاً لسلك فجًّا غير فجِّك[٣]» لما خاف منه النساء فيما كن يفعلنه بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، فعلم أن هذا ، وإن كان من الشيطان ، لكن الرخصة فيه لهؤلاء ، لئلا يدعوهم إلى

---

(١) فى الأصل : دعها ، وهو تحريف

(٢) الحديث – مع اختلاف فى بعض الألفاظ – عن عائشة رضى الله عنها فى : البخارى (فى موضعين) ١٦/٢ ، ١٧ (كتاب العيدين ، باب الحراب والدَّرَق يوم العيدين ..) ؛ مسلم ٦٠٧/٢–٦٠٨ ، ٦٠٩ (كتاب صلاة العيدين ، باب الرخصة فى اللعب الذى لا معصية فيه فى أيام العيد) ؛ سنن ابن ماجة ٦١٢/١ (كتاب النكاح ، باب الغناء والدف) ؛ المسند (ط. الحلبى) ١٨٦/٦–١٨٧ .

(٣) هذه العبارات جزء من حديث طويل رواه محمد بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه سعد رضى الله عنه فى موضعين فى : البخارى ١٢٦/٤ (كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده) ، ١١/٥ (كتاب فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، باب مناقب عمر بن الخطاب) . وأوله (فى الموضع الأول) : «..استأذن عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من قريش يكلمنه ... الحديث .. وفيه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان قط سالكا فجاً إلا سلك فجاً غير فجِّك» .

ما يفسد عليهم دينهم ، إذ لايمكن صرفهم عن كل ماتتقاضاه الطبائع [١] من الباطل .

والشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فهى تحصِّل أعظم المصلحتين بفوات أدناهما ، وتدفع [٢] أعظم الفسادين باحتمال أدناهما ، فإذا وصُف المحتمل بما فيه من الفساد ، مثل كونه من عمل الشيطان ، لم يمنع ذلك أن يكون قد وقع به ما هو أحب إلى الشيطان منه ، ويكون إقرارهم على ذلك من المشروع ، فهذا أصل ينبغى التفطن له .

والشيطان [يوسوس] لبنى آدم [٣] فى أمور كثيرة من المباحات ، كالتخلِّى والنكاح وغير ذلك ، وهو يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فلا يمكن حفظ جميع بنى آدم من كل ما للشيطان فيه نصيب ، لكن الشارع يأمر بالتمكن من ذلك ، كما شرع التسمية والاستعاذة عند التخلِّى والنكاح وغير ذلك ، ولو [لم] يفعل[٤] الرجل ذلك لم نقل : إنه يأثم بالتخلى ونكاح أمرأته ونحو ذلك .

وكذلك ذِكْر العُرس وقول النبى صلى الله عليه وسلم : إن الأنصار فيهم غزَل ، ولو أرسلتم من يقول :

---

(١) فى الأصل : الطائع ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : ويدفع .

(٣) فى الأصل : والشيطان ببنى آدم . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) فى الأصل : ولو يفعل .

أتينـاكـم أتيناكم فحيانا وحياكم[١]

وقد تقدم أن الخاص لا يجعل عاما .

ومدار الحجج فى هذا الباب ونحوه : إما على قياس فاسد ، وتشبيه الشئ بما ليس مثله . وإما على جعل الخاص عاما ، وهو أيضا من القياس الفاسد . وإما : احتجاجهم بما ليس بحجة أصلا .

ثم احتج أبو القاسم بما هو من جنس القياس الفاسد فذكر[٢] /حديث البراء بن عازب[٣] قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم[٤] يقول : «حسِّنوا القرآن بأصواتكم ، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً»[٥] وحديثاً عن أنس مرفوعاً : «لكل شئ حلية ، وحلية القرآن الصوت»[٦]

ص ٧١

---

(١) يلخص ابن تيمية هنا ما ذكره القشيرى فى «القشيرية» بعد كلامه السابق مباشرة ٢/٦٣٩-٦٤٠ ونصه بعد السند « .. عن عائشة رضى الله عنها أنها أنكحت ذات قرابتها من الأنصار ، فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أهديتم الفتاة ؟ فقالت : نعم . قال : فأرسلت من يغنى ؟ قالت : لا . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن الأنصار فيهم غزل ، فلو أرسلتم من يقول :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم»

والحديث عن ابن عباس رضى الله عنهما فى : سنن ابن ماجة ١/٦١٢-٦١٣ (كتاب النكاح ، باب الغناء والدف) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٣/٣٩١ (عن جابر رضى الله عنه) .

(٢) وهو القشيرى فى «القشيرية» ٢/٦٤٠ .

(٣) «فى القشيرية» ذكر القشيرى سنده إلى الصحابى رضى الله عنه .

(٤) القشيرية : رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٥) القشيرية : «حسنا» دلّ هذا الخبر على فضيلة الصوت الحسن». وجاء الحديث من قبل (ص ٢٤٥ بلفظ : «زينوا القرآن بأصواتكم» عن البراء بن عازب رضى الله عنه وذكرت مواضعه هناك (ت ١) . ولم يأت الحديث بلفظ «حسِّنوا ..» إلا فى موضع واحد وهو سنن الدارمى ٢/٤٧٤ (كتاب فضائل القرآن ، باب التغنى بالقرآن) .

(٦) ذكر القشيرى الحديث بسنده فى القشرية٢/٦٤٠ وفيه .. حدثنا عبد الله بن محرز عن قتادة عن أنس ابن مالك قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل شئ حلية وحلية القرآن الصوت الحسن» .

وهذا ضعيف عن النبى صلى الله عليه وسلم من رواية عبد الله بن محرز ، وهو ضعيف لا يحتج به بحال [(١)] .

وقال [(٢)] : «دل هذا الخبر على فضيلة الصوت» .

قلت : هذا دل على فضل الصوت الحسن بكتاب الله ، لم يدل على فضيلته بالغناء ، ومن شبَّه هذا بهذا فقد شبَّه الباطل بأعظم الحق .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة يس : ٦٩] ، فكيف نشبِّه ما أمر الله به من تلاوة كتابه وتحسينه بالصوت ، بما لم يأمر بتحسين الصوت به ؟

هذا مثل من قال : إذا أمر الله بالقتال فى سبيله بالسيف والرمح والرمى ، دل على فضيلة الضرب والطعن ، ثم يحتج بذلك على الضرب والطعن والرمى فى غير سبيل [الله] [(٣)] .

ومثل من قال : إذا أمر الله بإنفاق المال فى سبيله دل على فضيلة المال [(٤)] ، ويحتج بذلك على إنفاق المال فى غير سبيله .

أو قال : إذا أمر الله بالاستعفاف بالنكاح دل على فضيلة النساء ، ويحتج بذلك على فضيلة النساء ، ويحتج بذلك على فضيلة النكاح ، ويحتج بذلك على فضيلة ما لم يأذن الله به من النكاح .

(١) ذكر السيوطى الحديث فى «الجامع الكبير» ١/ ٦٥١ وقال إنه ضعيف رواه عبد الرزاق فى مصنفه وابن عساكر فى تاريخه والخطيب فى تاريخه عن أنس ورواه أبو نعيم عن ابن عباس .

(٢) أى القشيرى ، والعبارات التالية سبق ورودها .

(٣) فى الأصل العبارة مضطربة هكذا : «ثم يحتج بذلك على ذلك على الضرب والطعن والرمى فى مثل غير سبيل» ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٤) فى الأصل : الما .

وكذلك كل ما يعين على طاعة الله من تفكر أو صوت ، أو حركة أو قوة ، أو مال أو أعوان ، أو غير ذلك ، فهو محمود فى حال إعانته على طاعة الله ومَحَابِّه ومراضيه ، ولا يُستدل بذلك على أنه فى نفسه محمود على الإطلاق ، ويُحتج بذلك على أنه محمود إذا استُعين به على ما هو من طاعة الله ، [ولا يحتج به على ما ليس هو من طاعة الله] [١] بل هو من البدع فى الدين أو الفجور فى الدنيا .

ظ ٧١ /ومثل هذا قوله صلى الله عليه وسلم : «لله أشد أَذَناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن [من صاحب القينة] إلى قينته» [٢] . وقال : «ما أَذِنَ الله لشئ كأَذَنِهِ لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به [٣] » بل قوله صلى الله عليه وسلم : «ليس منا من لم يتغن بالقرآن [٤] » يقتضى أن التغنى المشروع هو بالقرآن ، وأن من تغنّى بغيره فهو مذموم ، ولا يُقال : هذا يدل على استحباب حسن التغنى .

وقوله : «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» إماً أن [٥] يريد به الحضَّ على أصل الفعل ، وهو نفس التغنى بالقرآن ،[وإما أن يريد به مطلق التغنى] [٦]

(١) ما بين المعقوفتين كلام زدته لأصل به ما انقطع ، ولعله يكون صوابا إن شاء الله .

(٢) فى الأصل : من صاحب القرآن إلى قينته ، ومضى الحديث من قبل .

(٣) مضى هذا الحديث من قبل .

(٤) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ١٥٣/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : وأسرّوا قولكم أو اجهروا به) ؛ سنن أبى داود ١٠٠/٢ (كتاب الوتر ، باب استحباب الترتيل فى القراءة) . وجاء الحديث عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فى : سنن الدارمى ٣٤٩/١ (كتاب الصلاة ، باب التغنى بالقرآن) ، ٤٧١/٢ (كتاب فضائل القرآن ، باب التغنى بالقرآن) ؛ المسند (ط. المعارف) ٤٣/٣-٤٤ (حديث رقم ١٤٧٦) ، ٥٩/٣ (حديث رقم ١٥١٢) وصحح الشيخ أحمد شاكر الحديثين .

(٥) فى الأصل : أن إما أن ، وهو تحريف .

(٦) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

وهو على صفة الفعل ،[والأول]هو[١] أن يكون تغنّيه إذا تغنى بالقرآن لا بغيره ، وهذا كما وقع فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [سورة المائدة : ٤٩] ، هل هو أمر بأصل الحكم أو بصفته إذا حكم ؟

والمعنى الثانى : ذم لمن تَغنَّى بغيره مطلقا دون من ترك التغنى به وبغيره .

والمعنى الأول : ذم لمن ترك التغنى به دون من تغنَّى به ومن تغنَّى بغيره .

ثم ذكر أبو القاسم[٢] حديث ابن عاصم ، عن شبيب بن بشر ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «صوتان ملعونان : صوت وَيْلٍ عند مصيبة ، وصوت مزمار عند نعمة[٣] . مفهوم الخطاب يقتضى إباحة غير هذا فى غير هذه الأحوال ، وإلا لبطل التخصيص ».

قلت : هذا الحديث من أجود ما يحتج به على تحريم الغناء ، كما فى اللفظ المشهور عن [جابر بن عبد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم][٤] أنه قال : « إنما نُهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت

---

(١) فى الأصل : وهو. ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) بعد كلامه السابق مباشرة فى «القشيرية» ٢/٦٤٠ ، وقد اختصر ابن تيمية سند الحديث الذى أورده القشيرى .

(٣) ذكر السيوطى فى «الجامع الكبير» ١/٥٦١ الحديث فقال : «صوتان ملعونان فى الدنيا والآخرة : مزمار عند نعمة (فى الأصل : نغمة) ورنّة عند مصيبة» ثم قال : «البزار ض (الضياء المقدسى فى الجنان) عن أنس» . وذكر المنذرى الحديث فى «الترغيب والترهيب» ٥/٣١١ ، وقال : «رواه البزار ورواته ثقات» .

(٤) فى الأصل يوجد بياض بمقدار نصف سطر بعد حرف «عن» .

عند نعمة : لهو ولعب ومزامير الشيطان . وصوت عند مصيبة : لطم خدود وشق جيوب ودعوى بدعوى الجاهلية »[١] .

فنهى عن الصوت الذى يُفعل عند النعمة ، كما نهى عن الصوت الذى يُفعل عند المصيبة . والصوت الذى عند النعمة هو صوت الغناء .

وأما قوله : «صوت مزمار» فإن نفس صوت الإنسان يسمى مزمارا ، كما [قيل][٢] لأبى موسى : «لقد أوتى هذا مزماراً / من مزامير آل داود»[٣] . ص ٧٢
وكما قال أبو بكر رضى الله عنه : «أبمزمور الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟»[٤] .

وأما قوله : «مفهوم الخطاب يقتضى إباحة غير هذا» جوابه من وجهين :

أحدهما : أن مثل اللفظ الذى ذكره لا مفهوم له عند أكثر أهل العلم ،

---

(١) الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٢/٢٣٧ (كتاب الجنائز ، باب ماجاء فى الرخصة فى البكاء على الميت) ونصه : «أخذ النبى صلى الله عليه وسلم بيد عبد الرحمن بن عوف فانطلق به إلى ابنه إبراهيم فوجده يجود بنفسه ، فأخذه النبى صلى الله عليه وسلم فوضعه فى حجره فبكى ، فقال له عبد الرحمن : أتبكى ، أو لم تكن نهيت عن البكاء ؟ قال : لا . ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند مصيبة ؛ خمش وجوه وشق جيوب ، ورنة الشيطان» ثم قال الترمذى : «وفى الحديث كلام أكثر من هذا . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح» . ونقل ابن الأثير الحديث فى «جامع الأصول» ١١/٤٠٨ عن الترمذى ولم يزد عليه . ووجدت الهيثمى قد أورد الحديث فى «مجمع الزوائد» ٣/١٧ وفيه أكثر الألفاظ التى ذكرها ابن تيمية وزاد عليها بعد عبارة «وشق جيوب» : «وهذه رحمة ومن لايرحم لايُرحم ، يا إبراهيم لولا أنه وعد صادق ... الخ الحديث . ثم قال الهيثمى : «رواه أبو يعلى والبزار وفيه محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى وفيه كلام» .

(٢) قيل : زدتها للإيضاح .

(٣) مضى الحديث من قبل ص ٢٤٦ .

(٤) مضى هذا الحديث أيضا فيما سبق ص ٢٨٧ .

والتخصيص فى مثل هذا كقوله صلى الله عليه وسلم : «ثلاث فى أمتى من أمر الجاهلية»[١] . ومن قال : إنه يكون له مفهوم ، فذلك إذا لم يكن للتخصيص سبب آخر . وهذا[٢] التخصيص لكون هذه الأصوات هى التى كانت معتادة فى زمنه ، كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [سورة الإسراء : ٣١] .

والثانى : أن اللفظ الذى ذكره الرسول يدل على مورد النزاع ، فإنه صوت النعمة ، ولو لم تكن نعمة لكان تنبيها عليه ، فإنه إذا نهى عن ذلك عند النعمة ، والإنسان معذور فى ذلك ، كما رخَّص فى غناء النساء فى الأعراس والأعياد ونحو ذلك ، فلأَنْ ينهى عن ذلك بدون ذلك أَوْلى وأحرى .

والآلات الملهية : قد صح فيها ما رواه البخارى فى صحيحه ، تعليقا مجزوماً به داخلا فى شرطه ، عن عبد الرحمن بن غَنْمٍ الأشعرى أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : «ليكونن فى أمتى أقوام يستحِلُّون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف ، ولينزلن أقوام إلى جَنْب عَلَمٍ ، يَروح بسارحةٍ

---

(١) وجدت عدة أحاديث فى «الجامع الكبير» بمعنى هذا الحديث منها : «ثلاث من فعل الجاهلية لا يدعهن أهل الإسلام : الاستسقاء بالكواكب ، وطعن فى النسب ، والنياحة على الميت . خ فى التاريخ (البخارى فى التاريخ الكبير) وابن سعد والبارودى وابن السكن وابن قانع طب (الطبرانى فى المعجم الكبير) وأبو نعيم س عن مصعب بن عبد الله بن جنادة بن مالك الأزد عن أبيه عن جده قال خ : فى إسناده نظر» . ومنها : «ثلاث من أمر الجاهلية لايدعهن الناس : الطعن فى النسب ، والنياحة ، وقولهم : مطرنا بنوء كذا . البزار عن عمرو بن عوف» . ومنها : «ثلاث من عمل الجاهلية لايتركها الناس أبدا : الطعن فى النسب ، والنياحة على الميت ، والاستمطار بالنجوم . ابن جرير عن أبى هريرة» .

(٢) فى الأصل : وهنا .

لهم ، يأتيهم لحاجتهم فيقولون : ارجع إلينا غداً فيبيتهم الله ويضع[1] العَلَمَ ، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة»[2] .

وقال أبو القاسم[3] : « وقد رُوى أن رجلا أنشد بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فقال[4] :

أقبلتْ فلاح لها عارضان كالسَّبَج[5]

(١) فى الأصل : يضع . والمثبت هو الذى فى صحيح البخارى .

(٢) الحديث عن عبد الرحمن بن غَنْم الأشعرى قال حدثنى أبو عامر–أو أبو مالك– الأشعرى ، والله ما كذبنى ، سمع (وفى سنن أبى داود : أنه سمع) النبى صلى الله عليه وسلم . والحديث فى : البخارى ١٠٦/٧ (كتاب الأشربة ، باب ماجاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه) ؛ سنن أبى داود ٦٧/٤–٦٨ (كتاب اللباس ، باب ماجاء فى الخز) .

أما قول ابن تيمية : «تعليقا مجزوما به داخلا فى شرطه» فقد تكلم ابن حجر فى فتح البارى (ط. السلفية) ٥٤/١٠–٥٦ عن الحديث،ورد كلام من أعلَّ الحديث ومنهم ابن حزم . وقال ابن حجر ٥٥/١٠ : «قوله : يستحلون الحر ، ضبطه ابن ناصر بالحاء المهملة المكسورة والراء الخفيفة وهو الفرج ، وكذا هو فى معظم الروايات من صحيح البخارى ، ولم يذكر عياض ومن تبعه غيره . وأغرب ابن التين فقال : إنه عند البخارى بالمعجمتين ... وترجم أبو داود للحديث فى كتاب اللباس «باب ماجاء فى الخز» ووقع فى روايته بمعجمتين والتشديد والراجح بالمهملتين ، ويؤيده ما وقع فى «الزهد» لابن المبارك من حديث علىّ بلفظ : «يوشك أن تستحل أمتى فروج النساء والحرير» . ووقع عند الداودى بالمعجمتين ثم تعقبه بأنه ليس بمحفوظ لأن كثيراً من الصحابة لبسوه ... وقال ابن العربى : الخز بالمعجمتين والتشديد مختلف فيه والأقوى حله ، وليس فيه وعيد ولاعقوبة بإجماع» . قلت : ومما يؤيد كلام ابن حجر ماذكره أبو داود بعد الحديث : «قال أبو داود : وعشرون نفسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أكثر لبسوا الخز : منهم أنس والبراء بن عازب» .

ثم قال ابن حجر : «قوله : ولينزلن أقوام إلى جنب عَلَم : بفتحتين والجمع أعلام وهو الجبل العالى ؛ وقيل : رأس الجبل . قوله : يروح عليهم ، كذا فيه بحذف الفاعل ، وهو الراعى ... بسارحة بمهملتين : الماشية ... فيبيتهم الله : أى يهلكهم ليلا ، والبيات هجوم العدو ليلا . قوله : يضع العلم : أى يوقعه عليهم . وقال ابن بطال : إن كان العلم جبلا فيدكدكه وإن كان بناء فيهدمه ونحو ذلك . وأغرب ابن العربى فشرحه على أنه بكسر العين وسكون اللام فقال : وضع العلم إما بذهاب أهله كما سيأتى فى حديث عبد الله بن عمرو وإما بإهانة أهله بتسليط الفجرة عليهم» .

(٣) فى «القشيرية» ٦٤١/٢ ، وترك ابن تيمية عبارات ذكرها القشيرى فى سطر ونصف سطر .

(٤) القشيرية : بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وسقطت كلمة «فقال» .

(٥) قال محققا «القشيرية» : «السبج : الخرز الأسود» .

أدبـرت[١] فقلت لها والفؤاد فى وَهج :[٢]
هــل عــلىَّ ويحكما إن عشقت من حرج ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاحرج إن شاء الله»[٣] .

ظ ٧٢ /قلت : هذا الحديث موضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث،لا أصل له ، وليس هو فى شئ من دواوين الإسلام ، وليس له إسناد ، بل هو من جنس الحديث الآخر الذى قيل فيه : إن أعرابيا أتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأنشده :

قد لسعت حية الهوى كبدى فلا طبيب لها ولا راقى
إلا الحبيب الذى شُغفتُ به فعنده رقيتى وترياقى[٤]

(١) فى الأصل : إدابرت ، وهو تحريف .

(٢) يوجد بيت فى الأصل بعد هذا البيت لم يرد فى القشيرية وهو محرف هكذا :
عاد لى ويحكما قد عرفت فى الحج
(لعلها : قد غرقت فى لجج)

(٣) القشيرية : لا (بدون عبارة : حرج إن شاء الله) . وقال محققا القشيرية : «قيل إن هذا حديث موضوع فلا يجوز الاستشهاد به» . ولم أجد هذا الحديث .

(٤) أورد هذا الحديث السهروردى البغدادى فى كتابه «عوارف المعارف» ، ص ١٤٦-١٤٧ (ط. المكتبة العلامية ، القاهرة ، ١٣٥٨ / ١٩٣٩) بعد أن سرد له سندا يبدأ بأبى زرعة طاهر بن على المقدسى وينتهى إلى أنس بن مالك رضى الله عنه والحديث فيه كلام منكر لا مجال لذكره ، حتى إن السهروردى قال بعده : « فهذا الحديث أوردناه مسندا كما سمعناه ووجدناه ، وقد تكلم فى صحته أصحاب الحديث ، وما وجدنا شيئا نُقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاكل وجد أهل الزمان وسماعهم واجتماعهم وهيئتهم إلا هذا ، وما أحسنه من حجة للصوفية وأهل الزمان فى سماعهم وتمزيقهم الخرق وقسمتها أن لو صح - والله أعلم - ويخالج سرى أنه غير صحيح ، ولم أجد فيه ذوق اجتماع النبى صلى الله عليه وسلم مع أصحابه وما كانوا يعتمدونه ، على ما بلغنا فى هذا الحديث ، ويأبى القلب قبوله ، والله أعلم بذلك » .

وذكر الحديث محمد بن على بن طاهر الهندى الفتنى فى كتابه «تذكرة الموضوعات» (ط. المطبعة المنيرية ، القاهرة ، ١٣٤٣) ص ١٩٧-١٩٨ وقال إن الحديث فى الذيل للديلمى عن أنس ، وقال بعد أن أورد الحديث : «قال أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسى : تفرد به أبو بكر عمار بن إسحاق عن سعيد بن عامر . وقال =

وهذا أيضا موضوع باتفاق أهل العلم ، كذب مفترى .

وكذلك ما يُروى من أنهم تواجدوا ، وأنهم مزَّقوا الخرقة ونحو ذلك ، كل ذلك كذب لم يكن فى القرون الثلاثة ، لا بالحجاز ولا بالشام ولا باليمن ولا بالعراق ولا خراسان من يجتمع على هذا السماع المحدَث ، فضلا عن أن يكون كان نظيره على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا كان أحد يمزِّق ثيابه ، ولا يرقص فى سماعٍ ولا شئ من ذلك أصلا . بل لما حدث التغبير فى أواخر المائة الثانية ، وكان أهله من خيار الصوفية ، وحدث من جهة المشرق التى يطلع [منها][(١)] قرن الشيطان ومنها الفتن[(٢)] .

قال الشافعى رضى الله عنه : «خلَّفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة يسمُّونه التغبير ، يصدُّون به الناس عن القرآن» .

والذين شهدوا هذا اللغو متأوِّلين من أهل الصدق والإخلاص والصلاح غمرت حسناتهم ماكان لهم فيه وفى غيره من السيئات أو الخطأ

= أبو موسى المدينى : لا أصل لهذا الحديث بهذا السياق ، والظاهر أنه موضوع . وقد سمعت غير واحد من أهل العلم عاب المقدسى بإيراد هذا الحديث فى كتابه . وأورده السهروردى فى «العوارف» وقال : يخالج سرى أنه غير صحيح ، وقد تكلم فيه أصحاب الحديث ، والقلب يأبى قبوله . وقال سيف الدين : لا تعصب أبلغ من إيراد الحديث الذى لايخفى وضعه على الجهّال ، فلو خبت يداه عن كتابته لكان خيراً له . وقد وقفت على استفتاء فيه أفتى الإمام عبد الرحمن المقدسى بأن هذا الحديث غير صحيح ، لأن محمد بن طاهر – وإن كان حافظا–لكنهم تكلموا فيه ونسبوه الى الإباحة ، وله كتاب فى «صفة التصوف» روى فيه عن أئمة الدين حكايات باطلة ، مع أن هذا لا يناسب شعر العرب ، وإنما يليق بالمولَّدين ، وكذلك ألفاظ متن الحديث لا يليق بكلام النبى صلى الله عليه وسلم ولا بكلام أصحابه ، وكذلك معناه لا يليق بأحوالهم من الجد والاجتهاد ، وكذلك تمزيق أربعمائة قطعة لا يليق بهم . وأفتى النووى فيه بأنه باطل لا يحل روايته ويعزَّر من رواه عالما بحاله» . ولم أجده فى صفوة التصوف لمحمد بن طاهر المقدسى .

(١) منها : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل الكلمة غير واضحة وكأنها : المتن ، وهو تحريف . والأحاديث الصحيحة كثيرة ومعروفة فى خروج الفتن من المشرق حيث يطلع قرن الشيطان . انظر «جامع الأصول» لابن الأثير ١٠ /٤٢٣–٤٢٥ .

فى مواقع الاجتهاد ، وهذا سبيل كل صالحى هذه الأمة فى خطئهم وزلاَّتهم[١] .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٣٣-٣٥] وذلك كالمتأوِّلين فى تناول المسكِر من صالحى أهل الكوفة ، ومن اتّبعهم على ذلك ، وإن كان المشروب خمراً[٢] لا /يشك فى ذلك من (ص ٧٣) اطَّلع على أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة ، وكذلك المتأوِّلون[٣] للمتعة والصرف من أهل مكة ، متّبعين لما كان يقوله ابن عباس — وإن كان قد رجع عن ذلك ، أو زادوا عليه — إذ[٤] لا يشك فى ذلك ، وأنه من أنواع الربا المحرم والنكاح المحرم ، من اطَّلع على نصوص النبى صلى الله عليه وسلم .

وكذلك المتأوِّلون فى بعض الأطعمة والحشوش من أهل المدينة ، وإن كان لايشك فى تحريم ذلك من اطَّلع على نصوص النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وكذلك ما دخل فيه من دخل من السابقين والتابعين من القتال فى الفتنة والبغى بالتأويل ، مع ماعلم فى ذلك من نصوص الكتاب والسنة من ترك القتال والصلح . فما تأول فيه قوم من ذوى العلم والدين من مطعوم أو مشروب أو منكوح أو مملوك أو مما قد عُلم أن الله قد حرَّمه ورسوله لم يجز

---

(١) فى الأصل : خطاهم وولاتهم ، وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : خمر ، وهو خطأ .
(٣) فى الأصل : المتأولين .
(٤) فى الأصل : إذاً ، وهو خطأ .

اتّباعهم فى ذلك – مغفوراً لهم – وإن كانوا خيار المسلمين ، والله قد غفر لهذه الأمة الخطأ والنسيان ، كما دل عليه الكتاب والسنة ، وهو سبحانه يمحو السيئات بالحسنات ، ويقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات .

وبهذا يحصل الجواب عمّا ذكره الشيخ أبو طالب المكى فى كتابه «قوت القلوب» حيث ذكر[١] أنه من أنكر السماع مطلقا غير مقيد فقد أنكر على سبعين صدِّيقا[٢] ، ولعل الإنكار اليوم يقع على خلق عظيم من الصدِّيقين ، لكن يقال : الذين أنكروا ذلك أكثر من سبعين صدِّيقا وسبعين صدِّيقا وسبعين صدِّيقا ، وهم أعظم علماً وإيماناً وأرفع درجة ، فليس الانتصار بطائفة من الصدِّيقين على نظرائهم ، لاسيما على من هو أكبر وأكبر ، بأدلّ[٣] من العكس .

فإن[٤] القائل إذا قال : من شرع /هذا السماع المحدَث وجعله ممّا يُتقرب به فقد خالف جماهير الصدِّيقين من هذه الأمة وردَّ عليهم ، كان قوله أصحَّ وأقوى فى الحجة ، دع ما سوى ذلك . ظ ٧٣

وهنا أصل يجب اعتماده : وذلك أن الله سبحانه عصم هذه الأمة أن تجتمع على ضلالة ، ولم يعصم آحادها من الخطأ ، لا صدِّيقاً ولا غير صدِّيق ، لكن إذا وقع بعضها فى خطأ ، فلابد أن يقيم الله فيها من يكون

---

(١) فى الأصل : ذكره .

(٢) لم أتمكن من العثور على هذا الكلام فى «قوت القلوب» لأبى طالب المكى .

(٣) فى الأصل : تأول ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : قال ، وهو تحريف .

على الصواب فى ذلك الخطأ ، لأن هذه الأمة شهداء على الناس ، وهم شهداء الله فى الأرض ، وهم خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فلابد أن تأمر بكل معروف وتنهى عن كل منكر . فإذا كان فيها من يأمر بمنكر متأوِّلا ، فلابد أن يكون فيها[١] من يأمر بذلك المعروف .

فأما الاحتجاج بفعل طائفة من الصدِّيقين[٢] فى مسألةٍ نازعهم فيها أعدادهم فباطل . بل لو كان المنازع لهم أقل منهم عدداً وأدنى منزلة ، لم تكن الحجة مع أحدهما إلا بكتاب الله[٣] وسنة رسوله ، فإنه بذلك أُمرت الأمة .

كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [سورة النساء : ٥٩] فإذا تنازعت الأمة وولاة الأمور من الصدِّيقين وغيرهم ، فعليهم جميعهم أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله .

ومن المعلوم أن الصدِّيقين الذين أباحوا بعض المسكر كانوا أسبق من هؤلاء وأكثر وأكبر ، وكذلك الذين استحلُّوا المتعة والصرف وبعض المطاعم الخبيثة والحشوش ، والذين استحلُّوا القتال فى الفتنة ، متأوِّلين معتقدين أنهم على الحق وغير ذلك ، هم أسبق من هؤلاء وأكثر وأكبر .

ص ٧٤ فإذا/نُهى عما نهى الله عنه ورسوله لم يكن لأحد أن يقول : هذا إنكار

(١) فى الأصل : أن يكون فيها من يكون فيها ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : الصدقين ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : إلا بذات الله ، وهو تحريف

على كذا وكذا رجلا من السابقين والتابعين ، فإن هذا الإنكار كان من نظرائهم ، ومن هو فوقهم أو قريبا منهم ، وعند التنازع فالمرد إلى الله ورسوله .

ولكن من ذهب إلى القول المرجوح[١] ينتفع به فى عذر المتأولين . فإن عامة ماحرَّمه الله ، مثل قتل النفس بغير حق ، ومثل الزنا والخمر والميسر والأموال والأعراض ، قد استحل بعض أنواعه طوائف من الأمة بالتأويل ، وفى المستحلِّين قوم من صالحى الأمة وأهل العلم والإيمان منهم .

لكن المستحل لذلك لايعتقد أنه من المحرَّمات ، ولا أنه داخل فيما ذمه الله ورسوله . فالمقاتل فى الفتنة متأوِّلا لا يعتقد أنه قتل مؤمنا بغير حق ، والمبيح للمتعة والحشوش ونكاح المحلل[٢] لا يعتقد أنه أباح زنا وسفاحاً ، والمبيح للنبيذ المتأوَّل فيه ، ولبعض أنواع المعاملات الربوية ، وعقود المخاطرات ، لا يعتقد أنه أباح الخمر والميسر والربا .

ولكن وقوع مثل هذا التأويل من الأئمة المتبوعين ، أهل العلم والإيمان ، صار من أسباب المحن والفتنة ، فإن الذين يعظِّمونهم قد يقتدون بهم فى ذلك ، وقد لايقفون عند الحد الذى انتهى إليه أولئك ، بل يتعدون[٣] ذلك ويزيدون زيادات لم تصدر من أولئك الأئمة السادة ، والذين يعلمون تحريم جنس ذلك الفعل[٤] قد يعتدون[٥] على المتأولين بنوع

(١) فى الأصل : المرجوع ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : المجلد ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : يعتدون ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : العقل ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : يعتقدون ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته .

من الذم فيما هو مغفور لهم ، ويتبعهم آخرون فيزيدون فى الذم ما يستحلون به من أعراض إخوانهم وغير أعراضهم ماحرَّمه الله ورسوله ، فهذا واقع كثير فى موارد النزاع الذى وقع فيه خطأ من بعض الكبار.

ظ ٧٤ واعتبر ذلك بمسألة السماع التى تكلمنا فيها ، /فإن الله سبحانه شرع للأمة ما[1] أغناهم به عمَّا لم يشرعه – حيث أكمل الدين وأتم عليهم النعمة ، ورضى لهم الإسلام دينا – وهو سماع القرآن الذى شرعه لهم فى الصلاة ، التى هى عماد دينهم ، وفى غير الصلاة : مجتمعين ومنفردين ، حتى كان أصحاب محمد إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم أن يقرأ ، والباقون يسمعون . وكان عمر بن الخطاب يقول لأبى موسى : يا أبا موسى ذكِّرنا ربنا ، فيقرأ وهم يستمعون ، وقد بسطنا القول فى ذلك فى غير هذا الموضع ، وإنما ذكرنا هنا نكتاً تتعلق بالسماع .

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [سورة الزمر : ٢٣] .

وذكر سماع المؤمنين والعارفين والعالمين والنبيين فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ [سورة الأنفال : ٢] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ۞ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ [سورة الإسراء : ١٠٨-١٠٩] .

(١) فى الأصل : من ما . ولعل الصواب ما أثبته .

وقال : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا ﴾ [سورة مريم : ٥٨](١).

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [سورة الزمر : ١٨].

وقال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً ﴾ [سورة الفرقان : ٧٣].

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [سورة فصلت : ٢٦](٢)

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ [سورة الفرقان : ٣٠].

وقال تعالى ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [سورة الأنفال : ٢٣](٣).

وقال : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [سورة المدثر : ٤٩-٥١]. ص ٧٥

وقال : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ الآية [سورة الإسراء : ٤٥].

(١) فى الأصل سقطت عبارة «ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل» من الآية الكريمة.

(٢) كلمة «تغلبون» : ساقطة من الآية الكريمة فى الأصل.

(٣) سقطت عبارة «ولو أسمعهم» من الأصل.

وقال : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [سورة التوبة : ٦] .

وقال تعالى : ﴿ اُتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ [سورة العنكبوت : ٤٥].

وقال : ﴿ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ [سورة المزمل : ٢٠] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ منا من لم يتغنَّ بالقرآن»[(١)] . وقال : «من قرأ القرآن فله بكل حرفٍ عَشْر حسنات . أما إنِّى لا أقول : ألّم حرف ، ولكن أقول : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[(٢)] . وهذا باب واسع يضيق هذا الموضع عن ذكر جزء منه .

فلما انقرضت القرون الفاضلة حصل فترة فى هذا السماع المشروع الذى به صلاح القلوب وكمال الدين ، وصار أهل التغيير فيه[(٣)] أحد رجلين : رجل مُعْرِض عن السماع المشروع وغير المشروع ، ورجل احتاج[(٤)] إلى سماع القصائد والأبيات ، فأحدث سماع القصائد والأبيات كالتغبير . وكان الأكابر الذين حضروه لهم من التأويل ما لهم ، فأقام الله فى الأمة من أنكر ذلك ، كما هو سنة الله فى هذه الأمة الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر .

---

(١) مضى الحديث من قبل .

(٢) الحديث – مع اختلاف فى بعض الألفاظ – عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٢٤٨/٤ (كتاب فضائل القرآن ، باب ما جاء فى من قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر) . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه . والحديث فى : سنن الدارمى ٤٢٩/٢ (كتاب فضائل القرآن ، باب فضل من قرأ القرآن) .

(٣) فى الأصل :أهل الصور (بدون نقط) فيه . ولعل الصواب ما أثبته . والمعنى : وصار أهل التغيير فيه الذى انحرفوا عن السماع المشروع ...

(٤) فى الأصل : احتجاج ، وهو تحريف .

وهؤلاء المنكرون فيهم المقتصد فى إنكاره ، ومنهم المتأوّل بزيادة فى الإنكار غير مشروعة .

كما أحدث أولئك ما ليس مشروعا ، وصار على تمادى الأيام يزداد المحدَث من السماع ، ويزداد التغليظ فى أهل الإنكار ، حتى آل[١] الأمر من أنواع البدع والضلالات والتفرق والاختلافات إلى ما هو من أعظم القبائح المنكرات ، التى[٢] لا يشك فى عظم إثمها وتحريمها من له أدنى علم وإيمان .

وأصل هذا الفساد من ذلك التأويل فى مسائل الاجتهاد ، فمن ثبَّته الله بالقول الثابت أعطى كل ذى /حق حقه ، وحفظ حدود الله فلم يتعدها[٣] : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ [سورة الطلاق : ١] ، فالشر فى التفريط بترك المأمور ، أو العدوان بتعدِّى الحدود ، وحصلت الزيادات فى جميع الأنواع المبتدعة . ظ ٧٥

فإن أصل سماع القصائد كان تلحيناً بإنشاد قصائد مرقِّقَة للقلوب تحرِّك[٤] تحريك المحبة والشوق ، أو الخوف والخشية ، أو الحزن والأسف ، وغير ذلك . وكانوا يشترطون له المكان والإمكان والخلان ، فيشترطون أن يكون المجتمعون لسماعها من أهل الطريق المريدين لوجه الله والدار الآخرة ، وأن يكون الشعر المنشَد غير متضمن لما يُكره سماعه فى الشريعة . وقد يشترط بعضهم أن يكون القوَّال منهم ، وربما اشترط بعضهم ذلك فى

(١) فى الأصل : فى آل ، وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : الذى ، وهو تحريف .
(٣) فى الأصل : فلم يعتدها ، وهو تحريف .
(٤) فى الأصل : تتحرك .

الشاعر الذى أنشأ تلك القصائد ، وربما ضموا إليه آلةً تقوِّى الصوت ، وهو الضرب بالقضيب[١] على جلد مخدة أو غيرها ، وهو التغبير.

ومن المعلوم أن استماع الأصوات يوجب حركة النفس بحسب ذلك الصوت [الذى] يوجب الحركة[٢] ، وهو يوجب الحركة [٣] .

وللأصوات طبائع متنوعة ، تتنوع آثارها فى النفس . وكذلك للكلام المسموع : نظمه ونثره ، فيجمعون بين الصوت المناسب والحروف المناسبة لهم .

وهذا الأمر يفعله بنو آدم من أهل الديانات البدعِية كالنصارى والصابئة ، وغير أهل الديانات ممن يحرِّك بذلك حبه وشوقه ووجده ، أو حزنه وأسفه ، أو حميته وغضبه ، أو غير ذلك . فخَلَفَ بعد أولئك من صار يجمع عليه أخلاطاً من الناس ، ويرون اجتماعهم لذلك شبكة تصطاد النفوس – بزعمهم – إلى التوبة والوصول فى طريق أهل الإرادة .

وأُحدث بعد أولئك أيضا الاستماع من المخانيث المعروفين بالغناء لأهل الفسوق والزنا ، وربما استمعوه من الصبيان المردَان ، أو من /النسوان الملاح ، كما يفعل أهل الدساكر والمواخير. ص ٧٦

وقد يجمعون فى السَّماع أنواع الفسَّاق والفجَّار ، وربما قصدوا التكاثر بهم والافتخار ، لاسيما إن كانوا من أهل الرياسة واليسار ، وكثيراً[٤]

(١) فى الأصل : بالقصيد ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ذلك الصوب بوجبه الحركة ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) وهو يوجب الحركة : كذا فى الأصل ، ويبدو أن العبارة ناقصة .

(٤) فى الأصل : وكثير ، وهو خطأ .

ما يحضر فيه أنواع المردان ، وقد يكون ذلك من أكبر مقاصد أهل السماع ، وربما ألبسوهم الثياب [١] المصبَّغة الحسنة ، وأرقصوهم فى طابق الرقص والدوران ، وجعلوا مشاهدتهم ، بل معانقتهم ، مطلوباً لمن يحضر من الأعيان ، وإذا غلبهم وجد الشيطان رفعوا الأصوات التى [٢] يبغضها الرحمٰن.

وكذلك زادوا فى الابتداع فى إنشادِ القصائد ، فكثيراً ما ينشدون أشعار الفسَّاق والفجَّار ، وفيهم كثير ينشدون أشعار الكفَّار ، بل ينشدون ما لا يستجيزه أكثر أهل التكذيب ، وإنما يقوله أعظم الناس كفراً برب العالمين ، وأشدهم بعداً عن الله ورسوله والمؤمنين .

وزادوا أيضا فى الآلات التى تُستثار بها الأصوات– مما يصنع بالأفواه [٣] والأيدى ، كأبواق اليهود ونواقيس [٤] النصارى – من [٥] بليغ المنكرات ، كأنواع الشبَّابات والصفارات ، وأنواع الصلاصل والأوتار المصوتات – ما عظمت به الفتنة ، حتى ربا فيها الصغير ، وهرم فيها الكبير . وحتى اتخذوا ذلك دينا وديدنا ، وجعلوه من الوظائف الراتبة بالغداة والعشى ، كصلاة الفجر والعصر ، وفى الأوقات والأماكن [٦] الفاضلات ، واعتاضوا به عن القرآن والصلوات .

وصدق فيهم قوله : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ

---

(١) فى الأصل : لبسوهم ثياب ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : الذى

(٣) فى الأصل : بأفواه

(٤) فى الأصل : ونواقيص .

(٥) فى الأصل : ما من ، وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : والماكن ، وهو تحريف .

وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ [سورة مريم : ٥٩][1] ، وصار لهم نصيب من قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [سورة الأنفال : ٣٥] ، إذ المكاء هو الصفير ونحوه من الغناء ، والتصدية هى التصفيق بالأيدى ، فإذا كان هذا سماع المشركين ، الذى ذمَّه الله فى كتابه ، فكيف إذا اقترن بالمكاء الصفّارات /المواصيل ، وبالتصدية مصلصلات الغرابيل ، وجعل ذلك طريقا ودينا يتقرب به إلى المولى الجليل . ظ ٧٦

وظهر تحقيق قول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل .

بل أفضى الأمر إلى أن يُجتمع فى هذا السماع على الكفر بالرحمٰن ، والاستهزاء بالقرآن ، والذم للمساجد والصلوات ، والطعن فى أهل الإيمان والقربات ، والاستخفاف بالأنبياء والمرسلين ، والتحضيض على جهاد المؤمنين ، ومعاونة الكفّار والمنافقين ، واتخاذ المخلوق إلٰها من دون رب العالمين ، وشرب أبوال المستمعين ، وجعل ذلك من أفضل أحوال العارفين ، ورفع الأصوات المنكرات ، التى أصحابها شر من البهائم السائمات ، الذين قال الله فى مثلهم : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [سورة الفرقان : ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَـٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٧٩] ، الذين

---

(١) عبارة «من بعدهم» ساقطة من الأصل .

يفعلون فى سماعاتهم مالايفعله اليهود والنصارى ، ولهذا يتولّون من يتولاهم من اليهود والنصارى والصابئة ، والمشركين والمجوس[١] ، ويجعلونهم من إخوانهم وأصحابهم وأهل خرقتهم ، مع معاداتهم للأنبياء والمؤمنين .

فصار السماع المحدَث دائراً بين الكفر والفسوق والعصيان ، ولاحول ولاقوة إلا بالله ، وكفره من أغلظ الكفر وأشده ، وفسوقه من أعظم [الفسوق][٢] .

وذلك أن تأثير الأصوات فى النفوس من أعظم التأثير : يغنيها ويغذّيها ، حتى قيل : إنه لذلك سمى غِناء ، لأنه يغنى النفس .

وهو يفعل فى النفوس أعظم من حُمَيَّا[٣] الكؤوس ، حتى يوجب للنفوس /أحوالا عجيبة ، يظن أصحابها أن ذلك من جنس كرامات الأولياء ، ص ٧٧ وإنما هو من الأمور الطبيعية الباطلة المبعِدة عن الله ، إذ الشياطين تمدُّهم فى هذا السماع بأنواع الإمداد .

كما قال تعالى : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٠٢] . وقال للشيطان[٤] : (واسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ [سورة الإسراء : ٦٤] ، فربما يخف أحدهم حتى يرقص فوق رؤوسهم ، ويكون شيطانه هو المغوى لنفوسهم .

---

(١) فى الأصل بعد كلمة المشركين : الصابئة والمجوس والمشركين ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) كلمة «الفسوق» : ساقطة من الأصل .

(٣) فى الأصل : حمنا

(٤) فى الأصل : الشيطان ، وهو خطأ .

ولهذا كان مرة فى سماع يحضره الشيخ شبيب الشطى،فبينما هم فى [سماع] أحـــدهم [١] ، وإذا بعفريت [٢] يرقص فى الهواء على رؤوسهم ، فتعجبوا منه ، وطلب الشيخُ لمريده الشيخ أبا بكر [٣] بن فينان ، وكان له حال ومعرفة ، فلما رآه صرخ فيه فوقع ، فلما فرغوا طلب منه أن ينصفه وقال : هذا سلبنى حالى . فقال الشيخ : لم يكن له حال ، ولكن كان بالرحبة فحمله شيطانه إلى هنا ، وجعل يرقص به ، فلما رأيت الشيطان صرخت فيه فهرب ، فوقع هذا .

والقصة معروفة ، يعرفها أصحاب الشيخ .

وصار فى أهل هذا السماع المحدَث ، الذين اتخذوا دينهم لغوا ولعبا ، ضد ما أحبه الله وشرعه فى دين الحق ، الذى بعث به رسوله من عامة الوجوه ، بل صار مشتملاً على جميع ما حرَّمه الله ورسوله .

كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٣٣] ، فصار فيه من الفواحش الظاهرة والباطنة ، والإثم والبغى بغير الحق ، والإشراك بالله ما لم ينزِّل به سلطانا ، والقول على الله بغير علم ، ما لا يحصيه إلا الله ، فإنه تنوَّعَ وتَعدَّد وتَفرَّق أهله فيه ، وصاروا شيعا ، لكل قومٍ ذوق ومشروب وطريق

---

(١) فى الأصل : فى أحدهم ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : بعفير. ولعل الصواب ما أثبته ، أو لعله : بعفرية . وفى اللسان : «قال الخليل : شيطان عِفْرِيةٌ وعِفريتٌ ، وهم العفارية والعفاريت».

(٣) فى الأصل : أبى بكر. ولعل الصواب ما أثبته ، ويكون المعنى أن الشيخ الشطى طلب الشيخ أبا بكر بن فينان ليرى حالة مريده . . الخ .

يفارقون به غيرهم ، حتى فى الحروف المنشدَة ، والأصوات الملحنة ، /والأذواق الموجودة ، والحركات الثائرة ، والقوم المجتمعين ، وصار مَنْ فيه ٧٧ظ مِن العلم والإيمان ما ينهاه عمَّا ظهر تحريمه من أنواع الكفر والظلم والفواحش ، يريد أن يحدَّ حدًّا للسماع المحدَث يفصل به بين ما يسوغ منه وما لا يسوغ ، فلا يكاد ينضبط حدٌّ لا بالقول ولا بالعمل ، فإن قَرُبَ فى الضبط والتحديد بالقول لم ينضبط له بالعمل ، إذ يندر وجود تلك الشروط . حتى إنه اجتمع مرة ببغداد –فى حال عمارتها ووجود الخلافة بها– أعيان الشيوخ الذين يحضرون السماع المفتون[1] فلم يجدوا من يصلح له فى بغداد وسوادها إلا نفراً : إما ثلاثة ، وإما أربعة ، وإما نحو ذلك .

وسبب هذا الإضراب أنه ليس من عند الله ، وما كان من عند غير الله وجدوا فيه اختلافا كثيرا : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعاً كَلُّ حِزْبٍ بِماَ لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [سورة الروم : ٣٠–٣٢] .

ثم مع اشتماله على المحرَّمات كلها أو بعضها يرون أنه من أعظم القربات ، بل أعظمها وأجلها قدرا ، وأن أهله هم صفوة أولياء الله وخيرته من خلقه ، ولا يرضون بمساواة[2] السابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار وسلف الأمة حتى يتفضَّلوا عليهم ، وفيهم من يساوون أنفسهم

(١) فى الأصل : المصون ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : بماواه .

بالأنبياء والمرسلين ، وفيهم من يتفضل أيضا على الأنبياء والمرسلين ، على أنواع من الكفر التى ليس هذا موضعها .

وجماع الأمر أنه صار فيه ، وفيما يتبعه ، فى وسائل ذلك ومقاصده ، فى موجوده ومقصوده ، فى صفته ونتيجته ، ضد ما فى السماع والعبادات الشرعيه ، فى وسائلها ومقاصدها ، موجودها ومقصودها ، /صفتها ونتيجتها ، فذاك يوجب العلم والإيمان ، وهذا يوجب الكفر والنفاق . ص ٧٨
ولهذا كان أعراب الناس : أهل البوادى من العرب والترك والكرد وغيرهم ، أكثر استعمالا له من أهل القرى ، فإنهم كما قال الله تعالى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ [سورة التوبة : ٩٧] .

ولهذا كان يحضره الشياطين ، كما أن سماع أهل الإيمان تحضره الملائكة ، وتَنزل عليهم فيه الشياطين ، وتوحى إليهم ، كما تنزل الملائكة على المؤمنين ، وتقذف فى قلوبهم ما أمرهم الله ؛ فإن الملائكة تنزل عند سماع القرآن وعند ذكر الله .

كما فى الصحيح : «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا غشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وحفَّتهم الملائكة ، وذكرهم [الله](١) فيمن عنده »(٢) .

---

(١) لفظ الجلالة ساقط من الأصل : وهو من تمام الحديث .

(٢) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٢٠٧٤/٤ (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر) ، وأوله : «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا .. الحديث . وهو فى : سنن أبى داود ٩٥/٢ (كتاب الوتر ، باب فى ثواب قراءة القرآن) ؛ سنن الترمذى ٢٦٥/٤ (أبواب القراءات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب حدثنا محمود بن غيلان ..)

وفى الصحيح أن أسيد بن الحضير كان يقرأ سورة الكهف ، فرأى مثل الظُّلَّة فيها أمثال المصابيح ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «تلك السكينة تنزلت لسماع القرآن »[١] .

وفى الصحيح : «إن لله ملائكة فُضُلاً عن كُتَّاب النَّاسِ فإذا رأوا قوما يذكرون [الله][٢] تنادَوْا هلمُّوا[٣] إلى حاجتكم . . .»[٤] الحديث بطوله .

وهذا السماع المحدث تحضره الشياطين ، كما رأى ذلك من كُشف له ، وكما توجد آثار الشياطين فى أهله ، حتى أن كثيرا منهم يغلب عليه الوجد فيُصعق كما يصعق المصروع ، ويصيح كصياحه ، ويجرى على لسانه من الكلام ما لايفهم معناه ولا يكون بلغته ، كما يجرى على لسان المصروع ، وربما كان ذلك من شياطين قوم من الكفار ، الذى يكون أهل ذلك السماع مشابهين لقلوبهم ، كما يوجد ذلك فى أقوام كثيرين كانوا يتكلمون فى

(١) الحديث عن البراء بن عازب رضى الله عنه فى ثلاثة مواضع من البخارى ولم يذكر فيه أن القارئ هو أسيد بن الحضير وأوله : «كان رجل يقرأ سورة الكهف ... الحديث . وهو فى : البخارى ٢٠١/٤ (كتاب المناقب ، باب علامات النبوة فى الإسلام) ، ١٣٦/٦ (كتاب التفسير ، سورة الفتح ، باب هو الذى أنزل السكينة) ، ١٨٨/٦ (كتاب فضائل القرآن ، باب فضل سورة الكهف) . وذكر ابن حجر فى «فتح البارى» ٥٧/٩ : «قوله : كان رجل ، قيل : هو أسيد بن حضير ، كما سيأتى من حديثه نفسه بعد ثلاثة أبواب ، لكن فيه أنه كان يقرأ سورة البقرة ، وفى هذا أنه كان يقرأ سورة الكهف ، وهذا ظاهره التعدد)» . والحديث الذى يشير إليه ابن حجر عن أسيد بن حضير رضى الله عنه فى : البخارى ٦/ ١٩٠ (كتاب فضائل القرآن ، باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن) . وجاء حديث البراء بن عازب أيضا فى : مسلم ٥٤٧/١–٥٤٨ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب نزول السكينة لقراءة القرآن) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٢٨١/٤ ، ٢٩٨ .

(٢) لفظ الجلالة زدته ليستقيم الكلام وهو من ألفاظ الحديث .

(٣) فى الأصل : هلم . والمثبت هو لفظ الحديث .

(٤) هذه العبارات جمع فيها ابن تيمية بين عبارات وردت فى البخارى ومسلم والترمذى وهى جزء من حديث طويل عن أبى هريرة رضى الله عنه – وشك الترمذى هل هو عنه أو عن أبى سعيد الخدرى – وهو فى : البخارى ٨٦/٨–٨٧ (كتاب الدعوات ، باب فضل ذكر الله عز وجل) ؛ مسلم ٢٠٦٩/٤ – ٢٠٧٠ (كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل مجالس الذكر) ؛ سنن الترمذى ٢٣٧/٥ (كتاب الدعوات ، باب منه) .

وجدهم واختلاطهم بلغة الترك التتر الكفّار ، فينزل عليهم شياطينهم ويغوونهم ، ويبقون/منافقين موالين لهم ، وهم يظنون أنهم من أولياء الله ، وإنما هم من أولياء الشيطان وحزبه . ظ ٧٨

ولهذا يوجد فيه أعظم مما يوجد فى الخمر من الصدِّ عن ذكر الله وعن الصلاة ، ومن إيقاع العداوة والبغضاء ، حتى يقتل بعضهم بعضا فيه ، ولهذا يفعلونه على الوجه الذى يحبه الشيطان ، ويكرهه الرحمٰن .

وذلك من وجوه :

أحدها : أن العبادات الشرعية ، مثل الصلاة والصيام والحج ، قد شُرع فيها من مجانبة جنس المباشرة المباحة فى غيرها ما هو من كمالها وتمامها ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٧] .

وقال : ﴿ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٧] .

وقال : ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [سورة النساء : ٤٣] .

وأعظم ذلك الحج ، فليس للمحرم أن يباشر فيه النساء ، ولاينظر إليهم لشهوة . والمعتكف قريب منه ، والصائم دونه ، والمصلِّى لا يصاف النساء ، بل يؤخرن[١] عن صفوف الرجال ، ويصلين خلف الرجال ، كما

(١) فى الأصل : يؤخرون .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : «خير صفوف الرجال أولها ، وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها ، وشرها أولها»[(١)] .

وليس للمصلِّي في حال صلاته أن ينظر إلى ما يلهيه عن الصلاة : لا نساء ولاغيرهم ، بل قد ثبت في الصحيح أنه : إذا مر أمامه المرأة والحمار والكلب الأسود وضع صلاته[(٢)] . وإن كان قد ثبت عن النبي صلى الله

(١) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في : مسلم ٣٢٦/١ (كتاب الصلاة ، باب تسوية الصفوف وإقامتها .. الخ) ؛ سنن أبي داود ٢٥٥/١ (كتاب الصلاة ، باب صف النساء ... الخ) ؛ سنن الترمذي ١٤٣/١ (كتاب الصلاة ، باب ما جاء في فضل الصف الأول) ؛ سنن النسائي (بشرح السيوطي) ٧٣/٢ (كتاب الإمامة ، باب ذكر خير صفوف النساء وشر صفوف الرجال) ؛ سنن ابن ماجة ٣١٩/١ (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب صفوف النساء) ؛ سنن الدارمي ٢٩١/١ (كتاب الصلاة ، باب أي صفوف النساء أفضل ؟) . وهو في مسند أحمد في مواضع كثيرة .

(٢) وردت أحاديث بهذا المعنى عن أبي هريرة وأبي ذر وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم . منها حديث أبي هريرة في : مسلم ٣٦٥/١-٣٦٦ (كتاب الصلاة ، باب قدر ما يستر المصلي) : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب . ويقي ذلك مثل مؤخرة الرحل» . وحديث أبي ذر في الكتاب والباب السابقين أطول منه . وجاءت أحاديث بنفس المعنى في : سنن أبي داود ٢٦٢-٢٦٣ (كتاب الصلاة ، باب ما يقطع الصلاة) ؛ سنن الترمذي ٢١٢/١ (كتاب الصلاة ، باب ما جاء أنه لا يقطع الصلاة إلا الكلب والحمار والمرأة) وتوجد أحاديث مثلها في : سنن النسائي وسنن ابن ماجة والمسند .

على أنه جاءت أحاديث أخرى عن أبي جحيفة رضي الله عنه ذكر فيها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي وبين يديه عَنَزَة وكان يمر من ورائها المرأة والحمار – في رواية : يمر بين يديه الحمار والكلب لايمتنع . انظر : مسلم ٣٦٠/١ ، ٣٦١ (كتاب الصلاة ، باب سترة المصلي) . وجاء الحديث في المسند (ط. الحلبي) ٣٠٨/٤ ، ٣٠٩ . وهو في سنن الترمذي وسنن النسائي .

وتناول النووي الموضوع بشئ من التفصيل في شرحه على صحيح مسلم ٢١٩/٤-٢٣٠ وقال فيه ٢٢٦/٤-٢٢٧ تعليقا على قول النبي صلى الله عليه وسلم : «يقطع الصلاة الحمار والمرأة والكلب الأسود» : «اختلف العلماء في هذا ، فقال بعضهم : يقطع هؤلاء الصلاة . وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه : يقطعها الكلب الأسود ، وفي قلبي من الحمار والمرأة شئ . ووجه قوله أن الكلب لم يجئ في الترخيص فيه شئ يعارض هذا الحديث . وأما المرأة ففيها حديث عائشة رضي الله عنها المذكور بعد هذا . وفي الحمار حديث ابن عباس السابق . وقال مالك وأبو حنيفة والشافعي رضي الله عنهم ، وجمهور العلماء من السلف والخلف : لاتبطل الصلاة بمرور شئ من هؤلاء ولامن غيرهم . وتأوّل هؤلاء هذا الحديث على أن المراد بالقطع : نقص الصلاة لشغل القلب بهذه الأشياء ، وليس المراد إبطالها» .

عليه وسلم أنه : كان يصلى وعائشة مضطجعة فى قبلته بالليل فى الظلمه ، فإذا أراد أن يسجد غمزها[(١)] ، فاللابث غير المار ، ولم يكن ذلك يلهيه ، لأنه كان بالليل فى الظلمة . وكذلك مسّ النساء لشهوة ينقض الطهارة عند أكثر العلماء .

ص ٧٩ فإذا كان هذا فى النظر - والمباشرة المباح /فى غير حال العبادة - نهى الله عنه حال العبادة ، لما فى ذلك من المباينة للعبادة ، والمنافاة لها ، فكيف بما هو حرام خارج عن العبادة ، كالنظر إلى البغىِّ والمباشرة لها ؟ فكيف بالنظر إلى المردان الصباح المخانيث وغير المخانيث والمباشرة لهن . ثم هذا قد يفعل لمجرد شهوة[(٢)] النظر ، فيكون قبيحا مكروها خارج العبادة ، فكيف فى حال العبادة ؟

وهؤلاء قد يجعلون ذلك مما لايتم السماع إلا به ، بل ويتخذونه [فى][(٣)] الصلاة وغيرها من العبادات ، فيجعلون حضورهم[(٤)] فى السماع -

(١) لم يذكر البخارى أحاديث قطع الكلب والحمار والمرأة للصلاة ولكنه عقد عدة أبواب من كتاب الصلاة لبيان أن المرأة وإن كانت حائضا لاتقطع الصلاة ، واتفق معه مسلم فى ذلك فخصص بابا لأحاديث عائشة رضى الله عنها فى ذلك ، ومن ذلك هذا الحديث المتفق عليه : عن مسروق قال : ذكر عندها (عائشة) ما يقطع الصلاة : الكلب والحمار والمرأة . فقالت : شبهتمونا بالحُمُر والكلاب ! والله لقد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يصلّى وإنى على السرير بينه وبين القبلة مضطجعة ، فتبدو لى الحاجة ، فأكره أن أجلس فأوذى النبى صلى الله عليه وسلم فأنسل من عند رجليه .

وانظر : البخارى : (كتاب الصلاة : ١٠٣/١ (باب الصلاة إلى السرير) ، ١٠٤/١ (باب استقبال الرجل صاحبه أو غيره فى صلاته وهو يصلى) ، ١٠٤/١ (باب الصلاة خلف النائم) ، ١٠٤/١-١٠٥ (باب التطوع خلف المرأة) ، ١٠٥/١ (باب من قال لايقطع الصلاة شئ) ، ١٠٥/١ (باب إذا صلى إلى فراش فيه حائض) .

وانظر مسلم ٣٦٦/١-٣٦٧ (كتاب الصلاة ، باب الاعتراض بين يدى المصلى) .

(٢) فى الأصل : شهود ، وهو تحريف .

(٣) فى : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : حضور ، ولعل الصواب ما أثبته .

والسماع من النساء والصبيان – من جملة القربات والطاعات .

وهذا من أعظم تبديل الدين ، فإن الرجل لو جعل النظر إلى امرأته فى الصلاة أو الصيام أو الاعتكاف من جملة العبادة كان مبتدِعاً ، بل كان هذا كفراً[1] ، فكيف إذا جعل النظر إلى المرأة الأجنبية أو الأمرد فى الصلاة من جملة العبادات ؟ كما يفعله بعضهم ، وقد أوقد شمعة على وجه الأمرد فيستجليه فى صلاته ، ويعدُّ ذلك من عباداته – هذا من أعظم تبديل الدين ، ومتابعة الشياطين .

وهذا إذا كان العمل [2] عبادة فى نفسه كالصلاة والصيام ، فكيف إذا كان العمل بدعة عظيمة ، وهو سماع المكاء والتصدية ، وضُم إليه مشاهدة الصور الجميلة ، وجُعل سماع هذه الأصوات ورؤية هذه الصور من العبادات ؟ فهذا من جنس دين المشركين .

ولقد حدثنى بعض المشايخ أن بعض ملوك فارس قال لشيخ رآه ، قد جمع الناس على مثل هذا الاجتماع [3] : ياشيخ إن كان هذا هو طريق الجنة فأين طريق النار ؟

الوجه الثانى : أن التطريب بالآلات الملهية محرَّم فى السماع الذى أحبه الله وشرعه ، وهو سماع القرآن ، فكيف يكون قربة /فى السماع الذى لم يشرعه الله ؟ وهل ضم ما يشرعه الله إلى ما ذمه ، يُصَيِّر المجموع المعِين بعضه ظ ٧٩

(١) فى الأصل : كفر ، وهو خطأ .

(٢) فى الأصل : هذا إذا كان العبادة فى العمل .. الخ . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : الإجماع ، وهو تحريف

لبعض مما أحبه الله ورضيه ؟[١] .

الوجه الثالث : كثرة إيقاد النار بالشموع والقناديل وغير ذلك مما لا يُشرع فى الصلاة وقراءة القرآن ، إذ فيه من تفريق القلوب وغير ذلك مما هو خلاف المقصود .

الوجه الرابع : التنوع فى المطاعم والمشارب فيه ، وهذا ليس شأن العبادات ، وإنما شُرِع نوع ذلك عند الفراغ من العبادة.[وأما أن يكون هذا التنوع فى المطاعم والمشارب فى السَماع من العبادة] التى يُتقَّرب بها إلى الله فلا[٢] . وأما موجبه من الحركات[٣] المختلفة ، والأصوات المنكرة ، والحركات العظيمة ، فهذا أجلُّ من أن يوصف ، ولا يمكن رد موجبه بعد قيام المقتضى[٤] التام ، كما لا يمكن رد السكر عن النفس بعد شرب ما يُسكر من الخمر ، بل إسكاره للنفوس[٥] وصدّه عن ذكر الله وعن الصلاة ، أعظم مما فى الخمر بكثير .

فإن الصلاة ، كما ذكر الله تعالى : ﴿ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [سورة العنكبوت : ٤٥] وهذا أمر مجرَّب محسوس : يجد الإنسان من نفسه أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ويجد أهل هذا السماع أن نفوسهم

---

(١) فى الأصل : وهل رأى ما يشرعه الله بل ذمه ...الخ . والكلام غير مستقيم ويبدو أن فيه تحريفا . ولعل ما أثبته أقرب ما يكون إلى الصواب .

(٢) فى الأصل : عند الفراغ من العبادة التى يتقرب بنفسها إلى الله فلا ، ولعل ما أضفته إلى العبارة وما أصلحته من بعض ألفاظها يستقيم به الكلام .

(٣) فى الأصل : من حركات ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : المقصى ، وهو تحريف

(٥) وهو السماع .

تميل إلى الفحشاء والمنكر ، ولهذا يتعاطى كل أحد من الفاحشة ، حتى تعاطى كثير من المتصوفة [١] صحبة الأحداث ومشاهدتهم .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «العينان يزنيان وزناهما النظر» [٢] ، وغالب أهله يخالطون الأحداث والنسوان الأجانب ، ومن امتنع منهم عن ذلك ، لورع أو غيره ، فإنه إنما ينتهى عن ذلك بغير هذا السماع ، وأما هذا السماع فلا ينهاه عن ذلك قطعا ، بل يدعوه إليه ، لاسيما النفوس التى [بها] [٣] /رقة ورياضة وزهد ، فإن سماع الصوت يؤثر فيها تأثيرا عظيما ، وكذلك مشاهدة الصور ، ويكون ذلك قوتاً لها ، وبهذا اعتاض الشيطان فيمن يفعل ذلك من المتصوفة ، فإنه لم يبال بعد أن أوقعهم فيما يفسد قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ألا يشتغل بجمع الأموال والسلطان ، إذ قد تكون فتنة أحدهم بذلك أعظم من الفتنة بالسلطان والمال ، فإن جنس ذلك مباح ، وقد يستعان به على طاعة الله ، وأما[ما] [٤] يشغل به هؤلاء أنفسهم ، فإنه دين فاسد منهىّ عنه ، مضرته راجحة على منفعته .

ص ٨٠

الوجه الخامس : تشبيه الرجال بالنساء ، فإن المغانى [٥] كان السلف يسمّونهم مخانيث ، لأن الغناء من عمل النساء ، ولم يكن على عهد النبى

(١) فى الأصل : ولهذا سماصى (غير منقوطة) من كل أحد من الفاحشة ، حتى تعاصى كثير من المتصوفة . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) الحديث بهذه الألفاظ عن أبى هريرة رضى الله عنه فى المسند (ط. الحلبى) ٢/٣٤٣ ، ٣٤٤ وفى مواضع أخرى من المسند . ومضى الحديث من قبل بألفاظ مقاربة .

(٣) بها : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

(٤) ما : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

(٥) المغانى : كذا بالأصل ، ويقصد ابن تيمية : المغنّين .

صلى الله عليه وسلم يغنى فى الأعراس إلا النساء ، كالإماء والجوارى الحديثات السن ، فإذا تشبّه بهم الرجل كان مخنّثا . وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المخنَّثين من الرجال والمترجِّلات من النساء[1] ، وهكذا فيمن يحضرون[2] فى السماع من المردان الذين يسمّونهم الشهود ، فيهم من التخنث بقدر ماتشبّهوا بالنساء ، وعليهم[3] من اللعنة بقدر ذلك .

وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أمر بنفى المخنَّثين ، وقال : «أخرجوهم من بيوتكم»[4] فكيف نمر بقربهم ونعظِّمهم ونجعلهم طواغيت معظَّمون بالباطل الذى حرَّمه الله ورسوله ، وأمر بعقوبة أهله وإذلالهم ، وهذا مضادة فى أمره ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله ، فقد ضاد الله فى أمره» رواه أبو داود[5] . فإذا كان هذا فى الشفاعة بالكلام ، فكيف بالذى يعظِّم

(١) روى البخارى فى صحيحه : ٧/١٥٩ (كتاب اللباس ، باب المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال» . وجاء الحديث بنفس اللفظ عن ابن عباس ومعه حديث آخر عنه بلفظ مقارب فى : سنن الترمذى ٤/ ١٩٤ (كتاب الاستئذان ، باب ما جاء فى المتشبهات بالرجال من النساء) وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح ، وفى الباب عن عائشة .

(٢) فى الأصل : يحضرونه .

(٣) فى الأصل : بقدر مايشبهوا النساء وعليه ..، وهو تحريف .

(٤) الحديث عن ابن عباس رضى الله عنهما فى البخارى ٧/ ١٥٩(كتاب اللباس ، باب إخراج المتشبّهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال) ونصه : «لعن النبى صلى الله عليه وسلم المخنثين من الرجال والمترجِّلات من النساء ، وقال : أخرجوهم من بيوتكم . قال : فأخرج النبى صلى الله عليه وسلم فلانا وأخرج عمر فلانا» . والحديث فى : سنن الدارمى ٢/ ٢٨٠-٢٨١ (كتاب الاستئذان ، باب لعن المخنثين والمترجلات) ؛ المسند (ط. المعارف) ٣/ ٣٠٥، ٣١٤ وفى مواضع أخرى .

(٥) الحديث فى سنن أبى داود ٣/ ٤١٤-٤١٥ (كتاب الأقضية ، باب فى الشهادات) عن ابن عمر رضى الله عنه ونصه : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضادَّ الله ، ومن خاصم فى باطل وهو يعلم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع [عنه] ، ومن قال فى مؤمن ما ليس فيه =

المتعدّين لحدود الله[١] ، ويعينهم على ذلك ، ويجعل ذلك ديناً ، لا سيما التعظيم لما[٢] هو من جنس/ الفواحش ، فإن هذا من شأنه – إذا كان مباحا – ستره أو إخفاؤه ، وأهله لا يجوز أن يُجعلوا من ولاة الأمور ، ولا يكون لهم نصيب من السلطان بما فيهم من نقص العقل والدين ، فكيف بمن هو من جنس هؤلاء ممن لعنه [الله] ورسوله[٣] ، فإن من يعظِّم القينات المغنيِّات ويجعل لهن رياسة وحكماً لأجل ما يستمع منهن [من] الغناء وغيره [عليه] من لعنة الله[٤] وغضبه أعظم ممن يؤمِّر[٥] المرأة الحرة ويملِّكها . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : «لا أفلح قوم وَلَّوْا أمرهم امرأة»[٦] .

ظ ٨٠

فالذى يعظِّم المخنَّثين من الرجال ويجعل لهم من الرياسة والأمر على الأمر المحرم ما يجعل ، هو أحقُّ بلعنة الله وغضبه من أولئك ، فإن غناء الإماء والاستمتاع بهن من جنس المباح ، وما زال الإماء وغيرهن من

= أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال» . ورواه أحمد فى مسنده (ط. المعارف) ٧/ ٢٩١-٢٩٦ من حديث أطول ، وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : إسناده صحيح (وانظر باقى تعليق الشيخ أحمد شاكر) .

(١) فى الأصل : المعتدين بحدود الله ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : بما ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : ممن لعنه ورسوله .

(٤) فى الأصل : ما يستمع منهن الغناء وغيره من لعنة الله ...الخ .

(٥) فى الأصل : نامر ، وهو تحريف .

(٦) الحديث بلفظ : «لن يفلح قوم ...» عن أبى بكرة رضى الله عنه فى : البخارى ٦/ ٨(كتاب المغازى ، باب كتاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر) ، ٩/ ٥٥ (كتاب الفتن ، باب حدثنا عثمان بن الهيثم) ؛ سنن الترمذى ٣/ ٣٦٠ (كتاب الفتن ، باب منه) ؛ سنن النساء (بشرح السيوطى) ٨/ ٢٠٠ (كتاب آداب القضاة ، باب النهى عن استعمال النساء فى الحكم) .

النساء يغنين على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى [الأفراح](١) كالعرس وقدوم الغائب ونحو ذلك ، بخلاف من [يستمعون الغناء من المردان والنساء الأجنبيات ويجتمعون معهم على الفواحش ، فإنما](٢) يكون ذلك من أعظم المحرمات ، فكيف إذا جُعل ذلك من العبادات ؟! وقد كتبنا فى غير هذا الموضع مما يتعلق بذلك ما لا يحتمله هذا الموضع .

الوجه السادس : أن رفع الأصوات فى الذكر المشروع [لا يجوز](٣) إلا حيث جاءت به السنة ، كالأذان والتلبية ونحو ذلك . فالسنة للذاكرين والداعين ألاَّ يرفعوا أصواتهم رفعا شديداً . كما ثبت فى الصحيح عن أبى موسى أنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنا إذا علونا على شرف كبَّرنا فارتفعت أصواتنا ، فقال : «يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولاغائبا ، إنما تدعون سميعا قريبا ، إن الذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»(٤) .

وقد قال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٥] . وقال عن/ زكريا : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ [سورة مريم :٣] وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَاتَكُن مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٠٥] . ص ٨١

(١) كلمة «الأفراح» : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

(٢) ما بين المعقوفتين زدته إلى الأصل حتى يستقيم الكلام .

(٣) عبارة «لايجوز» زدتها ليستقيم الكلام .

(٤) مضى الحديث من قبل (ص ١٤٠) .

وفى هذا من الآثار عن سلف الأمة وأئمتها ما ليس هذا موضعه . كما قال الحسن البصرى : رفع الصوت بالدعاء بدعة . وكذلك نصَّ عليه أحمد ابن حنبل وغيره . وقال قيس بن عباد ، وهو من كبار التابعين من أصحاب علىّ عليه السلام ، روى عنه الحسن البصرى ، قال : كانوا يستحبُّون خفض الصوت عند الذكر ، وعند الجنائز ، وعند القتال .

وهذه المواطن الثلاثة تطلب النفوس فيها الحركة الشديدة ورفع الصوت : عند الذكر والدعاء ؛ لما فيه من الحلاوة ومحبة ذكر الله ودعائه ، وعند الجنائز بالحزن والبكاء ، وعند القتال بالغضب والحَمِيَّة ، ومضرته [أكبر](١) من منفعته ، بل قد يكون ضررا محضا ، وإن كانت النفس تطلبه ، كما فى حال المصائب(٢) .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : «ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية»(٣) . وتبرأ النبى صلى الله عليه وسلم من «الصالقة والحالقة والشاقة»(٤) والصالقة التى ترفع صوتها بالمصيبة .

---

(١) كلمة «أكبر» : زدتها ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : المصاب . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : البخارى ٢/ ٨١(كتاب الجنائز ، باب ليس منا من شق الجيوب) وأماكن أخرى فى البخارى ؛ مسلم ٩٩/١ (كتاب الإيمان ، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية) ؛ سنن النسائى ١٨/٤ (كتاب الجنائز ، باب شق الجيوب) ؛ سنن ابن ماجة ٥٠٤/١-٥٠٥ (كتاب الجنائز ، باب ما جاء فى النهى عن ضرب الخدود وشق الجيوب) ؛ المسند (ط. المعارف) ٢٤٠/٥-٢٤١ وأماكن أخرى فى المسند .

(٤) الحديث مع اختلاف فى الألفاظ عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فى : البخارى ٨١/٢-٨٢ (كتاب الجنائز ، باب ما ينهى من الحلق عند المصيبة) ؛ مسلم ١٠٠/١ (كتاب الجنائز ، باب تحريم ضرب الخدود ...) .

وقال : «إن الله لايؤاخذ على دمع (١) العين ولا على حزن القلب ولكن يؤاخذ على هذا ، وأشار إلى لسانه ، أو يرحم» (٢) وقال «إن النائحة إذا لم تتب فإنها تلبس يوم القيامة درعا من جرب وسربالاً من قطران (٣)» .

وهذه الأحاديث وغيرها فى الصحاح ، ولهذا عظم نهى العلماء عما ابتدع فيها مثل الضرب بالدفوف ، ونحو ذلك ، ورأوا تقطيع الدف فى الجنازة كما نص عليه أحمد وغيره ، بخلاف الدف فى العرس ، فإن ذلك مشروع .

وأما القتال فالسنة أيضا فيه خفض الصوت ، ولهذا قال [حِمَاس بن قيس بن خالد] (٤) لامرأته/ يوم فتح مكة : ظ ٨١

إنَّكِ لو شهِدتِ يومَ الخَندمَهْ إذْ فر صفوان وفَرّ عِكرمه

وأبو يزيدَ قائمٌ كالمُوتَمه واستقبلتهم بالسيوف المسلمه

يقطعْنَ كلَّ ساعد وجُمْجُمه ضَرْباً فلا يُسَمعُ إلَّا غمغمه

لهم نَهيتٌ خلفَنَا وهمهمهْ لم تنطقى فى اللَّوْمِ أدنى كلمه (٥)

---

(١) فى الأصل : دم ، وهو تحريف

(٢) الحديث مع اختلاف فى الألفاظ فى : البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ٨٤/٢ (كتاب الجنائز ، باب البكاء عند المريض) ، ٥١/٧ (كتاب الطلاق ، باب الإشارة فى الطلاق والأمور) ؛ مسلم ٦٣٦/٢ (كتاب الجنائز ، باب البكاء على الميت) .

(٣) الحديث عن أبى مالك الأشعرى فى : مسلم ٦٤٤/٢ (كتاب الجنائز ، باب التشديد فى النياحة) وأوله : أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لايتركونهن : الفخر فى الأحساب ... الحديث ؛ سنن ابن ماجة ١/ ٥٠٤ عن ابن عباس (كتاب الجنائز ، باب فى النهى عن النياحة) وأوله : النياحة على الميت من أمر الجاهلية ... الحديث . ؛ المسند (ط. الحلبى) ٣٤٢/٥ ، ٣٤٣ .

(٤) بعد كلمة «قال» بياض بمقدار ثلاث كلمات . والقائل هو حماس بن قيس بن خالد أخو بنى بكر وقيل : راعش (أو : الرعّاش) ، أحد بنى صاهلة الهذلى .

(٥) نقلت هذه الأبيات من سيرة ابن هشام ٥١/٤ والخبر بأكمله فيها ٤٩/٤-٥١ . وجاء الخبر فى «زاد =

وهذه الدقادق[(١)] والأبواق التي تشبه قرن اليهود وناقوس[(٢)] النصارى لم تكن تعرف على عهد الخلفاء الراشدين ولا من بعدهم من أمراء المسلمين ، وإنما حدث فى ظنى من جهة بعض ملوك المشرق من أهل فارس ، فإنهم أحدثوا فى أحوال الإمارة والقتال أموراً كثيرة ، وانبثت[(٣)] فى الأرض لكون ملكهم انتشر ، حتى ربا[(٤)] فى ذلك الصغير ، وهرم فيها الكبير ، لايعرفون غير ذلك ، بل ينكرون أن يتكلم أحد بخلافه ، حتى ظن بعض الناس أن ذلك من إحداث عثمان بن عفان ، وليس الأمر كذلك ، بل ولا فعله عامة الخلفاء والأمراء بعد عثمان رضى الله عنه .

ولكن ظهر فى الأمة ما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : «لتأخذن مأخذ الأمم قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، قالوا : فارس والروم ؟ قال : ومن الناس إلا هؤلاء ؟»[(٥)] ، كما قال فى الحديث الآخر : «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقذَّة حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لدخلتموه ، قالوا : يارسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن؟»[(٦)] .

وكلا الحديثين فى الصحيح : أخبر بأنه يكون فى الأمة من يتشبّه باليهود والنصارى . ويكون فيها من يتشبّه بفارس والروم .

= المعاد» (ط. السنة المحمدية) ٣٩٢/٢-٣٩٣ ؛ إمتاع الأسماع للمقريزى (تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر ، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤١) ٣٧٨/١-٣٧٩ وجاءت الأبيات فى الأصل ناقصة ومحرفة يتخللها بياض فى أكثر من موضع .

(١) فى «لسان العرب» : «والدقدقة : حكاية أصوات حوافر الدواب فى سرعة ترددها ، مثل الطقطقة» .

(٢) فى الأصل : وناقوص .

(٣) فى الأصل : وانبست .

(٤) فى الأصل : ربى .

(٥) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى المسند (ط. الحلبى) ٣٢٥/٢ ، ٣٣٦ .

(٦) سبق الحديث بلفظ : لتسلكن سنن .. الخ (ص ٢٥) .

ولهذا ظهر فى شعائر الجند المقاتلين شعائر الأعاجم من الفرس وغيرهم ، حتى فى اللباس وأعمال القتال ، والأسماء التى تكون لأسباب الإمرة ، مثل الألفاظ المضافة إلى دار ، كقولهم : ركاب دار ، وطشت دار ، وخان دار ، /فإن ذلك فى لغة الفرس بمعنى صاحب وحافظ . فإذا قالوا : جان دار ، فالجان هى الروح فى لغتهم ، فالجان دار ، بمعنى حافظ الروح وصاحب الروح . وكذلك الركاب دار ، أى صاحب الركاب ، وحافظ الركاب ، وهو الذى يسرج الفرس ويلجمه ، ويكون فى ركاب الراكب ، وكذلك صاحب الطشت الذى يغسل الثياب والأبدان .

ص ٨٢

وكذلك برد دار ، وهو صاحب العتبة ، وهو الموكل بدار الأمير ، كالحداد والبواب الذى يمنع من الدخول والخروج ويأذن فيه .

وكذلك يقولون : جمدار ، وسلاح دار ، وجوكان دار ، وبندق دار ، ودوادار ، وخزندار ، واستادار : لصاحب الثياب[1] الذى يحفظ الثياب وما يتعلق بذلك ، ولصاحب السلاح ، والجوكان ، والبندق ، والدواه ، وخزانة المال والاستادنه ، وهى التصرف فى إخراج المال وصرفه فيما يُحتاج إليه من الطعام واللباس وغير ذلك .

ويتعدى ذلك إلى ولاة الطعام والشراب ، فيقولون : مرق دار أى صاحب المرقة وما يتعلق بها ، وشراب دار لصاحب الشراب ، ويقولون مهماندار أى صاحب المهم ، كما يقولون : مهمان خاناه ، أى بيت المهم والمهمة ، وهو فى لغتهم الضيف ، أى بيت الإضافة . وصاحب الضيافة :

(١) فى الأصل : الثواب ، وهو تحريف .

مهمان دار : لمثل رسول يرد على الأمير ، والعيون الذين هم الجواسيس ، ونحو ذلك ممن يُتخذ له ضيافة ، ويوجد منه أخبار وكتب ، ويُعطى ذلك ، ونحو ذلك .

فإن الألف والنون فى لغتهم جمع ، كما يقولون : مسلمان ، وفقيهان ، وعالمان ، أى : مسلمون ، وفقهاء ، وعلماء . ونحو ذلك قولهم : فراش خاناه ، أى بيت الفرس ، والفراش يسمونه باللفظ العربى ، ويقولون : زرد خاناه ، أى بيت الزرد .

وهذا الخاص هو عام فى العرف يُراد/ به بيت السلاح مطلقا ، وإن ذكر لفظ الزرد خاصة ، كما كان الصحابة يعبرون عن السلاح بالحلقة ، والحلقة هى الدروع المسرودة من السرد ، الذى يقال له الزرد ، فنقلت السين زايا[١] ، وربما قالوا : الحلقة والسلاح ، أى الدروع والسلاح . ظ ٨٢

ولهذا لما صالح النبى صلى الله عليه وسلم من صالحه من يهود ، صالحهم على أن له الحلقة . وفى السيرة كان فى بنى فلان وفلان من الأنصار الحلقة والحصون ، أى هم الذين لهم السلاح : الذين يقاتلون بها[٢] ، والحصون التى يأوون إليها ، كما يكون لأمراء الناس[٣] من أصناف الملوك : المعاقل والحصون والقلاع ولهم السلاح ، فإن هذه الأمور هى جنن[٤] القتال ، وبها يمتنع المقاتل والمطلوب ، بخلاف من لاسلاح له ولاحصن ، فإنه ممكن

(١) فى الأصل : زا .

(٢) أى الأنصار الذين يقاتلون بالحلقة .

(٣) فى الأصل : لأمر الناس ، وهو تحريف .

(٤) فى «لسان العرب» مادة «جنن» : «والجنة بالضم : ما واراك من السلاح واستترت به منه ، والجنة : السترة ، والجمع : الجنن»

من نفسه مقدور عليه فى مثل الأمصار ، وإن كان القتال على الخيل بالسلاح هو أعلى وأفضل من القتال فى الحصون بالسلاح . فالحصان خير من الحصون[1] ، ومن [لم][2] يكن قتاله إلا فى الحصون والجدر فهو مذموم .

كما قال تعالى عن اليهود : ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الحشر : ١٤][3]

والمحدَثات فى أمر الإمارة والملك والقتال كثيرة جدا ، ليس هذا موضعها ، فإن الأمة هى فى الأصل أربعة أصناف ، كما ذكر ذلك فى قوله : ﴿فَاقْرَأُوا مَاتَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [سورة المزمل : ٢٠] .

فالصنف الواحد : القرَّاء ، وهم جنس العلماء والعبَّاد ، ويدخل فيهم من تفرّع من هذه الأصناف من المتكلمة والمتصوفة وغيرهم .

ص ٨٣ /والصنف الآخر المكتسِب بالضرب فى الأرض . وأما المقيمون من أهل الصناعات والتجارات ، فيمكن أن يكونوا من القرَّاء المقيمين أيضا ، بخلاف المسافر ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إذا مرض العبد أو

---

(١) فى الأصل : فالحصن خير من الحصون . ولعل الصواب ما أثبته . ومقصود ابن تيمية : أن المواجهة والقتال بالسلاح على ظهور الخيل خير من الاختباء فى الحصون كدأب اليهود .

(٢) لم : ساقطة من الأصل .

(٣) فى الأصل : من وراء جدار .

سافر كُتب له من العمل مثل [ما][١] كان يعمل وهو صحيح مقيم» أخرجاه في الصحيحين عن أبي موسى[٢] .

والله سبحانه إنما ذكر هذه الأصناف في الآية ليبيّن من يسقط عنه قيام الليل من أهل الأعذار ، فذكر المريض والمسافر اللذين ذُكرا[٣] في الحديث ، وذكر المسافرين في ضربين[٤] : الضاربين في الأرض يبتغون من فضل الله ، والمقاتلين في سبيل الله . وهم التجّار [و] الأجناد[٥] .

والمقصود هنا أن الأجناس الأربعة من المقاتلة ، والتجار ، ومن يلحق بهم من الصناع والقرَّاء وأهل الأعذار[٦] كالمرضى ونحوهم ، كل هؤلاء قد حصل فيهم من الأنواع المختلفة ما يطول وصفه .

وأمورهم ما بين حسن مأمور به ، وبين قبيح منهى عنه ، ومباح ، واشتمال[٧] أكثر أمورهم على هذه الثلاثة : المأمور به[٨] ، والمنهى عنه ، والمباح والواجب الأمر بما أمر الله به ، والنهى عما نهى عنه ، والإذن فيما أباحه الله .

---

(١) ما : ساقطة من الأصل

(٢) الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في : البخاري ٥٧/٤ (كتاب الجهاد ، باب يكتب للمسافر مثل ماكان يعمل في الإقامة) ، والحديث مع اختلاف في الألفاظ في : مسند أحمد (ط.الحلبي) ٤١٠/٤ ، ٤١٨ .

(٣) الأصل : اللذان ذكر ، وهو تحريف .

(٤) في الأصل : في حزين ، وهو تصحيف .

(٥) في الأصل : التجار الأجناد .

(٦) في الأصل : الأعدا ، وهو تحريف .

(٧) في الأصل : اشتمال .

(٨) في الأصل : بها .

لكن إذا كان الشخص أو الطائفة لاتفعل مأموراً إلا بمحظور أعظم منه ، أو لا تترك مأموراً إلا [لمحظور][١] أعظم منه ، لم يأمر أمرا يستلزم وقوع محظور راجح ، ولم ينه نهيا يستلزم [وقوع][٢] مأمور راجح . فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو الذى بُعثت به الرسل ، والمقصود تحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها[٣] بحسب الإمكان .

فإذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مستلزما من الفساد أكثر مما فيه من الصلاح لم يكن مشروعا ، [وقد][٤] كره أئمة السنة القتال فى ظ ٨٣ /الفتنة التى يسميها كثير من أهل الأهواء الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن ذلك إذا كان يوجب فتنة هى أعظم فسادا مما فى ترك الأمر [بالمعروف][٥] والنهى عن المنكر ، لم يُدفع أدنى الفسادين بأعلاهما ، بل يدفع أعلاهما باحتمال أدناهما ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : «ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ قالوا[٦] : بلى يا رسول الله . قال : إصلاح ذات البين ، [فإن فساد ذات البين][٧] هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين»[٨] .

(١) عبارة : «إلا لمحظور» زدتها ليستقيم الكلام .

(٢) وقوع : ساقطة من الأصل .

(٣) فى الأصل : وتقيلها ، وهو تحريف .

(٤) وقد : زدتها ليستقيم الكلام .

(٥) بالمعروف : ساقطة من الأصل .

(٦) فى الأصل : قال .

(٧) مابين المعقوفتين ساقط من الأصل ، وهو من تمام الحديث .

(٨) الحديث عن أبى الدرداء – مع اختلاف يسير فى الألفاظ – فى : سنن أبى داود ٣٨٥/٤ (كتاب الأدب ، باب فى إصلاح ذات البين) ؛ سنن الترمذى ٧٣/٤ (كتاب القيامة ، باب حدثنا أبو موسى) وقال الترمذى : هذا حديث صحيح . والحديث فى : المسند (ط. الحلبى) ٤٤٤/٦ .

لكن المقصود هنا أن هذه الأصوات المحدَثة فى أمر الجهاد ، وإن ظُن أن فيها مصلحة راجحة ، فإن التزام المعروف هو الذى فيه المصلحة الراجحة ، كما فى أصوات الذكر ، إذ السابقون الأولون والتابعون [١] لهم بإحسان أفضل من المتأخرين فى كل شئ : من الصلاة ، وجنسها من الذكر والدعاء ، وقراءة القرآن واستماعه ، وغير ذلك ، ومن الجهاد والإمارة ، وما يتعلق بذلك من أصناف السياسات ، والعقوبات ، والمعاملات فى إصلاح [٢] الأموال وصرفها . فإن طريق السلف أكمل فى كل شئ ، ولكن يفعل المسلم من ذلك ما يقدر عليه .

كما قال الله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [سورة التغابن : ١٦] ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم [٣] » ولاحول ولاقوة إلا بالله .

قال أبو القاسم القشيرى [٤] : «وإن حُسن الصوت مما أنعم الله [تعالى به] [٥] على صاحبه من الناس ، قال الله تعالى : ﴿ يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ [سورة فاطر : ١] ، قيل فى التفسير : من ذلك الصوتُ الحسن . وذم

(١) فى الأصل : إذ السابقين الأولين والتابعين ، وهو خطأ .

(٢) فى الأصل : استراح ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته

(٣) فى : البخارى ٩/٩٤-٩٥ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم). عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «دعونى ماتركتكم ، إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» . والحديث-مع اختلاف فى اللفظ-فى : مسلم ٢/٩٧٥ (كتاب الحج ، باب فرض الحج مرة فى العمر) ؛ سنن النسائى (بشرح السيوطى) ٥/٨٣ (كتاب المناسك ، باب وجوب الحج) ؛ سنن ابن ماجة ١/٣ (المقدمة ، اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

(٤) فى «القشيرية» ٢/٦٤١ بعد كلامه السابق مباشرة .

(٥) تعالى به : ساقطة من الأصل ، وأثبتها من «القشيرية».

الله سبحانه الصوت الفظيع [١]، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [سورة لقمان : ١٩]» .

قلت : كون الشئ نعمة لايقتضى استباحة استعماله فيما شاء [الإنسان من المعاصى] ، ولا [يقتضى إلا] حسن استعماله [٢] ، بل النعم المستعملة فى طاعة الله/ يحمد صاحبها عليها ، ويكون ذلك شكراً لله يوجب المزيد من فضله ، فهذا يقتضى حسن استعمال [الصوت الحسن] فى قراءة القرآن [٣] ، كما كان أبو موسى الأشعرى يفعل ، وكما [٤] كان النبى صلى الله عليه وسلم يستمع لقراءته ، وقال : «مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت استمع لقراءتك . فقال : لو علمت أنك تستمع لحبَّرته لك تحبيراً» [٥] . وقال : «لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود» [٦] .

ص ٨٤

فأما استعمال النعم فى المباح المحض فلا يكون طاعة ، فكيف فى المكروه أو المحَّرم ؟ ولو كان ذلك جائزاً لم يكن قربة ولا طاعة إلا بإذن الله ، ومن

---

(١) الفظيع : كذا فى «القشيرية» . وفى الأصل كتب «القطيع» ثم شطب عليها وكتب :الفضيح .

(٢) فى الأصل : «كون الشئ نعمة لايقتضى استباحة استعماله فيما شاء ولا حس استعماله فيه» ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٣) فى الأصل : «فهذا يقتضى حسن استعماله فى قراءة القرآن» . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٤) فى الأصل : كما .

(٥) روى ابن الأثير فى «جامع الأصول» ٥٣/١٠-٥٤ عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لو رأيتنى البارحة وأنا أسمع لقراءتك ؟ لقد أُعطيت مزماراً من مزامير آل داود» . وذكر ابن الأثير أن الحديث رواه البخارى ومسلم والنسائى ، ثم قال : «قال الحميدى : زاد البرقانى : «قلت : والله يارسول الله ، لو علمت أنك تسمع قراءتى لحبرته لك تحبيراً» . قال : «وحكى أن مسلما أخرجه ، ولم أجد هذه الزيادة فيما عندنا من كتاب مسلم» .

(٦) مضى الحديث من قبل ص ٢٤٦ .

جعله طاعة لله بدون ذلك ، فقد شرع من الدين ما لم يأذن به [الله][١]

ومعلوم أن القوة نعمة ، والجمال نعمة ، وغير ذلك من نعم الله التى لا يحصيها إلا هو ، فهل يجعل أحد مجرد كون الشئ نعمة دليلاً[٢] على استحباب إعماله فيما شاء الإنسان ؟ أم يؤمر المنعم عليه بألاّ يستعملها فى معصية ، ويندب إلى ألاَّ يستعملها إلا فى طاعة الله تعالى ؟

فالاستدلال بهذا بمنزلة من استدل بإنعام الله بالسلطان والمال ، على ما جرت عادة النفوس باستعمال ذلك فيه من الظلم والفواحش ونحو ذلك . فاستعمال الصوت الحسن فى الأغانى وآلات الملاهى ، مثل استعمال الصور الحسنة فى الفواحش ، واستعمال السلطان بالكبرياء والظلم والعدوان ، واستعمال المال فى نحو ذلك .

ثم يقال له : هذه النعمة يستعملها الكفار والفساق فى أنواع من الكفر والفسوق ، أكثر مما يستعملها المؤمنون فى الإيمان . فإن استمتاع الكفار والفسَّاق بالأصوات المطربه أكثر من استمتاع المسلمين ، فأى حمد لها بذلك إن لم تستعمل فى طاعة الله ورسوله ؟

وأما قوله : « إن الله ذم الصوت الفظيع » فهذا غلط منه . فإن الله /لا يذم [ما][٣] خلقه ولم يكن فعلا للعبد ، إنما يذم العبد بأفعاله الاختيارية ، ظ ٨٤

(١) لفظ الجلالة غير موجود بالأصل .

(٢) فى الأصل : دليل ، وهو خطأ .

(٣) ما : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

دون ما لا اختيار له فيه ، وإن كان صوته قبيحا فإنه لا يذم على ذلك[(١)] ، وإنما يذم بأفعاله .

وقد قال الله فى المنافقين : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [سورة المنافقون: ٤] .

وقال : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٠٤] .

وإنما ذم الله ما يكون باختيار العبد من رفع الصوت الرفع المنكر ، كما يوجد ذلك فى أهل الغِلَظ والجفاء ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : «الجفاء والغِلَظ وقسوة القلوب فى الفَدَّادِين من أهل الوبر»[(٢)] وهم الصيَّاحون صياحا منكرا .

وقد قال [الله تعالى][(٣)] : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ

---

(١) فى الأصل عبارة محرفة غير واضحة وتقرأ هكذا : «وإن كان صوته بلدبد كمن خلق ليس يحبس لايدل على ذلك» . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٢) جاء هذا الحديث بألفاظ مختلفة عن أبى مسعود البدرى وعن أبى هريرة رضى الله عنهما وجمع هذه الروايات النووى فى شرحه على صحيح مسلم ٢/٢٩-٣٢ . وأقرب هذه الروايات ماجاء فى : البخارى ٤/١٧٩ (كتاب المناقب ، باب حدثنا مسدد) عن أبى مسعود يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم قال : «من ههنا جاءت الفتن ، نحو المشرق . والجفاء وغلظ القلوب فى الفدَّادين أهل الوبر عند أصول أذناب الإبل والبقر فى ربيعة ومضر» . والحديث فى : البخارى ٥/١٧٣ (كتاب المغازى ، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن) ؛ مسلم ١/٧١-٧٣(كتاب الإيمان ، باب تفاضل أهل الإيمان فيه ، ورجحان أهل اليمن فيه) ؛ المسند (ط. المعارف) ١٣/٢٤٦-٢٤٧ ، المسند (ط.الحلبى ٣/٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٤٥ . وقال النووى فى شرحه ٢/٣٤ : «والصواب فى الفدَّادين بتشديد الدال . جمع فدَّاد ، وهو من الفديد ، وهو الصوت الشديد ، فهم الذين تعلو أصواتهم فى إبلهم وخيلهم وحروثهم ونحو ذلك ... وقوله : إن القسوة فى الفدادين عند أصول أذناب الإبل ، معناه : الذين لهم جلبة وصياح عند سوقهم لها» .

(٣) الله تعالى : ليست فى الأصل .

إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [سورة لقمان : ١٩] ، فأمره أن يغضَّ من صوته ، كما أمر المؤمنين أن يغضُّوا من أبصارهم ، وكما أمره أن يقصد فى مشيه . وذلك كله فيما يكون باختياره لامدخل للذة[1] الصوت وعدم لذته فى ذلك .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الحجرات : ٤] . وقال : ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [سورة الحجرات :٢] . وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [سورة الحجرات : ٣] .

وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن عمرو فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة قال : «ليس بفظ ، ولاغليظ ، ولاصخّاب[2] بالأسواق ولايجزى بالسيئة السيئة[3] ، ولكن يعفو[4] ويغفر»[5]

(١) فى الأصل : اللذة .

(٢) فى الأصل : والأصحاب ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : ولايجزى بالسيئة السيئة الحسنة ، وهو تحريف . والمثبت هو الذى فى سنن الدارمى ١/٤-٥ . وفى : البخارى ومسند أحمد : ولايدفع بالسيئة السيئة .

(٤) فى الأصل : ويعفو . والمثبت هو لفظ الحديث .

(٥) الحديث عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما فى : البخارى ٣/٦٦-٦٧ (كتاب البيوع ، باب كراهية السخب فى الأسواق) ونصه : عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما . قلت : أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة . قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحِرْزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولاسخّاب فى الأسواق ، ولايدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، يفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صُماً ، وقلوبا غلفاً» . والحديث فى : البخارى ٦/١٣٥-١٣٦ (كتاب التفسير ، سورة الفتح) ؛ المسند (ط. المعارف) ١٠/١٥١-١٥٣ (وانظر تعليق المحقق) . وهو عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه وعن كعب (الأحبار) فى : سنن الدارمى ١/٤-٥ (المقدمة ، باب صفة النبى صلى الله عليه وسلم فى الكتب قبل مبعثه) .

وفى الصحيح أيضا أنه أُمر أن يبشِّر خديجة ببيت فى الجنة من قصب ، لاصَخَبَ فيه ولانصب [١] .

وعنه صلى الله عليه وسلم قال : «إنما نُهيت عن صوتين أحمقين فاجرين [صوت عند نعمة] : صوت لهو ولعب ومزامير الشيطان . [وصوت عند مصيبة] : لطم خدود ، وشق جيوب/ ودعاء بدعوى الجاهلية» [٢] . ص ٨٥

ثم قال أبو القاسم [٣] : «واستلذاذ القلوب واشتياقها [٤] إلى الأصوات الطيبة ، واسترواحها إليها ، مما لايمكن جحوده ، فإن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب ، والجمل يقاسى تعب السير ومشقة الحُمولة فيهوَّن عليه [٥] بالحداء . قال الله تعالى : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [سورة الغاشية : ١٧] .

---

(١) جاء الحديث مختصرا ومطولاً عن عدد من الصحابة . ولعل أكثر الروايات اختصارا رواية عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه فى البخارى ٣٩/٥ لما سئل هل بشَّر النبى صلى الله عليه وسلم خديجة؟ قال : نعم ، ببيت من قصب ، لاصخب فيه ولانصب . والحديث عنه وعن أبى هريرة وعائشة رضى الله عنهم فى : البخارى ٣٨/٥-٣٩ (كتاب مناقب الأنصار ، باب تزويج النبى صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضى الله عنها) ، ٣٦/٧-٣٧ (كتاب النكاح ، باب غيرة النساء ووجدهن) ، ٨/٨-٩ (كتاب الأدب ، باب حسن العهد من الإيمان) . وهو فى موضعين آخرين فى البخارى . والحديث أيضا فى : مسلم ١٨٨٧/٤-١٨٨٨ (كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها) ؛ المسند (ط.الحلبى) ٥٨/٦ .

(٢) فى الأصل : .. فاجرين صوت لهو ولعب ومزامير الشيطان ولطم خدود وشق جيوب ودعوى ودعاء بدعوى الجاهلية . وما أثبته موافق للحديث الذى سبق ص ٢٩٢ - ٢٩٣ وتكلمت عنه هناك .

(٣) فى «القشيرية» ٦٤١/٢-٦٤٢ بعد كلامه السابق مباشرة .

(٤) فى الأصل : واستنامتها ، وهو تحريف . والمثبت من «القشيرية» .

(٥) فى الأصل : عليها . والمثبت من «القشيرية» .

وحكى إسماعيل بن عُلَيَّة قال : كنت أمشى مع الشافعى رحمه الله[١] وقت الهاجرة ، فجزنا بموضع يقول فيه أحدٌ شيئا ، فقال : مِلْ بنا إليه ، ثم قال : أيطربك هذا ؟ فقلت : لا ، فقال مالك حسٌّ[٢] » .

قلت[٣] : قد كان مستغنيا عن أن يستشهد على الأمور الحسية بحكاية مكذوبة على الشافعى ، فإن إسماعيل بن عُلَيَّة شيخ الشافعى لم يكن ممّن يمشى معه ، ولم يرو[٤] هذا عن الشافعى ، بل الشافعى روى عنه ، وهو [من][٥] أجلاء شيوخ الشافعى ، وابنه إبراهيم بن إسماعيل كان متكلما تلميذاً لعبد الرحمٰن بن كَيْسان الأصم أحد شيوخ المعتزلة[٦] . وكان قد ذهب إلى مصر ، وكان بينه وبين الشافعى مناوأة ، حتى كان الشافعى يقول فيه : أنا مخالف لابن علية فى كل شئ ، حتى فى قول لا إلٰه إلا الله ، لأنى أقول : لا إلٰه إلا الله الذى كلَّم موسى مِن وراء الحجاب ، وهو يقول : لا إلٰه إلا الله الذى خلق فى الهواء كلاما يسمعه موسى . وهذا يذكر له[٧] أول رسالة[٨] فى أصول الفقه ، ويظن بعض الناس أن ابنه يشتبه

---

(١) القشيرية : رحمه الله تعالى .

(٢) فى الأصل : حسن ، وهو تحريف . والمثبت من «القشيرية» .

(٣) فى الأصل : فقلت : قلت ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : ولم يروا ، وهو تحريف .

(٥) من : ساقطة من الأصل .

(٦) أبو بكر عبد الرحمن بن كَيْسان الأصم ، كان معاصرا لهشام بن الحكم المتوفى حوالى سنة ١٩٠ ، وكان من شيوخ المعتزلة . انظر ترجمته فى : سزكين ٢/٣٩٥ .

(٧) فى الأصل : وهذا ويذكر له ..

(٨) فى الأصل : أول شاده ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

بأبيه[١] ، فإنه شيخ الشافعي وأحمد وطبقتهما[٢] .

فهذه الحكاية يعلم أنها مفتراة من له أدنى معرفة بالناس ، ولو صحت عمَّن صحت عنه لم يكن فيها إلا ما هو مدرَك بالإحساس من أن الصوت الطيب لذيذ[٣] مطربٌ ، وهذا يشترك فيه جميع الناس ، ليس هذا من أمور الدين ، حتى يُستدل فيه بالشافعي ، بل ذكر الشافعي فى مثل هذا/غضٌّ من منصبه ، مثل ما ذكر ابن طاهر عن مالك رحمه الله حكاية مكذوبة[٤] ، وأهل المواخر أعلم بهذه المسألة من أئمة الدين ، ولو حُكى مثل هذا عن إسحاق بن إبراهيم النديم ، وأبى الفرج الاصبهانى صاحب «الأغانى» لكان أنسب من أن يحكيها عن الشافعي .

ظ ٨٥

ثم يقال : كون الصوت الحسن فيه لذة أمر[٥] حسى ، لكن أى شئ فى هذا مما يدل على الأحكام الشرعية ، من كونه مباحا أو مكروها أو محرما ؟ ومن كون الغناء قربة أو طاعة ؟

بل مثل هذا أن يقول القائل : استلذاذ النفوس بالوطء مما[٦] لا يمكن جحوده ، واستلذاذها بالمباشرة للجميل من النساء والصبيان مما لا يمكن جحوده ، واستلذاذها بالنظر إلى الصور الجميلة مما لا يمكن جحوده ،

(١) فى الأصل : أنه أبوه يشبهوه أبيه ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) أبو بشر إسماعيل بن عُلَيَّة الأسدى ، مولاهم البصرى ، واسم أبيه إبراهيم بن مقسم ، وعُلَيَّة أمه . قال شعبة : ابن علية سيد المحدثين . توفى سنة ١٩٣ . انظر ترجمته فى : شذرات الذهب ١/٣٣٣ ؛ العبر ١/٣١٠ .

(٣) فى الأصل : لزيد ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٤) سبق ذكر ما نسبه ابن طاهر المقدسى فى كتابه «صفوة التصوف» (ص ١٤٦-١٤٧) إلى الإمام مالك بن أنس رحمه الله . انظر ما سبق ص ٢٧٣ ت ٢ .

(٥) فى الأصل : وأمر ، وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : ممن ، وهو خطأ .

واستلذاذها بأنواع المطاعم والمشارب مما لايمكن جحوده . فأى دليل فى هذا لمن هداه الله على ما يحبه الله ويرضاه أو يبيحه ويجيزه ؟.

ومن المعلوم أن هذه الأجناس فيها الحلال والحرام ، والمعروف والمنكر ، بل كان المناسب لطريقة الزهد فى الشهوات واللذات ومخالفة الهوى أن يُستدلَّ بكون الشئ لذيذاً مشتهىً[1] على كونه مبايناً لطريق الزهد والتصوف ، كما قد يفعل كثير من المشايخ ، يزهِّدون بذلك[2] فى جنس الشهوات واللذات .

وهذا ، وإن لم يكن فى نفسه دليلا صحيحا ، فهو أقرب إلى طريقة الزهد والتصوف من الاستدلال بكون الشئ لذيذاً على كونه طريقاً إلى الله .

وكلٌّ من الاستدلالين باطل ، فلا يستدل على كونه محموداً أو مذموماً ، أو حلالاً أو حراماً ، إلا بالأدلة الشرعية ، لابكونه لذيذاً فى الطبع أو غير لذيذ .

ولهذا يُنكر على من يتقرب إلى الله بترك جنس اللذات ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم/ للذين قال أحدهم : أما أنا فأصوم لا أفطر . وقال الآخر : [أما أنا][3] فأقوم لا أنام ، وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال الآخر : أما أنا فلا آكل اللحم . فقال النبى صلى الله عليه

ص ٨٦

(١) فى الأصل : مشتبها . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : بذلك يزهدون . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) عبارة : «أما أنا» : زدتها ليستقيم الكلام .

وسلم : «لكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتى فليس منى»[١] .

وقد أنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٨٧] .

ثم إن أبا القاسم وطائفة معه تارةً يمدحون التقرب إلى الله بترك جنس الشهوات ، وتارةً يجعلون ذلك دليلا على حسنه وكونه من القربات . وهذا بحسب وَجْد أحدهم وهواه ، لابحسب ما أنزله الله وأوحاه ، وما هو الحق والعدل وما هو الصلاح والنافع فى نفس الأمر .

والتحقيق أن العمل لا يُمدح ولايُذم لمجرد كونه لذة ، بل إنما يمدح ما كان لله[٢] أطوع وللعبد أنفع ، سواء كان فيه لذة أو مشقة ، فرب لذيذ هو طاعة ومنفعة ، ورب مُشِقّ هو طاعة ومنفعة ، ورب لذيذ أو مشق صار منهيا عنه .

ثم لو استدل بهذا على تحسين القرآن به لكان مناسبا ، فإن الاستعانة بجنس اللذات على جنس الطاعات مما جاءت به الشريعة ، كما يستعان بالأكل والشرب على العبادات .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ

---

(١) الحديث - مع اختلاف فى الألفاظ - عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : البخارى (كتاب النكاح ، باب الترغيب فى النكاح) ؛ مسلم ١٠٢٠/٢ (كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ...) ؛ سنن النسائى (بشرح السيوطى) ٤٩/٦-٥٠ (كتاب النكاح ، باب النهى عن التبتل) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٢٤١/٣ ، ٢٥٩ ، ٢٨٥ .

(٢) فى الأصل : الله

وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [سورة البقرة : ١٧٢] . وقال : ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلوا صَالِحاً﴾ [سورة المؤمنون : ٥١] .

وفى الحديث المتفق عليه قوله عليه السلام لسعد : «إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة ، حتى اللقمة ترفعها إلى فى امرأتك»[1] .

وقال : «فى بُضع أحدكم أهله صدقة»[2] .

وكذلك حمده فى النعم ، كما فى الحديث الصحيح : «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها»[3] .

ظ ٨٦ /فلو قال : إن الله خلق فينا الشهوات واللذات لنستعين بها على كمال مصالحنا ، فخلق فينا شهوة الأكل واللذة به ، فإن ذلك فى نفسه نعمة ، وبه يحصل بقاء جسومنا فى الدنيا . وكذلك شهوة النكاح واللذة به ، هو فى نفسه نعمة ، وبه يحصل بقاء النسل . فإذا استُعين[4] بهذه القوى على

(١) الحديث–مع اختلاف فى بعض الألفاظ– عن سعد بن أبى وقاص فى : البخارى ١/١٦–١٧ (كتاب الإيمان . باب ماجاء أن الأعمال بالنية) ؛ مسلم ٣/١٢٥٠–١٢٥١ (كتاب الوصية ، باب الوصية بالثلث) ؛ سنن أبى داود ٣/١٥٣ (كتاب الوصايا ، باب ماجاء فيما يؤمر به من الوصية) ؛ المسند (ط. المعارف)٣/٦٣–٦٤ ، ٧٣–٧٤ .

(٢) هذا جزء من حديث طويل عن أبى الأسود الديلى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه فى : مسلم ٢/٦٩٧–٦٩٨ (كتاب الزكاة ، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف) وأوله : عن أبى ذر أن ناسا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ... قال : أو ليس قد جعل الله لكم ماتصدّقون ؟.. الحديث . وهو فى سنن أبى داود ٢/٣٦–٣٧ (كتاب التطوع ، باب صلاة الضحى) ؛ المسند (ط. الحلبى)٥/١٦٧ ، ١٦٨ .

(٣) الحديث عن أنس بن مالك رضى الله عنه–مع اختلاف يسير فى الألفاظ–فى : مسلم ٤/٢٠٩٥ (كتاب الذكر ، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب) ؛ سنن الترمذى ٣/١٧٢ (كتاب الأطعمة ، باب فى الحمد على الطعام إذا فرغ منه) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٣/١٠٠ ، ١١٧ .

(٤) فى الأصل : استغنى ، وهو تحريف .

ما أُمرنا به ، كان ذلك سعادة لنا فى الدنيا والآخرة ، وكنا من الذين أنعم الله عليهم نعمة مطلقة ، وإن استعملنا الشهوات فيما حظره [١] علينا بأكل الخبائث فى نفسها ، أوكسبها كالمظالم ، أو بالإسراف [٢] فيها ، أو تعدينا أزواجنا أو ما ملكت أيماننا ، كنا ظالمين معتدين غير [٣] شاكرين لنعمته — لكان هذا كلاماً حسنا .

والله قد خلق الصوت الحسن ، وجعل النفوس تحبّه وتلتذ به ، فإذا استعنَّا بذلك فى استماع ما أُمرنا باستماعه ، وهوكتابه ، وفى تحسين الصوت به ، كما أَمَرَنا بذلك حيث قال : «زيِّنوا القرآن بأصواتكم» [٤] ، وكما كان يفعل أصحابه بحضرته [مثل] [٥] أبى موسى وغيره — كنا قد استعملنا النعمة فى الطاعة ، وكان هذا حسناً مأموراً به ، كما كان عمر بن الخطاب يقول لأبى موسى : «يا أبا موسى ذكِّرنا ربنا» فيقرأ وهم يستمعون . وكان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ والباقى يستمعون .

فهذا كان استماعهم ، وفى مثل هذا السماع كانوا يستعملون الصوت الحسن ، ويجعلون التذاذهم بالصوت الحسن عوناً لهم على طاعة الله وعبادته باستماع كتابه ، فيُثابون على هذا الالتذاذ ، إذ اللذة المأمور بها المسلم يُثاب عليها كما يثاب على أكله وشربه ونكاحه ، وكما يُثاب على لذات

---

(١) فى الأصل : خطره ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : بالإشراف ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : عن ، وهو تحريف .

(٤) مضى الحديث من قبل .

(٥) مثل : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

قلبه بالعلم والإيمان ، فإنها أعظم اللذات ، وحلاوة ذلك أعظم الحلاوات .

ونفس التذاذه وإن كان متولدا عن سعته/ ، وهو فى نفسه ثواب ، فالمسلم يُثاب على عمله وعمل ما يتولد عن عمله ، ويُثاب عمَّا يلتذ به من ذلك مما هو أعظم لذة منه ، فيكون[1] متقلِّباً فى نعمة ربه وفضله . ص ٨٧

فأما أن يُستدل بمجرد استلذاذ الإنسان للصوت أو ميل الطفل إليه ، أو استراحة البهائم به ، على جوازٍ أو استحبابٍ فى الدين ، فهو من أعظم الضلال ، وهو كثير فيمن يعبد الله بغير العلم المشروع .

ومن المعلوم أن الأطفال والبهائم تستروح بالأكل والشرب ، فهل يُستدل بذلك على أن كل أكل وشرب فهو حسن مأمور به ؟! .

وأصل الغلط فى هذه الحجج الضعيفة أنهم يجعلون الخاص عاماً فى الأدلة المنصوصة ، وفى عموم الألفاظ المستنبطة ، فيجنحون إلى [أن] الألفاظ[2] فى الكتاب والسنة أباحت أو حمدت نوعاً من السماع ، يدرجون فيها سماع المكاء والتصدية ، أو يجنحون[3] إلى المعانى التى دلت على الإباحة أو الاستحباب[4] فى نوع من الأصوات والسماع ، يجعلون ذلك متناولاً لسماع المكاء والتصدية .

وهذا جمع بين مافرَّق الله بينه ، بمنزلة قياس الذين قالوا إنما البيع مثل

(١) فى الأصل : لايكون ، وهو خطأ . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : فيحنون إلى الألفاظ . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : أو يحنون .

(٤) فى الأصل : أو استحباب .

الربا . وأصل هذا قياس المشركين الذين عدلوا بالله ، وجعلوا لله أنداداً سوّوهم برب العالمين فى عبادتها أو اتخاذها آلهة ، وكذلك من عَدَل رسولَه متنبئاً كذَّابا ، كمسيلمة الكذَّاب ، أو عَدَل بكتابه وتلاوته واستماعه كلاماً آخر أو قراءته أو سماعه ، أو عَدَل بما شرعه من الدين ديناً آخر شرعه له شركاؤه ، فهذا كله من فعل المشركين ، وإن دخل فى بعضه من المؤمنين قومٌ متأوِّلين ، فالناس كما قال الله تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [سورة يوسف : ١٠٦] .

فالشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل ، وهذا مقام ينبغى للمؤمنين/التدبر فيه ، فإنه ما بُدِّل دين الله فى الأمم المتقدمة وفى هذه الأمة إلا بمثل هذا القياس ، ولهذا قيل : ما عُبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس . ظ ٨٧

وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته فى بعض مايستحقه وحده ، فإنه لم يعدل أحد بالله شيئا من المخلوقات فى جميع الأمور ، فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك به ، كمن عمد[(١)] إلى كلام الله الذى أنزله ، وأمر باستماعه ، فعدل به سماع بعض الأشعار .

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» رواه الترمذى وغيره [(٢)] .

---

(١) فى الأصل : به فمن عمد . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) لم أجد هذا الحديث فى سنن الترمذى ، ولكنى وجدته فى سنن الدارمى ٢/ ٤٤١ (كتاب فضائل القرآن ، باب فضل كلام الله على سائر الكلام) ونصه .. عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من شغله قراءة القرآن عن مسألتى وذكرى أعطيته أفضل ثواب السائلين وفضل كلام الله على سائر =

ورُوى أيضا عنه : «ما تقرَّب العباد إلى الله [بشئ][(١)] أحب إليه مما خرج منه»[(٢)] يعنى القرآن . وهذا محفوظ عن خبَّاب بن الأرت ، أحد المهاجرين الأولين السابقين . قال : «يا هناه[(٣)] تقرَّب إلى الله بما استطعت ، فلن يُتقرب إليه بشئ أحب إليه من كلامه»[(٤)] ، فإذا عَدَل بذلك مانزَّه الله عنه ورسوله بقوله تعالى : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي

=الكلام كفضل الله على خلقه» . ثم ذكر الدارمى فى نفس الصفحة حديثا آخر عن شهر بن حوشب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فضل كلام الله على خلقه كفضل الله على خلقه» . وذكر البخارى فى كتاب «خلق أفعال العباد» ص ١٣٢ (ضمن مجموعة عقائد السلف) مايلى : «وقال أبو عبد الرحمن السلمى : فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الرب على خلقه» وذكر أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمى حديث أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) المتقدم الذى أورده الإمام أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى فى سننه فى كتابه الرد على الجهمية ، ص ٣٢٤ (ضمن مجموعة عقائد السلف) . وذكر السيوطى فى «الجامع الكبير» الحديث ونصه : «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الرحمن على خلقه» ثم قال : «هب(البيهقى فى شعب الإيمان) عن أبى هريرة» .

(١) زدت كلمة «بشئ» إلى الأصل ليستقيم الكلام .

(٢) لم أجد الحديث بهذه الألفاظ فى سنن الترمذى ، ولكنى وجدت فى سنن الترمذى ٤/٢٤٩-٢٥٠ (كتاب فضائل القرآن ، باب منه) حديثين : الأول عن أبى أمامة قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : «ما أذن الله لعبد فى شئ أفضل من ركعتين يصليهما ، وإن البر ليُذرُّ على رأس العبد ما دام فى صلاته ، وماتقرَّب العباد إلى الله عز وجل بمثل ماخرج منه . قال أبو النضر : يعنى القرآن» . وقد رُوى هذا الحديث عن زيد بن أرطاة عن جبير بن نُفير عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا . ثم ذكر الترمذى حديثا آخر عن زيد بن أرطاة عن جبير بن نفير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنكم لن ترجعوا إلى الله بأفضل مما خرج منه . يعنى القرآن» . ثم قال الترمذى : «هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه . وبكر بن خُنَيْس قد تكلم فيه ابن المبارك وتركه فى آخر أمره» .

وأورد الإمام أحمد حديث أبى أمامة المتقدم فى مسنده (ط .الحلبى) ٥/٢٦٨ .

(٣) فى الأصل ياهساه (بدون نقط) . وفى «لسان العرب» مادة «هنا» أن قولنا : يا هناه : معناه يافلان . وأنه يقال للرجل:ياهناه .. ومن قال للذكر : ياهَنَاهُ وياهَنَاهِ قال للأنثى : ياهَنتاهُ أقبلى وياهنتاه .

(٤) فى الأصل : من كلام ، وهو تحريف . وأورد البخارى الأثر عن خبّاب بن الأرت فى كتابه «خلق أفعال العباد» ، ص ١٣٢ (مجموعة عقائد السلف) فقال : «وقال خباب بن الأرت رضى الله عنه : تقرب إلى الله ما استطعت ، فإنك لن تقرب (الكلمة فى الأصل المطبوع محرفة ولعل صوابها : تتقرب) إلى الله بشئ أحب إليه من كلامه» .

لَهُ ﴾ [سورة يس : ٦٩] ، وجعله قرآناً للشيطان ، كما فى الحديث : «فما قرآنى ؟ قال : الشعر»[1] كان هذا قد عدل كلام الرحمن بكلام الشيطان . وهذا قد جعل الشيطان عدلا للرحمن ، فهو من جنس الذين قال الله فيهم : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُود إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٩٤-٩٨] .

والاستدلال بكون الصوت الحسن نعمة، واستلذاذ النفوس به ، على جواز استعماله فى الغناء ، أو استحباب ذلك فى بعض الصور ، مثل الاستدلال بكون الجمال نعمة ، ومحبة النفوس الصور الجميلة ، على جواز استعمال الجمال الذى للصبيان فى إمتاع الناس به : مشاهدة ومباشرة وغير ذلك ،/ أو استحباب ذلك فى بعض الصور ، وهذا أيضا قد وقع فيه طوائف من المتفلسفه والمتصوفة والعامة . كما وقع فى الصوت أكثر من هؤلاء ، لكن الواقعون فى الصور فيهم من له من العقل والدين ما ليس لهؤلاء ، إذ ليس فى هؤلاء رجل مشهور بين الناس شهرة عامة[2] ، بخلاف أهل السماع ، ولكن هم طرَّقوا لهم الطريق ، وذرَّعوا الذريعة ، حتى آل الأمر بكثير من الناس أن قالوا وفعلوا فى الصوت[3] نظير ما قاله هؤلاء وفعلوه فى الصور ، يحتجون على جواز النظر إليه والمشاهدة بمثل قوله

ص ٨٨

---

(١) سيرد هذا الحديث مطولا فيما بعد ، فانظر كلامى عنه هناك إن شاء الله .

(٢) بعد كلمة «عامة» توجد كلمة غير واضحة كأنها «نحو» ، ورأيت أن حذفها لايغير معنى العبارة .

(٣) فى الأصل : الصور ، وهو خطأ .

[صلى الله عليه وسلم][١] : «إن الله جميل يحب الجمال»[٢] وينسون قوله «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٣] .

ويحتجون بما فى ذلك من راحة النفوس ولذتها ، كما يحتج هؤلاء ويكرمون ذا الصورة على ما يبذله من صورته[٤] وإشهادهم إياها ، كما يكرم هؤلاء ذا الصوت[٥] على ما يبذله من صوته وإسماعهم إياه. بل كثيراً ما يجمع فى الشخص الواحد بين [الصورة] والصوت[٦] كما يفعل فى المغنِّيات من القينات .

وقد زيَّن الشيطان لكثير من المتنسكة والعبَّاد[٧] أن محبة الصور الجميلة إذا لم يكن بفاحشة فإنها محبة لله ، كما زيَّن لهؤلاء أن استماع هذا الغناء لله ، ففيهم من يقول هذا اتفاقا ، وفيهم من يظهر أنه يحبه لغير فاحشة ، ويبطن محبة الفاحشة ، وهو الغالب .

لكن ماأظهروه من الرأى الفاسد ، وهو أن يُحب لله ما لم يأمر الله

(١) عبارة «صلى الله عليه وسلم» : زدتها للإيضاح .

(٢) الحديث—مع اختلاف فى بعض الألفاظ—عن عبد الله بن مسعود وغيره من الصحابة رضى الله عنهم فى : مسلم ٩٣/١ (كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه) . وأوله : «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر . . .» الحديث . وجاء الحديث فى المسند (ط . الحلبى) ١٣٣/٤ – ١٣٤ ، ١٥١

(٣) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٤/ ١٩٨٧ (كتاب البر ، باب تحريم ظلم المسلم) ؛ سنن ابن ماجة ٢/ ١٣٨٨ (كتاب الزهد ، باب القناعة) ؛ المسند (ط. المعارف) ٢٧٧/١٤ (رقم ٧٨١٤) ، ط. الحلبى ٥٣٩/٢

(٤) فى الأصل : من صوته ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : ذا الصور ، وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : بين الصوت ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٧) فى الأصل : والعباده ، وهو تحريف .

بمحبته ، هو الذى سلَّط المنافق منهم على أن يجعل ذلك ذريعة إلى الكبائر ، ولعل هذه البدعة منهم أعظم من الكبيرة مع الإقرار بأن ذلك ذنب عظيم والخوف من الله من العقوبة ، فإن هذا غايته أنه مؤمن فاسق قد جمع سيئة وحسنه،/ وأولئك مبتدعة ضُلاَّل حين جعلوا ما نهى الله [عنه][1] مما أمر الله به ، وزيَّن لهم سوء أعمالهم فرأوه حسنا ، وبمثلهم يضل أولئك حتى لا ينكروا المنكر إذا اعتقدوا أن هذا يكون عبادة الله .

ظ ٨٨

ومن جعل ما لم يأمر الله بمحبته محبوباً لله ، فقد شرع دينا لم يأذن الله به ، وهو مبدأ الشرك . كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] .

فإن محبة النفوس الصورة والصوت قد تكون عظيمة جدا ، فإذا جُعل ذلك دينا وسُمِّىَ لله ، صار كالأنداد والطواغيت المحبوبة تدينا وعبادة .

كما قال تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ٩٣] . وقال تعالى عنهم : ﴿ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا على آلِهَتِكُمْ ﴾ [سورة ص : ٦] .

بخلاف من أحب المحرَّمات مؤمنا بأنها من المحرَّمات ، فإن من أحب الخمر والغناء والبَغِىَّ والمخنَّث ، مؤمنا بأن الله يكره ذلك ويبغضه ، فإنه لايحبه محبةً محضة ، بل عقله وإيمانه يبغض هذا الفعل ويكرهه ، ولكن قد غلبه هواه — فهذا قد يرحمه الله : إما بتوبة إذا قَوِىَ ما فى إيمانه من بغض ذلك وكراهته حتى دفع حب الهوى ، وإما بحسنات ماحية ، وإما بمصائب مكفِّرة ، وإما بغير ذلك .

---

(١) عنه : زدتها ليستقيم الكلام .

أما إذا اعتقد أن هذه المحبة لله ، فإيمانه بالله يقوِّى هذه المحبة ويؤيدها ، وليس عنده إيمان يزعه عنها ، بل يجتمع فيها داعى الشرع والطبع ، الإيمان والهدى ، وذلك أعظم من شرب النصرانى للخمر ، فهذا لايتوب من هذا الذنب ولا يتخلص من وباله إلا أن يهديه الله .

فتبين له أن هذه المحبة ليست محبة لله . ولا أمر الله بها ، بل كرهها ونهى عنها ، وإلا فلو ترك أحدهم/ هذه المحبة لم يكن ذلك توبة ، فإنه يعتقد أن جنسها دين ، بحيث يرضى بذلك من غيره ويأمره به ويقرُّه عليه ، وتركه لها كترك المؤمن بعض التطوعات والعبادات .

ص ٨٩

وليس فى دين الله محبة أحد لحسنه قط[١] ، فإن مجرد الحسن لايثيب الله عليه ولا يعاقب ، ولو كان كذلك كان يوسف عليه السلام ، لمجرد حسنه ، أفضل من غيره من الأنبياء لحسنه ، واذا استوى شخصان فى الأعمال الصالحة ، وكان أحدهما أحسن صورة وأحسن صوتا ، كانا عند الله سواء ، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم ، يعم صاحب الصوت الحسن والصورة الحسنة ، إذا استعمل ذلك فى طاعة الله دون معصيته ، كان أفضل من هذا الوجه[٢] ، كصاحب المال والسلطان إذا استعمل ذلك فى طاعة الله دون معصيته ، فإنه بذلك الوجه أفضل ممن لم يشركه فى تلك الطاعة ، ولم يُمتحن بما امتُحن به ، حتى خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . ثم ذلك الغير إن كان له عمل صالح آخر يساويه به ، وإلا كان الأول أفضل مطلقا .

---

(١) فى الأصل : لحسنه لله قط . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) عبارة «أفضل من هذا الوجه» تكررت فى الأصل مرتين . وهو سهو من الناسخ .

وهذا عام لجميع الأمور التى أنعم [الله تعالى بها][١] على بنى آدم وابتلاهم بها[٢] ، فمن كان فيها شاكراً صابراً ، كان من أولياء الله المتقين . وكان ممن امتُحن بمحبة[٣] حتى صبر وشكر ، وإن لم يكن المبتلى صابراً شكوراً بل ترك ما أمر الله به ، وفعل مانهى الله عنه كان عاصيا أو فاسقا أو كافراً ، وكان من سلم من هذه المحنة خيراً منه ، إلا أن يكون له ذنوب أخرى يكافيه بها .

وإن جمع بين طاعة ومعصية ، فإن ترجحت طاعته كان أرجح ممن لم يكن له مثل ذلك ، وإن ترجحت معصيته كان السالم من ذلك خيراً منه ، فإن كان له مال يتمكن [به][٤] فى الفواحش والظلم/ فخالف هواه ، وأنفقه فيما يبتغى به وجه الله ، أحب الله ذلك منه وأكرمه وأثابه . ظ ٨٩

ومن كان له صوت حسن فترك استعماله فى التخنيث والغناء ، واستعمله فى تزيين كتاب الله والتغنى به ، كان بهذا العمل الصالح ، وبترك العمل السئ ، أفضل ممن ليس كذلك ، فإنه يُثاب على تلاوة كتاب الله ، فيكون فى عمله معنى الصلاة ومعنى الزكاة .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : «ما أَذَن الله لشئ كأَذَنِه لنبى حسن الصوت يتغنَّى بالقرآن يجهر به» ، وقال : «لله أشد أَذَناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القَيْنة إلى قَيْنته»[٥] .

---

(١) العبارة بين المعقوفتين زدتها ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : وابتلائهم بها ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : وكان ممن لم يمتحن بمحبة ، وهو خطأ . ولعل الصواب ما أثبته

(٤) به : ليست فى الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

(٥) مضى الحديثان من قبل .

ومن كان له صورة حسنة فعفَّ عمَّا حرَّم الله تعالى ، وخالف هواه وجمَّل نفسه بلباس التقوى ، الذى قال الله فيه : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٦] - كان هذا الجمال يحبه الله ، وكان من هذا الوجه أفضل ممن لم يؤت مثل هذا الجمال ما لا يُكساه وجه العاصى ، فإن كانت خلقته حسنة ازدادت حُسنا ، وإلا كان عليها من النور والجمال بحسبها .

وأما أهل الفجور فتعلو وجوههم ظلمة المعصية حتى يُكسف الجمال المخلوق . قال ابن عباس رضى الله عنه : «إن للحسنة لنوراً فى القلب ، وضياء فى الوجه ، وقوة فى البدن ، وزيادة فى الرزق[1] ، ومحبة فى قلوب الخلق ، وإن للسيئة لظلمة فى القلب ، [وغَبَرَة] فى الوجه ، [وضعفا] فى البدن[2] ، ونقصا فى الرزق ، وبغضة فى قلوب الخلق» .

وهذا يوم القيامة يكمل حتى يظهر لكل أحد ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٦ - ١٠٧] .

وقال تعالى/ : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [سورة الزمر : ٦٠] . ص ٩٠

(١) فى الأصل : وزيادة ومحبة فى الرزق ، وهو سهو من الناسخ .

(٢) فى الأصل : فى القلب ، وبعدها بياض بمقدار كلمة ، ثم عبارة : «فى الوجه فى البدن» ، ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام ، ولم أجد الأثر فيما بين يدى من مراجع .

وقال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [سورة القيامة : ٢٢-٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [سورة عبس : ٣٨-٤٢][١] .

وقال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً ﴾ [سورة الغاشية : ٢-٤] .

و : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ [سورة الغاشية : ٨، ٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [سورة الكهف : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [سورة المطففين : ٢٢-٢٤] .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لاتزال المسألة بأحدهم حتى يجئ يوم القيامة وَليس فى وجهه مُزعة لحم»[٢] .

---

(١) فى الأصل لم يذكر الناسخ الآية ٤١ من سورة عبس.

(٢) الحديث مع اختلاف فى اللفظ عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى : مسلم ٧٢٠/٢ (كتاب الزكاة ، باب كراهة المسألة للناس) ونصه فيه : «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم» . قال النووى فى شرحه على مسلم ١٣٠/٧ ؟ «مُزعة لحم : بضم الميم واسكان الزاى أى قطعة . قال القاضى قيل معناه يأتى يوم القيامة ذليلا ساقطا لاوجه له عند الله وقيل هو على ظاهره فيحشر ووجهه عظم لا لحم عليه عقوبة له وعلامة له بذنبه حين طلب وسأل بوجهه ، كما جاءت الأحاديث الأخر بالعقوبات فى الأعضاء التى كانت بها المعاصى . وهذا فيمن سأل لغير ضرورة سؤالا منهيا عنه وأكثر منه كما فى الرواية الأخرى من سأل تكثرا، والله أعلم» .

وقال «من سأل الناس وله مايكفيه جاءت مسألته خدوشاً أوكدوحاً فى وجهه يوم القيامة»[١] .

وقال عليه السلام: «أول زمرة تلج الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم كأشد كوكب فى السماء إضاءة»[٢]. وقال يوم حنين: «شاهت الوجوه»[٣] لوجوه المشركين .

وأمثال هذا كثير مما فيه وصف أهل السعادة بنهاية الحسن والجمال والبهاء ، وأهل الشقاء بنهاية السوء والقبح والعيب .

وقد قال تعالى فى وصفهم فى الدنيا : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، إلى قوله سبحانه : ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [سورة الفتح : ٢٩]فهذه السيما فى وجوه المؤمنين . والسيما : العلامة ، وأصلها من الوسم ، وكثيرا ما يستعمل فى الحسن ، كما

(١) الحديث مع اختلاف فى الألفاظ عن ابن مسعود رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٢/٨٠-٨١ (كتاب الزكاة ، باب من تحل له الزكاة) ؛ سنن النسائى ٥/٧٢-٧٣ (كتاب الزكاة ، باب حد الغنى) ؛ سنن الدارمى ١/ ٣٨٦ (كتاب الزكاة ، باب من تحل له الصدقة) ؛ مسند أحمد (ط.المعارف) ٥/٢٤٨-٢٤٩ ، ٦/١١٤ ، ٢٠٠ .

(٢) الحديث مع اختلاف يسير فى الألفاظ عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٤/١١٨ (كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء فى صفة الجنة) ، ٤/١٣٢ (كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) ؛ مسلم ٤/٢١٧٨-٢١٧٩ (كتاب الجنة ، باب أول زمرة تدخل الجنة) ؛ سنن الترمذى ٤/٨٥ (كتاب الجنة ، باب ما جاء فى صفة أهل الجنة) ؛ سنن ابن ماجة ٢/١٤٤٩ (كتاب الزهد ، باب صفة الجنة) ؛ سنن الدارمى ٢/٣٣٣-٣٣٤ (كتاب الرقاق ، باب فى أول زمرة يدخلون الجنة) ؛ مسند أحمد (ط. المعارف) ١٢/١٣٦ ، ١٤٥-١٤٧ ، ١٣/١٧٤ ، ٢٣٤ .

(٣) الحديث عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه فى : مسلم ٣/١٤٠٢ (كتاب الجهاد والسير ، باب فى غزوة حنين) .

جاء فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم : وسيم قسيم[١] .

وقال الشاعر :

غلام رماه الله بالحسن يافعًا له سيمياءٌ لا تشق على البصر[٢]

ظ ٩٠ /وقال الله تعالى فى صفة المنافقين : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ [سورة محمد : ٣٠] ، فجعل للمنافقين سيما أيضا .

وقال : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴾ [سورة الحج : ٧٢] ، فهذه السيما وهذا المنكر قد [يوجد][٣] فى وجه مَنْ صورته المخلوقة وضيئة ، كما يوجد مثل ذلك فى الرجال والنساء والولدان ، لكن بالنفاق قبح وجهه ، فلم يكن فيه الجمال الذى يحبه الله ، وأساس [ذلك][٤] النفاق والكذب .

ولهذا يوصف الكذاب بسواد الوجه ، كما يوصف الصادق ببياض

---

(١) وردت صفة النبى صلى الله عليه وسلم فى كثير من الكتب منها ما جاء فى سنن الترمذى ٢٥٩/٥ (كتاب المناقب ، باب ما جاء فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم) « .. عن أبى إسحاق قال سأل رجل البراء : أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل السيف ؟ قال : لا ، مثل القمر» . وذكر النووى فى كتابه «تهذيب الأسماء واللغات» (ط. المنيرية) ق١ ، حـ ١ ، ص٢٥ فى صفته صلى الله عليه وسلم : «وجهه كالقمر ليلة البدر كأن وجهه القمر» . وانظر صفته فى كتاب «جوامع السيرة» لابن حزم (ص٢١) ، وانظر تعليق المحقق الدكتور ناصر الدين الأسد وما أورده من مواضع وصفه صلى الله عليه وسلم . ولم أجد نص كلام ابن تيمية فى بعض هذه المواضع .

(٢) فى الأصل : غلام وضاه ... له سيما ... والتصويب من «لسان العرب» (سوم) . وذكر ابن منظور أن البيت لأسيد بن عنقاء الفزارى .

وقال ابن منظور : « قال ابن برى : وحكى على بن حمزة أن أبا رياش قال : لا يروى بيت ابن عنقاء الفزارى : (غلام رماه الله بالحسن يافعا) إلا أعمى البصيرة ، لأن الحسن مولود ، وإنما هو: رماه الله بالخير يافعا» .

(٣) كلمة «يوجد» زدتها ليستقيم الكلام .

(٤) كلمة «ذلك» زدتها ليستقيم الكلام .

الوجه ، كما أخبر الله بذلك . ولهذا روى عن عمر بن الخطاب أنه أمر بتعزير شاهد الزور بأن يُسوَّد وجهه ويركب مقلوبا على الدابة ، فإن العقوبة من جنس الذنب ، فلما اسودَّ وجهه بالكذب وقلب الحديث سُوِّد وجهه وقلب فى ركوبه ، وهذا أمر محسوس لمن له قلب ، فإن ما فى القلب[1] من النور والظلمه . والخير والشر ، يسرى كثيرا إلى الوجه والعين ، وهما أعظم الأشياء ارتباطا بالقلب .

ولهذا يروى عن عثمان ـ أو غيره ـ أنه قال : «ما أسرَّ أحد بسريرة إلا أبداها[2] الله على صفحات وجهه وفلتات[3] لسانه» . والله قد أخبر فى القرآن أن ذلك قد يظهر فى الوجه ، فقال : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [سورة محمد : ٣٠] فهذا تحت المشيئة ، ثم قال : ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [سورة محمد : ٣٠] ، فهذا مُقسم [عليه][4] محقق لا شرط فيه . وذلك أن ظهور ما فى قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره فى وجهه ، لكنه يبدو فى الوجه بُدُواً خفيًّا يعلمه الله ، فإذا صار خلقاً ظهر لكثير من الناس ، وقد يقوى السواد والقَسَمَة حتى يظهر لجمهور الناس ، وربما مسخ قرداً أو خنزيراً ، كما فى الأمم قبلنا ، وكما فى هذه الأمة أيضا ، وهذا كالصوت المطرب إذا كان / مشتملا على كذب وفجور ، فإنه موصوف بالقبح والسوء الغالب على ما فيه من حلاوة الصوت . ص ٩١

(١) فى الأصل : فإن ما فى النور ، وهو خطأ . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : أبداه .

(٣) فى الأصل : وفلبات ، وهو تحريف .

(٤) عليه : زدتها ليستقيم الكلام .

فذو الصورة الحسنة إما أن يترجح عنده العفة والخلق الحسن ، وإما أن يترجح فيه ضد ذلك ، وإما أن يتكافآ .

فإن ترجّح فيه الصلاح كان جماله بحسب ذلك ، وكان أجمل ممن لم يمتحن تلك المحنة .

وإن ترجح فيه الفساد لم يكن جميلا بل قبيحاً مذموماً ، فلا يدخل فى قوله : إن الله جميل يحب الجمال .

وإن تكافأ فيه الأمران كان فيه من الجمال والقبح بحسب ذلك ، فلا يكون محبوباً ولا مبغضا .

والنبى صلى الله عليه وسلم ذكر هذه الكلمة للفرق بين الكبر الذى يبغضه الله ، والجمال الذى يحبـه الله(١) ، فقال : «لايدخل الجنة من [كان فى](٢) قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : يارسول الله : الرجل يحب أن [يكون](٣) ثوبه حسنا ونعله(٤) حسنا ، أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : لا ، إن الله جميل يحب الجمال ، [الكبر](٥) بطر(٦) الحق وغمط الناس»(٧). فأخبر أن تحسين الثوب قد يكون من الجمال الذى يحبه الله ، كما قال تعالى : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [سورة الأعراف : ٣١] ، فلا يكون حينئذ من الكبر .

---

(١) فى الأصل : الذى لا يحبه الله ، وهو خطأ .

(٢) كان فيه : زدتها ليستقيم الكلام ، وهى عبارة موجودة فى الحديث .

(٣) يكون : زدتها ليستقيم الكلام ، وهى كلمة من الحديث .

(٤) فى الأصل : وفعله ، وهو تحريف . والذى أثبته هو لفظ الحديث .

(٥) كلمة «الكبر» : زدتها ليستقيم الكلام ، وهى من الحديث .

(٦) فى الأصل : نظر ، وهو تحريف .

(٧) مضى الحديث من قبل .

وقد يُرَدُّ أنه [ليس] كل ثوب[1] جميلٍ وكل نعل[2] جميل فإن[3] الله يحبه ، فإن الله يبغض لباس الحرير ويبغض الإسراف والخيلاء فى اللباس ، وإن كان فيه جمال ، فإذا كان هذا فى لبس الثياب ، الذى هو سبب هذا القول ، فكيف فى غيره ؟

وتفسير هذا قوله صلى الله عليه وسلم : «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[4] .

فعُلم أن مجرد الجمال الظاهر فى الصور والثياب لاينظر الله إليه ، وإنما ينظر إلى القلوب / والأعمال ، فإن كان الظاهر مزيَّناً مجمَّلاً بحال الباطن أحبه الله ، وإن كان مقبَّحا مدنَّساً بقبح الباطن أبغضه الله، فإنه سبحانه يحب الحسن الجميل ، ويبغض السيىء الفاحش . ظ ٩١

وأهل جمال الصورة يبتلون بالفاحشة كثيراً ، واسمها ضد الجمال ، فإن الله سماه فاحشة وسوءاً وفساداً وخبيثاً ، فقال تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [سورة الإسراء : ٣٢] .

وقال : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [سورة الأنعام : ١٥١] .

وقال : ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأعراف : ٨٠] .

---

(١) فى الأصل : أن كل ثوب .. الخ . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : وكل فعل ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : فإنه .

(٤) مضى هذا الحديث من قبل .

وقال : ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [سورة هود : ٧٨] .

وقال : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٧٤] .

وقال : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٣٠] .

وقال : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ٨٤] .

والفاحش والخبيث ضد الطيب والجميل ، فإذا كان كذلك أبغضه الله ولم يحبه ، ولم يكن مندرجا فى الجميل .

ونظير ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : «إن الله لايحب الفحش ولا التفحش» (١) . وقوله : «إن الله يبغض الفاحش البذئ» (٢) ، فلو أفحش

(١) وردت هذه العبارة فى حديثين مختلفين ، أحدهما عن عائشة رضى الله عنها فى : مسلم ٤/ ١٧٠٧ (كتاب السلام ، باب النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يُرد عليهم) . ومن الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : «مه يا عائشة فإن الله لا يحب الفحش... والحديث الثانى فى : المسند (ط. المعارف) ٢٥١/٩-٢٥٢ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الظلم ظلمات يوم القيامة ، وإياكم والفحش ، فإن الله لايحب الفحش ولا التفحش .. الحديث . وفى : سنن الترمذى ٢٢٥/٣-٢٢٦ (كتاب البر والصلة ، باب ما جاء فى التفحش) عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خياركم أحاسنكم أخلاقا ، ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا» . وقال الترمذى : «هذا حديث حسن صحيح» .

(٢) الحديث عن أبى الدرداء رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٢٤٤/٣ (كتاب البر والصلة ، باب ما جاء فى حسن الخلق) ونصه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «ما شئ أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، فإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذئ» . قال الترمذى : «وفى الباب عن عائشة وأبى هريرة وأنس وأسامة بن شريك . هذا حديث حسن صحيح» .

الرجل وبذأ بصوته الحسن كان الله يبغض ذلك .

ونفى المخنَّثين سنة من [سنن] [(١)] النبى صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه فى موضعين : فى حق الزانى والزانية اللذين [(٢)] لم يحصنا ، كما قال : «جلد مائةٍ وتغريب عام» [(٣)] ، وفى حق المخنَّث وهو إخراجه من بين الناس [(٤)] ، وذلك أن الفاحشة لاتقع إلا مع قدرة ومكنة الإنسان ، لا يطلب ذلك إلا إذا طمع فيه بما يراه من أسباب المكنة ، فمن العقوبة على ذلك قطع أسباب المكنة . فإذا تغرَّب الرجل عن أهله وأعوانه وأنصاره الذين يعاونونه وينصرونه ذلَّت نفسه وانقهرت ، فكان ذلك جزاءً [(٥)] نكالا من الله من الجَلْد ، ولأنه مفسد لأحوال من يساكنه فيُبعَد عنهم ، وكذلك المخنَّث يفسد أحوال الرجال والنساء جميعا ، فلا يسكن مع واحد من الصنفين .

وقد كان [من] [(٦)] سنة النبى صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه التميز بين الرجال والنساء والمتأهِّلين والعزَّاب ، فكان [(٧)] [المندوب] فى الصلاة [أن يكون] الرجال فى مقدم المسجد [والنساء] فى مؤخره [٧] .

---

(١) سنن : زدتها ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : التى ، وهو خطأ .

(٣) الحديث بهذا اللفظ عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى رضى الله عنهما فى : البخارى ٨/١٧٠-١٧١ (كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة ، باب البكران يجلدان وينفيان ، باب من أمر غير الإمام بإقامة الحد نائبا عنه) ؛ مسلم ٣/١٣٢٤-١٣٢٥ (كتاب الحدود ، باب من اعترف على نفسه بالزنى) . والحديث بمعناه عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم فى مواضع أخرى فى البخارى ومسلم وسنن أبى داود وسنن الترمذى والنسائى وابن ماجة والدارمى وفى الموطأ والمسند .

(٤) مضى الحديث من قبل بهذا المعنى .

(٥) فى الأصل : حراماك (غير منقوطة) ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) من : زدتها ليستقيم الكلام .

(٧-٧) الكلام بين الأقواس المعقوفة فى هذه العبارات زدته على الأصل ليتضح المقصود .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «خير صفوف الرجال أولها ، وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها ، وشرها أولها»[(١)] . وقال «يامعشر النساء لاترفعن رؤوسكن حتى يرفع الرجال رؤوسهن من ضيق الأُزُر»[(٢)] وكان إذا سلَّم لبث هنيهةً[(٣)] هو والرجال لينصرف النساء أولاً ، لئلا يختلط الرجال والنساء . وكذلك يوم العيد كان النساء يصلين [فى][(٤)] ناحية ، فكان إذا قضى الصلاة خطب الرجال ، ثم ذهب فخطب النساء ، فوعظهن وحثَّهن على الصدقة ، كما ثبت ذلك فى الصحيح[(٥)] . وقد كان عمر بن الخطاب – وبعضهم يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم – قد قال [عن][(٦)] أحد أبواب المسجد ، أظنه الباب الشرقى : لو تركنا هذا الباب للنساء ، فما دخله عبد الله بن عمر حتى مات .

وفى السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال للنساء : «لا تَحْقُقْنَ

---

(١) سبق الحديث (ص ٣١٥) .

(٢) الحديث عن سهل بن سعد رضى الله عنه فى : مسلم ٣٢٦/١ (كتاب الصلاة ، باب تسوية الصفوف وإقامتها ...) ، ونصه : عن سهل بن سعد قال : لقد رأيت الرجال عاقدى أزرهم فى أعناقهم مثل الصبيان من ضيق الأُزُر خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال قائل : يامعشر النساء لاترفعن رؤوسكن حتى يرفع الرجال » .

وهو جزء من حديث طويل عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه فى : المسند (ط. الحلبى) ٣/٣ وأوله : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألا أدلكم على ما يكفِّر الله به الخطايا ... ومنه : يامعشر النساء إذا سجد الرجال فاغضضن أبصاركن لا ترين عورات الرجال من ضيق الأُزُر .

(٣) فى الأصل : هنية ، وهو تحريف .

(٤) فى : زدتها للإيضاح .

(٥) الخبر جاء فى حديث متفق عليه عن صلاة العيد عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى : البخارى ٢١/٢–٢٢ (كتاب صلاة العيدين ، باب موعظة الإمام النساء يوم العيد) . وأوله : قام النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفطر فصلى فبدأ بالصلاة ثم خطب ..الحديث . وهو فى : مسلم ٦٠٣/٢ (كتاب صلاة العيدين ، أول الكتاب) . وأورد مسلم حديثين آخرين عن ابن عباس رضى الله عنهما فى الموضوع فى نفس موضع الحديث السابق .

(٦) عن : زدتها ليستقيم الكلام .

الطريق ، وامشين فى حافته»[١] أى لاتمشين فى حُقِّ الطريق [٢] ، وهو وسطه . وقال على عليه السلام : ما يغار أحدكم أن يزاحم امرأته العلوج بمنكبها ؟[٣] يعنى فى السوق .

وكذلك لما قدم المهاجرون المدينة / كان العزّاب ينزلون دارا معروفة [٤] لهم متميزة عن دور المتأهلين ، فلاينزل العزب بين المتأهلين . وهذا كله لأن اختلاط أحد الصنفين بالآخر سبب الفتنة ، فالرجال إذا اختلطوا بالنساء كان بمنزلة اختلاط النار والحطب ، وكذلك العزب بين الآهلين فيه فتنة لعدم مايمنعه ، فإن الفتنة تكون لوجود المقتضى وعدم المانع ، فالمخنَّث الذى ليس رجلا محضا ولاهو امرأة محصنة – لايمكن خلطه بواحد من الفريقين ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بإخراجه من بين الناس . ظ ٩٢

وعلى هذا المخنَّث من الصبيان وغيرهم لا يُمَكَّن من معاشرة الرجال ، ولاينبغى أن تعاشر المرأة المتشبهة بالرجال النساء[٥] ، بل يُفَرَّق بين بعض الذكران وبين بعض النساء إذا خيفت الفتنة ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : «مروهم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرِّقوا بينهم فى

---

(١) الحديث مع اختلاف فى الألفاظ عن أبى أسيد الأنصارى رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٤/٤٩٨ (كتاب الأدب ، باب فى مشى النساء فى الطريق) .

(٢) فى الأصل : فى حافة الطريق ، وهو خطأ . وفى «النهاية فى غريب الحديث» لابن الأثير الجزرى ١/٢٤٤ : «ليس للنساء أن يَحْقُقن الطريق ، هو أن يركبن حُقَّها وهو وسطها» .

(٣) هذا الأثر ورد – مع اختلاف فى الألفاظ – عن على بن أبى طالب رضى الله عنه فى المسند (ط. المعارف) ٢/٣٥٤–٣٥٥ .

(٤) فى الأصل : معرفة ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : أن يعاشر المرأة المتشبه بالرجال للنساء ، وهو تحريف .

المضاجع»[١] .

وقد نُهى عن مباشرة الرجل الرجل فى ثوب واحد ، وعن مباشرة المرأة المرأة فى ثوب واحد ، مع أن القوم لم يكونوا يعرفون التلوط ولا السحاق ، وإنما هو من تمام حفظ حدود الله ، كما أمر الله بذلك فى كتابه . وقد روى أن عمر بلغه أن رجلا يجتمع إليه [نفر][٢] من الصبيان فنهى عن ذلك .

وأبلغ من ذلك أنه نفى من شبَّب به النساء ، وهو نصر بن حجاج ، لما سمع امرأة شبَّبت به وتشتهيه ، ورأى هذا سبب الفتنة ، فجز شعره ، لعل سبب الفتنة يزول بذلك ، فرآه أحسن الناس وجنتين[٣] ، فأرسل به إلى البصرة ، ثم إنه بعث يطلب القدوم إلى وطنه ويذكر ألا ذنب [له][٤] ، فأبى عليه وقال : أما وأنا حىّ فلا[٥] .

ص ٩٣ وذلك أن المرأة إذا أمرت بالاحتجاب وترك التبرج / وغير ذلك مما هو من أسباب الفتنة بها ولها ، فإذا كان فى الرجال من قد صار فتنة للنساء أُمر أيضا بمباعدة سبب الفتنة ، إما بتغيير هيئته[٦] ، وإما بالانتقال عن المكان الذى تحصل به الفتنة فيه ، لأنه بهذا يحصِّن دينه ، ويحصِّن النساء دينهن ،

(١) الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده فى سنن أبى داود ١٩٣/١ (كتاب الصلاة ، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة) ؛ المسند (ط. المعارف) ٢١٧/١٠-٢١٨ (وانظر تعليق المحقق على الحديث) .

(٢) نفر : زدتها ليستقيم الكلام .

(٣) وجنتين : كذا فى الأصل . والذى فى خبر نصر بن حجاج : أحسن الناس وجهاً .

(٤) له : زدتها ليستقيم الكلام .

(٥) ذكر ابن الجوزى خبر نصر بن حجاج فى كتابه «سيرة عمر بن الخطاب» ص٧٤-٧٦ ، وأورد الخبر الأستاذان عمر وناجى الطنطاوى فى كتابهما «أخبار عمر» ص ٤٢٩-٤٣١ ، وذكرا فى تعليقهما المراجع التى أوردت الخبر .

(٦) فى الأصل كأنها : حلينه . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

وبدون ذلك مع وجود المقتضى منه ومنهن لايؤمن ذلك ، وهكذا يؤمر من يفتن النساء من الصبيان أيضا .

وذلك أنه إذا احتيج [١] إلى المباعدة التى تزيل الفتنة كان تَبعيد الواحد أيسر[٢] من تبعيد الجماعة : الرجال أو النساء ، إذ ذاك غير ممكن ، فتُحفظ حدود الله ، ويُجَانَب ما يوجب تعدى[٣] الحدود بحسب الإمكان ، وإذا كان هذا فيمن لاريبة فيه ولاذنب فكيف بمن يعرف بالريبة والذنب ؟.

وهكذا المرأة التى تعرف بريبة تفتن بها الرجال تبعد عن مواضع الريب بحسب الإمكان ، فإن دفع الضرر عن الدين بحسب الإمكان واجب ، فإذا كان هذا هو السنة فكيف بمن يكون فى جمعه من أسباب الفتنة ما الله به عليم ، والرجل الذى يتشبَّه بالنساء فى زيِّهن !؟

واستعمال أسماء الجمال والحسن والزينة ونحو ذلك فى الأعمال الصالحة ، والقبح والشين والدنس فى الأعمال الفاسدة ، أمر ظاهر فى الكتاب والسنة وكلام العلماء ، مثل اسم الطيب والطهارة ، والخبث والنجاسة ، ومن ذلك ما فى حديث أبى ذر المشهور ، وقد رواه أبو حاتم بن حبَّان فى صحيحه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من حكمة آل داود : حق على العاقل أن يكون له ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يكون فيها مع أصحابه الذين يخبرونه عن ذات نفسه ،

---

(١) فى الأصل : احتج ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : يسر ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : تحدى . ولعل الصواب ما أثبته .

ظ ٩٣ وساعة يخلو فيها بلذته فيما يحلُّ ويجمل»[١] ،/ فذكر الحلَّ والجمال .

وهذا يشهد لقول الفقهاء فى العدالة إنها صلاح الدين والمروءة . قالوا : والمروءة استعمال ما يجمّله ويزينه ، وتجنب ما يدنّسه ويشينه ، وهذا يرجع إلى الحسن والقبح فى الأعمال ، وأن الأعمال تكون حسنة وتكون قبيحة ، وإن كان الحسن هو الملائم النافع ، والقبيح هو المنافى . فالشئ يكمل ويجمل ويحسن بما يناسبه ويلائمه ، وينفعه ويلتذ به ، كما يفسد ويقبح بما ينافيه ويضره ويتألم به ، والأعمال[٢] الصالحة هى التى تناسب الإنسان ، والأعمال الفاسدة هى التى تنافيه .

ولهذا لما قال بعض الأعراب : إن مدحى زَيْن وذمى شَيْن ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : ذاك [الله][٣] ، فمدحه يزين عنده لأنه مدحه بحق ، وذمه يشينه لأنه حق .

وهذا الحسن والجمال الذى يكون عن الأعمال الصالحة فى القلب يسرى إلى الوجه ، والقبح والشين الذى يكون عن الأعمال الفاسدة فى القلب

---

(١) بحثت عن الحديث فى الجزء الأول المطبوع من «صحيح ابن حبان» (بتحقيق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله) فلم أجده ، كما لم أتمكن من العثور عليه فى سائر المراجع .

(٢) فى الأصل : الأعمال .

(٣) زدت كلمة «الله» ليستقيم الكلام ، وهى جزء من الحديث . والحديث عن البراء بن عازب رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٥/٦٣ (كتاب تفسير القرآن ، باب سورة الحجرات) وأوله : «قام رجل فقال : يارسول الله إن حمدى زين وإن ذمى شين . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ذاك الله عز وجل» قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب .

وفى المسند (ط. الحلبى) ٣/٤٨٨ الحديث عن الأقرع بن حابس رضى الله عنه وفيه أنه هو الذى خاطب النبى صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات . وجاء الحديث مرة أخرى فى المسند (ط. الحلبى) ٦/٣٩٣ . وفى المسند فى الموضعين فى آخر الحديثين : «كما حدث أبو سلمة» .

يسرى إلى الوجه ، كما تقدم . ثم إن ذلك يقوى بقوة الأعمال الصالحة والأعمال الفاسدة ، فكلما كثر البر[١] والتقوى قوى الحسن والجمال ، وكلما قوى الإثم والعدوان قوى القبح والشين ، حتى ينسخ ذلك ما كان للصورة من حسن وقبح . فكم ممن لم تكن صورته حسنة ، ولكن من الأعمال الصالحة ما عظم به جماله وبهاؤه ، حتى ظهر ذلك على صورته .

ولهذا يظهر[٢] ذلك ظهورا بينا عند الإصرار[٣] على القبائح فى آخر العمر عند قرب[٤] الموت ، فنرى وجوه أهل السنة والطاعة كلما كبروا ازداد / حسنها وبهاؤها ، حتى يكون أحدهم فى كبره أحسن وأجمل منه فى صغره ، ونجد وجوه أهل البدعة والمعصية كلما كبروا عظم قبحها وشينها ، حتى لا يستطيع النظر إليها من كان منبهراً بها[٥] فى حال الصغر لجمال صورتها .

ص٩٤

وهذا ظاهر لكل أحد فيمن يعظم بدعته وفجوره ، مثل الرافضة وأهل المظالم والفواحش ، من الترك ونحوهم ، فإن الرافضى كلما كبر قَبُحَ وجهه وعظم شينه ، حتى يقوى شبهه بالخنزير ، وربما مُسِخ خنزيرا وقرداً ، كما قد تواتر ذلك عنهم . ونجد المردان من الترك ونحوهم قد يكون [أحدهم][٦] فى صغره من أحسن الناس صورة ، ثم إن الذين يكثرون الفاحشة تجدهم فى

---

(١) فى الأصل : أكبر ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : نظر ، وهو تحريف

(٣) فى الأصل : الاضرار ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : قريب ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : منهاً فيها ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) كلمة «أحدهم» زدتها ليستقيم الكلام .

الكبر أقبح الناس وجوهاً ، حتى إن الصنف[١] الذى يكثر ذلك فيهم ، من الترك ونحوهم ، يكون أحدهم أحسن الناس صورة فى صغره ، وأقبح الناس صورة فى كبره ، وليس سبب ذلك أمراً يعود إلى طبيعة الجسم ، بل العادة المستقيمة تناسب الأمر فى ذلك ، بل سببه مايغلب على أحدهم من الفاحشة والظلم ، فيكون مخنَّثاً ولوطيا وظالما وعونا للظلمة ، فيكسوه ذلك قبح الوجه وشينه .

ومن هذا أن الذين قَوِىَ فيهم العدوان مسخهم الله قردة وخنازير من الأمم المتقدمة . وقد ثبت فى الصحيح أنه سيكون فى هذه الأمة أيضا من يُمسخ قردة وخنازير[٢] ، فإن العقوبات والمثوبات من جنس السيئات والحسنات ، كما قد بُيِّن ذلك فى غير موضع .

ولاريب أن ما ليس محبوبا لله ، من مسخوطاته وغيرها ، تُزَيَّن فى نفوس كثير من الناس حتى يروها جميلة وحسنة ، يجدون فيها من اللذات ما يؤيد ذلك ، وإن كانت اللذات متضمنة لآلام أعظم منها .

ظ ٩٤ كما قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٤] .

وقال : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [سورة فاطر : ٨] .

(١) فى الأصل : الضيف ، وهو تحريف .

(٢) فى صحيح البخارى ١٠٦/٧ (كتاب الأشربة ، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه) .. حدثنى أبو عامر – أو أبو مالك الأشعرى – والله ما كذبنى : سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : ليكونن من أمتى أقوام يستحلون الحر والحرير.... الحديث وفيه : ويَمْسَخُ آخرين قردةً وخنازير إلى يوم القيامة .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [سورة غافر : ٣٧] .

وقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ١٠٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ [سورة الأنفال : ٤٨] .

وقد قال سبحانه عن المؤمنين : ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [سورة الحجرات :٧] .

فهو سبحانه يزيّن لكل عامل عمله فيراه حسنا ، وإن كان ذلك العمل سيئا ، فإنه لولا يراه حسنا لم يفعله ، إذ لو رآه سيئا لم يرده ولم يختره ، إذ الإنسان مجبول على محبة الحسن وبغض السيىء ، فالحسن الجميل محبوب مراد ، والسيىء القبيح مكروه مبغض ، والأعيان والأفعال المبغضة من كل وجه لا تُقصد بحال ، كما أن المحبوبة من كل وجه لا تترك بحال[1] . ولكن قد يكون الشيء محبوبا من وجه مكروها من وجه ، ويقبح من وجه [ويحسن من وجه][2] ، ولهذا كان الزانى لا يزنى حين يزنى وهو مؤمن ، والسارق لايسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن[3] كامل الإيمان ، فإنه لو كان اعتقاده بقبح ذلك الفعل اعتقاداً تاماً

(١) فى الأصل : كما أن المحبوبة فى كل وجه ولايترل بحال ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) عبارة «ويحسن من وجه» : زدتها ليستقيم الكلام .

(٣) الحديث عن أبي هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ١٣٦/٣ (كتاب المظالم ، باب النهى بغير إذن =

لم يفعله بحال ، ولهذا كان [كل] (١) عاصٍ لله تعالى جاهلاً ، كما قال ذلك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه لو كان عالما حق العلم بما فعله ، لم يفعل القبيح ، ولم يترك الواجب ، / بل قد زُيِّن لكل أمة عملهم. ص ٩٥

لكن العاصى إذا كان معه أصل الإيمان ، فإنه لايُزَيَّن له عمله من كل وجه ، بل يستحسنه (٢) من وجه ، ويبغضه من وجه (٣) ، ولكن حين فعله يغلب تزيين الفعل. ولذلك (٤) قال : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ...﴾ [سورة آل عمران : ١٤] الآية ، فإن هنا شيئين : حب الشهوات ، وأنه زُيِّن ذلك الفحش وحُسِّن ، فرأَوْا تلك المحبة حسنة ، فلذلك استقرت هذه المحبة عندهم ، وتمتعوا بهذه المحبات ، فإذا رأوا ذلك الحب قبيحاً لما يتبعه (٥) من الضرر ، لم يستقر ذلك فى قلوبهم ، فإن رؤية ذلك الحب حسناً يدعو إليه قبيحاً ينفِّر عنه.

وكذلك ذكر فى الإيمان أنه حبَّبه إلى المؤمنين وزيَّنه فى قلوبهم حتى رأوه حسناً ، فإن الشئ إذا حُبِّب وزُيِّن لم يترك بحال.

= صاحبه) ، ٧ / ١٠٤ (كتاب الأشربة ، باب إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان) ، ١٥٧/٨ (كتاب الحدود ، باب لايشرب الخمر) ؛ مسلم ٧٦/١ (كتاب الإيمان ، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفى كماله) ؛ سنن أبى داود ٣٠٦/٤ (كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه) ؛ سنن الترمذى (ط. المدينة المنورة) ١٢٧/٤ (كتاب الإيمان ، باب لايزنى الزانى وهو مؤمن) وقال الترمذى : حديث أبى هريرة حديث حسن غريب صحيح من هذا الوجه ؛ سنن ابن ماجة ١٢٩٨/٢-١٢٩٩ (كتاب الفتن ، باب النهى عن النهبة) ؛ سنن الدارمى ١١٥/٢ (كتاب الأشربة ، باب فى التغليظ لمن شرب الخمر) ؛ المسند (ط. المعارف) ٤١/١٣.

(١) كل : زدتها ليستقيم الكلام.

(٢) فى الأصل : يستحفنه ، وهو تحريف.

(٣) فى الأصل : من كل وجه ، وهو خطأ.

(٤) فى الأصل : وكذلك ، وهو تحريف.

(٥) فى الأصل : يتبعضه ، وهو تحريف ، ولعل الصواب ما أثبته.

وهنا أخبر سبحانه أنه هو الذى حبَّب إليهم الإيمان وزيَّنه فى قلوبهم ، وفى الشهوات قال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٤] ، ولم يقل المُزَيِّن بل ذكر العموم .

[وقال تعالى] :[1] ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [سورة الأنعام : ١٠٨] ، وكما حذف المزيِّن هناك قال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٤] فجعل المزيِّن نفس الحب لها ، لم يجعل المزين هو المحبوب ، كما أخبر أنه زين لكل أمة عملها ، فإن المزيِّن نفس الحب لها ، لم يجعل المزيِّن هو المحبوب [بل هو][2] حب الشهوات ، فإن المزيِّن إذا كان نفس الحب والعمل لم ينصرف القلب عن ذلك ، بخلاف ما لو كان المزيِّن هو المحبوب ، فقد يُزَيَّن الشئ المحبوب ، ولكن الإنسان لا يحبه لما يقوم بقلبه من العلم[3] بحاله والبغض .

ففرَّق بين التزيين المتصل[4] بالقلب ، وتزيين الشئ المنفصل عنه . فيه رد على القدرية الذين يجعلون التزيين المنفصل ، وكذلك قوله : ﴿ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ [سورة فاطر : ٨] ، وهو سبحانه امتنَّ فى الإيمان بشيئين : بأنه حبَّبه إلينا ، وزيَّنه فى قلوبنا . فالنعم تم بهما : بالعلم ، والمحبة .

/ وقد ثبت فى الصحيح من غير وجه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ظ ٩٥

(١) زدت عبارة : «وقال تعالى» ليستقيم الكلام .

(٢) زدت عبارة : «بل هو» ليستقيم الكلام

(٣) فى الأصل كتب : بقلبه من الشىء وبعدها ثلاث كلمات عليها شطب ثم كتب : من العلم... والظاهر أن الناسخ نسى أن يشطب كلمة «الشئ» لعدم مناسبتها لسياق الكلام .

(٤) فى الأصل «المنفصل» وهو خطأ ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

لعن المخنَّثين من الرجال والمترجلات من النساء . وفى الصحيح أيضا أنه لعن المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال . وفى الصحيح أنه أمر بنفى المخنثين وإخراجهم من البيوت .

كما روى البخارى فى صحيحه عن عكرمة عن ابن عباس قال : لعن النبى صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال [١] .

وفى رواية : لعن النبى صلى الله عليه وسلم المخنَّثين من الرجال والمسترجلات [٢] من النساء ، وقال : أخرجوهم من بيوتكم . فأخرج النبى صلى الله عليه وسلم فلانة [٣] وأخرج عمر فلاناً [٤] .

فإذا كان الرجل الذى يتشبَّه بالنساء فى لباسهن وزيِّهن وزينتهن ملعوناً [٥] ، قد لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف بمن يتشبَّه بهن فى مباشرة الرجال له فيما يتمتع الرجال به [٦] بتمكينه من ذلك لغرض يأخذه أو لمحبته لذلك ؟ فكلما كثرت مشابهته لهن كان أعظم للعنه ، وكان معلونا من وجهين : من جهة الفاحشة المحرَّمة ، فإنه يُلعن على ذلك ولو كان هو الفاعل . ومن جهة تخنُّثه لكونه من جنس المفعول بهن .

---

(١) الحديث عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى : البخارى ١٥٩/٧ (كتاب اللباس ، باب المتشبِّهين بالنساء والمتشبِّهات بالرجال) .

(٢) فى الأصل : والمترجلات ، والذى أثبته هو لفظ البخارى .

(٣) فلانة : هذه رواية للبخارى . ورواية الأصل : فلانا .

(٤) سبق الكلام عن الحديث فيما مضى (ص ٣٢٠) . ورواية البخارى المشار إليها هنا هى فى ١٥٩/٧ (كتاب اللباس ، باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت) .

(٥) فى الأصل : ملعون ، وهو خطأ .

(٦) فى الأصل : له ، وهو تحريف .

فمن جعل شيئا من التخنّث دينا ، أو طلب ذلك من الصبيان ، مثل تحسين الصبي : صورته أو لباسه لأجل نظر الرجال ، واستمتاعهم بذلك في سماع وغير سماع ، أليس يكون مبدِّلا لدين الله ، من جنس الذين إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله مالا تعلمون !؟ وإذا كانت فاحشة العرب المشركين كشف عوراتهم عند الطواف ، لئلا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها ، / فكيف بما هو أعظم من ذلك !؟ ص ٩٦

والمخنَّث قد يكون مقصوده معاشرة النساء ومباشرتهن ، وقد يكون تخنثه بمباشرة الرجال ونظرهم ومحبتهم ، وقد يجمع الأمرين ، وفي المتنسِّكين من الأقسام الثلاثة خلق كثير.

وهؤلاء شر ممن يفعل هذه الأمور على غير وجه التدين ، فإنه يوجد في الأمم الجاهلية من الترك ونحوهم من يتشبَّه فيهم من النساء بالرجال ، ومن يتشبه من الرجال بالنساء خلق عظيم ، حتى يكون لنسائهم من الإمرة والملك والطاعة والبروز للناس وغير ذلك مما هو من خصائص الرجال ما ليس لنساء غيرهم ، وحتى أن المرأة تختار لنفسها من شاءت من مماليكها وغيرهم لقهرها للزوج وحكمها ، ويكون في كثير من صبيانهم من التخنث وتقريب الرجال له وإكرامه لذلك أمر عظيم ، حتى قد يغار بعض صبيانهم من النساء ، وحتى يتخذهم الرجال كالسراري ، لكن هم لايفعلون ذلك تدينا ، فالذين يفعلون ذلك تدينا شرٌّ منهم ، فإنهم جعلوا الفجور دينا ، والفاحشة حسنة ، [لا][1] لما في ذلك من ميل الطباع . فهكذا من جعل

(١) لا : زدتها ليستقيم الكلام .

مجرد الصوت الذى تحبه الطباع حسنا فى الدين فيه شبه من هؤلاء ، لكن فى المشركين من هذه الأمة من يتدين بذلك لأجل الشياطين ، كما يوجد فى المشركين من الترك التتار وساحرهم الطاغوت صاحب الجِبت[١] الذى تسميه الترك البوق[٢] ، وهو الذى تستخفه الشياطين وتخاطبه[٣] ، ويسألها عما يريد ، ويقرِّب لها القرابين من الغنم المنخنقة وغير ذلك ، ويضرب لها بأصوات الطبول ونحو ذلك ، ومن شرطه أن يكون مخنَّثا ، يؤتى كما تؤتى المرأة ، فكلما كانت الأفعال أَوْلى بالتحريم كانت أقرب إلى الشياطين .

وهذا الذى ذكرناه من أن الحَسَن الصورة والصوت ، وسائر من أنعم الله عليه بقوة أو بجمال أو نحو ذلك ، إذا اتّقى الله فيه كان أفضل ممن لم يؤت ما لم يمتحن فيه – فإن النعم محن – فإن أهل الشهوات من النساء والرجال يميلون إلى ذى الصورة الحسنة ، / ويحبونه ويعشقونه ، ويرغِّبونه بأنواع الكرامات ، ويرهِّبونه عند الامتناع بأنواع المخوِّفات ، كما جرى ليوسف عليه السلام وغيره . وكذلك جماله يدعوه إلى أن يطلب ما يهواه ، لأن جماله قد يكون أعظم من المال المبذول فى ذلك . ظ ٩٦

وكذلك حَسَن الصوت قد يُدعى إلى أعمال فى المكروهات ، كما أن

(١) فى الأصل : الجنب ، وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) البوق : كذا فى الأصل . وجاء الخبر فى : «رسالة فى الجواب عن سؤال عن الحلاج هل كان صدّيقا أو زنديقا» التى نشرتها فى المجموعة الأولى من «جامع الرسائل» ص ١٩٣ ونص الخبر فيها : «يقال لأحدهم : البوشى أبى المجيب» . وفى نشرة مجموع الرياض ١١٢/٣٥ : «يقال لأحدهم «البوى» أى المخبث» . والكلمة أعجمية تركية وأما ما بعدها فالأرجح أن يكون : «أى المخنَّث» .

(٣) فى الأصل : يستخفه الشياطين ويخاطبه .

المال والسلطان يحصل بهما من المكنة ما يُدعى مع ذلك إلى أنواع الفواحش والمظالم ، فإن الإنسان لا تأمره نفسه بالفعل إلا مع نوع من القدرة ، ولا يفعل بقدرته إلا ما يريده ، وشهوات الغيّ مستكنّة فى النفوس ، فإذا حصلت القدرة قامت المحنة ، فإما شقى وإما سعيد ، ويتوب الله على من تاب ، فأهل الامتحان إما أن يرتفعوا وإما أن ينخفضوا . وأما تحرّك النفوس عن مجرد الصوت ، فهذا أيضا محسوس ، فإنه يحركها تحريكا عظيما جدا بالتفريح والتحزين ، والإغضاب والتخويف ، ونحو ذلك من الحركات النفسانية ، كما أن النفوس تتحرك أيضا عن الصور بالمحبة تارةً وبالبغض أخرى ، وتتحرك عن الأطعمة بالبغض تارة والنفرة أخرى ، فتحرك الصبيان والبهائم عن الصوت هو من ذلك ، لكن كل ما كان أضعف كانت الحركة به أشد ، فحركة النساء به أشد من حركة الرجال ، وحركة الصبيان أشد من حركة البالغين ، وحركة [البهائم][1] أشد من حركة الآدميين ، فهذا يدل على أن قوة التحرّك عن مجرد الصوت لقوة ضعف العقل ، فلا يكون فى ذلك حمد إلا وفيه من الذم أكثر من ذلك ، وإنما حركة العقلاء عن الصوت المشتمل على الحروف المؤلَّفة المتضمنة للمعانى المحبوبة ، وهذا أكمل ما يكون فى استماع القرآن .

وأما التحرك بمجرد الصوت ، فهذا أمر لم يأت الشرع بالندب إليه ، ولا عقلاء الناس يأمرون بذلك ، بل يعدُّون ذلك من قلة العقل ، وضعف

---

(١) مكان كلمة «البهائم» بياض فى الأصل ، وأرجو أن يكون إثباتها هو الصواب .

ص ٩٧ الرأى ، كالذى يفزع[١] عن مجرد الأصوات / المفزعة المرعبة[٢] ، وعن مجرد الأصوات المغضبة .

قال أبو القاسم[٣] : « وقال النبى صلى الله عليه وسلم[٤] : « ما أذِن الله[٥] لشئ كأَذَنِه [لنبى][٦] يتغنى بالقرآن»[٧] . وروى حديث أبى هريرة قال[٨] : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما أذن الله[٩] لشئ ما أذن الله لنبى يتغنى بالقرآن» .

قال[١٠] : «وقيل : إن داود عليه السلام كان يستمع لقراءته الجن والإنس ، والوحش والطير[١١] إذا قرأ الزبور ، وكان يُحمل من مجلسه أربعمائة جنازة ممن قد مات ممن سمعوا قراءته . وقال النبى صلى الله عليه وسلم[١٢] لأبى موسى الأشعرى : «لقد أُعطى مزماراً من مزامير آل داود»[١٣] ، وقال

(١) فى الأصل : يبرع ، ولعل الصواب ما أثبته .
(٢) فى الأصل : المرعة .
(٣) فى «القشيرية» ٦٤٢/٢ بعد كلامه السابق إيراده مباشرة .
(٤) القشيرية : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .
(٥) القشيرية : الله تعالى .
(٦) لنبى : ساقطة من الأصل ، وهى فى «القشيرية» .
(٧) مضى هذا الحديث من قبل .
(٨) فى «القشيرية» جاء سند الحديث كاملا .
(٩) القشيرية : لم يأذن الله تعالى .
(١٠) فى «القشيرية» بعد الكلام السابق مباشرة .
(١١) القشيرية : والطير والوحش .
(١٢) القشيرية : وقال صلى الله عليه وسلم .
(١٣) مضى الحديث من قبل .

معاذ [١] لرسول الله صلى الله عليه وسلم : «لو علمت أنك تسمع لحبَّرته لك تحبيرا» .

قلت : هذا القول لأبي موسى كان ، لم يكن لمعاذ . ومضمون هذه الآثار استحباب تحسين الصوت بالقرآن ، وهذا مما لا نزاع فيه . فالاستدلال بذلك على تحسين الصوت بالغناء أفسد من قياس الربا على البيع ، إذ هو من باب تنظير[٢] الشعر بالقرآن .

وقال تعالى : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة يٰس : ٦٩] .

وقال تعالى : ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [سورة الشعراء : ٢١٠ - ٢١٢] ، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة الشعراء : ٢٢٥ ، ٢٢٦]

وقال تعالى : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الحاقة : ٤١ ، ٤٢] .

وهذا القياس مثل قياس سماع المكاء والتصدية - الذى ذمَّه الله فى كتابه وأخبر أنه صلاة المشركين - على سماع القرآن الذى أمر الله به فى كتابه ، وأخبر أنه سماع النبيين والمؤمنين ، وقياس لأئمة الصلاة - كالخلفاء الراشدين وسائر أئمة المؤمنين - بالمخنّثين المغانى الذين قد يسمون الجد أو القوَّالين ،

---

(١) القشيرية : معاذ بن جبل .

(٢) فى الأصل : بنظير.

وقياس للمؤذن الداعي إلى الصلاة وسماع القرآن بالمزمار الداعي إلى حركة المستمعين للمكاء والتصدية .

وقد روى الطبراني في معجمه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن الشيطان قال : يارب اجعل لى / قرآنا ، قال : قرآنك الشعر . قال : اجعل لى مؤذنا ، قال : مؤذنك المزمار . قال : اجعل لى كتابةً . قال : كتابتك الوشم . قال : اجعل لى بيتا . قال : بيتك الحمَّام . قال : اجعل لى طعاما . قال : [طعامك][1] ما لم يذكر اسم الله عليه»[2] . فمن قاس قرآن الشيطان بقرآن الله ، فالله يجازيه بما يستحقه . ظ ٩٧

وقد قال الله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [سورة مريم : ٥٩] ، فهؤلاء يشتغلون بالشهوات عن الصلاة .

ولهذا [فإن][3] من هؤلاء الشيوخ من يقصد الاجتماعات في الحمام ، ويكون له فيها حال وظهور ، لكون مادته من الشياطين ، فإن الشيطان يظهر أثره في بيته وعند أوليائه وتأذين مؤذنه وتلاوة قرآنه ، كما يظهر ذلك على أهل المكاء والتصدية .

---

(١) طعامك : ساقطة من الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام وهي من ألفاظ الحديث .

(٢) في «الجامع الكبير» للسيوطي ٦٠٢/١ : «قال إبليس لربه : يا رب اهبطت ادم وقد علمت أنه سيكون كتاب ورسل ، فما كتابهم ورسلهم ؟ قال : رسلهم : الملائكة والنبيون منهم ، وكتبهم : التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . قال : فما كتابي ؟ قال : كتابك الوشم ، وقراءتك الشعر ، ورسلك الكهنة ، وطعامك ما لا يذكر اسم الله عليه ، وشرابك كل مسكر ، وصدقك الكذب ، وبيتك الحمام ، ومصايدك النساء ، ومؤذنك المزمار ، ومسجدك الأسواق» – طب (الطبراني) عن ابن عباس .

(٣) زدت «فإن» ليستقيم الكلام .

وإذا كان السماع نوعين : سماع الرحمن ، وسماع الشيطان ، كان ما بينهما من أعظم الفرقان . لكن الأقسام هنا أربعة : إما أن يشتغل العبد بسماع الرحمٰن دون سماع الشيطان ، أو بسماع الشيطان دون سماع الرحمٰن ، أو يشتغل بالسماعين ، أو لا يشتغل بواحد منهما .

فالأول : حال السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان .

وأما الثانى : فحال المشركين الذين قال الله فيهم : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [سورة الأنفال : ٣٥] ، وهو حال من يتخذ ذلك دينا ، ولا يستمع القرآن . فإن كان يشتغل بهذا السماع شهوةً لا دينا ، ويعرض عن القرآن ، فهم الفجار والمنافقون إذا أبطنوا حال المشركين .

وأما الذين يشتغلون بالسماعين فكثير من المتصوفة .

والذين يعرضون عنهما على ما ينبغي كثير من المتعرِّبة .

فهذه النصوص المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم [التى][1] فيها مدح الصوت الحسن بالقرآن ، والترغيب فى هذا السماع ، فيُحتج بها على المعرض عن هذا السماع الشرعى الإيمانى ، لا يحتج بها على حسن السماع البدعى الشركى .

بل الراغبون فى السماعين جميعا ، والزاهدون / فى السماعين جميعا : ص ٩٨ خارجون عن محض الاستقامة والشريعة القرآنية الكاملة . هؤلاء

---

(١) التى : زدتها ليستقيم الكلام .

معتدون ، وهؤلاء مفرِّطون . وإنما الحق الرغبة فى السماع الإيمانى الشرعى ، والزهد فى السماعى الشركى البدعى .

ثم ذكر أبو القاسم[1] حكاية أبى بكر الرقِّى[2] فى الغلام الذى حدا بالجمال حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى يوم ، فلما حطَّ عنها ماتت ، وحدا بجمل فهام على وجهه وقطع حباله . قال الرقِّى[2] : ولم أظن أنى سمعت صوتا أطيب منه ووقعت لوجهى ، حتى أشار عليه بالسكوت فسكت ، فقال : حدثنا أبو حاتم السجستانى ، حدثنا أبو نصر السراج ، قال : حكى الرقى .

قلت : مضمون هذه الحكاية أن الصوت البليغ فى الحُسْنِ قد يحرِّك النفوس تحريكا عظيما خارجا عن العادة ، وهذا مما لاريب فيه ، فإن الأصوات توجب الحركات الإرادية بحسنها ، وهى فى الأصل ناشئة عن حركات إرادية ، ويختلف تأثيرها باختلاف نوع الصوت وقدره ، بل هى من أعظم المحرِّكات أو أعظمها ، وإذا اتفق قوة المؤثر واستعداد المحل قَوِىَ التأثير ، فالنفوس المستعدة لصغرٍ أو أنوثة أو جزع ونحوه ، أو لفراغ وعدم شغل[3] أو ضعف عقل : إذا اتصل بها صوت عظيم حسن قوى، أزعجها غاية الإزعاج ، لكن هذا لايدل على جواز ذلك ، ولا فيه ما يوجب مدحه وحسنه ، بل مثل هذا أدلّ على الذم والنهى منه على الحمد والمدح ، فإن هذا يفسد النفوس أكثر مما يصلحها ، ويضرها أكثر مما ينفعها ، وإن كان فيه نفع فإثمه أكثر من نفعه .

(١) الكلام التالى هو تلخيص لما فى «القشيرية» ٢/٦٤٢-٦٤٣ .

(٢) فى الأصل : الدق ، وهو تحريف . وفى القشيرية أنه : أبو بكر محمد بن داود الدينورى الرقِّى .

(٣) فى الأصل : أو لفراغ وعلم شغل .

وقد قال الله للشيطان : ﴿ واسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ [سورة الإسراء : ٦٤] ، فالصوت الشيطانى يستفز بنى آدم . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين »[١] وذكر صوت النعمة وصوت المعصية ، ووصفهما بالحمق والفجور ، وهو الظلم والجهل .

وقال لقمان لابنه : ﴿ اقْصِدْ فى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ [سورة لقمان : ١٩] ، والمغنِّى بهذه الأصوات لم يغض من صوته ، والمتحركون بها / الراقصون لم يقصدوا فى مشيهم ، بل المصوِّتون أتوا بالأحمق الجاهل الظالم الفاجر من الأصوات ، والمتحركون أتوا بالأحمق الجاهل الظالم الفاحش من الحركات ، وربما جمع الواحد بين هٰذين النوعين ، وجعل ذلك من أعظم العبادات .

ظ ٩٨

ثم قال أبو القاسم[٢] : «سمعت الشيخ أبا عبد الرحمٰن [السلمى ، سمعت][٣] محمد بن عبد الله بن عبد العزيز[٤] ، سمعت أبا عمرو الأنماطى[٥] ، سمعت الجنيد يقول : وسئل[٦] ما بال الإنسان يكون هادئاً فإذا سمع السماع اضطرب ؟ فقال : إن الله[٧] لما خاطب الذرَّ فى الميثاق الأول بقوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [سورة الأعراف : ١٧٢] ، استفرغت عذوبة سماع الكلام الأرواح ، فإذا سمعوا[٨] السماع حركهم ذكر ذلك» .

(١) مضى الحديث من قبل .
(٢) فى «القشيرية» ٢/ ٦٤٣ بعد القصة التى لخصها ابن تيمية مباشرة .
(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل وأثبته من «القشيرية» .
(٤) القشيرية :... العزيز يقول .
(٥) فى الأصل :... أبا عمر . وفى القشيرية : أبا عمرو الأنماطى يقول .
(٦) القشيرية : وقد سئل .
(٧) القشيرية : الله تعالى .
(٨) القشيرية : فلما سمعوا ..

قلت : هذا الكلام لا يعلم صحته عن الجنيد ، والجنيد أجلّ من أن يقول مثل هذا ، فإن هذا الاضطراب يكون لجميع الحيوان : ناطقه وأعجمه ، حتى يكون فى البهائم أيضا ، ويكون للكفار والمنافقين ، ثم الاضطراب قد يكون لحلاوة الصوت ومحبته ، وقد يكون للخوف منه وهيبته ، وقد يكون للحزن والجزع ، وقد يكون للغضب .

ثم من المعلوم أن الصوت المسموع ليس هو ذاك أصلا ، ولو سمع العبد كلام الله كما سمعه موسى بن عمران ، لم يكن سماعه لأصوات العباد محرّكا لذكر ذلك ، بل المأثور أن موسى مقت الآدميين لما وقر فى مسامعه من كلام الله ، ثم التلذذ بالصوت أمر طبعى لا تعلق له بكونهم سمعوا صوت الرب أصلا ، ثم إن أحدا لا يذكر ذلك السماع أصلا إلا بالإيمان ، والناس متنازعون فى أخذ الميثاق وفى ذلك السماع بما ليس هذا موضعه .

ثم إن مذهب الجنيد فى السماع كراهة التكلف لحضوره والاجتماع عليه ، وعنده أن من تكلّف السماع فُتن به فكيف يعلله بهذا ؟

وقد ذكر أبو القاسم ذلك فقال[(١)] : «سمعت محمد بن [الحسين يقول : سمعت][(٢)] الحسين[(٣)] بن أحمد بن جعفر[(٤)] : سمعت أبا بكر بن ممشاد[(٥)] : سمعت الجنيد / يقول : السماع فتنة لمن طلبه ، ترويح لمن صادفه» .

ص ٩٩

(١) فى «القشيرية» ٢/٦٤٤ ، بعد كلامه السابق بحوالى صفحة كاملة .

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل وأثبته من «القشيرية» .

(٣) القشيرية : الحسن .

(٤) القشيرية : ..جعفر يقول

(٥) القشيرية :.. ممشاد يقول .

فأخبر أنه فتنة لمن قصده ، ولم يجعله لمن صادفه مستحبا ولا طاعة ، بل جعله راحة . فكيف يقول : إنه أظهر خطاب الحق المتقدم ؟

وقال أبو القاسم[١] : «سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : السماع حرام على العوام لبقاء[٢] نفوسهم ، مباح للزهاد ، لحصول مجاهداتهم ، مستحبٌ[٣] لأصحابنا ، لحياة قلوبهم» .

قلت : قد قدَّم أبو القاسم فى ترجمة الشيخ أبى على[٤] الروذبارى ، وهو قديم توفى بعد العشرين وثلاثمائة ، صحب الجنيد والطبقة الثانية[٥] ، وكان يقول : أستاذى فى التصوف الجنيد ، وفى الفقه أبو العباس بن سُريج ، وفى الأدب ثعلب ، وفى الحديث إبراهيم الحربى . **وقال فيه أبو القاسم**[٦] : «هو[٧] أظرف المشايخ وأعلمهم بالطريقة» .

قال[٨] : «سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى [رحمه الله يقول][٩] سمعت أبا القاسم الدمشقى يقول : سئل أبو على الروذبارى عمَّن يسمع[١٠] الملاهى ويقول : هى لى حلال ، لأنى وصلت إلى درجة لايؤثر

---

(١) فى «القشيرية» ٦٤٤/٢ قبل الكلام السابق وبعد كلامه الوارد فى ص ٣٧٩ مباشرة .

(٢) فى الأصل : لبا ، وهو تحريف . والمثبت من «القشيرية» .

(٣) فى الأصل : مستحبا ، وهو خطأ .

(٤) فى الأصل : أبو على ، وهو خطأ .

(٥) سبقت ترجمة أبى على الروذبارى ، ص ١٨٠ .

(٦) فى «القشيرية» ١٥١/١ .

(٧) هو : ليست فى «القشيرية»

(٨) بعد الكلام السابق مباشرة ٦٤٤/٢ .

(٩) ما بين المعقوفتين زيادة فى «القشيرية» .

(١٠) فى الأصل : يستمع . والمثبت من «القشيرية» .

فيَّ [١] اختلاف الأحوال ، فقال : نعم ، قد وصل لعمرى [٢] ولكن إلى سقر» .

فقول الدقاق : هو مباح للزهاد لحصول مجاهداتهم – هو الذى أنكره أبو على الروذبارى ، فكيف بقوله : مستحب ؟ وسنتكلم إن شاء الله على هذا .

ثم إنه ذكر بعد هذا [٣] أنه سمع الأستاذ أبا على الدقّاق رحمه الله يقول : «السماع طبع إلا عن شرع ، وخرق إلا عن حق ، وفتنة إلا عن عبرة» . وهذا الكلام يوافق قول الروذبارى ويخالف قوله : إنه مباح للزهاد لحصول مجاهداتهم ، مستحب لأصحابنا لحياة قلوبهم . فإنه جعل كل سماع ليس بمشروع فهو عن الطبع ، ومعلوم أن سماع المكاء والتصدية ليس مشروعا [٤] ، فيكون مسموعا بالطبع مطلقا .

وقال [٥] : «سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر الصوفى [يقول :] [٦] سمعت الوجيهى [يقول :] [٦] سمعت أبا على الروذبارى يقول : كان الحارث بن أسد المحاسبى يقول : ثلاث إذا وجدن نمتع بهن ، وقد فقدناهن [٧] : حسن الوجه مع الصيانة ، / وحسن الصوت مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء» . ظ ٩٩

(١) القشيرية : لا تؤثر فى .

(٢) لعمرى : ساقطة من «القشيرية» .

(٣) فى «القشيرية» ٢/٦٤٥ .

(٤) فى الأصل : ليس مشروع ، وهو خطأ .

(٥) أى القشيرى بعد كلامه السابق مباشرة فى «القشيرية» ٢/٦٤٤ .

(٦) يقول : زيادة فى «القشيرية» .

(٧) القشيرية : مُتِّع بهن وقد فقدناها .

قلت : قد قررت قبل هذا المعنى بأن الحُسن فى الصورة والصوت إن لم يكن [مع][(١)] تقوى الله ، وإلا لم يكن إلا مذموما ، ومن الديانة أن يكون حُسن الصوت مستعملا فيما أمر الله به .

قال أبو القاسم[(٢)] : «وسئل ذو النون المصرى عن الصوت الحسن فقال : مخاطبات وإشارات أودعها الله كل طيب وطيبة . وسئل مرة أخرى عن السماع فقال : وارد حق يزعج القلوب إلى الحق ، فمن أصغى إليه بحق تحقق ، ومن أصغى إليه بنفس تزندق» .

قلت : هذا الكلام لم يسنده عن ذى النون ، وإنما أرسله إرسالا ، وما يرسله فى هذه الرسالة قد وجد كثير منه مكذوب على أصحابه ، إما أن يكون أبو القاسم سمعه من بعض الناس فاعتقد صدقه ، أو يكون من فوقه كذلك ، أو وجده مكتوبا فى بعض الكتب فاعتقد صحته ، ومن كان من المرسِلين لما يذكرونه من الأوَّلين والآخِرين يعتمد فى إرساله لصحيح النقل والرواية عن الثقات ، فهذا يُعتمد إرساله . وأما من عُرف فيما يُرسله كثيرٌ من الكذب ، لم يوثق بما يرسله .

فهذا التفصيل موجود فيمن يرسل النقول[(٣)] عن الناس من أهل المصنَّفات . ومِنْ أكثرِ الكذبِ الكذبُ على المشايخ المشهورين ، فقد رأينا من ذلك وسمعنا ما لا يحصيه إلا الله . وهذا أبو القاسم مع علمه وروايته

---

(١) زدت : «مع» ليستقيم الكلام .

(٢) بعد كلامه السابق مباشرة فى «القشيرية» ٢/٦٤٤ .

(٣) فى الأصل : البقول ، وهو تحريف .

بالإسناد ، ومع هذا ففى هذه الرسالة قطعة كبيرة من المكذوبات ، التى لاينازع فيها مَنْ له أدنى معرفة بحقيقة حال المنقول عنهم .

وأما الذى يسنده من الحكايات فى باب السماع فعامته من كتابين : كتاب «اللمع» لأبى نصر السَّراج – فإنه يروى عن أبى حاتم السجستانى عن أبى نصر عن عبد الله بن على الطوسى ، ويروى عن محمد بن أحمد بن محمد التميمى عنه – ومن كتاب «السماع» لأبى عبد الرحمن السلمى ، قد سمعه منه .

ص ١٠٠ فإن كان هذا الكلام ثابتاً عن ذى النون رحمة الله / عليه ، فالكلام عليه من وجهين : من جهة الاحتجاج بالقائل . ومن جهة تفسير المنقول .

أما الأول : فقد نقلوا أن ذا النون[1] حضر هذا السماع بالعراق .

وقد ذكر أبو القاسم حكاية بعد ذلك مرسلة **فقال**[2] : «وحكى أحمد ابن مقاتل العكّى قال : لما دخل ذو النون المصرى بغداد اجتمع إليه الصوفيه ، ومعه قوَّال يقول شيئا[3] ، فاستأذنوه بأن يقول بين يديه ، فأذن له[4] ، فابتدأ يقول :

صغيرُ هواكَ عذبنى فكيف به إذا احتنكا

(١) فى الأصل : أن ذى النون ، وهو خطأ .

(٢) فى «القشيرية» ٢/٦٤٩–٦٥٠ .

(٣) عبارة «يقول شيئا» : ساقطة من «القشيرية» .

(٤) القشيرية : بين يديه شيئا فأذن . وهذا الشعر (كما فى الأغانى ٤٥/٢٣ ط . الهيئة العامة للكتاب) لمحمد بن عبد الملك الزيات . وبعد البيت الثانى بيت آخر هو :

وحبسُ هواكَ يقتلنى وقتلى لا يحل لكا

وفى هامشه رواية أخرى : وحسن رضاك يقتلنى

وأنتَ جمعت من قلبي هوىً قد كان مشتركا
أما ترثى لمكتئبٍ إذا ضحك الخليُّ بكى

قال : فقام ذو النون وسقط على وجهه ، والدم يقطر من جبينه ولا يسقط على الأرض ، ثم قام رجل من القوم يتواجد ، فقال له ذو النون : ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [سورة الشعراء : ٢١٨] ، فجلس الرجل» .

قال [١] : «وسمعت أبا على الدقاق يقول [٢] : كان ذو النون صاحب إسراف [٣] على ذلك الرجل حيث نبَّهه أن ذلك ليس مقامه ، وكان ذلك الرجل صاحب إنصاف ، حيث قبل ذلك منه ، فرجع وقعد [٤] » .

فهذا ونحوه هو الذى أشار إليه الأئمة ، كالشافعى فى قوله : «خلَّفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة يسمونه : التغبير يصدُّون به الناس عن القرآن» . فيكون ذو النون هو أحد الذين حضروا التغبير الذى أنكره الأئمة وشيوخ السلف ، ويكون هو أحد المتأوّلين فى ذلك ، وقوله فيه كقول شيوخ الكوفة وعلمائها فى النبيذ الذين استحلُّوه مثل سفيان الثورى وشريك ابن عبد الله وأبى حنيفة ومسعر بن كدام ومحمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى وغيرهم من أهل العلم . وكقول علماء مكة وشيوخها فيما استحلُّوه من المتعة والصرف ، كقول عطاء بن أبى رباح وابن جريج وغيرهما . وكقول طائفة من شيوخ / المدينه وعلمائها فيما استحلُّوه من الحشوش . وكقول طائفة من ظ ١٠٠

(١) فى « القشيرية » بعد كلامه السابق مباشرة ٦٥٠/٢.
(٢) القشيرية : سمعت الأستاذ أبا على يقول فى هذه الحكاية .
(٣) القشيرية : إشراف .
(٤) القشيرية : فقعد .

شيوخ الشاميين وعلمائهم فيما كانوا استحلوه من القتال فى الفتنة لعلى بن أبى طالب وأصحابه . وكقول طوائف من أتباع الذين قاتلوا مع علىّ من أهل الحجاز والعراق وغيرهم فى الفتنة . إلى أمثال ذلك ممّا تنازعت فيه الأمة ، وكان فى كل شق طائفة من أهل العلم والدين .

فليس لأحد أن يحتج لأحد الطريقين بمجرد قول أصحابه ، وإن كانوا من أعظم الناس علما ودينا ، لأن المنازعين لهم هم من أهل العلم والدين .

وقد قال الله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [سورة النساء : ٥٩] . فالرد عند التنازع إنما يكون إلى كتاب الله وسنة رسوله .

نعم إذا ثبت عن بعض المقبولين عند الأمة كلامٌ فى مثل موارد النزاع ، كان فى ذلك حجة على تقدم التنازع فى ذلك ، وعلى دخول قوم من أهل الزهد والعبادة والسلوك فى مثل هذا ، ولاريب فى هذا .

لكن مجرد هذا لا يتيح للمريد الذى يريد الله ، ويريد سلوك طريقه ، أن يقتدى فى ذلك بهم ، مع ظهور النزاع بينهم وبين غيرهم ، وإنكار غيرهم عليهم ، بل على المريد أن يسلك الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، ويتّبع مادلّ عليه الكتاب والسنة والإجماع ، فإن ذلك هو صراط الله الذى ذكره ورضى به ، فى قوله : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٣] ، وهذا أصل فى أنه لايحتج فى مواضع النزاع والاشتباه بمجرد قول أحد ممن نوزع فى ذلك .

وأما الوجه الثانى : فقول القائل عن الصوت الحسن : «مخاطبات وإشارات أودعها الله كل طيب وطيبة» لا يجوز أن يُراد به أن كل صوت طيب كائنا ماكان بأن الله أودعها مخاطبات يخاطب بها عباده – فإن هذا القول كفر صريح ، إذ ذلك يستلزم أن تكون الأصوات / الطيبة التى يستعملها المشركون وأهل الكتاب فى الاستعانة بها على كفرهم ، قد خاطب بها الله عباده ، وأن تكون الأصوات الطيبة التى يستفز بها الشيطان لبنى آدم – كما قال تعالى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [سورة الإسراء : ٦٤] . أن تكون هذه الأصوات الشيطانية ، إذا كانت طيبة ، قد أودعها مخاطبات يخاطب بها عباده ، وأن تكون أصوات الملاهى قد أودعها الله مخاطبات يخاطب بها عباده .

ص ١٠١

ومن المعلوم أن هذا لا يقوله عاقل ، فضلا عن أن يقوله مسلم ، ثم لو كان الأمر كذلك فلم [لم][1] يستمع الأنبياء والصدِّيقون من الأوَّلين والآخِرين إلى كل صوتٍ صُوِّت ، ويأمروا أتباعهم بذلك ، لما فى ذلك من استماع مخاطبات الحق ؟ إذ قد عُلِم أن استماع مخاطبات الحق من أفضل القربات .

فقد ظهر أن هذا الكلام لا يجوز أن يكون عمومه وإطلاقه حقاً .

يبقى أن يقال : هذا خاص ومقيَّد فى الصوت الحسن إذا استُعمل على الوجه الحسن . فهذا حق مثل أن يزيَّن به كلام الله ، كما كان أبو موسى الأشعرى يفعل ، وقال له النبى صلى الله عليه وسلم : «مررت بك البارحة

(١) لم : زدتها ليستقيم الكلام .

وأنت تقرأ ، فجعلت أستمع لقراءتك . فقال : لو علمت أنك تستمع لحبّرته لك تحبيرا»[(١)] . وكان عمر يقول له : ذكِّرنا ربنا ، فيقرأ وهم يستمعون .

فلا ريب أن ذا الصوت الحسن ، إذا تلا به كتاب الله ، فإنه يكون حينئذ قد أودع الله ذلك مخاطبات وإشارات ، وهو ما فى كتابه من المخاطبات والإشارات . فقد ظهر أن هذا الكلام إذا حُمِل على السماع المشروع ، الذى يحبه الله ورسوله ، كان محملا حسنا ، وإن حُمل على عمومه وإطلاقه كان كفرا وضلالا .

يبقى بين ذلك العموم وهذا الخصوص مراتب . منها : أن يُحمل ذلك على ما يجده المستمع فى قلبه من المخاطبات والإشارات[(٢)] من الصوت ، وإن لم يقصده المصوِّت المتكلم ، فهذا كثيراً[(٣)] ما يقع لهم ، وأكثر الصادقين الذين حضروا هذا السماع يشيرون إلى هذا المقصد ، وصاحب هذه الحال يكون ما يسمعه مذكِّرا له ما كان فى قلبه من الحق .

وهذا يكون على وجهين :

ظ ١٠١ أحدهما :/ من الصوت المجرد الذى لا حرف معه ، كأصوات الطيور والرياح والآلات وغير ذلك . فهذا[(٤)] كثيرا ما ينزِّله الناس على حروف بوزن[(٥)] ذلك الصوت . وكثيرا ما يحرِّك منهم[(٦)] ما يناسبها من فرح أو

(١) مضى الحديث من قبل .
(٢) فى الأصل : والشارات .
(٣) فى الأصل : كبيرا .
(٤) فى الأصل : فهذه ، وهو تحريف .
(٥) فى الأصل : يوزن ، وهو تحريف .
(٦) منهم : كذا فى الأصل ، والمقصود : من نفوسهم .

حزن ، أو غضب أو شوق ، أو نحو ذلك . كقول بعضهم :

رب ورقاءَ هتوفٍ فى الضحى   صَدَحَت فى فننٍ عن فننِ
ربما أبكى فلا أفهمها   وهى قد تبكى فلا تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها   وهى أيضا بالجوى تعرفنى

والثانى : يكون من صوت بحروف منظومة : إما شعر وإما غيره ، ويكون المستمع يُنَزِّل تلك المعانى على حاله ، سواء قصد ذلك الناظم والمنشد أو لم يقصد ذلك ، مثل أن يكون فى الشعر عتاب وتوبيخ ، أو أمر بالصبر على الملام فى الحب ، أو ذم على التقصير فى القيام بحقوق المحبة ، أو تحريض على ما فرض للإنسان من الحقوق[1] ، أو إغضاب وحَمِيَّة على جهاد العدو ومقاتلته ، أو أمر ببذل النفس والمال[2] فى نيل المطلوب ورضا المحبوب ، أو غير ذلك من المعانى المجملة ، التى يشترك فيها محب الرحمٰن ، ومحب الأوثان ، ومحب الأوطان ، ومحب النسوان ، ومحب المردان ، ومحب الإخوان ، ومحب الخلان .

وربما قرع السمع حروف[3] أخرى لم ينطق بها المتكلم على وزن حروفه ، كما يُذكر عن بعضهم أنه سمع قائلا يقول : سعتر برّى ، فوقع فى سمعه : اسع تَرَ [برى][4] .

وقد ذكر ذلك فيما بعد أبو القاسم فقال[5] : «سمعت محمد بن أحمد بن

(١) فى الأصل : أو تحرير على ما فرض الإنسان من الحقوق ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : والما . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : حروفا ، وهو خطأ .

(٤) فى الأصل : اسع ترى . والمثبت هو ما جاء فى الرواية التى سيذكرها القشيرى بعد ذلك مباشرة .

(٥) فى «القشيرية» ٢/٦٥٣-٦٥٤ .

محمد الصوفى [يقول :][١] سمعت عبد الله بن على الطوسى [يقول][٢] سمعت يحيى بن على الرضا العلوى[٣] قال : سمع ابن حلوان الدمشقى[٤] طوَّافا ينادى : ياه[٥] سعتر برّى ، فسقط مغشيا عليه ، فلما أفاق سُئل فقال : حسبته [يقول :][٦] اسع تَرَ بِرّى[٧] .

وسمع عتبةُ الغلام رجلا يقول :

سبحان ربّ السماء[٨] إن المحب لفى عناء

فقال عتبة : صدقت . وسمع رجل آخر ذلك القول ، فقال : كذبت ،/ فكل واحد يسمع من حيث هو» . ص ١٠٢

لا سيما وأكثرها إنما وُضعت لمحبة لا يحبها الله ورسوله ، مثل بعض هذه الأجناس ، وإنما المدَّعى لمحبة الله ورسوله يأخذ مقصوده منها بطريق الاعتبار والقياس ، وهو الإشارة التى يذكرونها . ولهذا قال : مخاطبات وإشارات ، فالمخاطبات كدلالة النصوص ، والإشارات كدلالة القياس . ولا بد أن يكون قد عُلم أن تلك المخاطبات والإشارات إنما يفهم منها المستمع ويتحرك فيها حركة يحبها الله ورسوله ، فيكون قد عُلم من غيرها أن ما يقتضيه من الشعور والحال مرضى عند ذى الجلال ، بدلالة الكتاب

(١) يقول : زيادة فى «القشيرية» .

(٢) يقول : زيادة فى «القشيرية» .

(٣) فى الأصل : علوى . والمثبت من «القشيرية» .

(٤) القشيرية : أبو سليمان الدمشقى .

(٥) القشيرية : يا .

(٦) يقول : زيادة من «القشيرية» ٢/٦٥٤ .

(٧) فى الأصل : اسع ترى برى . والمثبت من «القشيرية»

(٨) لعل الصواب : سبحان ربِّ للسماء . أو : سبحان ربى فى السماء .

والسنة ، (١) وإلا [فإن] مجرد الاستحسان بالذوق والوجدان [إن] لم يشهد له الكتاب والسنة ، وإلا كان ضلالا (١) .

ومن هذا الباب ضلّ طوائف من الضالين . وإذا كان كذلك فمن المعلوم أن مثل هذا جميعه لا يجوز أن يُجعل طريقا إلى الله ، ويُجمع عليه عباد الله ، ويستحب للمريدين وجه الله ، لأن ما فيه من الضرر هو أضعاف ما فيه من المنفعة لهم ، ولكن قد صادف السرَّ الذى يكون فى قلبه حق بعض هذه المسموعات ، فيكون مذكِّراً له ومنبها .

وهذا معنى قول الجنيد: «السماع فتنة لمن طلبه ، ترويح لمن صادفه» .

وأما قول القائل : «السماع وارد حق يزعج القلوب إلى الحق ، فمن أصغى إليه بحق تحقق ، ومن أصغى إليه بنفس تزندق» – فالسماع الموصوف أنه وارد حقٍ ، الذى يزعج القلوب إلى الحق – هو أخص من السماع الذى قد يوجب التزندق ، فالكلام فى ظاهره متناقض ، لأن قائله أطلق القول بأنه وارد حق يزعج القلوب إلى الحق ، ثم جعل من أصغى إليه بنفس تزندق .

ووارد الحق الذى يزعج القلوب إلى الحق ، لا يكون موجبا للتزندق ، لكن قائله قصد أولا السماع الذى يقصده أهل الإرادة لوجه الله ، فلفظه وإن كان فيه عموم ، فاللام لتعريف المعهود ، أى يزعج قلوب / أهل هذه الإرادة إلى الحق ، لكونه يحرِّك تباكيهم ، ويهيج باطنهم ، فتتحرك قلوبهم إلى الله الذى يريدون وجهه ، وهو إلٰههم ومعبودهم ، ومنتهى محبوبهم ، ونهاية مطلوبهم .

ظ ١٠٢

(١ - ١) أضفت «فإن» ، «إن» فى هذه العبارات ليستقيم الكلام .

ثم ذكر أنه «من أصغى إلى هذا السماع تزندق» ، وهو من أصغى إليه بإرادة العلو فى الأرض والفساد ، وجعل محبة الخالق من جنس محبة المخلوق ، وجعل ما يُطلب من الاتصال بذى الجلال ، من جنس ما يُطلب من الاتصال بالخلق ، فإن هذا يوجب التزندق فى الاعتقادات والإرادات ، فيصير صاحبه منافقا زنديقا . وقد قال عبد الله بن مسعود : «الغناء ينبت النفاق فى القلب ، كما ينبت الماء البقل»[1] . ولهذا تزندق بالسماع طوائف كثيرة ، كما نبهنا عليه قبل هذا .

ويُقال هنا : من المعلوم أن النفس سواء أريد بها ذات الإنسان ، أو ذات روحه المدبِّره لجسده ، أو عُنى بها صفات ذلك : من الشهوة ، والنفرة ، والغضب ، والهوى ، وغير ذلك ، فإن البشر لا يخلو من ذلك قط ، ولو فرض أن قلبه يخلو عن حركة هذه القوى والإرادات ، فعدمها شئ ، وسكونها شئ آخر ، والعدم ممتنع عليها ، ولكن قد تسكن[2] ، ولكن إذا كانت ساكنة ، ومن شأن السماع أن يحرِّكها ، فكيف يمكن الإنسان أن يسكِّن الشئ مع ملابسته لما يوجب حركته ؟

فهذا أمر بالتفريق بين المتلازمَيْن ، والجمع بين المتناقضين ، وهو يشبه أن يقال له : أدم مشاهدة المرأة والصبى والأمرد[3] ، أو مباشرته بالقبلة واللمس وغير ذلك من غير أن تتحرك نفسك أو فرجك إلى الاستمتاع به ونحو ذلك ، فهل الأمر بهذا إلا من أحمق الناس ؟.

---

(١) قال الحافظ العراقى فى تعليقه على «إحياء علوم الدين» ٢٦٦/٦ : (المرفوع غير صحيح لأن فى إسناده من لم يسم . رواه أبو داود وهو فى رواية ابن العبد ، ليس فى رواية اللؤلؤى ، ورواه البيهقى مرفوعاً وموقوفاً) .

(٢) فى الأصل : يسكن ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : والمرد ، وهو تحريف .

ولهذا قال من قال من العلماء العارفين : إن أحوال السماع بعد مباشرته تبقى غير مقدورة للإنسان ، بل تبقى حركة نفسه وأحوالها أعظم من أحوال الإنسان بعد مباشرة شرب الخمر ، فإن فعل هذا السماع فى النفوس أعظم من فعل حُمَيَّا الكؤوس .

وقوله : «من أصغى إليه بحق / تحقق» — فيقال : عليه وجهان : ص ١٠٣

أحدهما : أن يقال : إن الإصغاء إليه بحق مأمون الغائلة أن يخالطه باطل ، أمر غير مقدور عليه للبشر ،أكثر مما[1] فى قوة صاحب الرياضة والصفاء التام أن يكون حين الإصغاء لا يجد فى نفسه إلا طلب الحق وإرادته ، لكنه لا يثق ببقائه على ذلك ، بل إذا سمع خالط الإصغاء بالحق الإصغاء بالنفس ، إذ تَجَرُّد الإنسان عن صفاته اللازمة[2] لذاته محال ممتنع .

الثانى : أن يقال : ومن أين يُعلم أن كل من أصغى إليه بحق تحقق ، بل المصغى إليه بحق يحصل له من الزندقة والنفاق علماً وحالاً ما قد لايشعر به ، كما قال عبد الله بن مسعود : «الغناء ينبت النفاق فى القلب ، كما ينبت الماء البقل» . والنفاق هو الزندقة . ومن المعلوم أن البقل ينبت فى الأرض شيئاً فشيئاً لايحس الناس بنباته ، فكذلك ما يبدو فى القلوب من الزندقة والنفاق قد لا يشعر به أصحاب القلوب ، بل يظنون أنهم ممن تحقق ، ويكون فيهم شبه كثير ممن تزندق .

يوضح هذا أن دعوى التحقق والتحقيق والحقائق قد كثرت على ألسنة

---

(١) فى الأصل : ما ، وهو تحريف .

(٢) كلمة « اللازمة » : غير واضحة فى الأصل ، وكذا استظهرتها .

أقوام ، هم من أعظم الناس زندقة ونفاقا ، قديما وحديثا ، من الباطنية القرامطة ، والمتفلسفة الاتحادية ، وغير هؤلاء .

وكذلك قوله : «هو وارد حق يزعج القلوب إلى الحق» .

يقال له : إن كان قد تنزعج به بعض القلوب أحيانا إلى الحق ، فالأغلب عليه أنه يزعجها إلى الباطل ، وقلما[١] يزعجها إلى الحق محضًا .

بل قد يقال : إنه لا يفعل ذلك بحال ، بل لابد أن يُضم إلى ذلك شئ من الباطل ، فيكون مزعجا لها إلى الشرك الجلىّ أو الخفىّ ، فإن ما يزعج إليه هذا السماع مشترك بين الله وبين خلقه ، فإنما يزعج إلى القدر المشترك ، وذلك هو الإشراك بالله .

ولهذا لم يذكر الله هذا السماع فى القرآن إلا عن المشركين ، الذين قال فيهم : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [سورة الأنفال :٣٥] ، فلا يكون مزعجا للقلوب إلى إرادة الله وحده لاشريك له ، بل يزعجها إلى الباطل تارةً ، وإلى الحق / والباطل تارةً . ظ ١٠٣

ولو كان يزعج إلى الحق الذى يحبه الله خالصاً أو راجحا ، لكان من الحسن المأمور به المشروع ، ولكان شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله أو فعله ، ولكان من سنة خلفائه الراشدين ، ولكان المؤمنون فى القرون الثلاثة يفعلونه[٢] ، لا يتركون ما أحبه الله ورسوله ، وما يحرّك القلوب إلى الله تحريكا يحبه الله ورسوله .

(١) فى الأصل كتب الناسخ « وقد » ثم ضرب عليها وكتب « وقل » . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : يفعلون .

وأيضا فهذا الإزعاج إلى الحق ، قد يقال : إنه إنما قد يحصل لمن لم يقصد الاستماع ، بل صادفه مصادفة سماع شئ يناسب حاله ، بمنزلة الفأل لمن خرج فى حاجة[١] . فأما من قصد الاستماع إليه والتغنى به ، فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[٢]

قال أبو القاسم[٣] : «وحكى جعفر بن نصير عن الجنيد أنه قال : تنزل الرحمة على الفقراء فى ثلاثة مواطن : عند السماع ؛ فإنهم لايسمعون إلا عن حق ، ولا يقومون[٤] إلا عن وجد . وعند أكل الطعام ؛ فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة . وعند مجاراة العلم ؛ فإنهم لايذكرون إلا صفة[٥] الأولياء» .

وذكر عقيب هذا **فقال**[٦] : «سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت الحسين بن أحمد بن جعفر يقول : سمعت الجنيد يقول : السماع فتنة لمن طلبه ، ترويح لمن صادفه» . **وذكر** بعد هذا[٧] : «سمعت محمد بن الحسين [يقول :][٨] سمعت عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الرازى يقول : سمعت الجنيد يقول : إذا رأيت المريد يحب السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة[٩]» .

---

(١) فى الأصل : ما حبه .

(٢) مضى الحديث من قبل .

(٣) فى « القشيرية » ٦٤٤/٢ بعد كلامه السابق مباشرة .

(٤) القشيرية : ولا يقولون .

(٥) القشيرية : إلا صفات .

(٦) بعد الكلام السابق مباشرة ٦٤٤/٢ .

(٧) بعد الكلام السابق بخمس صفحات فى «القشيرية»٦٤٩/٢ .

(٨) يقول : زيادة فى «القشيرية» .

(٩) فى الأصل : من البطلة ، وهو تحريف . والمثبت من «القشيرية» .

قلت : فهاتان المقالتان أسندهما عن الجنيد ، وأما القول الأول فلم يسنده ، بل أرسله ، وهذان القولان مفسَّران ، والقول الأول مجمل . فإن كان الأول محفوظا عن الجنيد ، فهو يحتمل السماع المشروع ، فإن الرحمة تنزل على أهله . كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٠٤] ، فذكر أن استماع القرآن سبب الرحمة .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله / يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا غشيتهم الرحمة ، وتنزلت عليهم السكينة ، وحفَّتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده»[1] .

ص ١٠٤

وقد ذكر الله فى غير موضع من كتابه أن الرحمة تحصل بالقرآن ، كقوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الإسراء : ٨٢] .

وقال : ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٠٣] .

وقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ [سورة النحل : ٨٩] .

يبيّن ذلك أن لفظ «السماع» يدخل فيه عندهم السماع الشرعى ، كسماع القرآن والخطب الشرعية والوعظ الشرعى . وقد أدخل أبو القاسم

(١) مضى الحديث من قبل .

هذا النوع فى باب السماع . وذكر أبو القاسم هذا النوع فى باب السماع ، وذكر فى ذلك آثاراً ، **فقال**[١] : «سمعت محمد بن أحمد بن محمد التميمى [يقول :][٢] سمعت عبد الله بن على الصوفى يقول : سمعت الرقِّى[٣] يقول : سمعت بن الجلاء يقول : كان بالمغرب[٤] شيخان لهما أصحاب وتلامذة ، يقال لأحدهما : جبلة . وللثانى[٥] : رزيق . فزار رزيق يوما جبلة ، فقرأ رجل من أصحاب رزيق شيئا ، فصاح رجل[٦] من أصحاب جبلة صيحة[٧] ومات ، فلما أصبحوا قال جبلة لرزيق : أين الذى قرأ بالأمس ؟ فليقرأ آية ، فقرأ[٨] ، فصاح جبلة صيحة ، فمات القارئ . فقال جبلة : واحد بواحد والبادى أظلم» .

فهذا من سماع القرآن . وأما الموت بالسماع فمسألة أخرى نتكلم عليها ، إن شاء الله فى موضعها .

قال أبو القاسم[٩] : «وسئل إبراهيم المارستانى عن الحركة عند السماع فقال : بلغنى أن موسى عليه السلام قصَّ فى بنى إسرائيل فمزَّق[١٠] واحد

(١) فى «القشيرية» بعد الكلام السابق بصفحة واحدة ٢/٦٥٠ .

(٢) يقول : زيادة فى «القشيرية»

(٣) فى الأصل : الدقى . والمثبت من «القشيرية» .

(٤) فى الأصل : بالغرب . والمثبت من «القشيرية» .

(٥) فى الأصل : والثانى . والمثبت من «القشيرية» .

(٦) القشيرية : فصاح واحد .

(٧) صيحة : ساقطة من «القشيرية» .

(٨) القشيرية : فليقرأ فقرأ آية .

(٩) بعد الكلام السابق مباشرة ٢/٦٥٠ .

(١٠) فى الأصل : فمزرق ، وهو تحريف .

منهم قميصه ، فأوحى الله[١] إليه : قل له : مزِّق لى قلبك ، ولاتمزق لى[٢] ثيابك» .

فهذا سماع لقصص الأنبياء .

قال أبو القاسم[٣] : «وسأل[٤] أبو على المغازلى الشبلى فقال : ربما يطرق سمعى آية من كتاب الله عز وجل ، فتحدونى [على][٥] ترك الأشياء والإعراض عن الدنيا ، ثم أرجع إلى أحوالى وإلى الناس . فقال الشبلى : ما اجتذبك إليه فهو عطف منه عليك / ولطف ، وما ردَّك إلى نفسك[٦] فهو شفقة منه عليك ، لأنه لايصح[٧] لك التبرى من الحول[٨] والقوة فى التوجه إليه» . ظ ١٠٤

فهذا سماع فى القرآن .

وقال[٩] : «سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السراج [يقول :][١٠]سمعت أحمد بن مقاتل العكِّى يقول : كنت مع الشبلى فى مسجدٍ ليلةً فى[١١] شهر رمضان وهو يصلِّى خلف إمام له وأنا بجنبه ، فقرأ

(١) القشيرية : الله تعالى .

(٢) لى : ليست فى «القشيرية» .

(٣) بعد الكلام السابق مباشرة ٦٥١/٢ .

(٤) القشيرية : وسئل .

(٥) على : ساقطة من الأصل وأثبتها من «القشيرية» .

(٦) القشيرية : وما رددت إلى نفسك .

(٧) القشيرية : لم يصح .

(٨) فى الأصل : من الحبل ، وهو تحريف . والمثبت من «القشيرية» .

(٩) بعد الكلام السابق مباشرة ٦٥١/٢ .

(١٠)يقول : زيادة فى «القشيرية» .

(١١)القشيرية : من .

الإمام : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [سورة الإسراء : ٨٦] فزعق زعقة ، قلت : طارت روحه ، وهو يرتعد ويقول : بمثل هذا يُخاطب الأحباء[١] ! يردد[٢] ذلك كثيرا» ، فهذا سماع القرآن .

قال[٣] : «وحُكى عن الجنيد أنه قال : دخلت على السَرِىِّ يوما فرأيت عنده رجلا مغشيا عليه فقلت : [ما][٤] له ؟ . فقال : سمع آية من كتاب الله تعالى . فقلت : تُقرأ[٥] عليه ثانياً . فقرىء ، فأفاق . فقال لى : من أين علمت هذا ؟ فقلت : إن قميص يوسف ذهبت بسببه[٦] عين يعقوب عليه السلام[٧] ، ثم به عاد بصره ، فاستحسن منى ذلك» .

قال[٨] : «وسمعت أبا حاتم السجستانى [يقول :][٩] سمعت أبا نصر السراج [يقول :][٩] سمعت عبد الواحد بن علوان يقول : كان شاب يصحب الجنيد ، فكان إذا سمع شيئا من الذكر يزعق ، فقال له الجنيد يوما : إن فعلت ذلك مرة أخرى لم تصحبنى . فكان إذا سمع شيئا يتغير ويضبط نفسه ، حتى كان يقطر من كل شعرة من بدنه[١٠] ، فيوما من

(١) القشيرية : الأحباب .

(٢) القشيرية : ويردد .

(٣) بعد الكلام السابق مباشرة ٦٥١/٢ .

(٤) ما : ساقطة من الأصل ، وأثبتها من «القشيرية» .

(٥) فى الأصل : يقرأ . والمثبت من «القشيرية» .

(٦) فى الأصل : ذهب بسبب ، وهو خطأ . والمثبت من «القشيرية» .

(٧) القشيرية : عليهما السلام .

(٨) بعد الكلام السابق مباشرة ٦٥١/٢-٦٥٢ .

(٩) يقول : زيادة من «القشيرية» .

(١٠) القشيرية : حتى كان يقطر كل شعرة من بدنه بقطرة .

الأيام صاح صيحة تلفت [بها][١] نفسه» .

فهذا سماع الذكر ، لا يختص بسماع الشعر الملحَّن .

فقول القائل : «تتنزل الرحمة عليهم عند السماع» يصح أن يراد به هذا السماع المشروع .

وقوله : «لا يقومون إلا عن وجد» – يعنى: أنهم صادقون ، ليسوا متصنِّعين ، بمنزلة المظهِر للوجد من غير حقيقة . لكن قد يقال : قوله : «لا يستمعون إلا عن حق» هذا التقييد لا يُحتاج إليه فى السماع الشرعى ، فإنه حق ، بخلاف السماع المحدَث ، فإنه يُسمع بحق وباطل .

ص ١٠٥ فيقال : وكذلك سماع القرآن / وغيره قد يكون رياءً وسمعة ، وقد يكون بلا قلب ولا حضور ، ولا تدبّر ولا فهم ولاذوق .

وقد أخبر الله عن المنافقين أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى . والصلاة مشتملة على السماع الشرعى .

وقد أخبر الله عن كراهة المنافقين للسماع الشرعى فى غير موضع ، كقوله : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [سورة التوبه : ١٢٤ – ١٢٧][٢] فهؤلاء المنافقون ينصرفون عن السماع الشرعى .

---

(١) بها : ساقطة من الأصل ، وأثبتها من «القشيرية» .

(٢) سقطت كلمة «أيكم» من آية ١٢٤ فى الأصل ، وحُرِّفت «بأنهم» إلى «فإنهم» فى آية ١٢٧ .

وبالجملة فإذا كان المسند المحفوظ المعروف من قول الجنيد أنه – رحمه الله – لا يحمد[١] هذا السماع المبتدَع ولا يأمر به ولايثنى[٢] عليه ، بل المحفوظ من أقواله ينافى ذلك – لم يجز أن يُعمد إلى قول مجمل رُوى عنه بغير إسناد ، فيُحمل على أنه مَدَحَ هذا السماع المحدَث .

وقد روى بعض الناس أن الجنيد كان يحضر هذا السماع فى أول عمره ثم تركه . وحضوره له فعل ، والفعل قد يُستدل به على مذهب الرجل وقد لايستدل به ، ولهذا ينازع الناس فى مذهب الإنسان ، هل يوجد مِنْ فعله ؟.

وقال بعض السلف : أضعف العلم الرؤية ، وهو قوله : رأيت فلاناً يفعل ، وقد يفعل الشئ بموجب العادة والموافقة من بعد اعتقاد له فيه[٣]. وقد يفعل نسياناً [لا][٤] لاعتقاده فيه أو حضًّا . وقد يفعله ولا يعلم أنه ذنب ، ثم يعلم بعد ذلك أنه ذنب ، ثم يفعله وهو ذنب . وليس أحد معصوما عن أن يفعل ما هو ذنب ، لكن الأنبياء معصومون من الإقرار على الذنوب فيُتَأسَّى بأفعالهم التى أُقروا عليها ، لأن الإقرار عليها يقتضى أنها ليست ذنبا ، وأما غير الأنبياء فلا ، فكيف بمن /يكون فعل فعلا ثم تركه ؟ . ظ ١٠٥

وأقصى ما يُقال : إن الجنيد كان يفعل أولاً هذا السماع على طريق

(١) فى الأصل : لا يحمل ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : ولا يبنى ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : فى .

(٤) لا : زدتها ليستقيم الكلام .

الاستحسان له والاستحباب ، أو يقول ذلك ، فيكون هذا – لو صح – معارِضا لأقواله المحفوظة عنه ، فيكون له فى المسألة قولان .

وقد قال أبو القاسم [(١)] : « حكى [(٢)] عن الجنيد أنه قال : السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء : الزمان ، والمكان ، والإخوان » .

وهذه حكاية مرسلة ، والمراسيل [(٣)] فى هذه الرسالة لا يعتمد عليها إن لم تُعرف صحتها من وجه آخر كما تقدم ، ولو صح ذلك ، وأنه أرادِ سماع القصائد ، لكان هذا أحد قوليه .

وذلك أن قوله : « السماع فتنة لمن طلبه ، ترويح لمن صادفه » –صريح ، بأنه [(٤)] مكروه مذموم منهى عنه لمن قصده . وهذا هو الذى نقرره . فقول الجنيد رضى الله عنه من محض الذى قلناه .

وقوله : « ترويح [لمن] [(٥)] صادفه » لم يثبت منه [(٦)] ، وإنما أثبتوا أنه راحة ، وجعل ذلك مع المصادفة ، لا مع القصد والتعمد .

والمصادفة فيها قسم لا ريب فيه ، وهو استماع دون الاستماع ، كالمرء يكون مارًّا فيسمع قائلا يقول بغير قصده واختياره ، أو يكون جالسا فى موضع فيمر عليه من يقول ، أو يسمع قائلا من موضع آخر بغير قصده .

---

(١) فى « القشيرية » ٢/٦٤٥ .

(٢) القشيرية : وحكى .

(٣) فى الأصل : والمراسم ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : لانه .

(٥) لمن : ساقطة من الأصل فى هذا الموضع .

(٦) فى الأصل : فيه . ولعل الصواب ما أثبته .

وأما إذا اجتمع بقوم لغير السماع : إما حضر عندهم ، أو حضروا عنده ، وقالوا شيئا . فهذا قد يقال : إنه صادفه السماع ، فإنه لم يمش إليه ويقصده . وقد يقال : بل إصغاؤه إليه واستماعه الصوت يجعله مستمعا ، فيجعله غير مصادف .

وقد قال تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ﴾ [سورة النساء : ١٤٠] فجعل القاعد المستمع بمنزلة القائل .

فأكثر ما يقال : إن الجنيد أراد بالمصادفة هذه الصورة ، وهو مع جعله ترويحا لم يجعله سببا للرحمة ، وهذا غايته/أن يكون مباحا لا يكون حسنا ولا رحمةً ولا مستحباً ، والكلام فى إباحته وتحريمه غير الكلام فى حسنه وصلاحه ومنفعته ، وكونه قربة وطاعة . فالجنيد لم يقل شيئا من هذا . ص ١٠٦

وقول القائل : « تنزل الرحمة على أهل السماع » – إذا أراد به سماع القصائد : يقتضى أنه حسن وأنه نافع فى الدين . وكلام الجنيد صريح فى خلاف ذلك .

قال أبو القاسم [١] : « وسُئل الشبلى عن السماع ، فقال : ظاهره فتنة ، وباطنه عبرة ، فمن عرف الإشارة حلَّ له السماع بالعبرة [٢] ، وإلا فقد استدعى الفتنة ، وتعرض للبليّة » .

---

(١) فى « القشيرية » ٦٤٥/٢ بعد كلامه السابق مباشرة .

(٢) القشيرية : حلّ له استماع العبرة .

قلت : هذا القول مرسل لم يسنده ، فالله أعلم به . فإن كان محفوظا عن الشبلى فقد نبهنا على أن الأئمة فى طريق الحق الذين يعتد بأقوالهم ، كما يعتد بأقوال أئمة الهدى ، هم مثل الجنيد ، وسهل ، ونحوهما ، فإن أقوالهم صادرة عن أصل ، وهم مستهدون فيها .

وأما الشبلى ونحوه ، فلا بد من عرض أقواله وأحواله على الحجة ، فيقبل [١] منها ما وافق الحق ، دون ما لم يكن كذلك ، لأنه قد كان يعرض له زوال العقل حتى يُذهب به إلى المارستان غير مرة ، وقد يختلط اختلاطا دون ذلك .

ومن كان بهذه الحال ، فلا تكون أقواله وأفعاله فى مثل هذه الأحوال مما يعتمد عليها فى طريق الحق ، ولكن له أقوال وأفعال حسنة قد عُلم حسنها بالدليل ، فتقبل [٢] لحسنها فى نفسها ، وإن كان له حال أخرى بغير عقله ، أو اختلط فيها أو وقع منه ما لا يصلح .

ومعلوم أن الجنيد شيخه هو الإمام المتّبع فى الطريق ، وقد أخبر أن لسماع فتنة لمن [٣] طلبه ، فتقليد الجنيد فى ذلك أَوْلى من تقليد الشبلى فى قوله : « ظاهره فتنة ، وباطنه عبرة » إذ [٤] الجنيد أعلى وأفضل وأجلّ باتفاق المسلمين ، وقد أطلق القول بأنه فتنة لطالبه ، وهو لا يريد أنه فتنة فى الظاهر [٥] فقط ، إذ من شأن الجنيد أن يتكلم على صلاح القلوب

---

(١) فى الأصل : فقبل .

(٢) فى الأصل : فبدلوا ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : ومن . والمثبت هو كلام الجنيد الذى سبق إيراده .

(٤) فى الأصل : إذا .

(٥) فى الأصل : فالظاهر . ولعل الصواب ما أثبته .

وفسادها ، فإنما أراد أنه يفتن القلب لمن طلبه ، وهذا نهى منه وذم لمن يطلبه مطلقا ، ومخالف/لما أرسل عن الشبلى أنه قال : « من عرف الإشارة حلّ له السماع بالعبرة » . ظ ١٠٦

وهذا التفصيل يضاهى قول من يقول : هو مباح أو حسن للخاصة دون العامة ، وقد تقدم الكلام على ذلك وأنه مردود ، لأن [(١)] قائله اختلف قوله فى ذلك ، وما أعلم أحدا من المشايخ المقبولين يؤثر عنه فى السماع نوع رخصةٍ وحمدٍ [(٢)] إلا ويؤثر عنه الذم والمنع ، فهم فيه — كما يُذكر عن كثير من العلماء — أنواع من مسائل الكلام .

فلا يوجد عمَّن له فى الأمة حمد شئ من ذلك إلا وعنه ما يخالف ذلك . وهذا من رحمة الله بعباده الصالحين ، حيث يردّهم فى آخر أمرهم إلى الحق الذى بعث به رسوله ، ولا يجعلهم مصرِّين على ما يخالف الدين المشروع .

كما قال تعالى فى صفة المتقين الذين أعدّ لهم الجنة فقال : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

(١) فى الأصل : أن . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : .. يؤثر عنه فى السماع نوع رخّصه وحمداً لا ويؤثر . الخ ، وهو تحريف.ولعل الصواب ما أثبته .

الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[سورة آل عمران : ١٣٣ - ١٣٦] .

وقول القائل : « من عرف الإشارة حلَّ له السماع بالعبرة » ، وقد تقدم أن الإشارة هى الاعتبار والقياس لأن يُجعل المعنى الذى فى القول مثلاً [(١)] مضروباً لمعنى حق يناسب حال المستمع ، ولهذا قال : « باطنه عبرة » .

يقال له : هب أنه يمكن الاعتبار به ، لكن من أين [(٢)] لك أن كل ما أمكن أن يعتبر به الإنسان يكون حلالا له ، مع أن الاعتبار قد يكون بما يُسمع ويُرى من المحرَّمات ؟ فهل لأحد أن يعتبر بقصد النظر إلى الزينة الباطنة من المرأة الأجنبية ، ويعتبر بقصد الاستماع إلى أقوال المستهترين [(٣)] بآيات الله أو غير ذلك مما لا يجوز ؟

ص ١٠٧ قال /أبو القاسم [(٤)] : « وقيل : لايصح [(٥)] السماع إلا لمن كانت له نفس ميّتة وقلب حىّ ، فنفسه [ذُبحت] [(٦)] بسيوف المجاهدة ، وقلبه حىّ بنور المشاهدة [(٧)] » . وهذا التفصيل من جنس ما تقدم الكلام عليه .

---

(١) فى الأصل : ومثلا ، وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : من أمن ، وهو تحريف .
(٣) فى الأصل : المشتهرس ، وهو تحريف .
(٤) فى « القشيرية » ٦٤٥/٢ بعد كلامه السابق مباشرة .
(٥) القشيرية : لا يصلح .
(٦) ذبحت : ساقطة من الأصل ، وأثبتها من « القشيرية » .
(٧) القشيرية : بنور الموافقة .

قال [١] : « وسئل أبو يعقوب النهرجورى عن السماع [فقال[٢] :] حال يُبدى[٣] الرجوع إلى الأسرار من حيث الإحراق [٤] » .

قلت : وهذا وصف لما يعقب [٥] السماع من الأحوال الباطنة وقوة الحرارة والإحراق[٦] والوجوديّة . وهذا أمر يحسه المرء ويجده[٧] و يذوقه ، لكن ليس فى ذلك مدح ولا ذم ، إذ مثل هذا يوجد لعبَّاد [٨] المسيح والصليب ، وعبّاد العجل ، وعبّاد الطواغيت[٩] ، ويوجد للعشاق[١٠] وغير ذلك ، فإن لم تكن هذه الأحوال مما يحبها الله ورسوله لم تكن محمودة ولا ممدوحة .

قال أبو القاسم[١١] : « وقيل : السماع لطف غذاء الأرواح لأهل المعرفة » . وهذا القول لم يسم قائله ، ولا ريب أن السماع فيه غذاء . وقد قيل : إنما سمى الغناء غناء لأنه يغنى النفس ، لكن الأغذية والمطاعم منها طيب ومنها خبيث ، وليس كل ما[١٢] استلذه الإنسان لحسنه يكون طيبا ، فإن أكل الخنزير يستلذه آكله ، وشارب الخمر يستلذها شاربها .

(١) فى « القشيرية » ٢/٦٤٥ بعد كلامه السابق مباشرة .

(٢) فقال : ساقطة من الأصل ، وأثبتها من « القشيرية » .

(٣) فى الأصل : يبدأ . والمثبت من « القشيرية » .

(٤) القشيرية : الاحتراق .

(٥) فى الأصل : يتعقبه . ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) فى الأصل : الإخراق ، وهو تحريف

(٧) فى الأصل : يحسنه المرء ويوجده . ولعل الصواب ما أثبته .

(٨) فى الأصل : نوخد العياد ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٩) فى الأصل : وعبادة العجل وعبادة الطواغيت . ولعل الصواب ما أثبته .

(١٠) فى الأصل : ويوخد العشاق . ولعل الصواب ما أثبته .

(١١) فى « القشيرية » ٢/٦٤٥ بعد الكلام السابق مباشرة .

(١٢) فى الأصل : كلها ، وهو تحريف .

ومما يبيّن ذلك أن سماع الألحان يتغذى به أهل الجهل أكثر مما يتغذى به أهل المعرفة ، كما يتغذّى به [١] الأطفال والبهائم والنساء ، وكما يكثر فى أهل البوادى والأعراب ، وكل من ضعف عقله ومعرفته ، كما هو مشهود [٢] .

فأما السماع الشرعى فلا ، إنه غذاء طيب لأهل المعرفة ، كما أخبر الله بذلك فى قوله : ﴿ وَ إِذَا سَمِعُوا مَاأُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ [سورة المائدة : ٨٣].

ثم ذكر أبو القاسم [٣] قول أبى على الدقاق : « السماع طبع إلا عن شرع ، وخرق إلا عن حق ، وفتنة إلا عن عبرة » وهذا كلام حسن ، وقد قدّمنا ذكره ، فإنه جعل ما ليس بمشروع هو عن الطبع ، فلا يكون محمودًا مستحسنا/فى الدين وطريق الله . ظ ١٠٧

وقوله : « خرق إلا عن حق ، وفتنة إلا عن عبرة »يقتضى أنه إذا لم يكن عن حق فهو مذموم ، وأنه إذا لم يكن عن عبرة فهو فتنة ، وهذا كلام صحيح ، ولا يقتضى ذلك أن يستحب كل ما يظن أن فيه [٤] عبرة ، أو أنه عن حق ، إذا لم يكن مشروعا ، لأنه قد قال إنه : « طبع [٥] إلا عن شرع » .

قال أبو القاسم [٦] : « ويقال : السماع على قسمين : سماع بشرط

(١) فى الأصل : كما تغذى به .
(٢) فى الأصل : مشهود .
(٣) فى « القشيرية » ٢/٦٤٥ وسبق إيراد الكلام التالى من قبل .
(٤) فى الأصل : أنه فيه .
(٥) فى الأصل تكررت كلمة « طبع » مرتين .
(٦) فى « القشيرية » ٢/٦٤٥ بعد كلامه السابق مباشرة .

العلم والصحو ، فمن شرط صاحبه معرفة الأسامى والصفات ، وإلا وقع فى الكفر المحض . وسماع بشرط الحال ، فمن شرط صاحبه الفناء عن أحوال البشرية ، والتنقّى[١] من آثار الحظوظ بظهور أحكام الحقيقة » .

قلت :قوله : معرفة الأسامى والصفات » يعنى أسماء الحق وصفاته ، وذلك لأن المسموع هو المشروع [من الصفات][٢] التى يوصف بها المخلوقون ، وهم إنما يأخذون مقصودهم منها بطريق الإشارة والاعتبار كما تقدم ، فيحتاج ذلك إلى أن نفرِّق بين ما يوصف به الرب ويوصف به المخلوق ، لئلا تُجعل تلك الصفات صفات لله ، فيكون فتنة وكفرا ، هذا إذا كان صاحبه صاحياً يعلم ما يقول ، وأما إذا كان فانياً عن الشعور بالكائنات ،لم يُحمل القول على ذلك لعدم شعوره به ، فلا بد أن يكون شاعرا بالأحوال البشرية ، ويكون متنقِّياً عن الحظوظ البشرية التى تميل إلى المخلوقات ، وذلك بظهور سلطان التوحيد على قلبه ، وهو قوله : « ظهور أحكام الحقيقة » . وهذا التفصيل يحتاج إليه من يستحسن بعض أنواع [السماع][٣] المحدَث لأهل الطريق إلى الله .

والفتنة تحصل بالسماع من وجهين : من جهة البدعة فى الدين ، ومن جهة الفجور فى الدنيا .

أما الأول : فلما قد يحصل به من الاعتقادات الفاسدة فى حق الله ، أو الإرادات والعبادات الفاسدة التى لا تصلح لله ، مع ما يصد عنه من

---

(١) فى الأصل : التنعى . والمثبت من « القشيرية » .
(٢) عبارة « من الصفات » زدتها ليستقيم الكلام .
(٣) زدت كلمة « السماع » ليستقيم الكلام .

ص ١٠٨ الاعتقادات الصالحة ، والعبادات الصالحة ، تارةً/ بطريق المضادة،وتارة بطريق الاشتغال ، فإن النفس تشتغل وتستغنى بهذا عن هذا .

وأما الفجور فى الدنيا : فلما يحصل به من دواعى الزنا والفواحش والإثم والبغى على الناس .

ففى الجملة جميع المحرَّمات قد تحصل فيه ، وهو ما ذكرها الله فى قوله : ﴿ قُلْ إِنَّماَ حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهاَ وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلطَاناً وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٣٣] .

قال أبو القاسم[1] : « وحُكى[2] عن أحمد بن أبى الحوارى أنه قال : سألت أبا سليمان عن السماع ، فقال : مِن اثنين أحبّ إلىّ من الواحد » .

قلت : هذه المقالة ذكرها مرسلة ، فلا يعتمد عليها . وإن أريد بها السماع المحدَث فهى باطلة عن أبى سليمان ، فإن أبا سليمان – رضى الله عنه – لم يكن من رجال السماع ولا معروفا بحضوره . كما أن الفضيل بن عياض ومعروفًا الكرخى – رحمهما الله – ونحوهما لم يكونا ممن يحضر هذا السماع .

قال أبو القاسم[3] : «سُئل أبو الحسين النورى عن الصوفى ، فقال : من سمع السماع ، وآثر الأسباب » .

---

(١) فى « القشيرية » ٦٤٥/٢ بعد كلامه السابق مباشرة .

(٢) فى الأصل : وصلى ، وهو تحريف . والمثبت من « القشيرية »

(٣) فى « القشيرية » ٦٤٥/٢ بعد الكلام السابق مباشرة .

قلت : هذا النقل مرسل فلا يعتمد عليه ، ولعل المقصود بهذا هو الصوفى المذموم [١] عندهم المدَّعى التصوف ، فإنه جمع بين إيثار السماع الذى يدل على [الأهواء] الباطلة [٢] ، وضعف الإرادة والعبادة ، وإيثار [٣] الأسباب التى تنقصه عندهم عن التوكل ، فضَعُفَ كونه يعبد الله ، وضَعُفَ كونه يستعينه ، وإلا فالنورى [٤] لا يجعل هذا شرطا فى الصوفى المحقق .

قال أبو القاسم [٥] : « وسئل أبو على الروذبارى عن السماع يوماً ، فقال : ليتنا تخلصنا منه رأساً برأس » .

قلت : هذا الكلام من مثل هذا الشيخ ، الذى هو من أجلّ المشايخ الذين صحبوا الجنيد وطبقته ، يقرر ما قدَّمناه من أن حضور الشيخ السماع لا يدل على مذهبه واعتقاد حسنه ، /فإنه يتمنى ألَّا يكون عليه فيه إثم ، بل يخلص منه ، لا عليه ولا له . ولو كان من جنس المستحبات لم يقل ذلك فيه ، إلا لتقصير المستمع لا لجنس الفعل ، وليس له أن يقول ذلك إلا عن نفسه ، لا يجعل هذا حكما عاما فى أهل ذلك العمل . ظ ١٠٨

كما يُروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول : « وددت أنى انفلت من هذا الأمر رأساً برأس » . قال هذا [بعد توليه الخلافة] [٦]

---

(١) فى الأصل : المدود . ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : الذى نزل على الباطلة . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : وأثر .

(٤) فى الأصل : فالنور ، وهو تحريف .

(٥) فى « القشيرية » ٦٤٦/٢ بعد كلامه السابق مباشرة .

(٦) زدت عبارة : « بعد توليه الخلافة » ليستقيم الكلام .

لفرط خشيته ألاَّ يكون قد قام بحقوقها ، ولم يقل هذا فى أبى بكر رضى الله عنه ، بل ما يزال يشهد له بالقيام فى الخلافة بالحق ، ولذلك كان عمر خوفه يحمله على ذلك القول .

فقول أبى على ليس من هذا الجنس ، بل وصف الطائفة كلها بذلك ، فعلم أنه لا يعتقد فيه أنه حسن ، وإن كان فاعلا له .

وقال أبو القاسم [١] : « سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى يقول : سمعت أبا عثمان المغربى يقول : من ادّعى السماع ولم يسمع صوت الطيور ، وصرير الباب ، وصفير [٢] الرياح ، فهو مفترٍ [٣] مدَّع » .

قلت : هذا الذى قاله أبو عثمان هو مما يفصلون به بين سماع العبرة وسماع الفتنة . فإن سماع العبرة الذى يحرك وجد السالكين [٤] بالحق يحصل بسماع هذه الأصوات لا يقف على السماع الذى يهواه أهل الفتن .

وقال أبو القاسم [٥] : « سمعت [أبا] [٦] حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر السرّاج [الطوسى يقول :] [٧] سمعت أبا الطيب [أحمد بن مقاتل العكّى] [٨] يقول : قال جعفر : كان ابن زيرى من أصحاب الجنيد شيخا

---

(١) بعد كلامه السابق مباشرة فى « القشيرية

(٢) القشيرية : وتصفيق .

(٣) القشيرية : فقير .

(٤) فى الأصل : الوجد السالين . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) بعد كلامه السابق مباشرة ٦٤٦/٢ .

(٦) أبا : ساقطة من الأصل ، وأثبتها من « القشيرية » .

(٧) مابين المعقوفتين ساقط من الأصل ، وزدته من « القشيرية » .

(٨) فى الأصل : أبا الطيب العلا . والمثبت من « القشيرية » .

فاضلا ، فربما كان يحضر موضع السماع[(١)] ، فإن استطابه فرش إزاره وجلس ، وقال : الصوفى مع قلبه وإن لم يستطبه[(٢)] قال : السماع لأرباب القلوب ، ومرَّ وأخذ[(٣)] نعليه[(٤)] » .

قلت : سنتكلم إن شاء الله على مثل هذه الحال ، وهو المشى مع طيب القلب ، وما يذوق الإنسان ويجد فيه صلاح /القلب ، ونبيِّن [أن] السلوك [المستقيم] هكذا[(٥)] ، من غير اعتبار لطيب القلب ، وما يجده ويذوقه من المنفعة واللذة والجمع على الله ونحو ذلك . [أما ذلك الحال فهو مذموم] فى الكتاب والسنة ، ضلال فى الطريق[(٦)] ، وهو مبدأ ضلال من ضلّ من العبّاد والنسّاك والمتصوفة والفقراء ونحوهم ، وحقيقته اتّباع الهوى بغير هدًى من الله ، وقد تقدّم من كلام المشايخ فى ذم هذا ما فيه كفاية .

ص ١٠٩

فإن مجرد طيب القلب ليس دليلا على أنه إنما طاب لما يحبه الله ويرضاه ، بل قد يطيب[(٧)] بما لا يحبه الله ويرضاه ، مما يكرهه أولا يكرهه أيضا ، لا سيما القلوب التى أُشربت حب الأصوات الملحنة . فقد قال عبد الله بن مسعود : « الغناء يُنبت النفاق فى القلوب كما ينبت الماء البقل » .

---

(١) القشيرية : سماع .

(٢) فى الأصل : وإن لم يستطب . والمثبت من « القشيرية » .

(٣) فى الأصل : ومرو أحد ، وهو تحريف . والمثبت من « القشيرية »

(٤) القشيرية : نعله . وفى الأصل : يغلبه . وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : وتبين السلوك هكذا ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٦) فى الأصل : ونحو ذلك من الكتاب والسنة ظلال فى الطريق . ولعل الصواب ما أثبته .

(٧) فى الأصل : تطيب .

وإطلاق [(١)] القول : بأن الصوفى مع قلبه ، هو من جنس ما ذُمّ به هؤلاء المتصوفة ، حتى جُعلوا من أهل البدع ، لأنهم أحدثوا فى طريق الله أشياء لم يشرعها الله ، فكان لهم نصيب من قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ [سورة الشورى : ٢١] ، مثل ما ذكره الخلال بإسناده عن عبد الرحمٰن بن مهدى وذكر الصوفية فقال : « لا تجالسوهم ولا أصحاب الكلام ، وعليكم بأصحاب القماطر ، فإنهم بمنزلة المعادن والمفاصل [(٢)] ، هذا يخرج درة ، وهذا يخرج قطعة ذهب . ويروى عن الشافعى أنه قال : « لو تصوف رجل أول النهار لم يأت نصف النهار إلا وهو أحمق » [(٣)] .

قال أبو القاسم [(٤)] : « سمعت محمد بن الحسين [رحمه الله تعالى يقول :] [(٥)] سمعت عبد الواحد بن بكر [يقول :] [(٦)] سمعت عبد الله بن عبد المجيد الصوفى يقول : سئل رويم عن وجود [(٧)] الصوفية عند السماع . فقال : يشهدون المعانى التى تعزب عن غيرهم ، فتشير [(٨)] إليهم

(١) فى الأصل : فى إطلاق .

(٢) فى الأصل : العادن والفواصل . ولعل الصواب ما أثبته . والمعادن أى المناجم . وفى « اللسان » : « المعادن : المواضع التى يستخرج منها جواهر الأرض » . وفيه : « المفاصل : ما بين الجبلين ... المفاصل صدوع فى الجبال يسيل منها الماء » .

(٣) قال ابن الجوزى فى « تلبيس إبليس » (ص ٣٧١) : « وبإسناد عن يونس بن عبد الأعلى ، قال : سمعت الشافعى يقول : لو أن رجلا تصوف أول النهار لا يأتى الظهر حتى يصير أحمق » .

(٤) بعد كلامه السابق مباشرة فى « القشيرية » . ٦٤٦/٢ .

(٥) ما بين المعقوفتين زيادة من « القشيرية » .

(٦) يقول : زيادة من « القشيرية »

(٧) وجود : كذا فى الأصل ، وفى « القشيرية » . ولعل الصواب : وجد . وقال محققا « القشيرية » فى شرح معنى الكلمة : « أى عمّا يجدونه » .

(٨) فى الأصل : فيسير . والمثبت من « القشيرية » .

: إلىّ .. إلىّ [فيتنعمون] [١] بذلك من الفرح ، ثم يقع [٢] الحجاب ، فيعود ذلك الفرح بكاءً ؛ فمنهم من يخرق [٣] ثيابه ، /ومنهم من يصيح ، ومنهم من يبكى ، كلّ إنسان على قدره » . ظ ١٠٩

قلت : هذا وصف لما يعتريهم من الحال ، ليس فى ذلك مدح ولا ذم ، إذ مثل هذه الحال يكون للمشركين وأهل الكتاب ، إذ قد يشهدون بقلوبهم مع أنهم يفرحون بها فتتبع [ذلك] المحبة [٤] ، فإن الفرح يتبع المحبة ، فمن أحب شيئا فرح بوجوده ، وتألم لفقده . والمحبوب قد يكون حقا ، وقد يكون باطلا .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ١٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ٩٣] .

فقد يكون المرء محبا لله صادقا فى ذلك ، لكن يكون ما يشهده من المعانى السارة خيالات لا حقيقة لها [٥] فيفرح بها ويكون فرحه لغير الحق ، وذلك مذموم .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّه قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ * ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [سورة غافر : ٧٣ – ٧٥] .

(١) فيتنعمون » ساقطة من الأصل ، وأثبتها من « القشيرية » .

(٢) فى نسخة الأصل من « القشيرية » : يقطع . وذكر المحققان أن فى نسخة أخرى : يقع .

(٣) يخرق : كذا فى الأصل وفى «القشيرية» ، ولعل الصواب : يمزّق .

(٤) فى الأصل : مع أن يفرحون بها فتتبع المحبة . ولعل الصواب ما أثبته .

(٥) فى الأصل : لحقيقة لها ، وهو تحريف .

وقد عُلِم أن سماع المكاء والتصدية إنما ذكره الله فى القرآن عن المشركين ، ولا يخلو من نوع شركٍ جليٍّ أو خفيّ ، ولهذا يحكى عنهم[1] تلك الأمور الباطلة التى بدت لهم أولا ، كما قال تعالى : ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ﴾ [سورة النور : ٣٩] .

ومع هذا فقد يكون فى تلك المعانى التى تُشاهد وتحتجب من حقائق الإيمان ما يفرح به المؤمنون أيضا ، ولولا ما فيه من ذلك لما التبس على فريق من المؤمنين لكن قد لُبِّس الحق فيه بالباطل . هذا الأمر[2] منه ليس بحق محضٍ أصلا ، وبالحق الذى فيه نفق على من نفق عليه من المؤمنين ، وزهادهم وصوفيتهم وفقرائهم وعبَّادهم ، ولكن لضعف إيمانهم نفق عليهم ، ولو تحققوا بكمال الإيمان لتبين لهم ما فيه من الشرك ولَبْس /الحق بالباطل . ص ١١٠

ولهذا تبين ذلك لمن أراد الله أن يكمل إيمانه منهم فيتوبون منه ، كما هو المأثور عن عامة المشايخ الكبار الذين حضروه[3] ، فإنهم تابوا منه ، كما تاب كثير من كبار العلماء[4] مما دخلوا فيه من البدع الكلامية .

قال أبو القاسم[5] : « سمعت محمـد بن أحمـد [بن محمـد][6]

(١) فى الأصل : ولهذا يصل عنهم . وهو تحريف. ولعل الصواب ما أثبته .
(٢) فى الأصل : هذا الأبد ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .
(٣) فى الأصل : الذين حضروا . ولعل الصواب ما أثبته .
(٤) فى الأصل : من كبائر العلماء ، وهو تحريف .
(٥) فى « القشيرية » ٢/٦٤٦ – ٦٤٧ بعد كلامه السابق مباشرة .
(٦) ابن محمد : ساقطة من الأصل . وأثبتها من « القشيرية » .

التميمى [يقول :] [1] سمعت عبد الله بن على [يقول :] [1] سمعت الحصرى يقول فى بعض كلامه : إيش أعمل [2] بسماع ينقطع إذا انقطع من يستمع منه [3] ينبغى أن يكون سماعك سماعا متصلا غير منقطع .

قال : وقال الحصرى [4] : ينبغى أن يكون ظمأٌ دائمٌ وشرب دائم [5] ، فكلما [6] ازداد شربه ازداد ظمؤه [7] » .

قلت : هذا الكلام فيه عيب لأهل هذا السماع ، وبيان أن المؤمن عمله دائم ليس بمنقطع ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه » [8] ، فيكون اجتماع قلبه لمعانى القرآن دائما غير منقطع ، لايزال عطشاناً طالبا شاربا .

---

(١) يقول : زيادة من « القشيرية » .

(٢) القشيرية : ما أعمل .

(٣) القشيرية : يسمع منه .

(٤) فى الأصل : الحرصى ، وهو تحريف .

(٥) عبارة « وشرب دائم » : ساقطة من « القشيرية » .

(٦) فى الأصل : وكلما . والمثبت من « القشيرية » .

(٧) فى الأصل : ضماوه ، وهو تحريف . والمثبت من « القشيرية » .

(٨) جاء الحديث عن عائشة رضى الله عنها فى المسند (ط . الحلبى) بلفظ : إن أحب الدين إلى الله ما داوم عليه صاحبه . وأوله : مه عليكم بما تطيقون . . الحديث . وعقد مسلم فى صحيحه ١/٥٤٠-٥٤١ فصلا (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره) أورد فيه أربعة أحاديث كلها عن عائشة رضى الله عنها وفيها معنى الحديث الذى ذكره ابن تيمية منه قول النبى صلى الله عليه وسلم : أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل . وجاء حديث آخر عن أم سلمة رضى الله عنها فى المسند (ط . الحبى) ٦/٣١٩ ونصه : « ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان أكثر صلاته قاعداً إلا المكتوبة وكان أحب العمل إليه ما داوم العبد عليه وإن كان يسيرا » . وأورد البخارى حديثين عن عائشة رضى الله عنها بمعنى هذا الحديث مع اختلاف الألفاظ : الأول ١/١٣ (كتاب الإيمان ، باب أحب الدين إلى الله أدومه) ولفظه : وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه. والثانى ٣/٣٨-٣٩ (كتاب الصوم ، باب صوم شعبان) ولفظه : وأحب الصلاة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ما دُووم عليه وإن قلت .

كما قال تعالى لنبيه : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [سورة الحجر : ٩٩] . وقال الحسن البصرى : لم يجعل الله لعبده [١] المؤمن أجلا دون الموت . وقد اعتقد بعض الغالطين من هؤلاء أن المعنى : « اعبد ربك حتى تحصل لك المعرفة ، ثم اترك العبادة » وهذا جهل وضلال بإجماع [٢] الأمة ، بل اليقــين هنــا كاليقين فى قوله : ﴿ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ [سورة المدثر : ٤٧] .

وفى الصحيح لما مات عثمان بن مظعون ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أما عثمان فقد أتاه اليقين من ربه .والله ما أدرى – وأنا رسول الله – ما يُفعل بى » [٣] .

فأما اليقين الذى هو صفة العبد ، فذاك قد فعله من حين عبد ربه ، ولا تصح العبادة إلا به ، وإن كان له درجات متفاوتة .

قال تعالى : ﴿ الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾إلى قوله : ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١ –٤] .

---

(١) فى الأصل : لعباده . وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : باجتماع .

(٣) الحديث عن أم العــلاء – امرأة من الأنصار ، رضى الله عنها ، فى عدة مواضع من البخارى . ٧٢/٢ (كتاب الجنائز ، باب الدخول على الميت بعد الموت) ، ٦٧/٥ (كتاب مناقب الأنصار ، باب مقدم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة) . ٣٤/٩ –٣٥ (كتاب التعبير ، باب رؤيا النساء) ، ٣٨/٩ (الكتاب السابق ، باب العين الجارية) . ولفظ الحديث فى الموضع الأخير : « عن أم العلاء وهى امرأة من نسائهم بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : طار لنا عثمان بن مظعون . . فاشتكى فمرضناه حتى توفى . . فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتى عليك : لقد أكرمك الله . قال : وما يدريك ؟ قلت: لا أدرى والله . قال : أما هو فقد جاءه اليقين . إنى لأرجو له الخير من الله ، والله ما أدرى – وأنا رسول الله – ما يُفعل بى ولا بكم . قالت أم العلاء : فوالله لا أزكى أحداً بعده . . الحديث . والحديث فى المسند (ط . الحلبى) ٤٣٦/٦ .

وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُون بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [سورة السجده : ٢٤] [١]

/وقال عن الكفار : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [سورة الجاثية : ٣٢] . ظ ١١٠

قال أبو القاسم [٢] : « وجاء عن مجاهد فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [سورة الروم : ١٥] أنه السماع من الحور العين بأصوات [٣] شهية : نحن الخالدات فلا نموت أبدا ، ونحن الناعمات فلا نبأس [٤] أبداً » .

وهذا فيه أنهم ينعَّمون فى الآخرة بالسماع ، وقد تقدَّم الكلام على هذا ، وأن التنعم بالشئ فى الآخرة لا يقتضى أن يكون عملا حسنا أو مباحاً فى الدنيا .

وقال [٥] : « وقيل : السماع نداء ، والوجد [٦] قصد » .

وهذا كلام مطلق ، فإن المستمع يناديه ما يستمعه بحق تارةً ، وبباطل أخرى . والواجد هو قاصد يجيب المنادى الذى قد يدعو إلى حق وقد يدعو إلى باطل ، فإن الواجد تجد فى نفسه إرادة وقصداً .

(١) فى الأصل حرفت الآية إلى : وجعلناهم .

(٢) فى «القشيرية» ٢/٦٤٧ بعد كلامه السابق مباشرة .

(٣) فى الأصل : بأصواط ، وهو تحريف .

(٤) القشيرية : فلا نبؤس .

(٥) بعد كلامه السابق مباشرة ٢/٦٤٧ .

(٦) فى الأصل : والواجد . والمثبت من « القشيرية » .

قال [١] : « وسمعت [٢] محمد بن الحسين [يقول :] [٣] سمعت أبا عثمان المغربي يقول : قلوب أهل الحق قلوب حاضرة ، وأسماعهم أسماع مفتوحة » .

وهذا كلام حسن . قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [سورة ق : ٣٧] . قالوا : وهو حاضر القلب ، ليس بغائبه ، ووصف الله الكفار بأنهم صم بكم عمى لا يسمعون ولا يعقلون ، وأن فى آذانهم وقراً ، وأنه خَتَمَ على قلوبهم وعلى سمعهم .

قال [٤] : «وسمعته» يعنى : أبا عبد الرحمن [٥] « يقول : سمعت الأستاذ أبا سهل [الصعلوكى] [٦] يقول : المستمع بين استتارٍ وتجلٍّ [٧] فالاستتار [٨] يوجب [٩] التلهيب ، والتجلى يورث الترويح . والاستتار يتولد منه حركات المريدين ، وهو محل الضعف والعجز ، والتجلى يتولد منه سكون الواصلين ، وهو محل الاستقامة والتمكن [١٠] ، وذلك

(١) بعد كلامه السابق مباشرة ٢/٦٤٧

(٢) القشيرية : سمعت .

(٣) يقول : زيادة فى « القشيرية » .

(٤) بعد كلامه السابق مباشرة ٢/٦٤٧ .

(٥) عبارة : يعنى أبا عبد الرحمن : من كلام ابن تيمية

(٦) الصعلوكى : زيادة من « القشيرية » .

(٧) فى الأصل : وتجلى .

(٨) فى الأصل : فى الأستار ، وهو تحريف . والمثبت من « القشيرية » .

(٩) فى الأصل : موجب . والمثبت فى «القشيرية» .

(١٠) القشيرية : والتمكين .

صفة الحضرة ، ليس فيها إلا الذبول تحت[(١)] موارد الهيبة . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ﴾ [سورة الأحقاف : ٢٩] »

قلت : هذا كلام على / أحوال[(٢)] أهل السماع . وهو مطلق فى السماع الشرعى والبدعى ، لكنه إلى وصف حال المحدَث أقرب ، وهو وصف لبعض أحوالهم ، فإن أحوالهم أضعاف ذلك . وأما الاستدلال بالآية ففيه كلام ليس هذا موضعه .

ص ١١١

قال[(٣)] : «وقال أبو عثمان الحيرى : السماع على ثلاثة أوجه : فوجه منها للمريدين والمبتدئين[(٤)] يستدعون بذلك الأحوال الشريفة ، ويُخشى عليهم فى ذلك الفتنة والمراءاة[(٥)] .

والثانى : للصادقين يطلبون[(٦)] الزيادة فى أحوالهم ويستمعون من[(٧)] ذلك ما يوافق أوقاتهم[(٨)] .

والثالث : لأهل الاستقامة من العارفين ، وهؤلاء[(٩)] لا يختارون على الله[(١٠)] فيما يَرِد على قلوبهم من الحركة والسكون» .

قلت : هذا الكلام مطلق فى السماع يتناول القسمين .

---

(١) فى الأصل : يحب . وهو تحريف والمثبت من « القشيرية » .

(٢) فى الأصل : على أحوال أمر . ورأيت أن حذف كلمة «أمر» يستقيم به الكلام .

(٣) بعد كلامه السابق مباشرة ٢/٦٤٧-٦٤٨ .

(٤) فى الأصل : المريدين والمبتدين . والمثبت من « القشيرية »

(٥) فى الأصل : والمراياه . والمثبت من « القشيرية »

(٦) فى الأصل : الصادقين فيصيلون . والمثبت من « القشيرية » .

(٧) فى الأصل : فى . والمثبت من « القشيرية »

(٨) فى الأصل : أقواتهم . والمثبت من « القشيرية » .

(٩) القشيرية : فهؤلاء .

(١٠) القشيرية : الله تعالى .

فصل
فى محبة الجمال

ثبت فى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يدخل النار أحد فى قلبه مثقال حبة خردلٍ من إيمان ، ولا يدخل الجنة أحد فى قلبه مثقال حبة خردلٍ من كبر » (١) .

وفى رواية : « لايدخل الجنة من [كان] (٢) فى قلبه مثقال ذرة من كبر . فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا (٣) ونعله حسنا . فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس » (٤) .

فقوله : إن الله جميل يحب الجمال قد أُدرج فيه حسن الثياب التى هى (٥) المسئول عنها ، فعُلم أن الله يحب الجمال [و] الجميل (٦) من اللباس ، ويدخل فى عمومه وبطريق الفحوى (٧) الجميل من كل شئ . هذا كقوله فى الحديث الذى رواه [الترمذى :] (٨) « إن الله نظيف يحب النظافة » (٩) .

---

(١) الحديث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : مسلم ٩٣/١ (كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه) إلا أن فيه « من كبرياء » والحديث -مع اختلاف يسير فى الألفاظ - فى : سنن أبى داود ٨٤/٤ (كتاب اللباس ، باب ما جاء فى الكبر) ؛ سنن ابن ماجة ٢٢/١ -٢٣ (المقدمة ، باب فى الإيمان) .

(٢) كان : ساقطة من الأصل ، وهى من ألفاظ الحديث .

(٣) فى الأصل : حسن ، وهو خطأ .

(٤) مضى الحديث من قبل .

(٥) فى الأصل : هم ، وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : الجمال الجميل .

(٧) فى الأصل : الفحو ، وهو تحريف

(٨) الترمذى : زدتها ليستقيم الكلام .

(٩) الحديث عن عامر بن سعد عن أبيه رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ١٩٨/٤ وأوله : إن الله طيب =

وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : « إن الله طيب يحب الأطيباء »[١] . وهذا مما يُستدل به على استحباب التجمل فى الجُمَع والأعياد ، كما فى الصحيح أن عمر بن الخطاب رأى حلةً تباع فى السوق فقال : يارسول الله لو اشتريت هذه تلبسها ؟ فقال : « إنما يلبس هذه /من لا خَلاق[٢] له فى الآخرة »[٣] . ظ ١١١

وهذا يوافقه فى حسن الثياب ما فى السنن عن أبى الأحوص الجشمى[٤] قال : رآنى النبى صلى الله عليه وسلم وعلىّ أطمار ، فقال : هل لك من مال ؟ قلت : نعم . قال : من أى المال ؟ قلت : من كل ما

=يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم . . الحديث . وقال الترمذى : « هذا حديث غريب وخالد بن إلياس يُضعَّف ، ويقال : ابن إياس » .

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ ، وجاء الحديث فى الترمذى (انظر التعليق السابق) بلفظ مقارب ، كما جاء حديث صحيح فى : مسلم ٧٠٣/٢ (كتاب الزكاة ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها) عن أبى هريرة رضى الله عنه وأوله : أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين--الحديث . وهذا الحديث أيضا فى : سنن الدارمى ٣٠٠/٢ (كتاب الرقاق ، باب فى أكل الطيب) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٢٨/٢ .

(٢) فى الأصل : خلاف ، وهو تحريف .

(٣) الحديث عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى : البخارى ٤/٢ (كتاب الجمعة ، باب يلبس أحسن مايجد) وأوله : أن عمر بن الخطاب رأى حلة سيراء عند باب المسجد ، فقال : يارسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة وللوفد إذا قدموا عليك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما يلبس هذه من لاخلاق له فى الآخرة ...الحديث.وهو فى : البخارى ٦٣/٣ (كتاب البيوع ، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء) ؛ مسلم ١٦٣٨/٣ - ١٦٤١ (كتاب اللباس والزينة ، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة ..الخ) ؛ سنن النسائى ٧٨/٣ (كتاب الجمعة ، باب الهيئة للجمعة) ؛ سنن ابن ماجة ١١٨٧/٢ -١١٨٨ (كتاب اللباس ، باب كراهية لبس الحرير) ؛ الموطأ ٩١٧/٢ (كتاب اللباس ، باب ماجاء فى لبس الثياب) ؛ المسند(ط المعارف) ٣٢٣/٦ .

(٤) فى الأصل : الختنمى ؛ هو تحريف .

أتى الله من الإبل والشاء. قال : فلتُر نعمة الله وكرامته عليك » .[١]

وفى السنن أيضا عن عمرو[٢] بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب أن يُرَى أثر نعمته على عبده »[٣] لكن هذا الظهور لنعمة[٤] الله وما فى ذلك من شكره ، والله يحب أن يُشكر ، وذلك لمحبته الجمال .

وهذا الحديث قد ضل قوم بما تأوّلوه عليه ، وآخرون رأوه[٥] معارضا لغيره من النصوص ولم يهتدوا للجمع .

فالأولون : قد يقولون : كل مصنوع الرب جميل ، لقوله : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [سورة السجدة : ٧] فنُحب كل شئْ . وقد يستدلون بقول بعض المشايخ : « المحبة نار تحرق فى القلب كل ما سوى مراد المحبوب » ، والمخلوقات كلها مراده ، وهو لا يقوله قائلهم . فصرَّح بإطلاق الجمال ، وأقل ما يصيب هؤلاء أنهم يتركون الغَيْرة لله ، والنهى عن المنكر ، والبغض فى الله ، والجهاد فى سبيله ، وإقامة حدوده .

---

(١) الحديث عن أبى الأحوص الجشمى عن أبيه رضى الله عنه فى: سنن أبى داود ٧٤/٤ (كتاب اللباس ، باب فى غسل الثوب وفى الخُلقان) ؛ سنن النسائى ١٥٧/٨ (كتاب الزينة . باب الجلاجل) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٤٧٣/٣ .

(٢) فى الأصل : عمر ، وهو خطأ .

(٣) الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده فى : سنن الترمذى ٢٠٦/٤ – ٢٠٧ (كتاب الأدب ، باب ماجاء أن الله يحب أن يُرى أثر نعمته على عبده) وقال الترمذى : « وفى الباب عن أبى الأحوص عن أبيه وعمران بن حصين وابن مسعود . هذا حديث حسن . والحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى المسند (ط . المعارف) ٢٤٠/١٥–٢٤١ ، وعن عمران بن حصين رضى الله عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٤٣٨/٤ .

(٤) فى الأصل : نعمة .

(٥) فى الأصل : رواه ، وهو تحريف .

وهم فى ذلك متناقضون ، إذ لا يتمكنون من الرضا بكل موجود . فإن المنكرات هى أمور مضرة لهم ولغيرهم [١] ، ويبقى أحدهم مع طبعه وذوقه وهواه ، ينكر ما يكره ذوقه دون ما لا يكره ذوقه ، وينسلخون عن دين الله ، وربما دخل أحدهم فى الاتحاد والحلول المطلق ، ومنهم من يخصّ الحلول أو الاتحاد ببعض المخلوقات ، كالمسيح أو على بن أبى طالب أو غيرهما من المشايخ والملوك والمردان ، فيقولون بحلوله فى الصور [٢] الجميلة ، ويعبدونها .

ومنهم من لايرى ذلك ، لكن يتدين بحب الصور الجميلة ، من النساء الأجانب والمردان وغير ذلك ، ويرى هذا من الجمال الذى يحبه الله ، ويحبه هو ، ويلبس المحبة الطبيعية المحرَّمة بالمحبة الدينية ، /ويجعل ما حرَّمه [الله] [٣] مما يقـــرِّب إليه : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٨] . ص ١١٢

والآخرون قالوا : ثبت فى صحيح مسلم [٤] عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » [٥] . ومعلوم أنه لم ينف نظر الإدراك ، لكن نظر المحبة .

---

(١) فى الأصل : ولغيرها ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : فى الصو ، وهو تحريف .

(٣) زدت لفظ الجلالة ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : فى الصحيح مسلم ، وهو تحريف .

(٥) مضى الحديث من قبل .

وقد قال تعالى عن المنافقين : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [سورة المنافقون : ٤] .

وقال تعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً ﴾ [سورة مريم : ٧٤] . والأثاث : المال من اللباس ونحوه ، والرئى [(١)] المنظر . فأخبر أن الذين أهلكهم قبلهم كانوا أحسن صوراً وأموالاً ، لتبين أن ذلك لا ينفع عنده ولا يُعبأ به .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض [(٢)] على أسود إلا بالتقوى » [(٣)] .

وفى السنن عنه أنه قال : « البذاذة من الإيمان » [(٤)] .

وأيضا فقد حرَّم علينا [من] [(٥)] لباس [(٦)] الحرير والذهب ، وآنية الذهب والفضة : ما هو أعظم الجمال فى الدنيا ، وحرَّم الله الفخر والخيلاء ، واللباس الذى فيه الفخر والخيلاء ، كإطالة الثياب .

(١) فى الأصل : والذى ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : ولا لاينفض ، وهو تحريف ظاهر .

(٣) فى المسند (ط . الحلبى) ٤١١/٥ عن أبى نضرة حدثنى من سمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وسط أيام التشريق فقال : يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . ألا لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى . أبلغت ؟ قالوا : بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحديث .

(٤) فى : سنن أبى داود ١٠٦/٤ -١٠٧ (كتاب الترجل ، الباب الأول) عن أبى أمامة قال : ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما عنده الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا تسمعون ؟ ألا تسمعون ؟ إن البذاذة من الإيمان ، إن البذاذة من الإيمان - يعنى التقحل . وقال أبو داود : هو أبو أمامة بن ثعلبة الأنصارى . والحديث عن عبد الله بن أبى أمامة الحارثى عن أبيه فى سنن ابن ماجة ١٣٧٩/٢ (كتاب الزهد ، باب من لا يؤبه له) وفى آخره : قال : البذاذة : القشافة ، يعنى : التقشف .

(٥) من : زدتها ليستقيم الكلام .

(٦) فى الأصل : اللباس ، وهو تحريف .

حتى ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره بطراً » [(١)] .

وفى الصحيح عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » [(٢)] .

وفى الصحيح أيضا قال : « بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة » [(٣)] .

وقد قال تعالى فى حق قارون : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ ﴾ [سورة القصص : ٧٩] ، قالوا : ثياب الأرجوان [(٤)] .

ولهذا ثبت فى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال : رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلىَّ ثوبين معصفرين ، فقال : « إن هذه من ثياب

---

(١) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ١٤١/٧ (كتاب اللباس ، باب من جرّ ثوبه من الخيلاء) ؛ مسلم ١٦٥٣/٣ (كتاب اللباس ، باب تحريم جر الثوب خيلاء) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٥/٣ .

(٢) الحديث عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى : البخارى ٦/٥ (كتاب أصحاب النبى ، باب حدثنا الحميدى) ، ١٤١/٧ (كتاب اللباس ، باب من جرّ إزاره من غير خيلاء) ؛ مسلم ١٦٥١/٣ - ١٦٥٣ (كتاب اللباس ، باب تحريم جر الثوب خيلاء) ؛ سنن أبى داود ٨١/٤ (كتاب اللباس ، باب ما جاء فى إسبال الإزار) ؛ سنن الترمذى ١٣٧/٢ (كتاب اللباس ، باب ما جاء فى كراهية جر الإزار) ؛ سنن ابن ماجة ١١٨١/٢ (كتاب اللباس ، باب من جر ثوبه من الخيلاء).والحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى المسند (ط . المعارف) ١٠٨/٧ ، ٢٦٣ ٣٨٩ وهو عن أبى سعيد الخدرى وابن عمر رضى الله عنهم فى المسند (ط . الحلبى) ٣٩/٣ - ٤٠ .

(٣) الحديث عن ابن عمر - رضى الله عنهما فى : البخارى ١٧٧/٤ (كتاب الأنبياء ، باب حدثنا أبو اليمان) ، ١٤١/٧ (كتاب اللباس ، باب من جر ثوبه من الخيلاء) .

(٤) قال ابن الجوزى فى تفسيره « زاد المسير » ٢٤٣/٦ « قال الحسن : فى ثياب حمر وصفر ، وقال عكرمة : فى ثياب معصفرة . وقال وهب بن منبه : خرج على بغلة شهباء عليها سرج أحمر من أرجوان . . الخ » .

الكفار فلا تلبسها . قلت : أغسلها ؟ قال : احرقها » [(١)] .

ظ ١١٢ ولهذا كره /العلماء المحققون الأحمر المشبع حمرة ، كما جاء النهى عن الميثرة الحمراء [(٢)] . وقال عمر بن الخطاب : دعوا هذه الرايات للنساء . وقد بسطنا القول فى هذه المسألة فى موضعها .

وأيضا فقد قال الله تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ إلى قوله : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة النور : ٣٠-٣١] [(٣)] .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة « العينان تزنيان ، وزناهما النظر » [(٤)] .

وفى الصحيح عن جرير بن عبد الله قال : سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة ، فقال : « اصرف بصرك » [(٥)] .

---

(١) جمع ابن تيمية بين حديثين رواهما مسلم فى صحيحه ١٦٤٧/٣ (كتاب اللباس والزينة ، باب النهى عن لبس الرجل الثوب المعصفر) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال فى أولهما : رأى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عليّ ثوبين معصفرين فقال : «إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها» . وفى الثانى : فقال (النبى صلى الله عليه وسلم) : «أأمك أمرتك بهذا ؟» قلت : أغسلهما ؟ قال : بل احرقهما» .

(٢) فى الأصل : المسرة الحمراء . وفى سنن النسائى ١٩٤/٧ (كتاب الزينة ، باب النهى عن الجلوس على المياثر من الأرجوان) عن على رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل اللهم سددنى واهدنى . ونهانى عن الجلوس على المياثر . والمياثر قسِّيٌّ كانت تصنعه النساء لبعولتهن على الرجل كالقطائف من الأرجوان .

(٣) فى الأصل حرفت الآية إلى : من أصواتهم .

(٤) مضى الحديث من قبل .

(٥) فى الأصل : اضرب وبصرك ، وهو تحريف . والحديث عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه فى : مسلم ١٦٩٩/٣ (كتاب الآداب ، باب نظر الفجأة) ونصه : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة ، فأمرنى أن أصرف بصرى . والحديث فى : سنن الترمذى ٤ /١٩١ (كتاب الاستئذان والآداب ، باب =

وفى السنن أنه قال لعلىّ : « يا علىّ : لا تتبع النظرة النظرة ، فإنما لك الأولى ، وليست لك الآخرة [1] »

وقد قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [سورة طه : ١٣١] .

وقال : ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٨٨] . وقال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٣ -١٥] .

وقد قال مع ذمه لمذامه من هذه الزينة : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [سورة الأعراف : ٣٢] .

= ماجاء فى نظر الفجاءة) . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح ؛ سنن أبى داود ٢/٣٣٠ (كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر) وفيـه : « اصرف بصرك » وهى الرواية التى معنا ؛ سنن الدارمى ٢/٢٧٨ (كتاب الاستئذان باب فى نظر الفجأة) .

(١) الحديث عن بريدة الأسلمى رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٢/٣٣٠ – ٣٣١ (كتاب النكاح ، باب ما يؤمر به من غض البصر) وأوله : « ياعلى لاتتبع . . . الحديث . وهو عنه أيضا فى : سنن الترمذى ٤/١٩١ (كتاب الاستئذان والآداب ، باب ماجاء فى نظر الفجاءة) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٥/٣٥١ – ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ . والحديث عن على رضى الله عنه فى : سنن الدارمى ٢/٢٩٨ (كتاب الرقاق ، باب فى حفظ السمع) .

فنقول : اعلم أن ما يصفه به النبى صلى الله عليه وسلم من محبة الأجناس المحبوبة من الأعيان والصفات والأفعال ، وما يبغضه من ذلك ، هو مثل ما يأمر به من الأفعال ، وينهى عنه من ذلك ، فإن الحب والبغض /هما أصل الأمر والنهى ، وذلك نظير ما يعده على الأعمال الحسنة من الثواب ، ويتوعد به على الأعمال السيئة من العقاب . ص ١١٣

فأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وحبه وبغضه ، وثوابه وعقابه: كل ذلك من جنس واحد . والنصوص النبوية تأتى مطلقة عامة من الجانبين ، فتتعارض فى بعض الأعيان والأفعال التى تندرج فى نصوص المدح والذم ، والحب والبغض ، والأمر والنهى ، والوعد والوعيد . وقد بسطنا الكلام على ما يتعلق بهذه القاعدة فى غير موضع ، لتعلقها بأصول الدين وفروعه .

فإن من أكبر المسائل التى تتبعها مسألة الأسماء [١] والأحكام فى فسّاق أهل الملة ، وهل يجتمع فى حق الشخص الواحد الثواب والعقاب ، كما يقوله أهل السنة والجماعة ، أم لا يجتمع ذلك ؟ [وهل] [٢] يكون الشئ الواحد محبوبا من وجه مبغوضا من وجه ، محموداً من وجه مذموما من وجه ، كما يقوله جمهور الخوارج والمعتزلة ؟ وهل يكون الفعل الواحد مأمورا به من وجه منهيا عنه من وجه ؟

وقد تنازع فى ذلك أهل العلم من الفقهاء والمتكلمين وغيرهم ،

---

(١) فى الأصل : فإن من الكبر سعيها مشاله الأسماء . وهو تحريف ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) وهل : زدتها ليستقيم الكلام .

والتعارض بين النصوص إنما هو لتعارض المتعارض المقتضى[١] للحمد والذم من الصفات القائمة بذاته [٢][تعالى][٣]. ولهذا كان هذا الجنس موجبا للكفر[٤] أو الفتنة ، فأول مسألة فرّقت[٥] بين الأمة مسألة الفاسق الملىّ ، فأدرجته الخوارج فى نصوص الوعيد والخلود فى النار وحكموا بكفره[٦] ، ووافقتهم المعتزلة على دخوله فى نصوص الوعيد وخلوده فى النار ، لكن لم يحكموا بكفره ، فلو كان الشئ خيراً محضا لم يوجب فرقة ، ولو كان شرّاً محضا لم يخف[٧] أمره ، لكن لاجتماع الأمرين[٨] فيه أوجب الفتنة .

وكذلك مسألة القدر ، التى هى من جملة فروع هذا الأصل ، فإنه اجتمع فى الأفعال الواقعة التى نهى الله عنها أنها مرادة له[٩] لكونها من الموجودات ، وأنها غير محبوبة له /ولا مرضية ، بل ممقوتة مبغوضة لكونها من المنهيات . ظ ١١٣

فقال طوائف من أهل الكلام : الإرادة والمحبة والرضا واحدة ، أو متلازمة . ثم قالت القدرية : والله لم يحب هذه الأفعال ولم يرضها[١٠] ، فلم يردها ، فأثبتوا وجود الكائنات بدون مشيئة .

(١) فى الأصل : لمقتضى ، وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : بذلك ، وهو تحريف .
(٣) زدت كلمة « تعالى » للإيضاح .
(٤) فى الأصل : للفقر ، وهو تحريف .
(٥) فى الأصل : قريب ، وهو تحريف .
(٦) فى الأصل : فى نصوص الوعيد وتلك الكفار وحكموا بكفره ، وهو تحريف .
(٧) فى الأصل : لم يخق ، وهو خطأ .
(٨) فى الأصل : لاجتماع بن ، وهو تحريف
(٩) فى الأصل : أنها ما رده له ، وهو تحريف .
(١٠) فى الأصل : ولم يرضاها ، وهو خطأ .

ولهذا لما قال غيلان القدرى لربيعة بن عبد الرحمن : يا ربيعة نشدتك بالله أترى الله يحب أن يُعصى [١] ؟ فقال له ربيعة : أفترى الله يُعصى قسرا ؟ فكأنه ألقمه [٢] حجرا . يقول له : نزَّهته عن محبة المعاصى فسلبته الإرادة والقدرة ، وجعلته مقهوراً مقسوراً .

وقال من عارض القدرية : بل كل ما أراده فقد أحبه ورضيه ، ولزمهم أن يكون الكفر والفسوق والعصيان محبوباً لله مرضيا .

وقالوا أيضا : يأمر بما لا يريده ، وكل ما أمر به من الحسنات فإنه لم يرده ، وربما قالوا : ولم يحبه ولم يرضه إلا إذا وُجد ، ولكن أمر به وطلبه .

فقيل لهم : هل يكون طلب وإرادة واستدعاء [٣] بلاإرادة ولا محبة ولا رضا ؟ هذا جمع بين النقيضين ، فتحيروا .

فأولئك سلبوا الرب خلقه وقدرته وإرادته ، وهؤلاء سلبوه محبته ورضاه وإرادته الدينية [٤] ، وما يصحبه أمره ونهيه من ذلك . فكما أن الأوّلين لم يثبتوا أن الشخص الواحد يكون مثابا معاقَبا [٥] ، بل إما مثاب وإما معاقب ، فهؤلاء لم يبيّنوا أن الفعل الواحد يكون مراداً من وجه دون وجه ، مراداً غير محبوب ، بل إما مراد محبوب ، وإما غير مراد ولا محبوب ، ولم يجعلوا الإرادة إلا نوعا واحداً . والتحقيق أنه يكون مراداً غير

---

(١) فى الأصل : يقصى . وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : لقمه . وهو تحريف .
(٣) فى الاصل : واستدعى .
(٤) فى الأصل الدينه ، وهو تحريف
(٥) فى الأصل : معناقبا ، وهو تحريف .

محبوب ولا مرضيّ،ويكون مراداً من وجه دون وجه ، ويكون محبوباً مرضيا غير مراد الوقوع .

والإرادة نوعان : إرادة دينية ، وهى المقارنةُ الأمرَ والنهى ، والحب والبغض ، والرضا والغضب .

/وإرادة كونية ، وهى المقارنة للقضاء والقدر ، والخلق والقدرة . ص ١١٤

وكما تفرَّقوا فى صفات الخالق [١] تفرقوا فى صفات المخلوق . فأولئك لم يثبتوا له إلا قدرة واحدة تكون قبل الفعل ، وهؤلاء لم يثبتوا له إلا قدرة واحدة تكون مع الفعل .

أولئك نفوا القدرة الكونية التى بها يكون الفعل ، وهؤلاء نفوا القدرة [٢] الدينية التى بها يأمر الله العبد وينهاه .

وهذا من أصول تفرّقهم فى مسألة تكليف ما لا يُطاق . وانقسموا إلى : قدرية مجوسية تثبت الأمر والنهي ، وتنفى القضاء والقدر . وإلى قدرية مشركية شرٌّ منهم تثبت القضاء والقدر ، وتَكذّب بالأمر والنهى ، أو ببعض ذلك .

وإلى : قدرية إبليسية تصدق بالأمرين ، لكن ترى ذلك تناقضا مخالفاً للحق والحكمة .

وهذا شأن عامة ما تتعارض فيه الأسباب والدلائل . تجد فريقا يقولون بهذا دون هذا ، وفريقا بالعكس ، وفريقاً رأوا الأمرين واعتقدوا

(١) فى الأصل : الخلق ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : للقدرة ، وهو تحريف .

تناقضهما ، فصاروا متحيرين أو معرضين عن التصديق بهما جميعا ، أو متناقضين مع هذا تارة ، ومع هذا تارةً .

وهذا تجده فى مسائل الكلام والاعتقادات ، ومسائل الإرادة والعبادات ، كمسألة السماع الصوتى ، ومسألة الكلام ، ومسائل الصفات ، وكلام الله ، وغير ذلك من المسائل .

وجماع القول فى ذلك : أن كل أمرين تعارضا فلا بد أن يكون أحدهما راجحا ، أو يكونا متكافئين ، فيُحكم بينهما بحسب الرجحان ، وبحسب التكافؤ [(١)] ، فالعملان والعاملان إذا امتاز كل منهما بصفات ، فإن ترجح أحدهما فهو الراجح ، وإن تكافئا سُوِّى بينهما فى الفضل والدرجة ، وكذلك أسباب المصالح والمفاسد ، وكذلك الأدلة ، بأنه يُعطى كل دليل حقه ، ولا يجوز أن تتكافأ الأدلة فى نفس الأمر عند الجمهور ، لكن تتكافأ فى نظر الناظر ، وأما كون الشئ الواحد من الوجه الواحد ثابتاً منتفيا ، فهذا لا يقوله عاقل .

ظ ١١٤ وأصل هذا كله العدل بالتسوية بين المتماثلين . فإن الله تعالى /يقول : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [سورة الحديد : ٢٥] وقد بسطنا القول فى ذلك ، وبيَّنّا أن العدل جماع الدين والحق والخير كله فى غير موضع .

والعدل الحقيقى قد يكون متعذرا [(٢)] : إما عمله ، وإما العمل به .

---

(١) فى الأصل : التكافى .

(٢) فى الأصل : معتذرا . وهو تحريف .

لكن[١] التماثل من كل وجه غير ممكن أو غير معلوم ، فيكون الواجب فى مثل ذلك ما كان أشبه بالعدل وأقرب إليه ، وهى الطريقة المثلى .

وقال سبحانه : ﴿ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٢] .

وعلى هذا فالحق الموجود : وهو الثابت الذى يقابله المنفى[٢] . والحق المقصود : وهو المأمور به المحبوب ، الذى يقابله المنهى عنه المبغوض : ثلاثة أقسام .

فإنها فى الحق المقصود : إما أمر ترجحت المصلحة المحبوبة فيه ، وهذا يؤمر به .

وإما أمر ترجحت فيه المفسدة المكروهة ، فهذا يُنهى عنه .

وإما أمر استوى فيه هذا [وهذا][٣] ،فهذا لا يؤمر به[٤] ولا يُنهى عنه ، ولا يترجح فيه الحب ، ولا يترجح فيه البغض ، بل يكون عفواً .

وما دون[٥] هذا -إن كان مثل هذا موجوداً[٦] -فإن الناس يتنازعون[٧] فى وجوده . فقيل[٨] : هو موجود . وقيل : بل هو يقدر فى

(١) فى الأصل : ليكون ، وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : المنتفى .
(٣) زدت « وهذا » ليستقيم الكلام .
(٤) فى الأصل : لامربه ، وهو تحريف
(٥) فى الأصل : ومادونا ، وهو تحريف
(٦) فى الأصل : موجود ، وهو خطأ
(٧) فى الأصل : يتنازعوا ، وهو خطأ .
(٨) فى الأصل : فقل ، وهو تحريف .

الفعل لا وجود له ، بل لابد من الرجحان ، كما قيل مثل ذلك فى تكافؤ[(١)] الأدلة .

وعلى هذا فالأمر الذى ترجحت فيه المصلحة ، وأُمر به ، غلب فيه جانب المحبة ، مع أن الذى فيه المفسدة ، مبغض ، لكنه مراد ، فهو مراد بغيض . والأمر الذى ترجح فيه جانب المصلحة محبوب،لكنه مراد الترك محبوب ، فهو محبوب فى نفسه ، لكن لملازمته لما هو بغيض ، وجب أن يُراد تركه تبعا لكراهةٍ لازمة ، فإنه بغَّض اللازم ونفى المنفىّ[(٢)] الملزوم .

فحاصله أن المراد إرادة جازمة هو أحد الأمرين : إما الفعل ، وإما الترك . والأول : هو المأمور به . والثانى : هو المنهى عنه . لكن مع هذا فقد /يشتمل المفعول على بغيض محتمل ، ويشتمل المتروك على حبيب مرفوض ، فهذا أصل نافع . ص ١١٥

فهذا فى الفعل الواحد . وأما الفاعل الواحد الذى يعمل الحسنة والسيئة معا ، وهو وإن كان التفريق بينهما ممكنا ، لكنه هو يعملها جميعا أو يتركها جميعا ، لكون[(٣)] محبته لأحدهما مستلزمة لمحبته للأخرى ، وبغضه لأحدهما مستلزما لبغضه للأخرى . فصار[(٤)] لا يؤمر إلا بالحسن من الفعلين ، ولا ينهى إلا عن السيىء منهما ، وإن لزم ترك الحسنة لا ينبغى أن يأمره فى مثل هذا بالحسنة المرجوحة ، فإنه يكون أمرا بالسيئة ، ولا ينهاه

---

(١) فى الأصل : تكافى .

(٢) فى الأصل كأنها : النى . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : لكونه ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : فصا ، وهو تحريف .

عن السيئة المرجوحة ، فإنه يكون نهياً عن الحسنة الراجحة ، وهكذا المعين يعين على الحسنة الراجحة ، وعلى ترك السيئة المرجوحة .

وهذا أصل عظيم تدخل فيه أمور عظيمة ، مثل الطاعة لأئمة الجور[١] وترك الخروج عليهم ، وغير ذلك من المسائل[٢] الشرعية . وهكذا حكم الطائفة المشتملة أفعالها على حسنات وسيئات ، بمنزلة الفاعل فى ذلك ، وبما ذكرناه فى الفعل الواحد والفاعل الواحد – تظهر أمور كثيرة : إما الحق الموجود[٣] ، وإما أن يكون الشئ فى نفسه ثابتاً ومنتفيا ، لكن كثيرا ما تحصل المقابلة بين إثباتٍ عام ، ونفى عام ، ويكون الحق فى التفصيل ، وهو ثبوت بعض ذلك العام وانتفاء بعضه ، وهذا هو الغالب على المسائل الكبار التى يتنازع فيها أحزاب الكلام والفلسفة ونحوهم .

والدليل إما أن يكون دليلا معلوما ، فهذا لا يكون إلا حقا . لكن كثيرا ما يظن الإنسان أن الشئ معلوم ولا يكون معلوما ، وحينئذ فإذا ظن ظان تعارض الأدلة المعلومة كان غالطا فى تعارضها ، بل يكون أحد الأمرين لازماً[٤] –إما كلها[٥] أو بعضها – غير معلوم . وإما أن موجب الدليل حق من غير تعارض ، وإن ظنه الظان تعارضا ، فالحق الموجود[٦] لا ينافى الحق الموجود ، بل يكون كل منهما موجوداً بخلاف الحق المقصود ، فإنه قد

(١) فى الأصل : مثل الفوز مع أئمة الجور ، وهو تحريف . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : مسائل .

(٣) فى الأصل : وإما الحق الموجود . وأخشى أن يكون فى الكلام سقط .

(٤) فى الأصل : لازم ، وهو خطأ .

(٥) فى الأصل : أنها ، وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : موجود ، وهو خطأ .

ظ ١١٥ يُقصد /الضدان لما فى كل منهما من المصالح المقصودة ، لكن لايوجد الضدان . وإن كان الدليل مغلّباً للظن اعتقد فيه موجبه ، وإذا تعارضت هذه [الأدلة] [١] رجح راجحها وسُوِّىَ بين متكافيها .

إذا تقرر ذلك فنقول [٢] : قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله جميل يحب الجمال » ، كقوله للذى علَّمه الدعاء : « اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى » [٣]، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٢٢] ، وإن الله نظيف يحب النظافة .

فهو سبحانه إذا كان يحب العفو لم يوجب هذا ألاَّ يكون فى بعض أنواع العفو من المعارض الراجح ما يعارض [ما] [٤] فيه من محبة العفو ، ولولا ذلك لكان ينبغى أن يعفو عن كل محرم ، فلا يعاقب مشركا ولا فاجراً ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وهذا خلاف الواقع ، ولوجب أن يستحب لنا العفو عن كل كافر وفاجر ، فلا نعاقب أحداً على شئ ، وهذا خلاف ما أمَرَنا به ، وخلاف ما هو صلاح لنا ، ونافع فى الدنيا والآخرة .

وكذلك محبته للمتطهرين ومحبته للنظافة ، لا تمنع حصول المعارض الراجح ، مثل أن يكون الماء محتَاجاً إليه للعطش ، فمحبته لسقى العطشان راجحة على محبته للطهارة والنظافة .

(١) زدت كلمة « الأدلة » ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : فيقول .

(٣) الحديث عن عائشة رضى الله عنها فى : سنن الترمذى ١٩٥/٥ (كتاب الدعوات ، باب منه) وأوله : قلت يارسول الله ، أرأيت إن علمت أى ليلة ليلةُ القدر ما أقول فيها ؟ . . الحديث . . ؛ سنن ابن ماجة ١٢٦٥/٢ (كتاب الدعاء ، باب الدعاء بالعفو والعافية) ؛ المسند (ط . الحلبى) ١٧١/٦ وأماكن أخرى بالمسند .

(٤) زدت «ما» ليستقيم الكلام .

وكذلك سائر ما يتزاحم من الواجبات والمستحبات ، فإنها جميعها محبوبة لله ، وعند التزاحم يُقدّم أحبها إلى الله . والتقرب إليه بالفرائض أحب إليه من التقرب إليه بالنوافل ، وبعض الواجبات والمستحبات أحب إليه من بعض .

وكذلك إذا تعارض المأمور والمحظور ، فقد تعارض حبيبه وبغيضه ، فيقدّم أعظمها فى ذلك ، فإن كان محبته لهذا أعظم من بغضه لهذا قُدِّم ، وإن كان بغضه لهذا أعظم من حبه لهذا قدم .

كما قال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [سورة البقرة : ٢١٩] وعلى هذا استقرت /الشريعة بترجيح خير الخيرين ، ودفع شر الشرين ، وترجيح الراجح من الخير والشر المجتمعين. ص ١١٦

والله سبحانه يحب صفات الكمال[1] ، مثل العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك . فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير »[2] . وفى الصحيح عنه أنه قال : «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»[3] .

(١) فى الأصل : الكلاَم ، وهو تحريف.

(٢) مضى الحديث من قبل.

(٣) الحديث عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه فى : البخارى ١١٥/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تبارك وتعالى : قل ادعوا الله ....) ؛ مسلم ١٨٠٩/٤ (كتاب الفضائل ، باب رحمته صلى الله عليه وسلم ....)؛ سنن الترمذى ٢١٦/٣ (كتاب البر ، باب ما جاء فى رحمة الناس) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣٥٨/٤ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ . والحديث عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ١٨/٤ (كتاب الزهد ، باب ما جاء فى الرياء والسمعة) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٤٠/٣ .

وفى الصحيح أيضا عنه : «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[(١)]

وفى السنن حديث ثابت عنه : «الراحمون يرحمهم الرحمٰن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»[(٢)] .

ومع هذا فقد قال تعالى فى حد الزانى والزانية : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [سورة النور : ٢] .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ واغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة التوبه : ٧٣] .

وهذا فى الحقيقة من رحمة الله بعباده ، فإن الله إنما أرسل محمدا رحمة للعالمين ، وهو سبحانه أرحم بعباده من الوالدة بولدها . لكن قد تكون الرحمة المطلوبة لا تحصل إلا بنوع من ألم وشدَّة تلحق بعض النفوس ، كما ورد فى الأثر : إذا قالوا للمريض : اللهم ارحمه . يقول الله : كيف أرحمه من شئٌ به أرحمه ؟»

وكذلك كون الفعل عفوا وصفٌ يقتضى محبة الله له ، فإذا عارضه

---

(١) هذا جزء من حديث طويل عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما فى : البخارى ٧٩/٢ (كتاب الجنائز ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : يعذب الميت ببعض بكاء أهله) وأوله : أرسلت ابنة النبى صلى الله عليه وسلم أن ابناً لى قبض .... الحديث . وهو فى : مسلم ٦٣٥/٢-٦٣٦ (كتاب الجنائز ، باب البكاء على الميت) ؛ سنن النسائى ١٩/٤ (كتاب الجنائز ، باب الأمر بالاحتساب والصبر....) ؛ سنن ابن ماجة ٥٠٦/١ (كتاب الجنائز ، باب ما جاء فى البكاء على الميت) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٢٠٤/٥ ، ٢٠٥-٢٠٦ ، ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) الحديث عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما فى : سنن أبى داود ٣٩٢/٤ (كتاب الأدب ، باب فى الرحمة) ؛ سنن الترمذى ٢١٧/٣ (كتاب البر ، باب ما جاء فى رحمة الناس) . وقال الترمذى : «هذا حديث حسن صحيح».

ما هو أحب إلى الله منه ، أو اشتمل على بغض[1] الله له أعظم من محبته لذلك العفو قُدِّم الراجح .

فكون الشئ جميلا يقتضي محبة الله له ، وهو سبحانه أحسن كل شئ خلقه ، إذ كل موجود فلا بد فيه من وجه الحكمة التى خلقه الله لها ، ومن ذلك الوجه يكون حسنا محبوباً ، وإن كان من وجه آخر يكون مستلزما شيئا يحبه الله ويرضاه ، أعظم مما فيه نفسه من البغض .

فهذا موجود فينا ، فقد يفعل الشخص الفعل : كشرب الدواء الكريه الذى بغضه له أعظم مِن حبه له ، وهذا لمَّا تضمن ما هو محبته له أعظم من بغضه للدواء ، / أراده وشاءه وفعله ، فأراد بالإرادة الجازمه المقارنة للقدرة فعلا فيه مما يبغضه أكثر مما يحبه ، لكونه مستلزماً لدفع ما هو إليه أبغض[2] ، ولحصول ما محبته له أعظم من بغضه . لهذا فإن بغضه للمرض[3] ومحبته للعافيه أعظم من بغضه للدواء .

ظ ١١٦

فالأعيان التى نبغضها : كالشياطين والكافرين ، وكذلك الأفعال التى نبغضها : من الكفر والفسوق والعصيان ، خلقها وأراد وجودها لما تستلزمه من الحكمة التى يحبها ، ولما فى وجودها من دفع ما هو إليه أبغض ، فهى مرادة له ، وهى مبغَضه له مسخوطة ، كما بيّنّا هذا فى غير هذا الموضع .

وأما الجمال الخاص ، فهو سبحانه جميل يحب الجمال . والجمال الذى

---

(١) فى الأصل : على ما بغض . وما زيادة من الناسخ .

(٢) فى الأصل : مستلزما لما هو مد لدفع ما هو إليه أبغض . ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : للمريض ، وهو تحريف.

للخُلُق : من العلم والإيمان والتقوى ، أعظم من الجمال الذى للخَلْق ، وهو الصورة الظاهرة .

وكذلك الجميل من اللباس الظاهر ، فلباس التقوى أعظم وأكمل ، وهو يحب الجمال الذى للباس التقوى ، أعظم مما يحب الجمال [الذى][1] للباس الرياش ، ويحب الجمال الذى للخُلُق ، أعظم مما يحب الجمال الذى للخَلْق .

كما ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خُلُقا»[2] .

وفى صحيح مسلم عن النَّواس بن سمعان ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر[3] والإثم فقال : «البر حسن الخُلُق ، والإثم ما حاك فى نفسك وكرهت أن يطَّلع عليه الناس»[4] .

وفى السنن عنه أنه قال : «أثقل ما يوضع فى الميزان الخلق الحسن»[5] .

---

(١) الذى : ساقطة من الأصل .

(٢) الحديث عن أبى هريرة وعائشة رضى الله عنهما فى : سنن أبى داود ٣٠٤/٤ (كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه) ؛ سنن الترمذى ٤١٥/٢ (كتاب الرضاع ، باب ما جاء فى حق المرأة على زوجها) ، ١٢٢/٤ (كتاب الإيمان ، باب فى استكمال الإيمان والزيادة والنقصان) ؛ سنن الدارمى ٣٢٣/٢ (كتاب الرقاق ، باب فى حسن الخلق) ؛ المسند (ط. المعارف) ١٣٣/١٣ ، (ط.الحلبى) ٤٧٢/٢ ، ٥٢٧ ، ٤٧/٦ ، ٩٩ .

(٣) فى الأصل : الابر ، وهو تحريف .

(٤) الحديث عن النواس بن سمعان رضى الله عنه فى : مسلم ٤/ ١٩٨٠ (كتاب البر ، باب تفسير البر والإثم) ؛ سنن الترمذى ٢٣/٤-٢٤ (كتاب الزهد ، باب ما جاء فى البر والإثم) ؛ سنن الدارمى ٣٢٢/٢ (كتاب الرقاق ، باب فى البر والإثم) ؛ المسند (ط. الحلبى)١٨٢/٤.

(٥) هذا جزء من حديث عن أبى الدرداء رضى الله عنه ، وهو فى : سنن الترمذى ٣/ ٢٤٤ (كتاب البر ، باب ما جاء فى حسن الخلق) وأوله : ما شئ أثقل فى ميزان المؤمن .....الحديث . وقال الترمذى : هذا حديث =

ورُوِى عنه أنه قال لأم سلمة : يا أُم سلمة ذهب حُسْن الخلق بخير الدنيا والآخرة»[٢] .

ومن المعلوم أن أحب خلقه إليه المؤمنون ، فإذا كان أكملهم إيمانا أحسنهم خُلُقا ، كان أعظمهم محبة له أحسنهم خُلُقا . والخلق الدين . كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم : ٤] . قال ابن عباس : على دين عظيم[٣] . وبذلك فسّره[٤] سفيان بن عيينة وأحمد بن حنبل / وغيرهما ، كما قد بيناه فى غير هذا الموضع[٥] . ص ١١٧

وهو سبحانه يبغض الفواحش ولا يحبها ولا يأمر بها . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [سورة الأعراف :٢٨] .

= حسن صحيح . وهو فى : سنن أبى داود ٣٥٠/٤ (كتاب الأدب ، باب فى حسن الخلق) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٤٤٢/٦ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥١.

(٢) الحديث عن أنس رضى الله عنه فى : مجمع الزوائد للهيثمى ٢٣/٨-٢٤ «عن أنس قال : قالت أم حبيبة : يا رسول الله المرأة يكون لها زوجان ، ثم تموت فتدخل الجنة هى وزوجاها ، لأيهما تكون ، للأول أو للآخر؟ قال : تخير أحسنهما خلقا كان معها فى الدنيا يكون زوجها فى الجنة ، يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة . رواه الطبرانى والبزار باختصار ، وفيه : عبد بن إسحاق وهو متروك ، وقد رضيه أبو حاتم ، وهو أسوأ أهل الإسناد حالا ، وقد تقدمت لهذا الحديث طرق فى : النكاح» .

وفى «الجامع الكبير» نسب السيوطى الحديث إلى أم سلمة رضى الله عنها وقال بعده : «طب (الطبرانى فى المعجم الكبير) والخطيب عن أم سلمة».

(٣)فى «تفسير ابن كثير» ٢١٤/٨ (ط. دار الشعب) : «عن ابن عباس : أى وإنك لعلى دين عظيم ، وهو الإسلام . وكذلك قال مجاهد وأبو مالك والسدى والربيع بن أنس والضحَّاك وابن زيد» . وكذا قال ابن الجوزى فى تفسيره «زاد المسير» ٤٢٨/٨ : «فيه ثلاثة أقوال : أحدها : دين الإسلام ، قاله ابن عباس».

(٤) فى الأصل : سفق ، وهو تحريف .

(٥) فى تفسير ابن تيمية لسورة القلم (مجموع فتاوى الرياض ٦١/١٦) : «وإنك لعلى خلق عظيم . قال ابن عباس : على دين عظيم .وقاله ابن عيينة ، وأخذه أحمد عن ابن عيينة ، فإن الدين والعادة والخلق ألفاظ متقاربة المعنى فى الذات وإن تنوعت فى الصفات .....الخ».

فإذا كان الجمال متضمنا لعدم ما هو أحب إليه ، أو لوجود ما هو أبغض له[(١)] ، لزم من ذلك[(٢)] فوات ما فى الجمال المحبوب ، فإذا كان فى جمال الثياب بطر وفخر وخيلاء وسرف[(٣)] ، فهو سبحانه لايحب كل مختال فخور . وقال [تعالى][(٤)] : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [سورة الفرقان : ٦٧] ، بل هو يبغض البَطِر الفخور المختال والمسرف . وقال : ﴿إِنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [سورة غافر : ٤٣] ، فلهذا قال [صلى الله عليه وسلم][(٥)] : «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ إزاره خيلاء وبطراً[(٦)] » فإنه يبغضه فلا ينظر إليه وإن كان فيه جمال ، فإن ذلك غَرِقَ فى جانب ما يبغضه الله من الخيلاء والبطر .

وكذلك الحرير فيه من السرف والفخر والخيلاء ما يبغضه الله ، وينافى التقوى التى هى محبوب الله . كما ثبت فى الصحيحين عنه أنه نزع فَرُّوج الحرير وقال : «لا ينبغى هذا للمتقين[(٧)] » .

---

(١) فى الأصل : ما بغضه له . وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ... ما هو بغضه له . وإن لزم من ذلك ... ورأيت أن «وإن» زائدة والكلام يستقيم بدونها .

(٣) بعد كلمة «وسرف» فى الأصل عبارة : «فقد قال فى نفس الحديث» وبعدها بياض بمقدار كلمتين . ورأيت أن هذا كلام مقحم فى غير موضعه .

(٤) تعالى : زدتها ليستقيم الكلام .

(٥) عبارة «صلى الله عليه وسلم» زدتها ليستقيم الكلام .

(٦) مضى الحديث من قبل .

(٧) الحديث عن عقبة بن عامر رضى الله عنه فى : البخارى ٨٠/١ (كتاب الصلاة ، باب من صلّى فى فرُّوج حرير ثم نزعه) . ولفظ الحديث : «أهدى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فرّوج حرير فلبسه فصلى فيه ، ثم انصرف فنزعه نزعا شديداً كالكاره له،وقال : لا ينبغى هذا للمتقين» . والحديث فى : البخارى ١٤٤/٧ (كتاب اللباس ، باب القباء وفروج حرير) ؛ مسلم ١٦٤٦/٣ (كتاب اللباس ، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء ...) ؛ سنن النسائى ٥٦/٢ (كتاب القبلة ، باب الصلاة فى الحرير) ؛ المسند (ط. الحلبى)=

وكذلك سائر ما حرَّمه الله وكرهه مما فيه جمال ، فإن ذلك لاشتماله على مكروه ألحق على ما [فيه مما يبغضه الله][١] أعظم مما فيه من محبوبه ، ولتفويته ما هو أحب إليه منه .

وكذلك الصور الجميلة من الرجال والنساء ، فإن أحدهم إذا كان خُلُقُه سيئا[٢] بأن يكون فاجرا أو كافرا ، معلِنا أو منافقا ، كان البغض أو المقت لخُلُقِه ودينه مستعليا على ما فيه من الجمال .

كما قال تعالى عن المنافقين : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ [سورة المنافقون : ٤] .

وقال : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [سورة البقرة : ٢٠٤] . فهؤلاء إنما أعجبه صورهم الظاهرة للبصر ، وأقوالهم الظاهرة للسمع ، لما فيه من الأمر المعجِب ، لكن لما كانت حقائق أخلاقهم – التى هى أملك بهم – مشتملة على ما هو من أبغض الأشياء وأمقتها إليه ، لم ينفعهم حسن الصورة والكلام .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم / : «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[٣] . ظ ١١٧

= ١٤٣/٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠ . وقال النووى فى شرحه على مسلم ٥٢/١٤ : «الفرُّوج بفتح الفاء وضم الراء المشددة ، هذا هو الصحيح المشهور فى ضبطه .... قالوا : وهو قباء له شق من خلفه ، وهذا اللبس المذكور فى هذا الحديث كان قبل تحريم الحرير على الرجال .....» .

(١) ما بين المعقوفتين كلام زدته على الأصل ليستقيم معنى الكلام .

(٢) فى الأصل : شيا . وهو تحريف .

(٣) مضى هذا الحديث من قبل .

وكذلك المرأة والصبى إذا كان فاجرا ، فإن ذلك يفوِّت حسن الخلق والتقوى ، التى هى أحب إلى الله من ذلك ، ويوجب بغض الله للفاحشة ولصاحبها ولسيئ الخلق ومقته وغضبه عليه ، ما هو أعظم بكثير مما فيه من الجمال[١] المقتضى للمحبة .

وكذلك القوة وإن كانت من صفات الكمال التى يحبها الله .

فإذا كانت الإعانة على الكفر والفجور ، الذى بغض الله له ومقته عليه ، وتفويته لما يحبه من الايمان والعمل الصالح ، أعظم بكثير من مجرد ما فى القوة من الأمر المحبوب ، ترجح جانب البغض بقدر ذلك .

فإذا كانت القوة فى الإيمان ، كان الأمر[٢] كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»[٣] . ومن المعلوم أن الله يحب الحسنات وأهلها ويبغض السيئات وأهلها . فهو يحب كل ما أمر به أمر إيجاب[٤] أو أمر[٥] استحباب ، وكل ما حمده وأثنى [عليه][٦] من الصفات ، مثل العلم ، والإيمان ، والصدق ، والعدل ، والتقوى ، والإحسان ، وغير ذلك . ويحب المقسطين ، ويحب التوّابين ، ويحب المتطهرين ، ويحب المحسنين ، والذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ، ويبغض الكفر وأنواعه ، والظلم والكذب والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أغْيَر منه ، وكل ما حرَّمه يبغضه .

(١) فى الأصل : أعمال ، وهو تحريف.

(٢) فى الأصل : كامر الأمر ، وهو تحريف.

(٣) [illegible] هذا الحديث من قبل .

[illegible] : الحاب ، وهو تحريف.

[illegible] أو أم ، وهو تحريف .

[illegible] ستقيم الكلام .

فإذا كان مع الجمال – أو غيره مما فيه وجه محبة – ما هو بغيض من الفواحش أو الكذب أو الظلم أو غير ذلك ، كما ذكره فى قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٣٣] . فإن ذلك يفوّت ما هو أحب إلى الله من الجمال بكثير ، ويوجب من مقت الله وبغضه ما هو أعظم بكثير مما[١] لمجرد الجمال من الحب ، ويوجب / النهى عمّا يوجب[٢] هذه السيئات الكثيرة ، ويفوّت الجمال الأفضل ، وهو[٣] كمال الخلق وحسنه ، وما فى ذلك من الحسنات ، وكان ما فى ذلك من المبغضات وترك المحبوبات راجحا على الحب الذى للجمال .

ص ١١٨

وعلى هذا يجرى [الأمر][٤] : على محبة الإنسان للشئ الجميل من الصورة والنظر إليه ، وما يدخل فى ذلك من قوة الحب والزيادة فيه التى تسمى[٥] العشق ، فإن ذلك إذا خلا عن المفسدة الراجحة ، مثل أن يحب الإنسان امرأته وجاريته حبا معتدلا ، أو يحب ما لا فتنة فيه ، كحبه للجميل من الدواب والثياب ، ويحب ولده وأباه وأمه ، ونحو ذلك من محبة[٦] الرحم ، كنوع من الجمال ، الحب المعتدل – فهذا حسن .

---

(١) فى الأصل : ما ، وهو تحريف

(٢) فى الأصل : من الحب وحب النهى كما عمّا يوجب ....الخ ولعل الصواب ما أثبته.

(٣) فى الأصل : وهى .

(٤) الأمر : زدتها ليستقيم الكلام .

(٥) فى الأصل : يسمى .

(٦) فى الأصل : مع محبه .

أما إذا أحب النساء الأجانب[١] أو المردان ونحو ذلك ، فهذا الحب متضمن للمحبة الحيوانية ، وليس فى ذلك[٢] مجرد محبة الجمال ، والمحبة الحيوانية مما يبغضها الله ويمقتها ، وتوابعها منهى [عنها] مع ذلك[٣] ، سواء كان مع المحبة فعل الفاحشة الكبرى ، أو كانت للتمتع بالنظر والسماع وغير ذلك .

فالتمتع مقدمات الوطء ، فإن كان الوطء حلالاً حلّت مقدماته ، وإن كان الوطء حراما حرمت مقدماته ، وإن كان فى ذلك رفض للجمال ، كما فيه رفض للذة الوطء المحرم ، فإن ما فى ذلك مما يبغضه الله ، ويمقت عليه،أعظم مما فى مجرد الجمال من الحب المتضمّن[٤]،وذلك متضمن لتفويت محاب الله من التقوى والعفاف والإقبال على مصالح الدين والدنيا ، أعظم بكثير مما فيها من مجرد حب الجمال ، فلهذا كانت هذه مذمومة[٥] منهيا عنها ، حتى حرَّم الشارع النظر فى ذلك بلذة وشهوة ، وبغير لذه وشهوة ، إذا خاف [الناظر][٦] الفتنة ، والفتنة مخوفة فى النظر إلى الأجنبية الحسنة ، والأمرد الحسن فى أحد قولَىْ العلماء ، الذى يصححه كثير من أصحاب الشافعى وأحمد وغيرهما ، وهذا قد يختلف باختلاف / العادات والطبائع . ظ ١١٨

وأما النظر للحاجة من غير شهوة ولا لذة فيجوز .

ولهذا لم يأمر الله ولا رسوله ولا أهل العلم والإيمان بعشق الصور الجميلة،

(١) فى الأصل : والأجانب .

(٢) فى الأصل الجملة محرفة : لتسبب فى ذلك . ولعل الصواب ما أثبته.

(٣) فى الأصل : وتوابعها ومنهى مع ذلك .

(٤) فى الأصل : متضمن .

(٥) فى الأصل : مذموما .

(٦) زدت كلمة «الناظر» ليستقيم الكلام .

ولا أثنوْا على ما كان كذلك ، وكذلك العقلاء من جميع الأمم . ولكن طائفة من المتفلسفة والمتصوفة تأمر بذلك وتثنى عليه ، لما فيه – زعموا – من إصلاح النفس ورياضتها ،وتهذيب الأخلاق ، واكتساب الصفات المحمودة : من السماحة ، والشجاعة ، والعلم ، والفصاحة ، والاختيال ونحو ذلك من الأمور ، حتى أن طائفة من فلاسفة الروم والفرس ومن اتّبعهم من العرب تأمر به ، وكذلك طائفة من المتصـوفة ، حتى يقـول أحدهم : ينبغى للمريد أن يتخذ له صورة يجتمع قلبه عليها ، ثم ينتقل منها إلى الله . وربما قالوا : إنهم يشهدون الله فى تلك الصورة ، ويقولون : هذه مظاهر الجمال ، ويتأولون قوله [صلى الله عليه وسلم][1]: «إن الله جميل يحب الجمال» على غير تأويله .

فهؤلاء – وأمثالهم – ممن يدخل فى ذلك [يزعمون أن طريقهم موافق] لطريق العقل[2] والدين والخلق ، وإن اندرج فى ذلك من الأمور الفاحشة ما اندرج .

وهؤلاء لهم نصيب من قوله تعالى : ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [سورة الأعراف : ٢٨] .

لكن العرب الذين كانوا سبب نزول هذه الآية إنما كانت فاحشتهم – التى قالوا فيها ما قالوا – طوافهم بالبيت عراة ، لاعتقادهم أن ثيابهم التى

---

(١) صلى الله عليه وسلم : زدتها ليستقيم الكلام .

(٢) فى الأصل : ممن يدخل فى ذلك يطريق العقل .. الخ . ولعل الصواب ما أثبته .

عصَوْا الله فيها لاتصلح أن يعبد الله فيها ، فكانوا ينزِّهون عبادة الله عن ملامسة ثيابهم ، فيقعون فى الفاحشة ، التى هى كشف عوراتهم .

وأما هؤلاء فأمرهم أجل وأعظم ، إذ غاية ماكان أولئك يفعلون طواف الرجال والنساء عراة مختلطين ، حتى كانت [المرأة منهم](١) تقول :

اليوم يبدو بعضُهُ أو كلُّهُ وما بدا [منه](٢) فلا أُحِلُّهُ

ولم يكن ذلك الاختلاط والاجتماع(٣) إلا فى(٤) عبادة ظاهرة ، لا يتأتّى فيها فعل الفاحشة الكبرى ، ولم يقصدوا بالتعرّى إلا التنزّه من لباس الذنوب بزعمهم(٥) .

فالذين يجتمعون من الرجال والنساء والمردان لسماع المكاء والتصدية ، ويطفئون المصابيح حتى لايرى أحدهم الآخر ، حتى اجتمعوا على غناء وزنا ومطاعم خبيثة ، وجعلوا ذلك عبادة — فهؤلاء شر من أولئك بلا ريب ، فإن هؤلاء فتحوا أبواب جهنم .

كما روى أبو هريرة قال : «سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكثر

---

(١) عبارة «المرأة منهم» : زدنها ليستقيم الكلام .

(٢) منه : ساقطة من الأصل ، وهى من كلمات البيت .

(٣) فى الأصل : والاجاع ، وهو تحريف.

(٤) فى الأصل : إلا ما فى ....الخ.

(٥) ذكر الطبرى فى تفسيره (ط. المعارف) ١٢/٣٧٧-٣٧٩ الأقوال المختلفة فى تفسير آية ٢٨ من سورة الأعراف ، وهى موافقة لكلام ابن تيمية هنا ، وأورد البيت المذكور هنا . كما ذكر ابن كثير فى تفسيره (ط. دار الشعب ٣/٣٦٨) البيت وما ذكره مجاهد فى تفسير الآية ثم قال : «قلت : كانت العرب — ما عدا قريش — لايطوفون بالبيت فى ثيابهم التى لبسوها ، يتأولون فى ذلك أنهم لايطوفون فى ثياب عصوا الله فيها . وكانت قريش — وهم الحُمْس — يطوفون فى ثيابهم ، ومن أعاره أحمسى ثوبا طاف فيه ، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ، ثم يلقيه فلا يتملكه أحد ، فمن لم يجد ثوبا جديدا ، ولا أعاره أحمسى ثوبا، طاف عريانا» .

ما يدخل الناس النار ؟ فقال : الأجوفان : الفم والفرج» . قال الترمذى : حسن صحيح[١] .

وكذلك رُوى عنه أنه قال : «أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغَىّ فى بطونكم وفروجكم ، ومضلات الفتن»[٢] .

وفى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «حجبت النار بالشهوات ، وحجبت الجنة بالمكاره» . وفى رواية مسلم : «حُفّت» مكان «حجبت»[٣] .

وإذا كانت النار محجوبة ومحفوفه بالشهوات ، لم يُدخل النار إلا بها ، وإذا كانت الجنة محجوبة ومحفوفة بالمكاره ، لم يُدخل الجنة إلا بها .

(١) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٢٤٥/٣ (كتاب البر ، باب ما جاء فى حسن الخلق) ونصه : عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ، قال : تقوى الله وحسن الخلق . وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، قال : الفم والفرج» قال الترمذى : «هذا حديث صحيح غريب» . وجاء الحديث عن أبى هريرة أيضا فى : سنن ابن ماجة ١٤١٨/٢ (كتاب الزهد ، باب ذكر الذنوب) إلا أن فيه : «الأجوفان : الفم والفرج» ؛ وفى المسند (ط. المعارف) ٣٢/١٥ ، (ط. الحلبى) ٣٩٢/٢ ، ٤٤٢.

(٢) ورد الحديث عن أبى برزة الأسلمى رضى الله عنه فى : المسند (ط. الحلبى) ٤٢٠/٤ من طريقين ، ولفظ الأول : «إن مما أخشى عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن» . ولفظ الطريق الثانى (وتكرر ٤٢٣/٤) مماثل له إلا أن فيه ... ومضلات الهوى». وروى الهيثمى الحديث فى «مجمع الزوائد» ٣٠٥/٧-٣٠٦ . وقال : «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٣) جاء الحديث بلفظ «حجبت» أحيانا وبلفظ «حفت» أحيانا ، وجاء مختصرا فى مواضع ومطولا فى مواضع أخرى عن أبى هريرة فى مواضع وعن أنس فى مواضع أخرى فى : البخارى ١٠٢/٨ (كتاب الرقاق ، باب حجبت النار بالشهوات) ؛ مسلم ٢١٧٤/٤ (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، الحديثان ١ ، ٢) ؛ سنن أبى داود ٣٢٦/٤-٣٢٧ (كتاب السنة ، باب فى خلق الجنة والنار) ؛ سنن الترمذى ٩٧/٤-٩٨ (كتاب صفة الجنة ، باب ما جاء : حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) ؛ المسند (ط. المعارف) ٢٦٥/١٦-٢٦٦ ، ٣٧/١٧ . وجاء الحديث فى سنن النسائى والدارمى وفى الموطأ والمسند (ط.الحلبى) فى مواضع كثيرة . والرواية المطولة أولها (وهذا لفظ أبى داود) : «لما خلق الله الجنة قال لجبريل : اذهب فانظر إليها .... الحديث».

وفى صحيح البخارى عن سهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من يضمن لى مابين لحيَيْه وما بين رجليه أضمن له الجنة»[١] . وما بين لحييه يتناول الكلام والطعام .

كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة وأبى شريح الخزاعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»[٢] .

فبيّن صلى الله عليه وسلم أنه من ضمن له هذين ضمن له الجنة ، وهذا يقتضى أن من هذين يُدخل النار ، ولهذا حرّم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وحرّم أيضا انتهاك الأعراض ، وجعل / فى القذف بالفاحشة من العقوبة المقدّرة - وهى حد القذف - [ثمانين] جلدة[٣] .

ظ ١١٩

وبيّن صلى الله عليه وسلم أن الزنا من الكبائر ، وأن قذف المحصنات الغافلات من الكبائر ، وهو من نوع الكبائر ، إذا لم يَأْتِ عليه

(١) الحديث عن سهل بن سعد رضى الله عنه فى : البخارى ١٠٠/٨ (كتاب الرقاق ، باب حفظ اللسان ...الخ) ، سنن الترمذى ٣٠/٤ (كتاب الزهد ، باب ما جاء فى حفظ اللسان) وأوله : من يتوكل لى ما بين ... أتوكل له بالجنة» وجاء الحديث فى نفس المكان ٣٠/٤-٣١ عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : «من وقاه الله شر ما بين .... دخل الجنة» . والحديث عن سهل أيضا فى المسند (ط. الحلبى) ٣٣٣/٥ .

(٢) هذا جزء من حديث عن أبى هريرة رضى الله عنه (قال الترمذى : وفى الباب عن عائشة وأنس وأبى شريح الكعبى وهو العدوى واسمه خويلدبن عمرو) فى : البخارى ١١/٨ (كتاب الأدب ، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر.... الخ) ، ٣٢/٨ (عن أبى شريح) (كتاب الأدب ، باب إكرام الضيف ....الخ) ، ١٠٠/٨ (كتاب الرقاق ، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ...) ، مسلم ٦٨/١ (كتاب الإيمان ، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير) ، سنن الترمذى ٧٠/٤ (كتاب القيامة ، باب منه) ، المسند (ط. المعارف) ٤٩/١٤ . (ط. الحلبى) ٤٣٣/٢ ، ٣١/٤ . وهو فى مواضع أخرى فى المسند .

(٣) فى الأصل : القدف بعره ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

[القاذف](١) بأربعة شهداء ، وإن كان قد وقع ،فإنه أظهر ما يحب الله إخفاءه(٢) .

كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِى الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [سورة النور : ١٩] .

وفى الحديث الصحيح قال النبى صلى الله عليه وسلم : «كل أمتى معافًى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله عليه ، فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، بات يستره ربه ويصبح يكشف ستره»(٣) .

وقال : «من ابتلى من هذه القاذورة بشئ فليستتر(٤) بستر الله ، فإنه من يبدى لنا صفحته نقم عليه كتاب الله»(٥) .

وفى الصحيحين عن صفوان بن محرز أن رجلا سأل ابن عمر : كيف سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى ؟ قال : «يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه ، فيقول : عملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ،

---

(١) زدت كلمة «القاذف» للايضاح .

(٢) فى الأصل : اخفاؤه ، وهو خطأ .

(٣) الحديث بألفاظ مقاربة عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٢٠/٨ (كتاب الأدب ، باب ستر المؤمن على نفسه) ، مسلم ٢٢٩١/٤ (كتاب الزهد ، باب النهى عن هتك الإنسان ستر نفسه).

(٤) فى الأصل : فليستر ، وهو تحريف .

(٥) الحديث عن زيد بن أسلم رضى الله عنه فى : الموطأ ٨٢٥/٢ (كتاب الحدود ، باب ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا) ولفظه : أن رجلا اعترف على نفسه بالزنا ... فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلد . ثم قال : «أيها الناس ، قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله . من أصاب من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله ، فإنه من يبدى لنا صفحته نقم عليه كتاب الله».

[ويقول : عملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم][١] فيقرّره[٢] . ثم يقول : سترتها عليك فى [الدنيا][٣] وأنا أغفرها لك اليوم»[٤] . ولهذا يكثر وقوع الناس فى أحد هذين الذنبين[٥] .

فمن الناس من يبتلى[٦] بالفاحشة وإن كان ممسكا عن الكلام ، ومن الناس من يبتلى [٦] بالكلام والاعتداء على غيره بلسانه وإن كان عفيفاً عن الفاحشة .

وأيضا فإن [من][٧] الكلام المنهى عنه : الخوض فى الدين بالبدع والضلالات ، مع تضمنه لشهوة الطعام . وما بين الفرجين يتضمن أقوى الشهوات ، وذلك من الاستمتاع بالخلاق فى الدنيا ، كما جمع [الله تعالى][٨] بينهما بقوله : ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا ﴾ [سورة التوبه : ٦٩] : الأول : يتضمن الشبهات . والثانى : يتضمن الشهوات . الأول : يتضمن الدين الفاسد . والثانى يتضمن الدنيا / الفاجرة . ص ١٢٠

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل ، وهو من تتمة الحديث .

(٢) فى الأصل : فيقرر . وما أثبته هو لفظ الحديث .

(٣) الدنيا : ساقطه من الأصل ، وهى من ألفاظ الحديث .

(٤) الحديث عن صفوان بن محرز رضى الله عنه فى : البخارى ٢٠/٨ (كتاب الأدب ، باب ستر المؤمن على نفسه) ، ١٤٨/٩ (كتاب التوحيد ، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم) ؛ مسلم ٢١٢٠/٤ (كتاب التوبة ، باب قبول توبة القاتل ...) وأوله : يُدنى المؤمن ... الحديث . وجاء الحديث مطولا فى المسند (ط. المعارف) ٢٥٤/٧ ، ١٥٥/٨-١٥٦ .

(٥) فى الأصل : البدنين ، وهو تحريف .

(٦) فى الأصل : من يبلى .

(٧) من : زدتها ليستقيم الكلام .

(٨) عبارة «الله تعالى» زدتها للإيضاح .

وكان السلف يحذّرون من هٰذين النوعين : من المبتدع فى دينه ، والفاجر فى دنياه . كلٌّ من هـٰذين النوعين – وإن لم يكن كفرا محضا – فهذا من الذنوب والسيئات التى تقع من أهل القبلة .

وجنس البدع وإن كان شراًّ ، لكن الفجور شر من وجه آخر ، وذلك أن الفاجر المؤمن [لا] يجعل الفجور شراًّ من الوجه الآخر الذى هو حرام محض(١) ، لكن مقرونا باعتقاده لتحريمه ، وتلك حسنة(٢) فى أصل الاعتقاد . وأما المبتدع فلا بد أن تشتمل(٣) بدعته على حق وباطل ، لكن يعتقد أن باطلها حق أيضا ، ففيه من الحَسَن ما ليس فى الفجور ، ومن السيىء ما ليس فى الفجور ، وكذلك بالعكس .

فمن خلص من الشهوات المحرّمة والشهوات المبتدعة وجبت له الجنة . وهذه [هى](٤) الثلاثة : الكلام المنهى عنه ، والطعام المنهى عنه ، والنكاح المنهى عنه . فإذا اقترن بهذه الكبائر استحلالها كان ذلك أمرا ، فكيف إذا جُعلت طاعة وقربة وعقلا ودينا ؟!

وهؤلاء هم الذين يستحقون عقوبة أمثالهم من الأمم . كما ثبت فى الصحيح أنه يكون فى هذه الأمة من يمسخ قردة وخنازير ، وكما روى أنه سيكون فيها خسف وقذف ومسخ .

وقال بعض السلف فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾

---

(١) فى الأصل العبارة مضطربة هكذا :.. المؤمن يجعل الفجور شر من وجه آخر الذى هو حرام محض . ولعل ما أثبته يستقيم به الكلام .

(٢) فى الأصل : حسنته .

(٣) فى الأصل : يشتمل .

(٤) هى : زدتها للإيضاح .

[سورة هود : ٨٣] أى من ظالمى هذه الأمة [١] . وفى ذلك من الأحاديث ما يضيق هذا الموضع عن ذكره ، وفى عامتها يذكر استحلالهم [لها] [٢] .

وأصل الضلال والغيّ من هؤلاء الذين يستحسنون عشق [٣] الصور ويحمدونه ويأمرون به – وإن قيدوه مع ذلك بالعفة – أن المحبة هى أصل كل حركة فى العالم ، فالنفس إذا لم يكن فيها حركة ، ولا هى قوية الهمة والإرادة حتى تحصل لها محبة شديدة ، كانت تلك المنهيات عنها [٤] هى أصول الشر ، وهى التى إذا ظهرت قامت الساعة .

ظ ١٢٠ كما فى الصحيح عن أنس أنه قال : لأحدثنكم حديثا /لا يحدثكموه أحد بعدى ، سمعته من النبى صلى الله عليه وسلم ، سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن من أشراط الساعة أن يُرفع [٥] العلم ، ويظهر الجهل ، ويُشرب الخمر ، ويظهر الزنا ، ويقل الرجال ، وتكثر النساء حتى يكون لخمسين [٦] امرأة قيم واحد » [٧] .

---

(١) فى تفسير الطبرى (ط. بولاق) ١٢/٥٩ : «عن قتادة فى قوله : (وما هى من الظالمين ببعيد) . قال : يعنى ظالمى هذه الأمة . قال : والله ما أجار منها ظالما بعد».

(٢) لها : زدتها ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل : العشق .

(٤) فى الأصل : تلك ‥ها عنه ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : يرتفع . والمثبت هو لفظ الحديث فى أكثر كتب السنة .

(٦) فى الأصل : الخمسين ، وهو تحريف .

(٧) الحديث – بألفاظ متقاربة – عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : البخارى ١/٢٣ (كتاب العلم ، باب رفع العلم وظهور الجهل)، ٧/٣٧ (كتاب النكاح ، باب يقل الرجال ويكثر النساء)، ٧/١٠٤ (كتاب الأشربة ، أول الكتاب) ، ٨/١٦٤ (كتاب الحدود ، باب إثم الزناة) ؛ مسلم ٤/٢٠٥٦ (كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه) ؛ سنن الترمذى ٣/٣٣٣ (كتاب الفتن ، باب ماجاء فى أشراط الساعة) ؛ سنن ابن ماجة ٢/١٣٤٣ (كتاب الفتن باب أشراط الساعة) ؛ المسند (ط. الحلبى) ٣/٩٨ ، ١٧٦ .

فمن ظهور الجهل ظهور الكلام فى الدين بغير علم ، وهو الكلام بغير سلطان من الله – وسلطان الله كتابه – ومن ظهور الزنا ظهور اللواط – وإن كان له[١] اسم يخصه – فهو شر نوعَىْ الزنا ، ولكون ظهور شهوات الغيّ – البطن والفرج – هى أغلب ما يُدخل الناس النار ، كما ذكر ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فيما أخرجاه فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، والتوبة[٢] معروضة بعد »[٣].

والسرقة[٤] بالمال الذى [هو][٥] أعظم مقصود الأكل ، ولهذا يُعبَّر عن أخذه بالأكل ، كقوله [تعالى][٦]: ﴿ لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٨]

وهذه الثلاثة هى التى يعقد[٧] الفقهاء فيها أبواب الحدود : باب حد الزنا ، [باب][٨] حد السرقة ، باب حد شرب الخمر ، ورابعها باب حد القذف – مندرجة فيما بين لحييه وبين رجليه .

---

(١) فى الأصل : ومن كان له . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : فالتوبة . والمثبت هو لفظ الحديث .

(٣) الحديث بهذا اللفظ عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ١٦٤/٨ (كتاب الحدود ، باب إثم الزناة) .

(٤) فى الأصل : فالسرقة .

(٥) هو : زدتها ليستقيم الكلام .

(٦) تعالى : زدتها للإيضاح .

(٧) فى الأصل : يعتقد ، وهو تحريف .

(٨) باب : زدتها ليستقيم الكلام .

وقد روى هذا الحديث البخارى[١] عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى العبد حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب[٢] وهو مؤمن [ولا يقتل وهو مؤمن][٣] » . قال عكرمة : قلت لابن عباس : كيف يُنزع الإيمان منه[٤] ؟ قال : هكذا ، وشبَّك[٥] بين أصابعه ، ثم أخرجها ، فإن تاب عاد إليه هكذا ، وشبَّك[٥] بين أصابعه[٦] .

فإذا اقترن بهذه الكبائر تلك المحبة [فى نفس صاحبها فإنها][٧] توجب حركتها وقوة إرادتها ، فيعطى من المال ما لم يكن يعطيه ، /ويقدم على مخاوف لم يكن يقدم عليها ، ويحتال ويدبّر ما لم يكن يحتاله ويدبّره قبل ذلك ، ويصير والهاً من التفكر والنظر مالم يكن قبل ذلك ، فلما رأوا مافيه من هذه الأمور التى هى من جنس المحمودات حمدوه بذلك . وهذا من جنس من حمد الخمر لما فيها من الشجاعة والكرم والسرور ونحو ذلك .

ص ١٢١

---

(١) ١٦٤/٨ (كتاب الحدود ، باب إثم الزناة) .

(٢) فى الأصل : حين يشربها . والمثبت هو لفظ البخارى فى هذا الموضع .

(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل . وهو فى « البخارى » .

(٤) فى الأصل : من قلبه . والمثبت هو لفظ البخارى .

(٥) فى الأصل : وشك . والمثبت هو لفظ البخارى .

(٦) هذا الحديث فى هذا الموضع عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وورد قبل قليل عن أبى هريرة رضى الله عنه فى البخارى . والحديث عن أبى هريرة أيضاً فى:البخارى ١٣٦/٣ (كتاب المظالم ، باب النهى بغير إذن صاحبه) ، ١٠٤/٧ (كتاب الأشربة ، باب إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان) ، ١٥٧/٨ (كتاب الحدود ، باب لا يشرب الخمر) ؛ مسلم ٧٦/١ ، ٧٧ (كتاب الإيمان ، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفى كماله) ؛ سنن أبى داود ٣٠٦/٤ (كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه) ؛ سنن الترمذى ١٢٧/٤ (كتاب الإيمان ، باب لايزنى الزانى وهو مؤمن) ؛ سنن ابن ماجه ١٢٩٨/٢ – ١٢٩٩ (كتاب الفتن ، باب النهى عن النهبة) ؛ سنن الدارمى ١١٥/٢ (كتاب الأشربة ، باب فى التغليظ لمن شرب الخمر) ؛ المسند (ط . المعارف) ٤١/١٣ .

(٧) ما بين المعقوفتين زدته ليستقيم الكلام .

وذلك أن هؤلاء كلهم لحظوا ما فيها من جنس المحبوب ، وأغفلوا ما تتضمنه من جنس المذموم . فإن الذى يورثه العشق [١] من نقص العقل والعلم ، وفساد الخلق والدين ، والاشتغال عن مصالح الدين والدنيا – أضعاف ما يتضمنه من جنس المحمود .

وأصدق شاهد على ذلك ما يُعرف [٢] من أحوال الأمم وسماع أخبار الناس فى ذلك ، [فهو] [٣] يغنى عن معاينة ذلك وتجربته ، ومن جرَّب ذلك أو عاينه [٤] اعتبر بما فيه كفاية ، فلم يوجد [٥] قط عشق إلا وضرره أعظم من منفعته .

ولهذا **قال أبو القاسم القشيرى فى رسالته** [٦] : « ومن أصعب الآفات [٧] فى هذه الطريقة صحبة الأحداث . ومن ابتلاه الله بشئ من ذلك فبإجماع الشيوخ : هذا [٨] عبد أهانه الله وخذله ، بل عن نفسه شغله ، ولو لألف [٩] ألف كرامة أهَّلَه . وهب أنه بلغ رتبة [١٠] الشهداء ، لما فى الخبر من التلويح بذلك [١١] ، أليس قد شغل ذلك القلب

(١) أمام هذا الموضع كتب فى هامش الأصل : « مطلب ذم العشق »

(٢) فى الأصل : ما يعرق ، وهو تحريف .

(٣) فهو : زدتها ليستقيم الكلام .

(٤) فى الأصل : أو غايته ، وهو تحريف .

(٥) فى الأصل : فلم يوجدوا ، وهو تحريف .

(٦) ٢/٧٤٤ – ٧٤٥ .

(٧) فى الأصل : ومن أضعف القاب . وفى هامش الأصل أمام هذا الموضع لعله : الفساد . والمثبت هو الذى فى « القشيرية »

(٨) القشيرية : ذلك

(٩) القشيرية : ولو بألف .

(١٠) فى الأصل : ولسه (غير منقوطة) . والمثبت من « القشيرية » ٢/٧٤٥ .

(١١) فى الأصل : من التلوح بذلك . وفى « القشيرية » : لما فى الخبر تلويح بذلك .

بمخلوق[١] !؟ وأصعب من ذلك تهوين ذلك[٢] على القلب ، حتى يعد ذلك يسيرا ، [وقد][٣] قال الله تعـالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [سورة النور : ١٥] .

وهذا الواسطى [رحمه الله][٤] يقول : إذا أراد الله هوان عبدٍ ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف » .

وقال[٥] : « سمعت أبا عبد الله الصوفى يقول : سمعت محمد بن أحمد النجّار يقول : سمعت أبا عبد الله الحصرى /يقول : سمعت فتحاً الموصلىّ يقول : صحبت ثلاثين شيخا كانوا يُعَدُّون من الأبدال ، فكلهم[٦] أَوْصونى عنـــد فراقى إياهم ، وقالوا [لى][٧] :اتق معاشرة الأحداث ومخالطتهم .

ظ ١٢١

ومن ارتقى[٨] فى هذا الباب عن حال[٩] الفسق ، وأشار إلى أن ذلك من بلايا[١٠] الأرواح ، وأنه لا يضر ، فما قالوه[١١] من وساوس القائلين

---

(١) فى الأصل : لمخلوق . والمثبت من « القشيرية » .

(٢) فى الأصل : وأضعف من ذلك يهون ذلك .والمثبت من « القشيرية » .

(٣) وقد : زيادة من « القشيرية » .

(٤) رحمه الله : زيادة من « القشيرية »

(٥) بعد كلامه السابق مباشرة ٢/٧٤٥ .

(٦) القشيرية : كلهم .

(٧) لى : زيادة من « القشيرية » .

(٨) فى الأصل : ومن اتق ، وهو تحريف . والمثبت من « القشيرية » .

(٩) القشيرية : حالة .

(١٠) القشيرية : من بلاء

(١١) القشيرية : وما قالوه .

بالسماع[١] ، وإيراد حكايات عن [بعض] الشيوخ[٢] ، كان[٣] الأَوْلى بهم إسبال الستر على هناتهم وآفاتهم[٤] ، فذلك نظير الشرك وقرين الكفر .

فليحذر المريد [من][٥] مجالسة الأحداث ومخالطتهم ، فإن اليسير منه فَتْح باب الخذلان ، وبدء[٦] حال الهجران ، ونعوذ بالله من قضاء السوء » .

وهنا أصل عظيم نافع يجب اعتباره ، وهو أن الأمور المذمومة فى الشريعة – كما ذكرناه – هو ما ترجّح فساده على صلاحه ، كما أن الأمور المحمودة ما ترجّح صلاحه على فساده ، فالحسنات تغلب فيها المصالح ، والسيئات تغلب فيها المفاسد ، والحسنات درجات بعضها فوق بعض ، والسيئات بعضها أكبر من بعض ، فكما أن أهل الحسنات ينقسمون إلى الأبرار المقتصدين والسابقين المقرّبين ، فأهل السيئات ينقسمون إلى الفجار الظالمين والكفّار المكذّبين ، وكل من هؤلاء هم درجات عند الله .

ومن المعلوم أن الحسنات كلما كانت أعظم كان صاحبها أفضل ، فإذا انتقل الرجل من حسنة إلى أحسن منها ، كان فى مزيد التقريب ، وإن

---

(١) فى « القشيرية » بالشاهد . وفى الأصل : « بالسما » وبعدها بياض بمقدار كلمة . ورجحت أن يكون الصواب « بالسماع » .

(٢) فى الاصل : وإيراد الحكايات عن الشيوخ . والمثبت من « القشيرية »

(٣) القشيرية : لما كان .

(٤) فى الأصل : واما بهم . والمثبت من « القشيرية »

(٥) من : ساقطة من الأصل . وأثبتها من « القشيرية »

(٦) فى الأصل : وبدو . والمثبت من « القشيرية »

انتقل إلى ما هو دونها ، كان فى التأخر والرجوع . وكذلك السيئات كلما كانت أعظم كان صاحبها أَوْلى بالغضب واللعنة والعقاب .

وقد وقال تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فى سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِم وأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ [سورة النساء : ٩٥] (١) .

ص ١٢٢

وقال : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ إلى قوله : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِم وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [سورة التوبه : ١٩ — ٢٠] (٢) .

وقال : ﴿ لاَ يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ [سورة الحديد : ١٠] .

وقال : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ والَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [سورة المجادله : ١١] .

وكذلك قال فى السيئات : ﴿ إِنَّمَا النَّسِىءُ زِيَادَةٌ فِى الْكُفْرِ ﴾[سورة التوبة : ٣٧] .

وقال : ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ [سورة النحل : ٨٨] .

وقال : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُم رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٥] .

وقال : ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ﴾ [سورة البقرة : ١٠] .

(١) فى الأصل حرفت الآية هكذا : لايستوى المؤمنون من القاعدون.الخ .

(٢) سقطت كلمة « وأنفسهم » من الآية الكريمة فى الأصل .

وقال : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ [سورة الإسراء : ٨٢] .

ومعلوم أن التوبة هى جماع الرجوع من السيئات إلى الحسنات ، ولهذا لا يحبط جميع السيئات إلا التوبة . والردة هى جماع الرجوع من الحسنات إلى السيئات ، ولهذا لا يحبط جميع الحسنات إلا الردة عن الإيمان .

وكذلك ما ذكرناه فى تفاوت السيئات ، هو فى الكفر والفسق والعصيان ، فالكفّار بعضهم دون بعض . ولهذا يذكر الفقهاء فى باب الردة والإسلام : انتقال[1] الرجل – كأحد الزوجين – من دين إلى دين آخر : انتقال إلى دين خير من دينه ، أو دون دينه ، أو مثل دينه ، فيقولون : إذا صار الكتابى مجوسيا [2] أو مشركا فقد انتقل إلى شر من دينه ، وإذا صار المشرك أو المجوسى كتابيا فقد انتقل إلى خير من دينه ، وإذا تهوَّد النصرانى – أو بالعكس – فقد انتقل إلى نظير دينه . والتَمجّس يُقرّ عليه بالاتفاق ، وأما الإشراك فلا يُقر عليه إلا بعض الناس عند بعض العلماء . والصابئة نوعان عند المحققين ، وعلى قولين عند آخرين . ومعرفة مراتب الأديان محتاج إليها فى مواضع كثيرة لمعرفة [3] مراتب الحسنات .

/والفقهاء يذكرون ذلك لأجل معرفة أحكامهم وتناكحهم وذبائحهم ، وفى دمائهم وقتالهم وإقرارهم بالجزية المضروبة عليهم ، ونحو ذلك من الأحكام التى جاء بها الكتاب والسنة فى أهل الملل والأحزاب ، ظ ١٢٢

(١) فى الأصل : الانتقال .

(٢) فى الأصل : محسوبا ، وهو تحريف . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

(٣) فى الأصل : المعرفة ، وهو تحريف .

الذين قال الله فيهم : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [سورة هود : ١٧] .

وقد قال الله تعالى لنبيه : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِماَ أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [سورة الشورى : ١٥] .

والعدل وضع كل شئ فى موضعه ، كما أن الظلم وضع الشئ فى غير موضعه .

ولهذا لما اقتتلت [(١)] فارس المجوس والروم النصارى ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم بمكه إذ ذاك ، وهو فى طائفة قليلة ممن آمن به ، كان هو وأصحابه [(٢)] يحبون أن تَغْلِبَ الروم ، لأنهم أهل كتاب ، وكان المشركون يحبون أن تغلب فارس ، لأنهم من جنسهم ، ليسوا أهل كتاب ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ آلم * غُلِبَتِ الرُّومُ فِى أَدْنَى الْأَرْضِ ﴾ [سورة الروم : ١ ، ٢] . والقصة مشهورة فى كتب الحديث والتفسير والمغازى .

وإذا كان كذلك فقد يكون الرجل على طريقة من الشر عظيمة ، فينتقل [(٣)] إلى ما هو أقل منها شرا وأقرب إلى الخير ، فيكون حمد تلك الطريقة ومدحها لكونها طريقة الخير الممدوحة . مثال ذلك أن الظلم كله حرام مذموم ، فأعلاه الشرك ، فإن الشرك لظلم عظيم ، والله لايغفر أن يشرك به ، وأوسطه ظلم العباد بالبغى والعدوان ، وأدناه ظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله ، فإذا كان الرجل مشركا كافرا فأسلم باطنا وظاهرا ، بحيث

(١) أمام هذا الموضع فى هامش الأصل : « مطلب » .

(٢) فى الأصل : كان هو أصحابه ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : فليتقل ، وهو تحريف .

صار مؤمنا ، وهو مع إسلامه يظلم الناس ويظلم نفسه ، فهو خير من أن يبقى على كفره ولو كان تاركا لذلك الظلم .

وأما إذا أسلم ظاهرا فقط ، وهو منافق فى الباطن ، /فهذا فى الآخرة فى الدَرْك الأسفل من النار . وأما فى الدنيا فقد يكون أضرَّ على المسلمين منه لو بقى على كفره ، وقد لايكون كذلك ، فإن إضرار المنافقين بالمؤمنين يختلف باختلاف الأحوال . ص ١٢٣

لكن إذا أسلم نفاقا فقد يرجى له حسن الإسلام فيصير مؤمنا [1] ، كمن أسلم تحت السيف ، وكذلك من أسلم لرغبةٍ أو لرهبة أو نحو ذلك . فالإسلام والإيمان أصل كل خير وجِمَاعُهُ .

وكذلك [من] [2]كان ظالما للناس فى نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، فانتقـــل عن ذلك إلى ما يظلم به نفسه خاصة : من خمر وزنا ، فهذا أخف لإثمه وأقل لعذابه .

وهكذا النِحَل التى فيها بدعة ، قد يكون الرجل رافضيا فيصير زيديا ، فذلك خير له . وقد يكون جهميا قدريا فيصير جهميا غير قدرى ، أو قدريا غير جهمى . أو يكون من الجهمية الكبار ، فيتجهم فى بعض الصفات دون بعض ، ونحو ذلك .

فهؤلاء المتفلسفة والمتصوفة ونحوهم ، ممن مدح العشق والغناء ونحو ذلك ، وجعلوه مما يستعينون به على رياضة أنفسهم وتهذيبها [3] وصلاحها

(١) فى الأصل : بمن يصير مؤمنا . ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) من : زدتها ليستقيم الكلام .

(٣) فى الأصل كأنها : وحدبها . ولعل الصواب ما أثبته .

من هــذا الباب ، فإن هؤلاء فى طريقهم من الشرك والضلال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال ، فإن المتفلسفة قد يعبدون الأوثان والشمس والقمر ونحو ذلك ، فإذا صار أحدهم يروض نفسه بالعشق لعبادة الله وحده ، أو رياضة مطلقة لايعبد فيها غير الله ، كان ذلك خيراً له [١] من أن يعبد غير الله .

وكذلك الاتحادية الذين يجعلون الله هو الوجود المطلق ، أو يقولون : إنه يحلّ فى الصور الجميلة ، متى تاب الرجل منهم من هذا ، وصار يسكّن نفسه بعشق بعض الصور ، وهو لا يعبد إلا الله وحده ، كانت هذه الحال خيرا من تلك الحال .

فهذه الذنوب مع صحة التوحيد ، خير من فساد التوحيد مع عدم هذه الذنوب . ولهذا نجد الناس يفضّلون من كان من الملوك[٢] ونحوهم إنما يظلم نفسه بشرب الخمر والزنا أو الفواحش ويتجنب ظلم الرعيه ، ويتحرى العدل فيهم ، على من كان يتجنب الفواحش والخمر والزنا [٣] وينتصب لظلم الناس فى نفوسهم وأموالهم وأعراضهم .

وهؤلاء الظالمون[٤] قد يجعلون الظلم دينا يتقربون به بجهلهم ، كما أن أولئك الظالمين لأنفسهم قد يجعلون ذلك بجهلهم دينا يتقربون به . فالشيطان قد زيَّن لكثير من هؤلاء وهؤلاء سوء عملهم فرأوه حسنا .

لكنْ كثير من الناس يجمعون بين هذا وهذا ، فإن من عقوبة السيئة

(١) فى الأصل : خير له ، وهو خطأ .

(٢) فى الأصل : من المملوك ، وهو تحريف .

(٣) فى الأصل : والزمر ، وهو تحريف .

(٤) فى الأصل : وهؤلاء وهؤلاء الظالمون ، وهو تحريف .

السيئة بعدها ، ومن ثواب الحسنة الحسنة بعدها . والحسنات والسيئات قد تتلازم[1] ويدعو بعضها إلى بعض . كما فى الصحيح عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه أنه قال : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدُقُ ويتحرّى الصدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقا . وإيَّاكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، والفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال العبد يكذب ويتحرّى الكذب[2] حتى يُكتب عند الله كذَّابا »[3] .

فالصدق مفتاح كل خير ، كما أن الكذب مفتاح كل شر . ولهذا يقولون عن بعض المشايخ إنه قال لبعض من استتابه من أصحابه : أنا لا أوصيك إلا بالصدق . فتأملوا فوجدوا الصدق يدعوه إلى كل خير .

ولهذا فرَّق الله سبحانه بين أهل السعادة وأهل الشقاوة بذلك فقال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ * وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ

ص ١٢٤

---

(١) فى الأصل : يتلازم ، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل : ويتحرى على الكذب ، وهو تحريف .

(٣) الحديث – بألفاظ متقاربة – عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : البخارى ٢٥/٨ (كتاب الأدب ، باب قول الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) ؛ مسلم ٢٠١٣/٤ (كتاب البر ، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله) ؛ سنن الترمذى ٢٢٤/٣ – ٢٢٥ (كتاب البر ، باب ما جاء فى الصدق والكذب) سنن أبى داود ٤٠٧/٤ (كتاب الأدب ، باب التشديد فى الكذب) وأوله : إياكم والكذب . . . وجاء الحديث مع اختلاف فى الألفاظ فى : سنن ابن ماجة ١٨/١ (المقدمة ، باب اجتناب البدع والجدل) ؛ سنن الدارمى ٢٩٩/٢ – ٣٠٠ (كتاب الرقاق ، باب فى الكذب) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢٣١/٥ ، ٢٧٥ ، ٣٤٣ . وفى عدة مواضع فى الجزء السادس منه .

عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٣٢ -٣٥][١].

وترتيب الكبائر ثابت فى الكتاب والسنة ، كما فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : قلت : يارسول أى الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل الله ندًّا وهو خلقك » . قلت :[٢] ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » . قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى بحليلة جارك . وتصديق ذلك فى كتاب الله :﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾[الفرقان : ٦٨] »[٣].

ولهذا قال الفقهاء : أكبر الكبائر الكفر، ثم[٤] قتل النفس بغير حق ، ثم الزنا . لكن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر لا بن مسعود من جنس أعلى فأعلى : الكفر : هو أن تجعل لله ندًّا ، بخلاف الكتابىّ الذى ليس بمشرك ، فإنه دون ذلك . وأعظم القتل ولدك ، وأعظم الزنا [الزنا][٥] بحليلة الجار .

---

(١) الأية ٣٢ فى الأصل محرفة تماما .

(٢) فى الأصل : « قال : قلت » .

(٣) الحديث – بألفاظ متقاربة – عن عبد الله بن مسعود رضى عنه فى : البخارى ٨/٨ (كتاب الأدب ، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه) ، ١٦٤/٨ (كتاب الحدود ، باب إثم الزناة) ، ١٥٢/٩ (كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : فلا تجعلوا لله أندادا) . والحديث فى مواضع أخرى فى البخارى ، وفى : مسلم ٩٠/١ ، ٩١ (كتاب الإيمان ، باب كون الشرك أقبح الذنوب ؛ سنن الترمذى ١٧/٥ – ١٨ (كتاب التفسير ، تفسير سورة الفرقان) ، سنن أبى داود ٣٩٤/٢ (وكتاب الطلاق ، باب فى تعظم الزنا) ؛ سنن النسائى ٨٢/٧ – ٨٣ (كتاب التحرم ، باب ذكر أعظم الذنب) ؛ المسند (ط . المعارف) ٢١٧/٥ ، ٧٦/٦ ، ٨٦ – ٨٧ .

(٤) فى الأصل : وثم ، وهو تحريف .

(٥) الزنا : زدتها ليستقيم الكلام .

وهذا كما ذكرنا أن الظلم ثلاث[١] مراتب : الشرك ، ثم الظلم للخلق ، ثم ظلم النفس . فالقتل من ظلم الخلق . فإذا [كان][٢] قتلا للولد الذى هو بعضه منك كان فيه الظلمان ، والزنا هو من ظلم النفس ، لكن إذا كان بحليلة الجار صار فيه الظلمان أيضا . لكن المغلَّب فى القتل ظلم الغير ، والظلم[٣] فى الزنا ظلم النفس .

ولهذا كان القَوَد حقًّا للآدمى إن شاء استوفاه [٤] وإن شاء عفا عنه ، وكان حد الزنا حدًّا [٥] لله ، ليس لآدمى فيه حق معين ، لكن قد يقترن ببعض أنواع الزنا ، ويقتضى أمورا تضر الناس ، يكون بها أعظم من قتلٍ لا يُضر به [٦] إلا المقتول فقط .

وأيضا فقتل النفس يدخل فيه من التأويل ما ليس يدخل فى الزنا ، فإن حلاله /بيِّن من حرامه ، بخلاف القتل فإن فيه مايظهر تحريمه ، وفيه مايظهر وجوبه أو استحبابه أو حلّه ، وفيه مايشتبه . ولهذا جعل الله فيه شيئا ، ولم يجعل ذلك فى الزنا بقوله : ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ ﴾ الآية [سورة الفرقان : ٦٨] .

ظ ١٢٤

(١) فى الأصل : ثلث.وأمام هذا الموضع كتب فى الهامش : « مطلب » .
(٢) كان : زدتها ليستقيم الكلام .
(٣) فى الأصل : والمظلم ، وهو تحريف .
(٤) فى الأصل : استياه ، وهو خطأ.ولعل الصواب ما أثبته .
(٥) فى الأصل : حد ، وهو خطأ .
(٦) فى الأصل : لايصبر ربه ، وهو تحريف .



فهرس موضوعات الجزء الأول

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة



تم بحمد الله الجزء الأول من كتاب « الاستقامة »
لابن تيمية ، ويليه الجزء الثانى إن شاء الله
وأوله : فصل فى الغَيْرة وأنواعها ، وما فيها من محمود ومذموم .



رقم الإيداع ١٩٩١/٥٣٠٨ م
I.S.B.N : 977 – 256 – 054 – 2

هجر
للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان

المكتب : ٤ ش ترعة الزمر – المهندسين – جيزة
☎ ٣٤٥٢٥٧٩ – فاكس ٣٤٥١٧٥٦
المطبعة : ٢ ، ٦ ش عبد الفتاح الطويل
أرض اللواء – ☎ ٣٤٥٢٩٦٣
ص . ب ٦٣ إمبابة